أحمد عبد العال الزقم

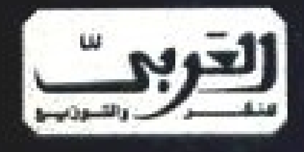
من



إلى

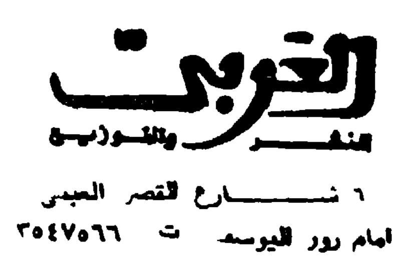
الشيوعية

وحوار مع الجماعات الإسلاميّة



احمد عبد العال الزقم

من الإخوان المسلمين إلى الشيوعية



إهــداء

إلى كل من ساهم فى تكوين مبناى ومعناى ..
إلى والدى ، وأساتذتى ، وأصدقائى ، ورفاق دربى الطويل ..
إلى هؤلاء وأولئك أهدى هذا الكتاب .

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

فوق ذروة العمر قبل الستين ، وخوفا من أن تدهمنى المنية ، وتعصف بالذكريات التى من خلاصتها نسجت معارف ، وأقمت بنيان فكرى ، رأى الكثيرون من أحبابى أن يدفعونى دفعا إلى تسجيل تجاربى مع أشواق الحياة ومتاعبها زاعمين أن فى هذه التجارب والمتاعب بعض الزاد للأبناء وأبناء الأبناء من بعدنا .

ولكننى ترددت تردد المشفق من الوقوع فى أسر الذات ، ذلك لأن أسر الذات يوقع فى الخطأ ، ويجر فى أحيان كثيرة إلى تشويه الحقائق أو تجاهلها . الأمر الذى يضر أكثر مما يفيد .

وظللت تحت تأثير هذا التردد عدة أعوام إلى أن التقيت مؤخرا بصديق لم أنعم برؤيته منذ أكثر من خمسة وثلاثين سنة . عندئذ أذكرنى هذا الصديق بعض ما كنت قد نسيته من الأحداث ذات الدلالة والقيمة . وعجبت منه لأنه ذكر هذه الأحداث بتفاصيلها ومواقعها من الزمان والمكان وكأنها حدثت أمس . أو منذ ساعة !! وهنا وجدتنى أطلب منه تسجيل ذكرياته ما دام يتمتع بهذه الذاكرة الواعية . ووجدت صدى إلحاح زملائى وأحبابى لكى أقوم بنفس العمل الذى أطلبه منه يرن فى أذنى . ومن ثم دخلت فى مقارنة بين ذكرياته وذكرياتى .

إنه واحد من ذوى الطموح الأذكياء . شب معى وشببت معه . أعرف عنه أنه عند الخطوات الأولى من التجارب المضنية تعثرت قدماه ، وخشى أن يستمر مع صبوات الشوق إلى الآمال المتعبة فآثر السلامة والعيش كما يعيش آحاد الناس جدَّ فى تحصيل العلم كأحسن ما يكون الجد ، ثم انهمك فى تحصيل الرزق كأقوى ما يكون الانهماك . تزوج وانجب وربى أبناءه ، ولم يعد لخطوات التجربة القديمة المضنية من أثر عليه سوى الاعتزاز بها كذكرى . مجرد ذكرى !!

أما أنا فقد اندفعت مع الخطوات الأولى من التجارب المضنية إلى خطوات أبعد وأبعد . وظللت أخرج من تجربة لكى أدخل فى تجربة أخرى أشدُّ منها وأحد . واستمر بى الحال على هذا المنوال منذ بواكير الشباب حتى مشارف الشيخوخة ، لم أحصل من نشب الرزق غير ما يقيم الأَوَد وأولادى رغم شيخوختى أطفال :

لكن تنوع الدروب التى سلكتها . وتعدد المعارف التى حصلتها ، وعمق المشاعر التى ارتبطت بها مع الحياة قد جعلت الوصف الذى يؤثرنى به الكثيرون وصف « الغريب » !!

ترى لو أننى سجلت أسباب هذا الوصف هل أكون مغنيا ؟ ثم لو فرض واستجاب صديقى للذى طلبت منه . ألا تكون ذكرياته أخف وألطف عند من يقرؤه ؟ ما للقراء وذكرياتى المتعبة والمرعبة إذا صح هذا التعبير ؟

تساؤلات وتساؤلات كثيرة أخذت تنهال علىَّ وأنا أقارن بين ذكرياتى وذكريات صديقى . وخيل إلىَّ أننى لو استرسلت معها فإنها لن تنتهى إلا بنهاية العمر مهما امتد به الطول !!

وما هى إلا إشارة عابرة بعد ذلك من بعض الأحباب حتى اذن الله لى أن اقدم على الاستجابة للذى ترددت طويلا قبل أن أستجيب له فنحيت تلك التساؤلات عن طريقى بعد أن كادت تحملنى على النكوص عما تهيأتُ للدخول فيه

وهكذا وجدتنى أخوض معمعة التسجيل بعد أن أَجَلْتُ فى خاطرى هذا الحوار . ما لى وما للتهيب والتردد ؟ إن أحبابى لا يريدون منى سوى التعبير عن تجاربى التى مررت بها . ومجرد التعبير كما يقول أهل الفن يجلب الراحة وقد يخفف عنى لوعة المعاناة التى لم تزل تعتصر قلبى . كما أن مجرد التعبير قد ينفع بعض الذين لم ينصقلوا بتجارب الحياة وأهوالها ، فيتسلحون بالحذر قبل أن يقدموا على شىء جديد . ناهيك عن أن التعبير قد يكشف الغطاء عن بعض ما يجب أن يعرف من أسرار الحياة السياسية وبخاصة تلك التى كانت تمارس تحت الأرض فى أعوام الكبت والإرهاب .

وما زالت بى هذه الخواطر حتى وجدتنى وجها لوجه مع صفحات هذا الكتاب الذى يحكى رحلتى مع الأشواق والمتاعب .

ولست أزعم أنه قد سجل كل تفاصيل تلك المرحلة الطويلة ـ على ما لهذا من أهمية قصوى ـ فقد أردت أن أباعد بينه وبين ما ليس يغنى أو يفيد من تلك التفاصيل التى يحسن طيها خوفا من الملل الذى يسببه التكرار

ولقد سلك هذا الكتاب مسلك الفصول التى تقتضيها طبيعته ؛ فالأشواق والمتاعب عادة ما تختلف باختلاف مراحل العمر . ومن ثم فإن المنطقى والمعقول أن تأتى فصول هذا الكتاب مرتبة بترتيب تلك المراحل .

لكن مراحل العمر عندى لم تكن قاصرة على مراحل الطفولة والشباب والكهولة . فتلك فى رأيى هى مراحل التغيرات البيولوجية التى تلازمها تغيرات سيكلوجية وفسيولوجية معينة ومن هنا فإن المراحل التى جاءت عليها فصول الكتاب فى معظمها ـ هى تلك التى اقترنت بالتطورات العامة فى مصر . السياسة وتقلباتها ، والمعارف وتغيراتها ، والأنشطة وممارساتها ، وأثر كل ذلك على شخصى ، وتأثير شخصى فيه

ونظرا لأن كل مرحلة تنبثق من سابقتها ، ويطرأ عليها من التعديل بقدر ما تقتضيه طبيعة النمو أو التدهور فى المرحلة اللاحقة ؛ فإن هذا الكتاب قد جرى على أسلوب الالتفات إلى ما سبق فى كثير من الأحيان . رغبة فى الربط والتأصيل ، وتوضيحا لمنطقية ارتباط الأسباب مع النتائج . كما أنه عمد الى التحدث بضمير الغيبة جريا على عادة أن التاريخ ماض لا يناسبه إلا كان وهو .

ولا اظن إلا أننى الآن قد أوضحت أهم ما أريد تقديمه بين يدى هذا الكتاب

المؤلف

الفصل الأول

أشواق ما قبل البداية

١ ـ ليلة العرس :

هولم يحضرها وإنما حكيت له : ففى قرية من قرى إقليم محافظة البحيرة بمصر . وقبل أن تندلع ثورة الشعب المصرى ضد الإنجليز فى أواخر العقد الثانى من هذا القرن العشرين بوقت قليل ، ومن خلال حفل عائلى متواضع تزوج الشاب المجند من ابنة عمته التى لم يكن يريد أن يتزوج سواها .

ونظرا لأحزان العائلة على وفاة والدة الزوج التى كانت حديثة الوقوع فإن العرس لم يكن شبيها بأعراس الأقران من الشباب والشابات فى ذلك الزمان ، وإنما اقتصر على كتابة وثيقة الزواج . ونقل العروس من بيت أبيها إلى بيت الزوجية فى هدوء ، ومن غير إعلان ولو حتى بالزغاريد .

وهناك فى هذا البيت الجديد قدم على الزوجة زوجها الشاب ، وأخبرها بأنه لن يبقى معها غير تلك الليلة . حيث إنه لأبد أن يكون فى وحدته العسكرية بالقاهرة مساء الغد .. ولما أبدت الزوجة دهشتها لذلك أكد لها أن الأمر ليس بيده ، فهو فى إجازة قصيرة لإنهاء الزفاف ، ولابد أن يرجع إلى معسكره فور انقضاء الإجازة ، وإلا تعرض للحبس والعقاب !!

عندئذ فزعت الزوجة وأعلنت استسلامها لمشيئة تلك الظروف التى لا يمكن التغلب عليها .

وفى صباح اليوم التالى لتلك الليلة التى لم ينعما فيها بما ينعم به الأزواج ، حـزم الزوج متاعـه وذهب إلى القاهرة .. ذهب وكله شوق لكى يعود من جديد ، وبقيت عروسه وكلها شوق إلى عدم فراقه ولو للحظة واحدة .

٢ ـ فرص اللقاء .

وسارت بهما الحياة هكذا منذ أول يوم . يلتقيان أثناء إجازاته المتفرقة لمدة يوم أو يومين على الأكثر . فما تكاد تهدأ أشواقهما حتى تعود للاشتعال من جديد ، وما يكاد يومهما يضحك لهما مع فرصة اللقاء ، حتى يرجع إليه عبوسه القمطير مع انتهاء تلك الفرصة !! وهكذا بدا لهما أن الدنيا تجرى معهما على غير الذى يشتاقان إليه . وصار كل منهما يتحين الفرص التى يمكن أن يلتقيا فيها رغم أنهما زوجان من المفروض أن يظلهما سقف واحد .

وفى يوم ما ذهب الجندى الشاب إلى قيادته ، وألح عليها إلحاحا شديد الضراعة والتوسل طالبا إجازته لمدة أسبوع كامل ، وما زال ينتحل الأسباب والأعذار حتى رق له قلب تلك القيادة فوافقت على منحه ما طلب . وكاد يجن من الفرح ، وبدأ يرسم الصورة لهذه الفرصة الفريدة من فرص اللقاء بزوجه !! إنه لن يراها ليلة واحدة أو ليلتين كما تعود ، وإنما سوف يراها ويعيش معها فى فرح غامر ، ومرح عظيم وسرور ليس بعد له سرور طوال الأسبوع !!

وفى لحظات قليلة كان قد جهز متاعه ، وحمله على كاهله ، وانطلق يعدو فى اتجاه محطة القطار بالقاهرة .. كان يجرى وأحلامه تسبق خطاه .. لقد كان يخشى أن تضيع منه رحلة القطار الأول فيتأخر مرغما إلى موعد القطار التالى . إن معنى ذلك أنه سوف ينتظر ساعتين فى المحطة . ومعناه أن فرصة استمتاعه بأهله وزوجه سوف تقل بنفس المقدار . من أجل ذلك كان يسارع ويسارع ويسارع ..

٣ ـ الرحلة القاسية :

وما إن وصل إلى محطة القطار لاهثا ، حتى تحول إلى شباك التذاكر ، قائلا : تذكرة من فضلك ! وفجأة سمع ما لم يكن يتوقعه : لا تذاكر ! !

- ـ نعم ؟
- ـ لا تذاكر ولا قطارات منذ صباح اليوم .
- ـ لماذا ؟
- ـ لأن الثورة المشتعلة ضد الانجليز ، دفعت الشعب إلى قطع السكك الحديدية فى عديد من الأقاليم بعد اعتقال الزعيم سعد زغلول ورفاقه

بُهت الجندى الشاب . واضطرب أمره .. لكن احتدام شوقه ضاعف من رغبته فى ضرورة التغلب على هذه المفاجأة غير السارة . فقرر ألا يعود الى المعسكر . وأن يمضى فى طريقه إلى قريته مشيا على الأقدام !!

نعم مشيا على الأقدام ؛ فالمسافة لا تزيد عن مائة وخمسين كيلو مترا يستطيع أن يقطعها فى ثلاثة أيام .. ثم يقيم مع زوجته ليلة واحدة إذا لم تستأنف القطارات رحلاتها من جديد . أما إذا استأنفت القطارات رحلاتها فسوف يظفر بالإقامة أكثر من ليلة .

وفى أقل من لمح البصر كان على طريق تلك الرحلة القاسية ، ولحق بجندى مثله له نفس الظروف . ويتجه إلى نفس الإقليم الذى يتجه هو إليه .

حينئذ ذهب بعض همه ، واتخذ من صاحبه رفيقا يؤنس وحشته ويعينه على طول الطريق ومتاعبه . ومضيا يتحادثان ويتشاكيان ، ويعلقان على الثورة ، والزعيم والانجليز والإرهاق الذى عاناه الأهالى طوال سنوات الحرب العالمية الأولى ، وامتد الحديث إلى واجب الجيش وما ينبغى أن يقوم به فى مواجهة الأعداء ، وهكذا إلى أن بلغ مع نهاية الأيام الثلاثة قريته ، ونعم بالراحة بعد تلك الرحلة القاسية عند أهله وزوجه لمدة ليلتين اثنتين .. بعدهما عاد الى القاهرة ، وبلغ وحدته العسكرية متأخرا عن موعده ، ولكنه لم يعاقب نظرا لظروف التعطل الذى فرض على القطارات .

٤ ـ الاغتراب عن مصر :

وشاء الله أن يزيد من إبعاده عن زوجته وأهله ، وكان ذلك بسبب قرار اتخذته السلطات العسكرية ، تحول بمقتضاه إلى « بلوكامين » بحرى يقيم على ظهر « المحروسة السلطانية » بين السماء والماء . وكانت هذه المحروسة السلطانية بحاجة إلى إصلاحات لا يمكن إتمامها إلا فى ميناء انجليزى تتوفر فيه الخبرة الفنية ، وقطع الغيار اللازمة .. وعندما تقرر الأبحار بها من ميناء الاسكندرية إلى انجلترا كان هو ضمن طاقمها العسكرى الذى كلف السفر بها فى رحلة للإصلاح

وما إن أقلعت « المحروسة » من الشاطىء حتى شعر بأن الأمور كلها فى غاية الغرابة . ذلك لأنه لم يركب البحر يوما فى حياته . ولم تصطرع الأمواج من حوله ذلك الاصطراع المخيف الذى يراه الآن !!

وهكذا أخذت تنهشه المخاوف من أهوال هذا البحر التى سمع كثيرا عنها ، وراحت تمر أمام عينيه صورة زوجته التى أخبرها انه سوف يرجع إليها بعد ستة أشهر !! ترى هل يعود إليها فعلا ، أم يحول هذا الهول بينه وبين تلك العودة ؟ !!

تساؤلات كثيرة أخذت تطوف برأسه ، وأصابه الدوار فانكفأ على وجهه ولم يفق إلا فى ميناء « بورت سماوث » !!

إذن فهذه هى « لندن » التى تلوح أضواؤها المتألقة من بعيد !!

٦ - رسائل الأشواق :

وفى صبيحة اليوم التالى كتب أول رسالة لزوجته ، واجتهد أن يكون حديثه عن الأشواق والآمال فى أسلوب غير واضح حتى لا يوقع نفسه فى الحرج ؛ فزوجته العزيزة غير قارئة ، والخطاب سيرسله باسم والدها الذى لا يقرأ أيضا ، وقارىء الخطاب ربما يكون شيخ الكتاب أو إمام المسجد ، أو المأذون . ولابد من مراعاة كل ذلك وهو يعبر عن مشاعره تجاه زوجته ، فلا يجوز له ذكر اسمها صراحة وهو يبعث إليها بتسليماته لكيلا يخجل حياءها أمام من يقرأ الخطاب أو يسمعه ، ومن ثم فإنه اخفى مشاعره وراء عدد من العبارات العامة من مثل : سلامى واشواقى للجميع . العمة المصونة والجوهرة المكنونة ، والأخت العزيزة ربة الصون والعفاف ، وكل من عندكم . أطال الله عمر جميع الأحباب ، وهكذا أطالت إقامته ، وزادت أشواقه ولم يكن وصول الخطابات إليه بالأمر السهل ؛ فهذه البلاد لا يعرف أهلها لغة المصريين التى يكتب بها عنوان كل خطاب يصدر من إحدى القرى المصرية ، وهؤلاء الذين يرسل إليهم خطاباته يتعثرون فى عقبات الأمية التى تجعل من الرد على الخطابات مشكلة المشكلات !! وعلى هذا المنوال سارت حياته شهرا وأكثر من شهر !! ولعبت به الوساوس والظنون ما شاء الله لها أن تلعب ، واستبد به القلق شر أنواع الاستبداد !!

واخيرا ورد إليه أول خطاب كتب عنوانه بالحروف الانجليزية . وكان الذى كتب هذا العنوان هو « معوض افندى » ناظر محطة السكة الحديد طبقا لتعليماته التى أرسلها فى خطاب سابق .. وهكذا غمرته السعادة من جميع جوانبه ، واحس بانه الآن يشم ريح قريته ، ويتنفس العبير الفواح فى أرجائها !! تذكر الأهلين وصورهم ، وسمع وهو يقرأ رنين أصواتهم ، وعذوبة الألحان التى يسمعونها تحت ضوء القمر فى الجرن ، أو على شاطىء الترعة فى ليالى الخريف ..

قرأ الخطاب واستعاد قراءته عدة مرات ، وتوقف كثيرا عند إشارة إلى شوق زوجته إليه ، فمالت نفسه إلى شراء هدية يرسلها أو يحملها إليها عند عودته ، ولكن كيف ؟ إنه الآن فى الميناء ، والميناء بعيد عن المدينة .. وهو لا يعرف من الانجليزية حرفا واحدا .. ومع ذلك فإنه لم يهدأ حتى حصل على تصريح بالنزول إلى المدينة .

٧ - المتاهـة :

يالسعادته الآن : إنه يمشى فى اتجاه قلب « لندن » . ما هذه العمائر الشاهقة ؟ وما هذا النظام الدقيق ؟ !! ، الناس هنا كل فى طريقه ، وهم لا يندفعون إلى ركوب المواصلات العامة مثلما يحدث فى القاهرة . بل يصعدون الى المركبات فى نظام ورفق !! وأثناء هذه التأملات تذكر انه نسى شيئا مهما جدا : فهو لم يلق انتباهه إلى العلامات المميزة لطريقه الذى يسلكه حتى يسهل عليه الرجوع إلى الميناء !!

لقد دلف من شارع إلى ثان فثالث وهو غارق فى تأملاته المبهورة وهو الآن يحاول الاستدلال على معـالم طريقه ، وعليه أن يستدير ليعرف من أين أتى ؟ واستدار بالفعل ومشى فى عكس الاتجاه ولكن هيهات !!

لقد ضل طريقه ، ومشى هائما لا يدرى أين يذهب ، ولا مع من يتكلم ولا كيف يهتدى وتحولت المدينة الكبيرة إلى متاهة كبيرة ، وتحول أهلها فى نظره إلى أشباح مجرد أشباح !! ولما ضاق بنفسه ذرعا أخذ يتصرف تصرفات يائسة :

شعر بالجوع فدخل إلى مطعم أنيق ، وجلس بين نظرات الناس الذين علق بعضهم على طريقة دخوله المتهيبة بكلمات لم يفهمها !! جلس ولم يحفل بشىء حوله ، وتعمد أن يجلس بطريقة شاذة تلفت النظر إليه . خلع حذاءه ، ووضع إحدى قدميه تحت فخذه فوق الكرسى ، وأخذ يتأمل من حوله وهم ينظرون إليه دهشين !!

لقد كان يريد من هؤلاء الذين ينظرون إليه أن يستدعوا أحد رجال الشرطة لكى يقبض عليه ، وهناك فى مقر الشرطة سوف تتخذ الإجراءات التى يترتب عليها الاتصال الرسمى بالميناء لكى يتم تسليمه إلى قيادته .. ولكن ذلك لم يحدث

حضر إليه خادم المطعم وسأله إن كان يطلب شيئا من الطعام ولكنه لم يفهم .. فقدم له القائمة المكتوبة .. لكنه لا يعرف الحروف التى كتبت بها هذه القائمة !! ومع هذا فقد أمسك القائمة وأشار بإصبعه إلى بعض الأصناف المكتوبة كيفما اتفق وحينئذ انصرف الخادم وأحضر له ما أشار إليه بإصبعه : فبدأ يأكل بـطريقته الريفيـة ، والأنظار كلها معلقة عليه !! ثم قام فغسل يديه وهم بالانصراف !!

عندئذ وجد من يحول بينه وبين الخروج حتى يدفع « الحساب » ، وأخذ يكلمه ولكنه لم يفهم !! وبدأ الناس يضحكون من ارتباكه وعدم فهمه ، وأخرجوا له قطعا نقدية من جيوبهم ، ووضعوها مرتبة أمامه على منضة الطعام ، إشارة الى أن عليه أن يدفع ما يساويها .

فهم ذلك ولكنه تغابى عليهم وجمع كل ما وضعوا أمامه من النقود ودسه فى جيبه ! وهنا تعـالت ضحكات الناس ، ولم يغضبوا ولم يقبضوا عليه ، وخاب أمله عندما تركوه ينصرف فى أمان .

خرج إلى الشارع وانتقى مقهى ليشرب الشاى الذى يحبه منذ نشأ فى قريته التى لا يدرى هل يرجع إليها أم لا ؟ وحدث ما حدث فى المطعم منذ قليل !!

لقد تدرب الآن على الوصول إلى غرضه دونما كلام نظر إلى الشاى أمام واحد من رواد المقهى وأشار إليه ، وقال باللغة العربية « شاى »

فهم الخادم وأحضر الشاى ، وبعد أن شرب قام منصرفا بنفس الطريقة السابقة فى المطعم . لكن أحدا لم يعترض طريقه فى هذه المرة ، وشيعته نظرات الدهشة من رواد وصاحب المقهى !! [إجيبشان] تلك هى الكلمة التى رنت فى أذنه وهو يسمع تعليقات من رآه فى المطعم أو المقهى . لم يفهم معناها وقال : اجيبشان اجيبشان . اشتموا ما شئتم لكن المهم أن تقبضوا على وأن تذهبوا بى إلى قسم « البوليس »

تمتم بتلك الكلمات ، ثم نزل إلى الشارع شديد الحيرة . ماذا يصنع ؟ وكيف السبيل إلى الخروج من هذا التيه الذى وقع فيه ؟ إنه لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى السير على غير هدى !! : فلما تعب من المسير صعد مع الصاعدين إلى إحدى المركبات العامة أملا فى أن يستريح من التعب ، ويجد من يرشده إلى التخلص من ورطته ـ لكنه بعد قليل نزل من المركبة !!

وهكذا استمر يستعمل نفس الأسلوب فى قضاء كل حاجاته ، يركب ما شاء من المواصلات ولا يدفع سنتا واحدا . ويدخل إلى بعض المنازل عندما يمسى به الليل لكى ينام فتستقبله الأسرة التى يقع اختياره العشوائى عليها

بكل مظاهر الدهشة والضحك ، ومحاولات التفاهم التى لا تثمر !! وأخيرا يدلونه على مكان ينام فيه

وعندما يصحو مع الصباح من نومه فلا يجد أحدا من أفراد تلك الأسرة يزداد عجبه من هؤلاء الناس . لقد خرجوا جميعا الى أعمالهم ، ولم ينسوا أن عندهم ضيفا فتركوا له الحليب والشاى فى مكان ظاهر أمامه لكى يفطر قبل أن ينزل إلى الشارع من جديد !!

وتكررت حياته على هذا النحو أياما تلو أيام حتى بلغ مجموع تلك الأيام سبعة وعشرين يوما . جرب فيها كل أنواع التعامل الاستفزازى الذى تصور أنه سوف يوقعه فى قبضة البوليس . حتى الملابس كان يدخل ويخلع ويلبس الجديد . ولا يدفع ثمن ما اشتراه ، ثم يخرج غير مقبوض عليه ، ولا يعترض أحد !! ما هذا الشعب الغريب ؟ ! ألا ينفعل عليه أحد فيضربه ؟ ألا يستطيع هو بنفسه أن يتعرف على مكتب الشرطة ؟

راودته فكرة اللجوء إلى دوريات الحراسة والمرور .. ولكنه لم ينجح فى الوصول عن طريقها إلى ما يريد . ذلك لأنه لم يكن يعرف غير كلمة « بليز » التى كان بعدها يرسل حديثه باللغة المصرية المصحوبة ببعض الاشارات غير المفهومة !! وحينئذ كان يتلقى من رجل الشرطة بعض العبارات والكلمات غير المفهومة أيضا .. وبعدها كان يمشى واليأس يملأ صدره

٨ ـ الصدفة السعيدة :

وإنه لفى هذا اليأس القاتل ، وإذا به يركب الترام كما تعود فى كثير من أيام المتاهة وتقوده قدماه الى كرسى شاغر يجلس عليه ، فيرى إلى جواره مواطنا انجليزيا يسدد النظر إليه ويسأله بلغة مصرية مفهومة « إنت مصرى » ؟ لم يصدق أذنيه .. وقال لهذا المواطن الإنجليزى هل تعرف اللغة المصرية ؟ ولشد ما كانت دهشته حين سمع المواطن الانجليزى يخبره بأنه عاش فى مصر أكثر من خمس سنوات . وكانت المدينة التى عاش فيها هى مدينة (طنطا) بلد السيد البدوى ..

عندئذ قص قصته مع هذه المدينة التى ابتلعته منذ ما يقرب من شهر . وكيف جرب كل الوسائل للعودة إلى الميناء الذى غادره فلم يفلح !! ولم يكد يفرغ من قصته حتى نزل به المواطن الانجليزى من الترام ، واستأجر سيارة وركب معه الى الميناء

استغرقت رحلة السيارة قرابة الساعتين ، تحدث فيهما مع هذا « الخواجه » الشهم فى كثير من الأمور ، وتغشته الراحة والهدوء لأنه وجد من يفهم حديثه .

٩ ـ فى داخل الميناء :

دخل معه إلى الميناء هذا « الخواجة » الشهم ، وصعد معه الى ظهر « المحروسة » وتقدم معه إلى غرفة « القومندان » وبكلمات انجليزية سريعة استطاع أن يحيط « القومندان علما بخلاصة ما حدث . وتلقى كلمة شكر رقيقة من « البلوكامين » وانصرف »

وبعد انصراف « الخواجه » توجه « القومندان » باللوم والتقريع إلى هذا « البلوكامين » المجنون الذى ألقى نفسه فى المتاهة من غير أى احتياط ، وأبى إلا أن يسأله . أين كنت ؟ قال كنت تائها فى تلك المدينة الكبيرة !! فسأله مرة أخرى وكيف قضيت كل هذه الأسابيع ؟ فلما سمع منه صورة ما حدث رق له .. وأخذ يحثه على الحذر من

تكرار ذلك مستقبلا ذلك لأن كل العسكريين يعرفون أن تجاوز المدة المصرح بها جريمة يستحق مرتكبها أشد العقاب ''

وبعد المساءلة تخطفه زملاؤه الذين أخبروه أن « القومندان » ، كان على وشك ابلاغ القاهرة بفقده ثم أخذوا يغدقون عليه من عواطفهم ما أشعره بأنهم كانوا كلهم فى قلق بالغ عليه وبدءوا بعد ذلك يمطرونـه بالأسئلة ، ويتضاحكون مما جرى له أثناء غيبته الطويلة ، وكان هو يبادلهم الضحك والمرح ، فلقد كان يشعر فى تلك اللحظة انه عاد إلى وطنه الأم فى مصر !

وفجأة سألهم الم ترد خطابات من الأحباب فى وطننا ، وجاءته الإجابة بأنه قد وردت خطابات كثيرة وليس فيها خطاب له .

حزن لذلك اشد الحزن ، ولم يعد يقوى على مواصلة المرح معهم رغم كـل محاولاتهم التخفيف عنـه بلوم الظروف ، والاغتراب الخ وهنالك ازدحمت نفسه بالاشواق الحارقة إلى ارض مصر ، وأهل مصر ، وجو مصر ، وتراب مصر . وانطلق لسانه يردد :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفســى

عندئذ سأله بعض زملائه عما يعنيه فقال لهم إن هذه المدينة العجيبة التى حضرت منها الليلة مملوءة بالمعانى والمظاهر الجميلة ، وفيها من الأخلاق السامية ما نحن مفتقرون إليه فى بلادنا ، ومع هذا فإن الوطن هو الوطن الذى لا يعدله أى مكان ولو كان جنة الخلد الدائم

١٠ ـ رحلة العودة

ومضت الايام بطيئة متثاقلة حتى أعلن القائد المسئول أمره بالإستعداد للرحيـل إلى الاسكندريـة فى تمام الساعة السادسة من صباح الغد . هنالك ضجت « المحروسة السلطانية » بالتهليل والفرح ، وهنأ الجنود بعضهم البعض ، وباتوا يستعدون ويحزمون أمتعتهم وهداياهم القليلة التى تمكنوا من شرائها

وفى الصباح تهادت بهم السفينة خارجة من الميناء بعد أن تم إصلاحها . وعندما صارت فى عرض البحر متجهة إلى الاسكندرية لم يكن البحر غريبا عليه فى هذه المرة ، ولم يثر فى نفسه الوان الوحشة والرهبة التى أثارها عند الإقلاع من الاسكندرية منذ شهور ، وأخذت الخواطر تنثال عليه فى صورة خيالات سعيدة تمنى أن يـرى عليها اصابة ، وخاصة زوجته ، وتزاحمت فى تصوره المرائى الجميلة التى تخيلها ، ومن بينها مرأى هذه الزوجة التى توقع أن تكون أكثر جمالا مما رآها منذ شهور ، لقد بدت له الآن حاملا لجنين جميل يزيد من نضارتها ، وبهاء حسنها ، وخيل إليه انه عندما يصل سوف يجد نفسه مسئولا عن أعباء وتكاليف لا يعرف كيف يقوم بها .. وعندئذٍ استبعد التفكير والخواطر المنثالة عليه فى هذا الجانب ، وادار دفة أحلامه إلى وديان أخرى

١١ ـ همـوم الزوجـة :

وعلى الجانب الآخر من البحر كانت زوجته التى أضناها البعد تنفرد بنفسها طيلة أيام غيبته وتبكى،فهى الآن وحيدة وكأنها لم تتزوج !! وزاد فى سوء الحال هذا النزاع الذى دب بين والد روجها ووالدها لقد انعكس أثر هذا النزاع عليها فتركت بيت الزوجية ورجعت إلى بيت أبيها . رجعت لتعيش مع هموم التفكير فى البعيد الذى لا تستطيع

أن تعرف عنه شيئا . ولا يستطيع هو أن يقدم لها أى شيء !! صحيح أن والدها ووالدتها وأشقاءها كلهم يحاولون إغراقها فى بحار من العواطف الحلوة . ولكنها مع ذلك لا تكاد تشعر بالدفء المنبعث من هذه العواطف ، إنها على العكس تفسر تلك العواطف على أنها محاولات للتعويض لكن الغائب لا يمكن تعويضه !! وظلت الأيام تمضى بها وهى مثقلة بالهموم والتفكير والبكاء

وكثيرا ما كانت تندب حظها عندما ترى صويحباتها ممن تزوجن معها تظهر عليهن أعراض الحمل ، وينعمن بفرحة الإثمار التى تنتظرها كل أنثى ، بينما هى لا تزال على حالتها التى كانت عليها قبل أن تتزوج !!

١٢ ـ فرحة اللقاء :

وصل « البلوكامين » بحرى فى إجازة مدتها أسبوعان كاملان .. وصل ومعه من الهدايا مايسر القلب ، وصل بعد أن سبقته الزغاريد المنبئة بقدومه من مشارف القرية .. وصل الى بيت عمته لا إلى بيت أبيه ، فقد أخبرته من زغردت له بمقر زوجته الجديد . وهناك فرح به الأهل والزوجة فرحتهم الغامرة والتفوا من حوله يستمعون إليه ، وإلى حكاياته عن البحر ، والمحروسة ، ولندن ، وأهل لندن وما فعلوه معه . وكان طوال إجازته فرحا سعيدا مؤنسا لكل من يلقاه ، شأن المشوق إذا التقى بمن يحب غير أنه وبالرغم من ذلك كان يخفى بداخله خيبة الأمل التى أصابته عندما رأى زوجته على غير الصورة التى حلم بها وهو فى عرض البحر . فهى لم تزل كما تركها ، ولم تظهر على صورتها أعراض الحمل الذى يبشر بالولد .

١٣ ـ البحث عن العلاج :

ولم تطل به الأيام فى القرية ، فقد قضى إجازته ، وعاد إلى معسكره بالاسكندرية مهموما بأمر زوجته التى تعيش فى بيت أبيها والتى لم يمن الله عليها بما من به على قريناتها اللواتى تزوجن معها ، وكان قد بقى له من فترة الخدمة العسكرية بضعة أشهر قضاها فى التردد بين المحروسة الرابضة فى الميناء ، والزيارات المتكررة مع زوجته إلى عيادات الأطباء ، وأضرحة الأولياء ، وبيوت المشعوذين والأدعياء . وكثيرا ما تعاطى مع زوجته مر العقاقير ، وقدما النذور والقرابين ، وابتهلا الى الله أن يعطيهما ما يشتاقان إليه من خلف صالح ونسل مأمول .

وظل هذا هو حاله حتى بعد تسريحه من الجيش . حيث عاد إلى قريته ، ووفقه الله إلى امتلاك بيت مستقل بها ، وأخذ يدير حياته على نحو يوفر لهما هو وزوجته سبل العيش الكريم ، ويجعل منه حمى لزوجته ، وندا لأقرانه من أهل القرية ، فاحترف بعض أنواع التجارة التى وفرت له الرزق الحلال . لكنه مع كل ذلك لم يكن يغفل عن متابعة البحث عن العلاج ، فقد كان يؤلمه التفكير فى أنه لم ينجب ، كما كان يؤلمه رؤية الدموع فى عينى زوجته من غير سبب مفهوم !!

وزوجته هى الأخرى كانت تود لو باعت نصف عمرها لكى يرزقها الله بولد . وكانت رؤية الأطفال الصغار تثير فيها نوعا من الحنين الجارف إلى الإنجاب . ولشد ما كانت تجرحها تلك الكلمات الحمقاء من بعض النساء اللواتى يلمزنها بأنها عاقر كلما نشب بينها وبين إحداهن أى خلاف

١٤ ـ تحقق الأمـل

وأخيرا وبعد سبع سنوات كاملة من تاريخ الزواج ـ ظهرت اعراض الحمل إثر معالجة طبية موفقة . فتعاظمت الاشواق ، وتركزت المشاعر فى هذا الحلم الجميل الذى طال انتظار تحقيقه . وسيطر على الأسرة جو من التفاؤل والقلق فى نفس الوقت . وكثير ما توترت النفوس لأن الزوجة اجهدت نفسها فى عمل من الأعمال المنزلية الطارئة . وكثيرا ما فرض الزوج على نفسه القيام عنها ببعض الاعباء رغبة فى راحتها ، ومحافظة على سلامة الجنين الذى سوف يقبل من عالم الغيب

وظلت الاشواق لهذا الوليد المنتظر تتصاعد ، وتتصاعد حتى جاء المخاض . والمخاض فى القرية آنذاك كان امرا مثيرا للاشفاق .. فليست هناك غير قابلة جاهلة تمارس أعمال التوليد بالوراثة عمن سبقنها فى هذه المهنة وعندما احست الأم بالام الوضع جاءت القابلة وبرفقتها عدد من النساء القرويات .

وازدحمت بهن الغرفة الريفية الصغيرة ، وتعالى صراخ الأم ، وتوالت الابتهالات الى الله تعالى . وذكرت الكثيرات أسماء السيد البدوى ، وأم هاشم وغيرهما من اولياء الله الصالحين .. وقرئت الفاتحة عشرات المرات

واستمرت عملية الولادة عدة ساعات من آخريات النهار وأوائل الليل إلى أن استهل الوليد

□ □

الفصل الثانى :

مولد العاصفة

١ ـ لحظات الميلاد :

كان الفصل الزمنى أنذاك فصل الصيف ، وكان الشهر شهر يونيو ، وحصاد القمح فى أجران القرية يتم درسه ، والفلاحون يستروحون من حر النهار اللافح بنسائم المساء المنعشة ، غير أبهين لصرخات الأم التى تنهشها آلام الوضع المبرحة .

وفجأة تلبدت السماء بالغيوم ، وقعقعت الرعود ملء الأفق ، وتلاحقت البروق المتوهجة تخطف الأبصار ، ثم انهمر المطر غزيرا غزارة لم تشهدها مصر منذ عشرات السنين ؛ وتحول المطر الى برد كبير الحجم وبدا كأن الله سبحانه وتعالى يرجم الأرض بالحجارة . وأعولت الحيوانات والبهائم والأطفال والنساء والشيوخ .. وصارت هذه الساعة كأنها ساعة الهول العظيم ..

وفى هذه اللحظات الرهيبة العجيبة تلقت القابلة طلفة الوليد الجديد ، وكان استهلاله بالبكاء يطغى عليه قصف الرعود . وهلع الناس الذين توشك أكواخهم المبنية باللبن أن تنهار عليهم .

ومع كل ذلك فقد اندفعت الى قلب الأم فرحته الكبرى وشعرت بالاطمئنان والرضا ، كما اندفعت إلى قلب الأب أيضا فرحته الغامرة التى ملأته بالحماس ، فحمل فأسا وصعد الى سطح بيته لكى يجرف ركام البرد الذى رجمت به السماء كل أرض القرية ـ نعم فقد كان يخشى أن ينهار هذا البيت أو جزء منه فوق هذا الوليد الضعيف !!

لقد كان شوق الأب والأم وجميع من فى القرية أن يقول الله : **ياسماء اقلعى** مثلما حدث يوم الطوفان . وكما هى العادة فى مثل هذه الشدائد ، تعالت الدعوات الضارعة إلى السماء أن يتوقف المطر ، وأن يرحم الله الجميع من هذا الهول الكبير .

٢ ـ توقف المطر !

وكأنها استجابت السماء لهذه الدعوات الضارعة فأقلع المطر . وهلع الفلاحون يخوضون فى الوحل إلى أجرانهم ومحاصيلهم التى حاق بها التلف ، ولشد ما فجعوا عندما رأوا أن أكثر محاصيلهم قد انجرف مع سيول الماء إلى مهاوى الأرض ، بينما غاص المتبقى منها فى طين التربة التى تخمرت من طول ما ابتلعت من الماء .

واكتشف أهل القرية فى غمرة تلك الكارثة ضياع الكثير من مخزون المئونة ، وهلاك العديد من الطيور وصغار السوائم . كما اكتشفوا أن بعض الآدميين قد صعقوا وهم عائدون من حقولهم أثناء هذه الساعات الشديدة .

وباتت القرية فى تلك الليلة تطلب من الله التعويض ، وترجو منه التخفيف من بلواها . لكن كل ذلك لم يضعف تيار البهجة التى حلت بأسرة الوليد ـ فقد نشط الجميع إلى معالجة حال الأم ، وتسوية مهد مريح لطفلها ، وفى وقت

قصير جد، تم إعداد اللفائف والأغطية اللازمة كما تم إعداد العدة تحسبا لعودة المطر من جديد وبدا كأن هذا الوليد قد بث في نفوس من حوله شعورا متزايدا بالأمل الذى هو أقوى من كل آلام الحياة

٣ ـ القيد فى دفتر المواليد

واصبح الأب متلهفا إلى إعلان هذا الحدث الضخم إلى كل الدنيا ، كما يشتاق إلى أن يناديه الناس منذ اليوم باسم وليده فيقولون له يا أبا فلان .. وبالطبع فان ذلك لن يحدث إلا بعد تسمية المولود وقيده فى دفتر المواليد كيف ؟! ودفتر المواليد فى دوار العمدة . ودوار العمدة فى الطرف الأقصى من القرية والطريق مملوء بالوحل !! وبعد طول تردد وجد نفسه يمتطى ركوبة ويمضى الى دوار العمدة وهناك التقى بعامل التليفون جالسا بين عدد من الأصدقاء ، وبعد أن رحب به الجميع سأله أحدهم عن الذى جاء به هذا الجو المليء بآثار المطر فصاح مبتهجا جئت لكى أقيد اسم وليدى فى دفتر المواليد ونزل من فوق ركوبته وجلس بين فرحة الحاضرين وتهانيهم ريثما تحقق الغرض الذى جاء من أجله . ثم انصرف مصحوبا بالدعوات المتصاعدة ان يبارك الله هذا الوليد

٤ ـ الحفل السعيد :

وبعد أسبوع واحد كانت أرض القرية قد عادت إلى جفافها السابق بعد أن تشربت الماء الذى أغرقها كطوفان نوح وجاء موعد الحفل التقليدى الذى تحرص عليه كل الأسر التى يرزقها الله بوليد جديد

حينئذ استحضرت الأسرة بعض الأزهار والشموع والبقول . واصطنعت من كل ذلك بعض مظاهر الزينة ثم وسعت على نفسها فأولت وليمة متواضعة حضرها الأقربون والأصدقاء وغنى البنات والنساء عددا من الأغنيات المحفوظة وأنشد المنشدون بعض التواشيح الدينية بين روائح البخور الذى كان يتصاعد دخانه من عديد من المباخر . وباتت القرية كلها تسعد بالبهجة حتى أذن للفجر ، فانصرف الجميع إلى أعمالهم وصلواتهم بعد تقديم التهانى بالمولود الذى يرجون له السعادة

٥ ـ تعويضات الخسائر

ومع التألق الساطع للشمس فى صباح اليوم التالى لهذا الحفل السعيد ، بدأ صوت عالٍ يتناهى إلى مسامع أهل القرية : ويقول : يا أهل البلد بشرى لكم جميعا مندوب الحكومة فى دوار العمدة لصرف التعويضات عن خسائر المطر .. كل واحد يروح يصرف تعويضه . ثم يكرر ثانيا : يا أهل البلد ....

سمع الناس هذه التنبيه المبهور ، وأخذوا يتوافدون على دوار العمدة . وهناك وجدوا من ينادى أسماء أهل القرية ويقرن نداءه بذكر حصة التعويضات الممنوحة هكذا ـ فلان الفلانى نصف أردب قمح !! فلان الفلانى . ١٠ كيلات قمح ... ويتوجه من سمع اسمه الى حجرة عامل التليفون ليتسلم ورقة صغيرة يتوجه بها إلى مكان بنك التسليف ليصرف التعويض الممنوح له

ومع أن هذا التعويض كان قليلا جدا إلا أن الناس سعدوا به ، وشعروا بالامتنان والرضا ، حتى أسرة المولود نالها من هذه التعويضات ما تستحقه وقرن الجميع بين حفل الليلة الماضية وبين التعويضات ، وتفاءلوا خيرا بهذا المولود رغم أن لحظة ميلاده كانت لحظة الزوابع والأعاصير !!

٦ ـ خشونة المهد :

كانت الأم من هؤلاء الريفيات اللواتى ليس لديهن خدم ، وكانت هى وزوجها ووليدها هم كيان الأسرة ـ وكان عليها وحدها أن ترعى شئون الجميع بكل الدأب والحدب ، وكثيرا ما كانت تثقلها واجباتها نحو الجميع فتنشغل عن واجباتها نحو الوليد فتتركه يصرخ من جوعه فى مهده غير المريح إلى أن تفرغ من شواغلها !!

وكان والد الطفل يعود فى بعض الأحيان إلى البيت فيرى تلك الصورة المؤلمة له . وعندئذٍ كان ينشب بينه وبين الأم نوع من الشجار الحاد الذى ينتهى غالبا إلى الخصام وتدخل الأهل والجيران . ودائما كان الوالد يأمر زوجته بعدم إيثار أى واجب على واجبات هذا الوليد الذى ملأ عليهما الحياة بالأمل والسعادة .. ودائما كانت الأم تتعهد بتنفيذ هذا الأمر وتقسم أنها سوف تترك كل أعمالها فور سماعها لصوت الوليد لكى تحمله وتهدهده ، وتزيل عنه أسباب البكاء !!

غير أن الوالد لم يكن يكفيه ذلك فكان يحمل هو الوليد بين يديه . ويمضى به إلى المصلى أو المسجد ، وكأنه يريد أن يدربه منذ طفولته على ارتياد أماكن العبادة للانغماس فى بركتها طيلة أيام الحياة .

٧ ـ العادة الشاذة

ولم يكن للطفل من شوق فى تلك المرحلة من عمره سوى أن يلتقم ثدى أمه كلما أحس بالجوع . وكان يعبر عن هذا الشوق بالصراخ المتوالى : فإذا لم تستجب الأم لرغبته سارعت جدته إلى دس كميات من القشرة أو الزبد فى فمه لكى تسكت جوعه ..

لكنه فى كثير من الأحيان لم تكن تسعفه الجدة أو الأم .. وحينئذ يتلهى بوضع إبهامه بين شفتيه ـ ولحظ جميع من حوله أنه نشأت بينه وبين عادة امتصاص أصبعه ألفة شديدة ، فحاولوا الحيلولة بينه وبينها . وأعدوا كيسا من القماش أدخلوا فيه هذا الإصبع المألوف وشدوا عليه حتى يقضوا على هذه العادة الشاذة .

٨ ـ الحزن والموت

عندئذ أحس الطفل بالألم ، وحزن لذلك أشد الحزن . حتى اعتراه السقم وهزل جسمه النحيل يوما بعد يوم ، وشعرت الأم والأب بالأسى المروع ، وتوسلا بالطب الرسمى والشعبى لعلاجه ولكن هيهات !! لقد ازداد ذبوله ، وقلت حركته وغارت عيناه .. وأخيرا خمدت أنفاسه !!

كانت جدته وأمه وعدد من الجارات يجلس حوله ، وعندما شهدن نهايته فزعن إلى الصراخ والولولة والنحيب !! وعرف الأب الذى كان يجلس فى مدخل البيت حقيقة الفاجعة فانخلع قلبه . وأخذ يصيح كالمجنون ! عوضى عليك يارب .. !! وما لبث الأقرباء والجيران أن التفوا من حوله وأخذوا يواسونه لكى يخففوا الألم عنه !! وهكذا اختلط النحيب بالمواساة بالصراخ بالألم . واختلط الداخلون إلى البيت بالخارجين منه ، والكل يطلب العوض من الله تعالى ، ويدعو للأم والأب بجميل الصبر على هذا المصاب الأليم !!

٩ - البعث الجديد

كان الوقت ليلا . وكانت حدة العويل قد بلغت كل اهل القرية تقريبا ، ودخلت إلى البيت فيمن دخلت سيدة وقور ذات تجربة وإيمان وقصدت مباشرة إلى فراش الطفل المسجى والمعقود اللثام ومدت السيدة يدها إلى جسد الطفل تتحسسه . وإذا هي تصرخ في جدته وتقول الولد حي يا جماعة - صلوا على النبي واذكروا الله - كيف لم تعرفي ذلك أيتها الجدة المؤمنة !!؟

سرت هذه الكلمات من أسماع الحاضرين والحاضرات إلى أجسادهم فسكنوا وحل عليهم الصمت والترقب وتمنى كل منهم أن يكون هذا الذى قالته تلك السيدة حقيقة يمكن التأكد منها .

عندئذٍ نقضوا اللثام المعقود ، ونزعوا الكيس المخيط فوق الإصبع .. وإذا الذى قالته هذه السيدة حقيقة واقعة لا يمكن الشك فيها !!

ها هو ذا الطفل الميت يحرك يده ، ويضع إصبعه في فمه كما تعود في الأيام الخوالي : وها هما عيناه اللتان كانت مغمضين منذ لحظات تنتفضان بالحركة والنظر إلى ما حوله ومن حوله من الناس !! وها هم الناس ينصرفون حامدين الله وشاكرين رحمته التى بعثت الهالك بعد الموت ..

وظل هذا الحدث بكل ملابساته موضوع الأحاديث في جميع منازل القرية وحقولها وحواريها لأيام وليال طوال فالصدفة وحدها التى ساقت السيدة الوقور في لحظة الموت ، ولولاها لدفن الطفل في أعماق التراب رغم أن قلبه كان ينبض بالحياة

١٠ - درس وعبرة :

منذ تلك الواقعة لم يحاول احد من اسرة الطفل الاعتراض على عاداته ، خوفا من تكرار الذى حدث ، أو حدوث شىء يشبهه .

ومنذ تلك الواقعة أيضا أخذ الطفل يمضى إلى ما يشتاق إليه وبالكيفية التى تروق له

ومنذ تلك الواقعة والسيدة التى كانت سببا في انقاذ حياته تطلق عليه لقب « الدرويش » .

وهكذا صار يمضى إلى أشواقه غير عابىء بأى اعتراض .. فكأنه بتلك الموتة التى مرت عليه يقول للمحيطين به : إياكم ومحاولة منعى من شىء أشتاق إليه ، فإننى لن أرجع عن شىء أردته خضوعا لقهر القاهرين ، أو تحكم المتحكمين وأنا على استعداد كامل لدفع حياتى كلها ثمنا لحماية إرادتى ومهما يكن مكانى من الضعف أو ذل الهوان .

١١ - الموتة الثانية :

ونما الطفل كما ينمو جميع الأطفال ، فصار يحبو ويحاكى الكبار فيما ينطقون به من كلمات ، وأدرك أن من حوله بدءوا يعجبون به . ويضاحكونه ويشجعونه كلما ضحك في وجوههم ببعض الهدايا والنقود ، واستطاع هو أن يربط بين طلبهم الضحك منه ، وبين هذه التشجيعات ، فأخذ يمكر بهم ويأبى أن يضحك إلا إذا أعطوه المنح مقدما .

ومن الغريب أنه وهو في هذه السن يتعرض للموت مرة أخرى . ذلك أن أمه قد اصطحبته معها ذات مرة إلى شاطىء الترعة لكى تغسل القمح كما تفعل القرويات من أمثالها . وهناك بجوار المورد المرصوف بالحجارة جلست

تغسل القمح . وتركت الطفل قريبا منها ثم انهمكت فى عملها غافلة عن ملاحظته لبعض الوقت . فلما أفاقت من غفلتها نظرت إلى مكانه فلم تجده وكادت تزهق أنفاسها لولا أنها رأته فى قلب الترعة يعلو ويهبط مع التيار المتدفق للماء فى وقت فيضان النيل !! عندئذ صرخت صرخة مفزعة وألقت بنفسها فى الماء حيث اختطفته وصعدت به إلى الشاطىء . وكان بطنه قد امتلأ وعيناه مغمضتان ؛ كشأن الموتى بالفعل . ولم تدر الأم ماذا تصنع فواصلت الولولة والصراخ إلى أن حضر بعض الفلاحين ، فسارعوا باختطاف الطفل ورفعوا رجليه إلى أعلى تاركين رأسه مدلاة وقريبة من سطح الأرض ، فانحدر الماء من جوفه ، وبعد ذلك انفتحت عيناه .. وهكذا أنجاه الله للمرة الثانية من الموت المحقق .

١٢ ـ الحصانة

لم ير الطفل نفسه وهو يموت موتته الأولى على الفراش فى دار أبيه . وهو لا يذكر موتته الثانية بالغرق فى ترعة القرية ذلك لأنه لم يكن فى كلتا المرتين أهلا للإدراك الذى هو أساس التمييز والتذكر . لكن أمر هذه الحدثين الخطيرين لم يستمر خارج نطاق عقله لمدى طويل فبعد أن شب واستقام عوده ، وتكاثر إخوته من بعده بدأ يسمع ويعى

كان كل من حوله يتحدثون عن هذين الحدثين . ويتفاءلون له بالعمر الطويل ـ وكثيرا ما كانوا يؤكدون هذا التفاؤل عندما تلم به وعكة أو مرض

لقد كانوا بالركون إلى ما مضى متأكدين من نجاته مهما تكن الملمة التى تلم به .. وكانوا يرددون دائما « عمر الشقى بقى » وبالفعل كانت تتم نجاته . ولا يلبث أن يملأ الدنيا من حوله حركة ونشاطا . ومعاكسة لإخوته الذين زحموا عليه قلوب من حوله وبخاصة الأبوين العطوفين

وهكذا زرع من حوله فى نفسه أنه محصن ضد عوادى الزمن .. وأصبح موقنا بأن ما يقوله الكبار عن حصانته أمر صحيح

١٣ ـ معاناة التأديب :

ولما شب ولم يعد ذلك الطفل المدلل الذى يغتفر له ما عساه أن يرتكب من الأخطاء . صار الحساب والتأديب من نصيبه كلما ارتكب خطأ فى حق إخوته أو أقرانه . وكثيرا ما كان الحساب والتأديب يتمان باستخدام « العصا »

وأراد والده استغلال ملكاته ونشاطه فى شىء يفيده ، وبخاصة بعدما تكاملت له أداة الكلام فعمد الى محاولة تعليمه فى منزل الأسرة عن طريق تلقينه ..

وهكذا اقترن تأديبه بمحاسبته على الخطأ فيما يتعلم عن أبيه .. ومن خلال هذه العملية تم له حفظ فاتحة الكتاب وسورة الإخلاص ، وغيرهما من قصار السور ..

لكن والده استشعر أنه لن ينجح فى تعليم ولده أو تأديبه إلا إذا استعان بمعلم . فهو عندما دخل معه فى تجربة تلقينه سورة قريش لحظ أنه حين وصل إلى قوله تعالى « فليعبدوا رب هذا البيت الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خَوْف » رددها الطفل هكذا « وآمنهم من « خروف » فأعادها عليه « خَوْف » ورددها الطفل مرة أخرى كما نطقها فى البداية « خروف » ووجد نفسه بعد عدد من المرات يضربه . وما زال يضربه إلى أن استقام نطقه لهذه الكلمة بعد عناء طويل

عندئذ فطن الأب إلى خطر تصديه لتعليم ابنه أو تأديبه

الفصل الثالث :

معاناة التعلم

١ ـ مكتب الشيخ بهنسى

اطمأنت نفس الأب إلى قدرة ابنه على الاستيعاب ، وصح منه العزم أن يكل أمره لشيخ المكتب ـ وحينئذ أسلمه إلى عمه الذى ذهب به إلى هذا الشيخ لكى يتولاه بالرعاية .

وكان هذا المكتب مكانا فسيحا فى مدخل منزل الشيخ الريفى الطيب ، وكان الفراش الذى يغطى أرض هذا المكان قش الحلفاء ، وبعض الحصير القديم . وكان كل من فى هذا المكتب كبارا فى السن ، وليس بينهم من هو فى عمر التلميذ الجديد أو يقاربه .

وفى صدر هذا المكان كان يجلس شيخ كبير العمامة طويل اللحية ، ذو هيبة وقور ، وكانت فى يد هذا الشيخ سبحة كهرمانية بلون العقيق ، تنتهى بطرف من الأهداب الحريرية الخضراء . وكان رأس الشيخ ينحنى على صدره من كثرة الأعباء التى حملها على كاهله طوال عمره المديد .

لقد كان هو الشيخ الذى رآه التلميذ من قبل خطيبا للجمعة فى المسجد . بل إنه هو هو الشيخ الذى يسمونه « المأذون » والذى رآه يوم عرس خاله .

وانشغل التلميذ عن هذا الخاطر الذى فى رأسه . باهتمام الجميع بالشيخ يوم عرس خاله .. لقد استقبله الحاضرون بالترحاب ، وودعوه حاملا للعديد من الهدايا .. إنه كان يمشى متوكئا على عصا ذات مقبض دائرى مبطان بقطعة من النحاس اللامع .. ترى أين هى تلك العصا ؟

ولم يلبث التلميذ أن رأى العصا مسندة إلى الحائط بجوار الشيخ فظن أنها تستعمل لتأديب أولاد الكتاب ، وكاد ينخلع قلبه من الخوف ، لولا أن رأى الشيخ يستقبله فى لطف وتودد ولين ..

وسأل الشيخ عمه الذى أحضره هل قرأ عند أحد من قبل ؟ وكانت الإجابة لا . فسأل التلميذ عن اسمه ، ثم أدناه منه وأجلسه إلى جواره قليلا من الوقت ريثما يشرب فنجانا من القهوة .

وبعد أن شرب الشيخ قهوته ، واعتدل فى مجلسه صاح بالعريف ، فحضر فورا العريف

ـ نعم يا سيدنا :

ـ هذا تلميذ جديد لم تسبق له القراءة عند غيرنا . وقد جاء به والده إلينا لشدة ثقته فينا ويجب أن نهتم به . سامع ؟

ـ سامع يا سيدنا

ـ توكل على الله

تناول العريف يد التلميذ الصغير وانتحى به إلى مكان قصى وأجلسه . هنالك نظر الصبى فلم يجد غير أجساد كثيرة تتحرك فى اهتزازات مرتعشة . وتخرج عنها أصوات عالية غير منتظمة ، والعريف فى يده سوط من الجلد يحركه فى اتجاه هؤلاء فيزداد حماسهم وتعظم حركاتهم وتعلو أصواتهم ثم يحركه فى اتجاه أولئك فتهدأ نبراتهم وتسكن حركاتهم وهكذا !

بعد قليل عاد العريف إلى الصبى الجالس فى المكان القصى وقال له : قل مثلما أقول : فامتثل الصبى ورد وراءه : بسم الله الرحمن الرحيم ـ قل هو الله أحد . الله الصمد لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ـ ولحظ العريف أن الصبى لا ينتظره لكى يردد وراءه وإنما يسبقه . فأدرك أنه قد حفظ السورة . وذهب به إلى الشيخ قائلا : أبشر يا سيدنا لقد حفظ الصبى أول سورة . فأمر الشيخ الصبى فقرأ السورة صحيحة مجودة ..

عندئذ تناول الشيخ قطعة من السكر ومنحها للصبى داعيا له بالفتوح والبركة . ورجع الصبى إلى منزل أسرته فرحا متهللا .. وحكى كل ما حدث له اليوم لأبيه فشجعه على الاستمرار فى الحفظ الجيد حتى ينال رضا الشيخ وبركته .

٢ ـ الزيارة المفاجئة

وفجأة قدم إلى المنزل زائر غريب لم تقع عليه عينا الصبى من قبل كان شابا نظيف العمامة والثياب ، حليق اللحية والشارب

اهتم به والد الصبى عندما قدم عليه فأكثر من الترحيب ثم أجلسه مكانه فى صدر الغرفة . وطلب من الصبى إحضار القهوة حالا .. ثم أخذ يحكى للزائر قصته مع الصبى . وقصة الصبى مع مكتب الشيخ بهنسى الذى ذهب إليه اليوم . وما اختزنته ذاكرته عن هذا المكتب ومن فيه ، وبخاصة تلك العصا الغليظة التى رآها مسندة إلى الحائط بجوار الشيخ . وذلك السوط الأسود الذى رآه فى يد العريف يكثر التلويح به .

كان الصبى عند باب الغرفة يستمع إلى الحديث الدائر بين والده والزائر ، وكانت تتخلل هذ الحديث بعض الضحكات والتعليقات التى لم يذكر منها سوى عبارة « طبعا شىء جديد عليه »

طرق باب الغرفة فى أدب ثم دخل يحمل القهوة إلى الضيف الزائر الذى بادره بقوله : أهلا بالتلميذ النبيه ثم أخذ يتلطف إليه ، ويحادثه فى حضور والده عما حفظ ويحفظ من القرآن وغير القرآن حتى استبان له أن هذا الصبى يتمتع بذاكرة لاقطة .. لقد حفظ عن والده ، وعمه ، وخاله .. وكان من بين ما سمعه الزائر الضيف من الصبى بعض المواويل التى كان يرددها خاله فى ساعات العمل بالحقل ..

القطن قال للتابوت أصل العطش منك
نَشَفْت عودى ويكفانى بقى ظَنُّك
لو كنت من النجار لازم أجيب مسمار
وف عضمك الكسلان براس قدومى ارنك

علق الزائر الضيف على هذا الذى سمع بأنه شىء رائع ويبشر بالخير ، ثم طلب المزيد من محفوظات الصبى ، فلما تبين له أنه يحفظ الكثير من الأشعار العامية التى كانت تنعقد عليها مجالس الفلاحين حول المصابيح الغازية فى كل مساء ، حيث ينشدهم أحد شعرائهم قصائد الحرب فى سيرة الهلالية ، أو سيف ابن ذى يزيد ، أو عنتر بن شداد ـ عندئذ ازداد عجبه من كثرة محفوظ الصبى بالرغم من صغر سنه ـ ونصح لوالده بأن تستمر فى مكتب تحفيظ القرآن حتى يبدأ العام الدراسى الجديد وعندها سوف تتخذ الإجراءات لإلحاقه بالمدرسة الأولية فى القرية المجاورة .

٣ ـ مكتب الشيخ رضوان :

قال الوالد لزائره الضيف ، لكن الشهور الباقية على العام الدراسى الجديد ما تزال طويلة ، ولو أننا استفدنا بها فى تعليمه بعض مبادىء الكتابة والقراءة ألا يكون أفضل من استمراره فى حفظ المغيبات ؟

قال الزائر الضيف : لا بأس .

وكان قرار الوالد بإدخال الصبى إلى مكتب جديد يتعلم فيه الصبية مبادىء القراءة والكتابة . ذلك لأن الكتاتيب فى ذلك العهد كانت كثيرة ومتعددة المهام . فهذا مكتب يبدأ فيه المبتدئون من بداية البداية ، وذلك مكتب يتعلم فيه المنتهون خواتيم النهاية .. وبداية البداية كانت حروف الهجاء . ونهاية النهاية كانت تجويد القرآن الكريم ومعرفة أحكام تلاوته .

وأصبح صباح اليوم التالى لتلك الزيارة المفاجئة ، وإذا الصبى فى يد والده يسيران فى اتجاه غير اتجاه الأمس ـ كانا يسيران فى الشارع الدائرى حول القرية حتى بلغا المكتب الجديد . إنه حجرة مبنية بالطوب اللبن ، يرتفع سطحها عن سطح الشارع الذى يوصل إليها ، والجرن الفسيح الممتد أمامها .

وفى داخل هذه الحجرة أطفال تقارب أعمارهم عمر الصبى القادم مع أبيه ، ومع الكثيرين منهم ألواح خشبية بيضاء ، أو كتب ذات ورق أصفر . والجميع يقرءون فى هدوء .

وعندما قدم الصبى ووالده سكت الجميع . وبرز من الداخل شاب أسمر البشرة فى يده عصا من الخيرزان الرفيع .. سلم على والد الصبى ، ومد له الفراء الذى كان يجلس عليه .. ثم تلقى الصبى وأجلسه بين قرنائه .. وبسرعة تفاهم مع الوالد على كل شىء ثم استأنف عمله فى جدية ونشاط .

جاء الشيخ رضوان ـ وهو ذلك الشاب الأسمر بلوح خشبى أبيض جديد . وقال للصبى هذا لك ، وسأكتب اسمك عليه ـ وعليك أن تحضر ثمنه غدا من أبيك . خمسة قروش .. فاهم !! خمسة قروش .. ثم قدم له قلما من أقلام الرصاص ، وكراسة جديدة .. وكتب له فى صدر صفحتها الأولى الحروف الأربعة الأولى من أبجدية الكتاب وأمره أن يقرأها كما قرأها .. ألفٌ . باءٌ .. تاءٌ ثاءٌ . ثم أمره أن يكتبها عشر مرات فى صدر الصفحة تحت النموذج المكتوب .

أمسك الصبى بالقلم لأول مرة فى حياته . بعد أن علمه الشيخ كيف يمسك به ، ثم أمره أن يخط .. ولم يبال الشيخ بأن الخطوط جاءت فى أول الأمر مرتعشة ، وليس بينها وبين النموذج أى شبه ـ ودخل الصبى فى معمعة التحدى لهذا العبء الثقيل .. وكلما عدَّل له الشيخ وأمره بتكرار الكتابة امتثل ـ وبعد عشر مرات أمره بأن يكتبها عشر مرات أخرى على الصفحة المقابلة ، وفى النهاية أمره أن يكتبها على سبورة الكتاب . فكتبها من الذاكرة ..

فرح به الشيخ وشجعه ، ثم كرر طلب استحضار ثمن القلم والدفتر وكتاب مبادىء القراءة الأولية غدا .

ورجع من كتاب الشيخ رضوان ، فتلقته أمه فرحة به . وسألته ماذا قرأت ؟ قال لم أقرأ ولكننى كتبت ـ

ـ ماذا كتبت ؟

ـ كتبت ألف باء تاء ثاء .

ـ وما رأيك فى كتاب اليوم ؟

ـ أحسن

وطلب طعامه فأكل ثم انصرف لا يلوى على شىء إلا اللعب والمرح مع الأقران واللدات .

وهكذا مرت الشهور تلو الشهور وهو يمضى إلى هذا المكتب عند طلوع الشمس ، بل وقبل طلوع الشمس فى كثير من الأحيان . وكان لا يعود من المكتب إلا بعد أذان العصر فى معظم الأيام .

وفى شهور معدودة كان قد تمكن من الإلمام بمبادىء القراءة والكتابة وعلمه الشيخ أن يقرأ أسماء الله الحسنى ويحفظها ففعل . ثم أمره أن يقرأ دلائل الخيرات ويحفظ قدرا منها ففعل أيضا ورأى الشيخ أن يحصل على أجر كل هذا فأخذ يكثر من زيارة الأسرة .. ولم تكن الاسرة بخيلة ولا شحيحة مع هذا الشيخ النشيط .. ومن أجل ذلك كان الشيخ يضاعف نشاطه لكى يتقدم التلميذ أكثر فأكثر .

٤ - فى المدرسة الأولية

وعندما جاء أول العام الدراسى الجديد ، حقق الزائر الضيف وعده ، فقد كان واحدا من علماء الأزهر الذين لم يجدوا مكانا يعملون فيه غير التعليم الأولى ، وبحكم مستواه العلمى فقد كان يملك التأثير على مجريات الأمور بالمدرسة الأولية التى يعمل فيها ، ومن ثم توسط لدى الناظر الذى تجاوز عن صغر سن التلميذ وأدخله ساحة المدرسة .

ما أبعد الفرق بين المدرسة وبين الكتاب .. هكذا تحدثت نفس التلميذ إليه .. إن الأولاد هنا يقفون فى صفوف منتظمة فيما يعرف بطابور الصباح . ويهتفون لحياة الوطن والملك ، ويمر عليهم ناظر المدرسة لكى يفتش على أظفارهم وشعورهم وهندامهم ونظافتهم !! كما أن بالمدرسة ناقوسا يعلن بدء اليوم المدرسى وانتهاءه . وبدء الحصص المتتالية وانتهاءها . وهنا يعلم فريق من المعلمين المطربشين والمعمَّمين . ولهم حجرة مستقلة تجاور حجرة « الأستاذ الناظر » والدراسة هنا فى فصول وفرق .. الخ . كل ذلك تحدثت به نفس التلميذ وهو يدخل المدرسة الأولية ، ويضطرب مع ابنائها فى اليوم الأول . وكانت دهشته كبيرة عندما رأى التلاميذ يجلسون على مقاعد خشبية نظيفة .

جلس التلميذ فى الفصل . وكان أول درس أعلنته سبورة الفصل « دين » وتملكه نوع من الزهو عندما استطاع أن يقرأ كلمة [دين] فكل تلاميذ الفصل لم يكن أحد منهم قادما من كتاب الشيخ رضوان .

وتملكه الزهو مرة أخرى عندما قرأ عبارة « فرائض الوضوء » وبدأ المدرس شرح الدرس فتسمرت عليه عينا التلميذ وأذناه

صور المدرس صندوق الطباشير على أنه « صنبورة الماء » ثم انطلق يعطى الصورة العملية للوضوء ، من غسل لليدين ثلاث مرات إلى المضمضة فالاستنشاق وهكذا حتى غسل الرجلين إلى الكعبين

بعد ذلك طلب من التلاميذ من يستطيع محاكاته فى الذى فعله وهنا قام التلميذ الجديد وصنع صنيع المعلم تماما لم يخطىء فى حركة أو ينسى خطوة من خطوات درس الوضوء .. وعندئذ أمر المعلم التلاميذ بالتصفيق له . ثم أعطاه جائزة جميلة « قلما من أقلام الرصاص أحمر اللون » ظل التلميذ محتفظا به لسنوات طوال .

٥ - بداية المتاعب :

كانت المدرسة تبعد عن قرية التلميذ الصغير بأكثر من كيلو متر ، وكان هذا التلميذ أصغر التلاميذ حجما وسنا ، بحيث كان يحمله بعض التلاميذ الكبار على أكتافهم فى رحلتى الذهاب والعودة ، فإذا جاء يوم مطير حملته مطية خاصة يقودها بعض أهله .

وكان والد التلميذ شديد الإعزاز له ، فأصر على أن يلبسه معطفا طويلا سابغا يغطى كل جسمه حتى نهاية القدمين : كما أصر على أن يضع فوق رأسه طربوشا زاهى اللون !! ولم يكن من بين كل تلاميذ المدرسة من يلبس مثل تلك الملابس . فقد كان قصارى ما يصلون إليه جلابيبهم المخططة ، وطواقى رءوسهم المختلفة الألوان .

ومن هنا كان شذوذ ملابس التلميذ الصغير مع ضآلة حجمه وصغر سنه . يحرض التلاميذ الكبار على معاكسته ..

وفى أحد الأيام زادت هذه المعاكسات عن الحد المقبول : فبينما هو عائد معهم من المدرسة على الطريق الترابى الموصل للقرية ، عبث أحد التلاميذ بانتزاع طربوشه من فوق رأسه . ثم أخذ يقذفه كالكرة إلى الآخرين الذين كانوا يتلقفونه فى فرح وعنطة وهم يتضاحكون .

وبكى التلميذ المسكين الذى لا يقوى على الدفاع عن نفسه ، وانزوى إلى جوار شجرة كانت على الطريق حتى يجد له مخرجا من هذه الورطة التى لا يدرى ماذا يصنع معها .

وأخيرا رق قلب واحد من هؤلاء الصبية العابثين فأحضر إليه طربوشه ، وكف عنه اذاهم ، ومضى يرافقه طوال الطريق حتى أوصله إلى منزله فى القرية .

دخل المنزل وعليه أمارات العبث به : فالطربوش ضاعت استدارته ، وأهدابه التى تسمى « الزِّر » وعلى خديه أثار الدموع ، ومعطفه ممزق من أحد الكمين !!

وتلقته أمه بالهلع ، فبكى أمرَّ البكاء !! وعندما سألته عما حدث أخبرها بأن الأولاد ضربوه !!

عندئذ طيبت الأم خاطره بكلمات طيبة ، وكفكفت دموعه ، وقدمت له الطعام . وبدأت الأسئلة تنهال عليه ، وبخاصة بعد أن حضر والده ، وتملكه الغضب الشديد من أجل ما تعرض له ولده من إهانة وسخرية !! وكانت الأسئلة كلها فى اتجاه واحد . من الذى نزع الطربوش من فوق رأسك ؟ من الذى ضربك ؟ حاول أن تتذكر

وكان المسكين فى الواقع لا يعرف شيئا يجيب به عن تلك الأسئلة التى كانت أكبر من إدراكاته التى لم تستطع تحديد بداية أو نهاية لتلك الأحداث التى وقعت له . إنه لا يذكر شخصا محددا يستطيع أن يرشد إليه .. ومع ذلك فإنه تحت تأثير الخوف البالغ من أبيه ذكر أول اسم خطر على باله من أبناء الحارة . وكادت تحدث مشاجرة كبرى لولا حكمة العقلاء الذين واجهوا المتهم بالمعتدى عليه فلم يقو الأخير على الاستمرار فى ادعاءاته .. واتضح أنه ضحية لمجهول

٦ ـ عود إلى المكتب :

اضطر والده أمام عجزه عن حماية نفسه أن يعيده إلى مكتب الشيخ « رضوان » من جديد وإذن فإنه الآن فى المكتب الذى غادره منذ ثلاثة شهور .. عاد إليه حتى يكبر ويستطيع الذهاب إلى المدرسة الأولية من غير خوف . وهذا هو شيخ الكتاب يهتم به لأنه كان غير سعيد بذهابه إلى المدرسة .

وبدأ التلميذ يكتب بالقلم المصنوع من « القصب » وبالحبر المعد يدويا من « صناج » المشاعل ، والموضوع فى محبرة فوق قطعة من القماش تسمى « الليقة » وكان ما يكتبه على اللوح الخشبى الأبيض كل يوم قدرا من القرآن الكريم .. يكتبه ليصحح تلاوته أولا ، ثم ليحفظه ثانيا ، ثم ليمحوه بعد ذلك لكى يكتب غيره .

وفى إحدى المرات كانت المحبرة فى وضع غير مستقر على أرضية « الكتاب » وكان هو يكتب غير منتبه إلى ذلك فاهتزت المحبرة ومالت على ملابسه فلوثتها بالحبر .. عندئذ لم يتمالك شيخ الكتاب نفسه وانهال عليه ضربا بعصاه الخيزرانية الموجعة .. !!

وعاد التلميذ إلى منزله فى هذا اليوم كاسف النفس محزونا ، لم يطلب الطعام كما تعود عند عودته فى كل يوم ، ولم يملأ المنزل بصخبه المعهود كلما رجع سعيد القلب جذلان .. ولمحت عين الأم فى محياه آثار البكاء فانكفأت عليه تسأله عما حدث وهو لا يجيب ، وأخيرا فتشت جسده وشاهدت عليه آثار ضرب مبرح وقع عليه . فهرعت إلى جدته

وجده وانباتهما بالأمر !!

فانطلق جده اليه يستعلم عمن ضربه ، وما زال به يلح عليه ويحايله حتى أفضى إليه بحقيقة ما حدث !! عندئذ وثب الجد يعدو إلى منزل العمدة ومعه التلميذ ، وهناك قدم شكواه ووضح الدليل الملموس جريمة شيخ الكتاب الذي لا يرحم ..

ولما حضر شيخ الكتاب وسئل لم ينكر الذى حدث .. وقال إن من حقه تاديب تلاميذه فى أى وقت ، وعلى أية صورة !! فاشتد بالجد الغضب ، واهتاج خاطره ، وتهدد الشيخ بالويل والبثور وعظائم الأمور .

وما زال عمدة القرية والحاضرون فى مجلسه يناقشون الجد والشيخ حتى هدأت النفوس ، واصطلح الخصمان على أن يعود التلميذ إلى المكتب منذ الغد ـ وهكذا عاد التلميذ إلى مكتب الشيخ رضوان ، ومكث به عاما طويلا . حفظ فيه ثلاثة أجزاء من القرآن الكريم ، وعانى فيه من كثرة المطالب التى كان يثقله بها الشيخ دون غيره من التلاميذ : فقد كان الشيخ من غير أهل القرية ، هاجر إليها واحترف مهنة تحفيظ القرآن ـ ولم تكن له أسرة ولا زوجة ترعاه .. وكان دائما يطلب ما يريده لنفسه من هذا التلميذ الصغير الذى كان يحرص على تلبية ما يطلب مهما كلفه ذلك من عناء . وأثناء كل ذلك كان يحن حنينا جارفا إلى المدرسة التى حرم منها .

٧ ـ مع المدرسة من جديد :

عاد إلى المدرسة الأولية ، وقد استطاع أن يذهب على قدميه من غير أحد يعينه على الذهاب . عاد ليجد نفسه أقوى من أقرانه الذين لم يذهبوا إلى المكاتب مثله . عاد ليجد نفسه فى الصف الثانى ، وليكون تحصيله فى مستوى من الجودة يحسده الآخرون عليه ـ عاد مزودا من والده وجده بأن يدافع عن نفسه إذا حاول أى واحد من الأولاد أن يعبث به

وشيئا فشيئا نما فيه الميل إلى العنف فى رد العدوان ليس عن نفسه فقط ، وإنما عن غيره من الأقارب أو الزملاء . فإذا كان فى المدرسة واعتدى أحد على آخر فإنه يسارع للانحياز إلى جانب المعتدى عليه . وبخاصة إذا كان من تلامذة فصله . وهو عندما يخرج من المدرسة يفعل نفس الشيء ولا يبالى أبدا بالعواقب ، وكثيرا ما كانت الشكاوى ترد إلى والده من الآخرين فيكون حظه العقاب المؤلم . وكثيرا ما كانت المدرسة ترد إليها شكاوى مماثلة فيكون حظه العقاب المؤلم كذلك . ولكنه رغم كل ذلك لم يكن يحيد من مسلكه المنحاز إلى جانب المعتدى عليهم .

وهكذا استحال مع مرور الأيام إلى زعيم صغير ، يقف مع المظلومين الصغار بمستويات مختلفة . وتأصلت فيه هذه الصفة حتى أصبحت العلامة البارزة مع شخصيته . ولولا أنه كان فى واجباته المدرسية على مستوى يشفع له فى كثير من المواقف المحرجة لكان له شأن آخر غير شأنه الذى صار إليه .

رآه يوما جده لأمه عند عودته من السوق ، وكان أمامه خمسة من الأولاد يسوقهم بعصا طويلة ويجرون أمامه ، فنزل الجد عن ركوبته واحتضنه ثم ذهب به إلى جدته وطلب منها أن تذبح له « ديكا » مكافأة له على شجاعته . وبينما هو جالس يستعد لأكل هذا « الديك » أقبل من يشكو من تلاميذ المدرسة التى يتعلم فيها . وأراد والده معاقبته ولكنه تراجع لأنه قد تلقى اليوم شهادة أعماله الدالة على مهارته فى المدرسة !!

ووقف ناظر المدرسة يوما ليعلن أسماء الفائزين فى المسابقة ويسلمهم الجوائز وكان هذا التلميذ أسبقهم فى صفه .. وبعد تصفيق الحاضرين ، وتهانيهم بساعتين اثنتين .. جاء من يشكو من أولياء أمور التلاميذ بعض متاعبه التى يسببها لأبنائهم وهم عائدون من المدرسة .. وبعد تحقيق سريع عفا ناظر المدرسة عنه وصالحه على زملائه .

لقد كان يعرف أنه لا يعتدى ولكنه يبغض المعتدين ، وكان لا يفرق بين أن يكون الاعتداء عليه أو على أحد

آخر وكان يرى أن من لا ينصر المعتدى عليه نذل جبان !! وكان كلما ذكر واقعة « الطربوش » والولد الشهم الوحيد الذى وقف إلى جواره فى ساعة المحنة يود من أعماقه أن يقف إلى جانب من يتعرضون للمحن ، ويمنى نفسه بالأمل العريض فى ذلك عندما يكبر ويصبح فى عداد الرجال

٨ ـ صوره من العطـف :

والعجيب أنه إلى جانب الحدة فى رد العدوان ، كان عطوفا معوانا ، شديد الحدب والرفق بكل من يستحقهما حتى ولو كان عابر سبيل .. ما رأى أعمى أو صاحب عاهة إلا وتفطر قلبه عليه ، وحاول أن يقدم له من المساعدات ما يستطيع ! وما وقعت على أذنه كلمة استجداء من محتاج إلا واهتاجت مشاعره وسالت على خديه الدموع . رأى مرة عددا من عجائز الجيران يجتمعن حول فُتاتٍ جمعنه ، وألقين به فوق نار ليطبخ . ولكى يستسغنه وضعن عليه قدرا من الملح ، وجلسن ينتظرن آذان المغرب فقد كن صائمات ، وهذه هى وجبة الافطار التى تيسرت لهن حَيْث كن فقيرات وعاجزات ، وليس لديهن حول ولا حيلة !! عندئذٍ انتابه الفزع ، وولى شطر منزل أسرته يبكى ..

سألته أمه ماذا دهاه ، ولماذا هو يبكى يا ترى ؟ قال : يا أماه : ذهبت لأدعو « محمدا » لكى نلعب سويا ، فأبصرت جدته ، وأمه ، وعمة أبيه وهن يأكلن « فتاتا » محترقا مطبوخا بالماء والملح .. وعرفت أنهن كن صائمات وليس لديهن طعام !!

وكانت أمه على شاكلة أمها ، ورثت عنها الإشفاق على الضعفاء والرحمة الفائقة لأساهم ؛ فلما سمعت مقالته بكت هى الأخرى ، وقامت من فورها فحملت إلى هؤلاء العجائز ما أمكنها حملة من اللبن والزبد والجبن الرغفان . ثم عادت إليه فوجدته راضى النفس ، منشرح الصدر لهذا الصنيع . عند ذلك دعت له بالخير والبركة ، وتضرعت إلى الله تعالى أن يبقيه على هذا الدرب الصالح الرحيم .. ولم تنس أن تزوده ببعض ما تعلمه عن قدامى الصالحين من المسلمين السابقين . وأن تروى له بعض القصص والحكايا التى حفظتها عن الشيوخ الذين كانوا يترددون على منزل أسرتها ويقرءون لأمها بعض المأثورات والصلوات والأدعية .

ولم تنس أيضا أن تشيد بموقفه العطوف عند والده وأعمامه وأخواله وكل الكبار من أقربائه . وكأنها كانت تريد تثبته على جادة العطف والإنسانية ، وتنمية هذه الروح الطيبة فيه . وبالفعل تم لها ما أرادته ، وشب وشبت معه عواطفه الجياشة حيال كل التعساء والبائسين . ففى مرة أخرى وكان فى طريقة إلى المدرسة ، حيث الوحل ، والطين ، والبرد ، وتساقط الندى قبل إشراقة الشمس بوقت قصير . وكان وقع قدمه المثقلتين بالطين العالق بالحذاء لا يكاد يسمع . جاءه صوت من يسار الطريق يقول : « **يا عم يالل ماش !! الله يخليك إنا وبنتى جعانين ادينا حاجة ناكلها** »

لم يكن هو ممن يقال لهم « يا عم » فالتفت فلم ير أحدا غيره .. وعرف أنه المقصود بهذا النداء الضارع الواهن .. ونظر إلى مصدر الصوت فرأى امرأة عمياء مرتجفة من شدة البرد . وبين يديها طفلة تحتضنها، وتـرخى عليها غطاء رأسها لتحميها من البرد .. وعندئذ انهمرت دموعه الصامته وأفرغ فى كفيها طعامه الذى زودته به أمه لكى يعيش عليه حتى يعود من المدرسة .. وولى تجاه مدرسته ، وهو محزون .

٩ ـ الشخصية المزدوجـة :

بفضل أمه وجدته ترعرعت فى قلبه بذرة الحب الرقيق للناس . وبفضل ما كانت عليـه حفاوة الأب والجـد والأعمام والأخوال بالفروسيـة والفرسـان من أبطال قصص الحـروب الشعبية ، نشـأت فى نفسه ميـول الأنفة

والكبرياء ، وكراهية الضيم .

ومن هنا سارت حياته محكومة بهذين الحدين اللذين برزا فى جميع تصرفاته . يراه الناس ثائرا فلا يتصورون انه سيهدأ ابدا !! ثم يبصرونه بعد ذلك رقيق القلب فياض المشاعر شديد البكاء من أجل محن الآخرين وأرزائهم ؛ فلا يكاد دون يعتقدون قدرته على المواجهة العنيفة لأى أمر من الأمور

وكانت تنعكس عليه تلك الازدواجية فى شخصيته عند كل يوم ، حتى فى شئونه العادية . فهو فىالمدرسة الأولية عند أول النهار قارىء كاتب ، ممارس للنشاط الرياضى وغيره من الأنشطة . حتى إذا حان موعد العودة من المدرسة انطلق إلى ربوع وازقة القرية يأكل ويشرب ويحفظ الدروس ، ويلعب ويتشاجر . فاذا هبط المساء دلف إلى حلقة من حلقات القصص التى تشوقه وتطربه مواقف فرسانها

لم يكن يعرف شيئا عن المستقبل ، أو ما ينبغى أن يكون له منه فيه . إنه يذهب إلى المدرسة لمجرد أن والده قد كلفه ذلك . وهو يحرص على أن يؤدى واجباته المدرسية حتى لا يقال عنه إنه بليد .. وهو الآن فى الصف الرابع الذى سوف تنتهى به رحلة المدرسة الأولية .. حيث لا يعلوه صف آخر .

١٠ ـ كتاب الشيخ ناصر :

وفجأة طلب إليه والده أن ينام الليلة مبكرا ، لأنه من الغد سوف يذهب إلى كتّاب الشيخ المبارك الذى علمه القرآن .

اهتم التلميذ لهذه المفاجأة غير المتوقعة ، وسأل والده بلهفة هل تريد ان احفظ القرآن مثلك يا أبى ؟

قال والده : لا . انت تحفظ القرآن وتذهب إلى الأزهر لتتعلم العلم وتصير عالما إن شاء الله .

لم يفهم التلميذ شيئا مما قاله أبوه سوى أن هناك أمرا عظيما يريده الوالد له . أما ما هو هذا الشىء بالضبط وما هو هذا « الأزهر » ؟ وما معنى تصير عالما ؟ كل ذلك وما إليه مما أوحت به عبارة والده كان شيئا بعيدا عن متناول إدراكه !!

وفى صباح الغد وجد نفسه مع والده فى طريق القرية يتجه مساره فى نفس اتجاه الطريق الذاهب إلى المدرسه الأولية ولكنه كان موازيا له .. وظلا يسيران حتى دخلا ازقة القرية التى بها الكتاب الجديد .. ومن زقاق إلى زقاق إلى منزل عادى من منازل القرية انتهى إليه الزقاق الأخير .

طرق الوالد باب المنزل فجاء صوت أمرأة من الداخل من ؟ رد الوالد أنا فلان .. أين الشيخ ؟

ودون أن يتردد صوت المرأة مرة أخرى تم فتح الباب الخارجى للمنزل . ودخل الوالد وابنه عبر سرداب طويل إلى غرفة الشيخ الذى كان يجلس فى عباءته السابغة ، وعمامته الوقورة . وما إن شعر الشيخ بوقع أقدام القادمين عليه حتى قام وسلم ورحب ؟ فقد كان يعرف تلاميذه مهما بعدت بهم الأيام .

وبعد مناقشة قصيرة تم الاتفاق بين الشيخ والوالد على أن يقوم الأول بتحفيظ الابن كل سور القرآن الكريم مقابل عشرة جنيهات مصرية يدفعها الوالد اقساطا متساوية كل قسط يحل دفعه عند بداية مرحلة جديدة من مراحل التحفيظ ، ولم يقم الوالد من مجلسه حتى دفع القسط الأول .. وبعد ذلك انصرف الى حال سبيله .

أمر الشيخ المهيب باستدعاء من يصحب التلميذ إلى المكان الذى يحفظ فيه أقرانه واكتشف التلميذ ان هذا الكتّاب ليس كغيره من الكتاتيب التى عرفها ذلك لأن عهده بالكتاب ان يكون دهليزا أو حجرة يتكدس فيها الأولاد من مختلف الأعمار لكى يقرءوا

أما هذا الكتّاب فإنه منزل طويل عريض مملوء بالحجرات المنفصلة والمرصوصة فى دورين ـ حتى لكأنه مدرسة ذات فصول متعددة .. واكتشف وهو فى طريقه إلى حجرته أن فى بعض الحجرات رجالا كبارا شابت رءوسهم .. وفى البعض الآخر رجالا دون هؤلاء فى العمر .. ووجد هؤلاء وأولئك فى حلقتين تتوسط كلا منهما امرأة عجوز كفيفة البصر !!

لم يفهم شيئا فى أول الأمر حتى وصل إلى حجرة بها خمسة من الأولاد تقوم على تعليمهم إحدى زوجات الشيخ .. فقد كان للشيخ عدد من الزوجات الحافظات للقرآن الكريم وكن كفيفات . كما كانت له زوجة مبصرة صحيحة قوية البدن . هى التى تقوم على خدمة الجميع ، الشيخ الكفيف وزوجاته الأخريات وأولادها وأولادهن !!

عرف هذه الحقيقة فيما بعد اليوم الأول لمجيئه إلى الكتاب ، وعرف إلى جوار هذه الحقيقة أن شيخه الوقور لديه فى كتابه كثيرون من البالغين والصبيان والنساء والبنات .. يقصده الجميع من أقصى أطراف البحيرة لشهرته العالية فى تحفيظ القرآن الكريم ، وتجويد تلاوته ، بل إن العديد ممن حفظوا عنده فتح الله عليهم ، ودخلوا الأزهر الشريف ، وصاروا من أكابر العلماء فيه

والمهم أنه فى يومه الأول جلس إلى شيخته مجلس التلميذ الراغب فى التعلم والحفظ .. ودفعت إليه بلوح خشبى قديم ، ومصحف بلى غلافُه ، وأمرته أن يكتب الآيات الأولى من سورة البقرة فامتثل للأمر .. وبعد أن فرغ من الكتابة أمرته أن يقرأ الذى كتب ، فقرأ وتعثر فيما قرأ . وأخطأ نطق كثير من الكلمات فصححت له قراءته حتى إذا اطمأنت إلى استقامة لسانه مع التلاوة دعته إلى الحفظ فانصاع لدعائها عن غير أى توان .

وكان ديدن الشيخة معه عدم التهاون فى أى لحن أو خطأ ، لدرجة أنها كانت تكرر الكلمة الواحدة بالنطق الصائب عشر مرات ..

حفظ التلميذ ما كتب حفظا جيدا .. وكان مقداره ثنتى عشرة آية بالكمال والتمام .. وأعلن شيختَه بذلك فلم تصدقه ، وطلبت تأكيد الحفظ قائلة : ثبتْ الذى حفظته حتى لا تنساه .. وبعد مدة استمعت إلى حفظه فسرَّها وقالت له : بارك الله فيك . ثم طلبت منه إحضار ثمن اللوح الخشبى والمصحف من والده فى صباح الغد .

وبدافع الفضول بدأ يتقصى أحوال هذا الكتّاب العجيب .. إن أبناءه ينقسمون إلى مستويات ، ولكل مستوى مكان خاص به . فالمبتدئون هم هؤلاء الخمسة الذين يجلسون معه حول شيخته ، والمتوسطون هم هؤلاء السبعة الذين يجلسون فى المكان المواجه لمكانه .. لقد حفظوا ما يقرب من ثلث القرآن . وشيخته هى التى تشرف على تحفيظهم أيضا ، أما الذين قاربوا نهاية الحفظ للقرآن الكريم فهؤلاء لهم مكان ثالث تشرف عليه الشيخة الثانية .. بينما الراغبون فى دراسة أحكام التجويد لهم مكان رابع يشرف عليه الشيخ بنفسه .

لكن هذا الكتاب ـ لأمر ما ـ كان يثير فى نفس التلميذ الجديد شيئا من الرعب بعد أن سمع من بعض التلاميذ إن الشيخ يحتفظ فى دولاب كتبه بكرباجين طويلين للتأديب .. سواء فى ذلك تأديب أولاد الكتاب ، أو نساء الشيخ اللواتى كن يُعْرَفْن لدى التلاميذ بالأمهات !!

شهد التلميذ فى اليوم الأول واحدا يجرى عليه التأديب ، وكان ذنبه أنه لم يحفظ « اللوح » أى القدر الذى كان عليه أن يحفظه من آيات القرآن الكريم .

ياللمنظر الرهيب !! شابان قويان يضعان قدمى تلميذ صغير فى « الفلقة » ويشدان عليهما بحبل متين حتى لا يستطيع تحريكهما .. والحكم الذى أصدره الشيخ ويقوم بتنفيذه عشرون « كرباجا » تجلد بها قدماه !! وكان الشيخ الكفيف هو الذى يقوم بالجلد بنفسه . مبالغة فى الإيلام كان يطلب من التلميذ العد الرتيب للجلدات [واحد ـ اثنين ـ ثلاثة] فإذا أخطأ فى العد أمره الشيخ باستئناف العد من حيث بدأ ـ وهكذا تحول العشرون كرباجا إلى أكثر من الثلاثين

بعد إتمام الجلد طرح التلميذ المجلود عل الارض ، وكانت الدماء تسيل من إحدى قدميه ثم جره الشابان المعاونان للشيخ فى عملية الجلد ، والقيا به خارج الحجرة ليزحف على ركبتيه ويديه إلى الحجرة التى يحفظ فيها !!

شهد صاحبنا هذا المشهد فتملكه الرعب ، وخشى أن يحدث له مثل هذا فى يوم من الأيام ، فانتوى الحرص على اداء واجبه أولا لكى ينأى بنفسه عن الوقوع فى قبضة هذا الشيخ الشديد

١١ ـ رفاق الطريق :

مرت الشهور تلو الشهور وهو يصحو مع الفجر كل صباح ليخرج من منزله قبل شروق الشمس ماضيا إلى الكتاب فى تلك القرية المجاورة لقريته . وكان الطريق الممتد بين الحقول ، والذى يسلكه كل يوم فى الذهاب وفى العودة يشهده وقد رافقه رفيقان كفيفان ـ أحدهما فى سن يقاربه سنه ، والاخرى امرأة كبيرة لم تتزوج . وكانت تتعيش من قراءة القرآن فى منازل اهل القرية ، ولكنها كانت تريد دراسة احكام التجويد فى كُتّاب ذلك الشيخ المشهود

كان تلميذنا يقود هذين الرفيقين من القرية إلى الكُتّاب عند أول النهار ، وكان ايضا يقودهما من الكُتّاب إلى القرية عند آخر النهار .. اما فيما بين هذين الطرفين فإنه كان فى مكانه من الكُتّاب بعيدا عن كل منهما ..

وكانت الصورة التى يسير عليها هؤلاء الرفاق الثلاثة غاية فى الطرافة فالطريق الذى يسيـرون عليه كـان ضيقا .. ومن ثم كان كل يضع يده فوق كتف من يسبقه فى الخطو ، على أن الأسبق دائما كان هذا التلميذ الصغير الذى كان يهتم بإبعادهما عن الاصطدام بما يشغل الطريق من اغراض او ماشية او مزالق . وما يزال بهما حتى يصل إلى القرية ، فيذهب مع كل منهما إلى داره لكى يبلغ مأمنه . قبل أن يعود هو إلى بيت أسرته

لقد كان يعرف أن عينيه أمانة يجب استخدامها فى معاونة المكفوفين ، وكان يشعر بالراحة التامة وهو يقدم بهذا الواجب الإنسانى فى كل يوم ، بيد أنه وبالرغم من هذا الشعور الطيب ، لم يكن كل تصرفه مع هذين الرفيقين محمودا لديه ...ففى كثير من الأحيان كانت تروقه المعابثات الصبيانية التى تغضب أيا منهما .. ومع ذلك فإنه كان سريع الفيئة إليهما .. يطيب الخاطر ، ويهدهد الألم ، ويطلب ممن عبث به منحه الغفران ، وما يزال به حتى ينسيه بحسن العشرة ألم الإساءة !!

١٢ ـ محنة لا تنسى :

وظل الحال على هذا المنوال حتى اقبل عيد الأضحى المبارك ، فمنح أولاد الكتاب إجازة مدتها أربعة أيام كاملة .. وفى صبيحة يوم العيد ، وبعد أن عاد والده من صلاة العيد ، وزيارة المقابـر ، أخذ مجلسـه بين بعض أصفيائه فى دكان على رأس الحارة التى بها منزل أسرته .. وكان التلميذ قد علم بذلك فذهب إلى والده طلبا للعيدية

ساله ابوه فى رفق ، وكم تريد ؟

قال الابن : « رُبع ريال »

قال الوالد : سأعطيك نصف ريال بشرط ان يختبرك عمك الشيخ بهنسى فى محفوظك من القرآن الكريم .. وكان الشيخ بهنسى أحد الجالسين فى المجلس .

سال الشيخ : فى أية سورة انت ؟

قال التلميذ : فى سورة « التوبة »

قال الشيخ . اقرأ أول الأنعام

سكت التلميذ ولم يقرأ !! فلقنه الشيخ الآية الأولى من السورة فقرأها وسكت !!

قال الشيخ حسن إذن اقرأ أول « الأعراف »

سكت التلميذ ايضا واحس بالدم يكاد ينفجر من رأسه !! وهكذا خمس أو ست مرات . عاد الشيخ بهنسى بعدها لكى يسأل عن الكتّاب الذى يقرأ فيه فلما عرف أنه كتاب الشيخ « ناصر » تعجب الشيخ غاية العجب ، وقال : هذا لا يمكن أن يكون !!

عندئذٍ قام الوالد من المجلس مستأذنا ، وصحب معه الابن إلى المنزل لكى يعطيه « العيدية » . ويا لها من « عيدية » لن تنسى مدى الأزمان .

جاء الوالد بحبل غليظ كانت تربط به الماشية ، وشد بهذا الحبل وثاق ابنه فى دعامة خشبية كانت قائمة فى فناء المنزل ، ثم انهال عليه بعد ذلك بالضرب الموجع المؤلم !! ولم يشفع له بكاء أمه أو صراخ إخوته الصغار !! وأقسم الوالد أن يتركه هكذا إلى أن يمر العيد !!

يا لها من ساعات رهيبة تلك التى مرت بالابن وهو مربوط إلى تلك الدعامة !! فقد كان كل الأطفال والكبار ينعمون ببهجة العيد ، وكانت تتناهى إليه أصوات الزامرين واللاعبين بينما هو مصلوب أو كالمصلوب الذى لا يستطيع أن يتحرك !!

محنة قاسية !! ليت والده اكتفى بالضرب ثم تركه يلعب كالأطفال ! بل ليته هو لم يقع فى خطأ الإهمال الذى جر عليه كل تلك المتاعب والآلام !! ليْت وليتَ وليت . ولكن التمنيات لا تفيد ..

وبقى مصلوبا حتى مالت الشمس عن الأفق بعد منتصف النهار ، حينئذٍ قدم والده إلى المنزل فخلصه من وثاقه ، ثم التقط يده ، وقبض عليها بقوة ، وخرج به من المنزل إلى الحارة فالشارع الدائرى بالقرية . فالطريق المعتاد سلوكه بين المزارع إلى كتّاب الشيخ « ناصر » .

١٢ ـ الدرس الكبير :

لم يتصور التلميذ إلا أن والده يريد قتله بين المزارع ، وكان الصمت الكئيب يلف حول الحقول من جميع الجوانب ـ فاليوم عيد ، والفلاحون جميعا يهجرون حقولهم فى هذا اليوم ؛ حتى مواشيهم تكون معهم بعيدا عن تلك الحقول ، وكان الطريق محفوفا بزراعة الاذرة الكثيفة ، والوالد صامت لا يتكلم ، ويده قابضة على يد ابنه فى قوة وحرص ، والابن يمشى مسلوب الإرادة مرعوبا لا يستطيع حتى أن يهمس ببنت شفة .. وكلما ازداد خطو والده تصور القرب من الهول المجهول !!

وفجأة قطع الوالد حبل الصمت فى رفق بالغ :

ـ لماذا أنت لا تحرص على التعلم يا ولدى ؟ قالها وفى صوته رعشة وتهدج

ـ سكت الابن ولم يجب !!

ـ إن التعليم يا ولدى ـ ثمرته لك أنت وليست لى . ففى يوم من الايام لابد أن يموت أبوك كما يموت كل الناس ، ولن يكون لك فى هذه الدنيا ما ينفعك غير الذى حصلته من العلم والتعليم .. ثم عاد يسأل :

ـ ايهما تود أن تكون مثله ؟ فلان العالم الجليل الذى يحترمه كل الناس أم أخوه « فلان » الجاهل الذى لا يكن له أحد أى احترام .

ـ بل فلان العالم الجليل الذى يحترمه كل الناس ..

ـ إذن تعلّم لكى تكون مثله .

- سأفعل يا أبى
- ولن تعود للعب مرة أخرى ؟
- لن أعود للعب مرة أخرى

وكان من الواضح للوالد أن ابنه قد اقتنع بتغيير سلوكه مع التعليم منذ الآن ، نشعر بنوع من الرضا .. ولكنه مضى إلى غاية أخرى كان يود تحقيقها ، وكانت تلك الغاية هى إقناع شيخ الكتاب أيضا بتغيير سلوكه حيال تعليم ولده . وهكذا مضيا معا حتى بلغا منزل الشيخ الذى استغرب حضورهما إليه فى هذا اليوم بالذات ..

فلما عرف ما حدث من الوالد مع ابنه ، تألم وبانت دهشته ، لكن الوالد لم يلبث أن قدم مبلغا من المال للشيخ وطلب منه المزيد من الاهتمام بهذا الابن حتى لا يتكرر ما حدث اليوم .. وفى عبارة صريحة قال الوالد : ان ابنى ربما غشكم وأعلمكم بأنه يحفظ مستغلا انكم لا تلحظونه وهو يقرأ لكم من المصحف لا من الذاكرة

وهنا أمر الشيخ تلميذه بالحضور إلى الكتاب من صباح الغد وإلا يستمر فى إجازته عقابا له بينما وعد الوالد بأنه سوف يشرف على تحفيظه بنفسه

١٤ - البدء الجديد

صح عزم التلميذ على عدم التلاعب بمستقبله بعد أن وعى الدرس الذى تلقاه من والده . وتحاشى فيما بعد أن يقع فريسة لكرباج الشيخ أو حبل الوالد ومضى يصل الليل بالنهار حفظا وتجويدا . ولم يعد يترك لنفسه ساعة واحدة للراحة حتى حفظ القرآن الكريم كله فى فترة قياسية لم تتجاوز التسعة شهور

كل ذلك ووالده يرقبه من بعيد . ولا يتدخل فى توجيهه أو متابعته كما كان يفعل من قبل

كان حفظ تلميذ لكل سور القرآن الكريم حدثا كبير فى محيط الكتاب فبسبب هذا الحفظ يفوز أولاد الكتّاب عادة بوليمة شهية ، وبسببها أيضا ينعم شيخ الكتّاب بحلة ثمينة مكافأة له على نجاح خطته فى التحفيظ ، ومن أجل ذلك فقد رتب الشيخ خطة محكمة للظفر بكل المطلوب .

قال الشيخ للتلميذ : بشر والدك بأنك قد حفظت كل سور القرآن الكريم ، وقل له ان الشيخ يريد أن يلقاك .

مضى التلميذ مسرورا إلى أهله فأعلن النبأ إلى أمه أولا .. وما إن سمعت الخبر حتى انطلقت الزغاريد من فمها تجلجل فى أسماع القرية . وتقاطر الناس إليها يسألون ما الخبر ؟ فأهدت إليهم الأم ما سمعت من ابنها وهى مزهوة فخور . ولم تنسَ أن تقدم كل ما استطاعت من الحلوى بكل من هنأها

وحضر الوالد مبهور الأنفاس فاستقبلته التهانى وهو عائد من صلاة العصر .. باللسعادة التى غمرته وملأت عليه كل جوانحه .. إنه الآن لا يدرى ماذا يصنع بنفسه وولده الذى نجح فى حفظ القرآن .. !! وكان عليه أن يتمالك نفسه حتى يتأكد من صحة الخبر ، فانتظر حتى جاء الليل وتناول طعام العشاء .. ثم سأل الابن عن صحة الخبر .. وقال له ولكننى يجب أن أتأكد من حفظك قبل أن أعطيك الرد الذى يطلبه الشيخ . فقال الولد فى ثقة تامة : تأكد كما تشاء يا أبى !!

عندئذ قرب الوالد مصباح « الكيروسين » إلى مجلسه ووضع المصحف أمامه .. ودعا ولده للقراءة من أول « البقرة » فتدفق الولد يقرأ ويرتل فى انسياب رائع ، حتى اتم من القرآن ثلثه . ولم يخطىء ولم يتتعتع .. وكان الليل عند منتصفه فاكتفى الوالد بهذا القدر ، وقال لولده فى حنو بالغ وعطف شديد . بارك الله فيك .. وسوف أزور شيخك عند صلاة ظهر الغد كان شيخ الكتاب يرغب فى إظهار الحفاوة المبالغ فيها ، واقترح على الوالد استحضار فرس بيضاء يركبها التلميذ من باب الكتّاب بعد أن يلبس العمامة ، على أن يسير خلفه الموكب المعتاد من الرجال والنساء

والأولاد الذين ينشدون الأناشيد . ويرتلون الأهازيج ، ويرفعون المصاحف فوق رءوسهم كما حدث لمن سبق من الحافظين

لكنّ الوالد لم يوافق على هذه المظاهرة التى يقترحها الشيخ خوفا من الأعيرة النارية التى سوف يصر على إطلاقها أقرباء الابن وأحباب أبيه . واقترح على الشيخ أن يقتصر الأمر على حفل تقيمه الأسرة ، ويحييه الشيخ بترتيل قصة المولد النبوى الشريف .

وانعقد الحفل بعد ذلك بأيام ، وكانت البهجة غامرة ، والهدايا والهبات موفورة .. وظل ذكر هذا الحفل ومناسبته على ألسنة أهل القرية والقرى المجاورة لسنوات طوال .

الفصل الرابع :

مع الأزهر العتيد

١ ـ محاولات الانتساب :

حمل الفتى منذ ذلك الحفل لقب « الشيخ » والزمه هذا اللقب الذى كان ينادى به نوعا من الوقار الذى كان يصطنعه اصطناعا عندما يذهب إلى المسجد لكى يصلى . أو إلى الكتّاب لكى يدرس أحكام التجويد . أو إلى المدرسة الأولية لكى يستعيد معلوماته فى قواعد الحساب والإملاء ..

وهكذا لم يعد يميل إلى العبث أو العراك مثلما كان فى الماضى . فهو فى نظر الناس « شيخ » وليس صبيا ، وهو مشغول بمراجعة القرآن الكريم حتى لا ينساه فتلحقه اللعنات .

وظل هذا الشيخ الصغير يضطرب بين الكتاب والمدرسة والمسجد ، وأحيانا يذهب إلى بعض أهله فى الحقل لكى يستمتع بالهواء الطلق والزرع النضير .. إلى أن عرف من والده نبأ حصوله على استمارات الانتساب للمعهد الدينى الأزهرى ، وأن عليه أن يحصل من عامل التليفون على تاريخ ميلاده تمهيدا لاستخراج شهادة الميلاد الرسمية من المديرية !!

أثار فيه ما سمع نوعا من الدهشة .. فلأول مرة يعرف أن لمولد الإنسان تاريخا يكتب فى دفاتر رسمية ، وتستخرج به شهادات رسمية من المديرية .. وما هذه المديرية يا ترى ؟ لابد أنها مكان يشبه « دوار العمدة » أو المدرسة الأولية !!

وأيا ما كان الأمر ، فقد تم ملء الاستمارات وجمع التوقيعات عليها من العمدة ومشايخ البلد ، وأرفقت بها شهادة الميلاد .. ووضعها والده أمامه فى صندوق البريد المعلق على جدار ماكينة الطحين .

وانتظر المسكين حتى حضر ساعى البريد وفتح الصندوق وأخذ كل ما فيه إلى حقيبته وانطلق بحماره إلى خارج القرية .

وبعد أيام معدودة وجد نفسه فى صحبة والده بمدينة الأسكندرية التى لا يذكر أنه رآها من قبل . وفى طرف من أطراف هذه المدينة كانت بناية المعهد الدينى الذى وصلا إليه عشية الامتحان المسمى بامتحان القبول . وجرى الامتحان لجميع المتقدمين على يومين ، الأول للتحريرى فى الحساب والإملاء ، والثانى لحفظ القرآن الكريم ، وكانت النتيجة مرضية لكل من الوالد وولده بحمد الله.

٢ ـ العقبة الطبية :

لكن عقبة خطيرة ظهرت بعد الامتحان بيومين ، فقد قرر الطبيب الذى كان يكشف على المتقدمين بأن الطالب لدية « سعَفَةٌ فى الراس » !!

وما هذه السقَفَة يا ترى ؟ إن فروة الرأس سليمة تماما ، وليس بها سوى أثر جرح قديم كانت قد أصيبت به منذ سنوات طوال !!

ذهب الأب إلى الطبيب فى عيادته الخاصة ومعه ابنه وسأله عما يعنيه فتبين له أن المسألة فى حاجة إلى علاج بسيط . لا يكلف أكثر من عشرة جنيهات !!

عندئذٍ وضح للأب أن هذه العقبة مختلقة لابتزاز هذا المبلغ لا أكثر .. وكان هذا المبلغ آنذاك يعادل اليوم ألفا من الجنيهات .. خشى الوالد أن يدفعه ويظفر بتقرير بالشفاء ثم لا يدخل ابنه إلى المعهد مع الداخلين .. فاستمهل الطبيب إلى الغد لكى يحضر النقود ..

وخرج الأب ومعه ابنه من عيادة الطبيب إلى مشيخة العلماء .. وهناك التقى بشيخ المعهد الذى أكد له أن الأمر بيد الطبيب ـ وعندما يقرر شفاء الطالب فإن مكانه ينتظره وعليك الا يضيع الوقت

فرح الوالد ، وسعى بكل قوته لتدبير هذا المبلغ المرهق لأمثاله من مستورى الحال ، ثم دفع به إلى الطبيب الذى كتب على الأوراق « **شفى الطالب المذكور ولا مانع من قبوله** » .

٣ ـ إخلاف الوعود :

وحمل الوالد بنفسه تلك الأوراق ومعه الطالب ، وذهب إلى شيخ العلماء يستنجزه وعده .. وكان قد مضى أسبوع على بدء الدراسة !! هنالك اعتدل الشيخ فى مجلسه وقال فى هدوء وتثاقل .. للأسف لم يعد عندنا مكان للقبول فى هذا العام !!

قال الوالد فى حدة : ووعدك الذى وعدت يا فضيلة الأستاذ ؟ !!

قال الشيخ : لقد أبطأت فى استحضار المطلوب

غضب الوالد غضبا شديدا وصاح فى الشيخ : أهذه هى أخلاق المسلمين يا شيخ العلماء ؟ كيف تغرر بى وتجعلنى أدفع نقودى للطبيب ثم لا تنفذ وعدك ؟ إننى أتعامل مع خواجات وأجانب منذ أكثر من عشرين سنة ، ولم أر بينهم من يخلف الوعد أو يكذب فى يوم من الأيام !! هل تحرضنى يا شيخ العلماء على أن أذهب بولدى إلى كنيسة لكى يتعلم أخلاقا غير هذه الأخلاق ؟

واحتدم الموقف احتداما تعالت فيه الأصوات ، واهتزت جنبات مشيخة العلماء بالضجيج ، ولولا تدخل بعض الحضور من أجلاء الشيوخ لحدث شىء خطير . ففى اللحظة التى هم فيها الوالد بارتكاب حماقة الاستعداد للاعتداء بعصاه تعبيرا عن سخطه وضيقه بمناقشات شيخ العلماء ـ هجم على يديه من منعه ، وناقشه بهدوء ورفق ، وجعله يعتقد أن ولده سوف يأخذ حقه ولكن بعد أسبوع آخر !!

لم تطمئن نفس الوالد إلى هذا الوعد ، ومع هذا فقد تعلل به كما يفعل الظمآن عندما يرى السراب .

٤ ـ العودة الحزينة :

وأيا ما كان الأمر فقد رجع الفتى مع والده حزينا إلى قريته ، وبدأ يشعر بوطأة الظلم الفادح الذى وقع عليه .

لقد دخل إلى المعهد أقرانه من الجيران الذين لم يحرزوا تفوقه فى الامتحان. ولولا تعنت الطبيب وخلف وعد شيخ العلماء لكان الآن فى دراسته التى طالما تشوق إليها قلبه .

ونتيجة لهذا الشعور الأسف الحزين فإنه اعتراه الشحوب ، واعتلت صحته ، وانكب عليه كل من أبيه وأمه

يحاولان التلطف معه لإخراجه من أزمته ، ويعدانه بإدخاله مدرسة أخرى غير هذا الأزهر الذى لا يصدق علماؤه .

وكان الوالد كلما ذكر ما حدث من شيخ المعهد تعلو نبرته ، ويرسل لعناته عبر الأفق لكل الناكثين بعهودهم فى هذا العالم الكبير !!

وعلى أية حال فإن الطالب الحزين وهن عزمه ، ولم يعد يثق حتى فى وعود والديه بأنه سوف يستأنف رحلة التعليم من جديد !! ومن أجل ذلك انصرف عن تلاوة القرآن إلى اللعب ، وممارسة حياة الضياع لمدة عامين كاملين .

وصادفت أسرته فى تلك الفترة أزمة حادة ، مرض فيها الوالد بعد أن باع كل ما يملك سدادا لخسارته فى تجارة القطن ، تعرض الطالب الضائع لمهانات تقبلها بصبر ، فخرج إلى الحقول يعمل أجيرا لكى يساعد فى إطعام أسرته .. لكن لطف الله ادركه ، فقد شفى له والده وعاد لاستئناف مسيرته من جديد ، وبدأ يوفر له ولإخوته نوعا من الأمان الذى كانوا قد فقدوه .

بيد ان أثر تلك الفترة الحالكة قد انطبع على نفسية الطالب ، وترك فيها ندوبا غائرة ، فلقد تخلى جميع الأصدقاء والأقرباء عن والده عندما نزلت به خسارته ، واضطر الولد للعمل أجيرا فى ضياع بعض الاقطاعيين الذين كانوا يلهبون ظهور من يعملون لديهم بالسياط .. وهكذا جرب مرارة الاحتياج ، ومحاولة الاقتراض لشراء الأدوية التى كان لابد منها لانقاذ حياة أبيه .

ناهيك عن انه أصبح المسئول عن زراعة ما تبقى من أرض والده دون أية إمكانيات . وهكذا نسى القرآن الكريم ، وانشغل قلبه وخاطره بهموم لقمة العيش التى كان عليه أن يوفرها لأسرته التى تقف فى مهب الريح !!

وكيف لا ينطبع كل ذلك على نفسيته وقد كانت والدته التى طالما ترجته من ربها يقتلها البكاء حزنا عليه ، وعلى مصيره الذى آل إليه !!

٥ ـ النهــوض :

ورغم كل هذه الانطباعات القاسية فقد بدأت الحياة بشفاء والده تعود إلى ما كانت عليه من قبل . فهذا هو ينهض من جديد تحت إلحاح والده عليه فيبدأ باستعادة حفظ القرآن الكريم ، ثم يثنى بالتردد المنتظم على أحد المعلمين ليتذكر قواعد الحساب والإملاء وإذا به بعد فترة وجيزة يعود إليه أمله فى المستقبل ، وتتهيأ له فرص التعلم فى هذا الأزهر الذى ما يزال والده ناقما على الكثيرين من شيوخه ..

وها هوذا الآن يدخل إلى المعهد الذى حرم من دخوله ثلاث سنوات كاملة . يدخل وفى رأسه أن يعوض كل ما فاته بالدأب والجد فى أناء الليل وأطراف النهار .

يا لها من لحظات رائعة تلك التى كان يتهيأ فيها لاستقبال أول درس فى الأزهر !! ويا لها من سعادة بالغة تلك التى شعر بها عندما دخل إلى فصله أول شيخ سوف يتعلم منه ..

كان الشيخ متقدما فى السن ولكنه قوى البنيان ، وكانت تبدو عليه أمارات الهيبة وسيماء الصلاح . جلس فوق منصته العالية بجوار سبُورة الفصل ، وأُسبل جفون عينيه ثم قال فى نغم رتيب : بسم الله الرحمن الرحيم . الكلام هو اللفظ المركب المفيد بالوضع واقسامه ثلاثة : اسم وفعل وحرف .. البـاء فى بسم حرف جر مبنى على الكسر لا محل له من الاعراب واسم مجرور بالباء ... وهكذا استمر الشيخ يشرح على هذه الصورة وهو مسبل الجفون كأنه يقرأ من كتاب ، والكل يصغون إليه فى انتباه واضح ، وهو لا يتوقف أو يناقش حتى انتهى وقت الدرس بدق الناقوس !!

عندئذ تحامل الشيخ على نفسه ، وجمع أطراف عباءته بعد أن غادر المنصة وخرج من الفصل . بعدها سأل الطالب زملاءه إن كانوا قد فهموا شيئاً مما قيل فأجابوه بالنفى .. وحينئذٍ رضى عن نفسه بعض الرضا فهو ليس

الغبى الوحيد الذى لم يفهم ، وما عليه إلا أن يركز انتباهه فى الدرس القادم

ودخل الشيخ الثانى الدى رأه أقرب إلى الشباب منه إلى الشيخوخة - لم يجلس على المنصة كما فعل سلفه . وإنما بدأ إلقاء درسه وهو يتحرك بين صفوف الطلاب وكان الحماس واضحا فى حركاته وصوته

بدأ درسه بدعاء طويل بعد البسملة هو هذا « اللهم لا سهل إلا ما جعلته سهلا و إن شئت جعلت الصعب سهلا . اللهم أخرجنا من ظلمات الوهم ، وادركنا بنور الفهم ، وافتح لنا خزائن رحمتك ، وعلمنا أسرار حكمتك .. إنك على ما تشاء قدير .. ثم بعد الدعاء قال : درسنا اليوم عن المياه التى يجوز بها التطهير .. واستمر يقرأ أسماء هذه المياه ، ويحاول التفرقة بين كل نوع منها والآخر .. إلى أن انتهى وقت الدرس .

فهم الطالب من هذا الشيخ بعض الأشياء ، ولم يفهم البعض الآخر مثل (ماء البَرَدْ) ولكنه كان سعيدا بهذا الدرس الذى أذهب عنه يأسه وفَتح نافذة الأمل لقلبه المحزون .

وعلى الرغم من ذلك فقد قضى يومه الدراسى الأول مثقلا بالهموم - كيف لم يفهم من الشيخ الأول شيئا ؟ ترى هل غبيا ولم يستطع أحد اكتشاف غبائه من قبل ؟ وعاد إلى حجرته التى تم استئجارها بحى الورديان ، ومع زملائه الذين يساكنونه فيها . أخذ يستعيد ذكريات يومه . ثم لجأ إلى الصمت العميق !!

لقد كان يخشى أن يتوالى عليه عدم الفهم ، ثم يكون مصيره الفشل والرسوب والرجوع إلى القرية خائب الرجاء إنه الآن يذكر والديه اللذين يدعوان له بالتوفيق ، ويذكر كل الشيوخ والمعلمين الذين كانوا يشيدون به فى مجالسهم ، ويزعمون أنه شعلة من الذكاء . فما باله اليوم لم يفتح الله عليه بالفهم ؟ وما الذى يجب عليه أن يفعله لكى يفهم ؟

وهكذا قضى الليل كله مسهدا ، ولم يطرأ على فكره أبدا أن عدم فهمه راجع إلى طريقة الشيخ الذى لم يوفق إلى الإفهام !!

أذن المؤذن للفجر فى المسجد القريب من منزله فنهض واقفا وتوضأ ، ثم خرج إلى المسجد فصلى مع المصلين ودعا الله فى سجوده وبعد صلاته أن يدركه بالفتح والفهم فى هذا اليوم الجديد حتى لا يخيب رجاؤه . ولا رجاء الأهل فيه .

وعندما عاد إلى فصله جلس فى أول مقعد قبل أن يحضر بقية الطلاب .. ودخل شيخ الأمس الذى لم يفهم منه شيئا ، وفعل نفس ما فعل فى اليوم السابق أو شيئا يشبهه . وللمرة الثانية لم يفهم الطالب شيئا مما سمع كأن شيخه يتكلم رطانه أجنبية ليس إلى فهمها من سبيل .

عندئذٍ اندفع الدم فى عروق الطالب يغلى ، ولم يتحمل استمرار هذا الموقف فانتفض واقفا ، وبغير استئذان قاطع الشيخ صارخا أنا لم أفهم شيئا يا سيدنا الشيخ

كانت النبرة عالية قطعت على الشيخ الاسترسال فى الدرس ، وقطعت على الطلاب حبل الإصغاء والصمت !!

وبهدوء قام الشيخ من منصته ومشى فى تؤدة إلى أن بلغ مكان الطالب فسأله عن اسمه - ثم فاجأه : هل حفظت « الأجرومية » ؟

كان الطالب يرتعد من الخوف ويخشى بطش الشيخ الذى سمع عن قسوته فى معاقبة طلابه بالضرب المبرح ، وخرجت الكلمة من فمه وهى ترتعش : وما الأجرومية ؟

تلطف الشيخ بالطالب وقال له : كتاب صغير ثمنُه خمسة مليمات تستطيع الحصول عليه من أقرب مكتبة عليك أن تشتريه ثم تحفظه .. وأعدك - إن فعلت ذلك - بالفهم العظيم .

قال الطالب : سأفعل إن شاء الله - وانتظر حتى انتهى اليوم الدراسى ، فخرج إلى المكتبة واشترى

« **الاجرومية** » ، ثم عاد إلى منزله وهو منشرح الصدر مسرور .

وعلى عجل تناول طعامه وأتبعه بصلاة العصر ، ثم عكف على هذه الاجرومية ليحفظها . إنه لا يريد أن يضيع وقتا لكى يصل إلى الفهم الذى وعده به الشيخ ..

ومضى إلى شاطىء البحر ، ودخل من باب الجمرك ، ووجه وجهه قبل الماء الذى لا آخر له ، وظل يحفظ حتى غربت الشمس ، وزحفت الظلمة على الأفق فلم يستطع متابعة الحفظ ، وعاد إلى بيته وقرر الا ينام حتى يتم له حفظ هذه « **الأجرومية** » وما زال يعالج هذا الفصل منها ، ثم ينتقل إلى غيره لكى يعود بعد قليل إليه محاولا التأكد من حفظه إلى أن تم له ما أراد ، فغمرته السعادة من جميع جوانبه ، وتناول طعامه متأخرا عن موعده ، ثم نام قرير العين والفؤاد .

٦ ـ الاختبار الأول :

وفى صباح اليوم التالى بعد أن توضأ وصلى ، كرَّ على الذى حفظه بالأمس لكى يؤكد ثباته فى رأسه .. وبعد أن اطمأنت نفسه حرج منتشيا فقد انتصر على « **الأجرومية** » وحفظها ، ولا شك بعد ذلك فى أنه سبقهم مثلما وعده الشيخ الكبير

وبلغ مقعده من الفصل ، وجاء الشيخ وابتدأ درسه ، ومضى فيه كما تعود فى اليومين السابقين ، وتابعه الطالب بانتباه جاد ولكنه لم يفهم !! لم يفهم رغم حفظ الأجرومية كما أرشد الشيخ !! ترى أين وعد الشيخ ؟ وكيف السبيل لكى يفهم ما يقول ؟

وعندما ضاق ذرعا بنفسه صرخ يا سيدى الشيخ .

قال الشيخ : نعم

قال الطالب : قلت لى إنك ستفهم لو حفظت الأجرومية .. وأنا قد حفظتها ومع ذلك لا أفهم شيئا مما تقول !!

دهش الشيخ غاية الدهشة ولم يصدق أن الطالب قد حفظ الأجرومية فى ليلة واحدة .. فنزل إلى الطالب وسأله : أحقا حفظت الأجرومية يا بنى ؟

قال الطالب : نعم حفظتها

قال الشيخ : ومتى ـ رعاك الله ـ تم لك الحفظ .

قال الطالب : أمس . من بعد صلاة العصر حتى قبل منتصف الليل .

أمسك الشيخ بكتاب « **الأجرومية** » فى يده .. وطلب من الطالب أن يسمعه الباب الأول ... فلما ظهر له حفظ الطالب لهذا الباب انتقل به إلى الباب الثانى فالرابع فالسابع وهكذا !! كلما ذكر الشيخ عنوان الباب .. اندفع الطالب إلى إسماعه نص المكتوب فى تدفق غريب !!

لم يجد الشيخ فى نهاية الأمر إلا أن يربت بيده على عمامة الطالب الصغير ، ويقول له . فتح الله عليك .. ستفهم يا ولدى ستفهم ، ولسوف تصير عالما كبيرا بإذن الله .

٧ ـ الجدول الجديد :

بعد قليل من الأيام تغير الأساتذة الذين كانوا يقومون بالتدريس ، وحل محل الشيخ الكبير شيخ شاب يبدو عليه الاعتزاز بنفسه ، والاهتمام بهندامه ومظهره .

دخل هذا الشيخ الجديد إلى درس النمو من مدخل مختلف كل الاختلاف . فهو لم يجلس على المنصة ، ولم يسبل جفونه ليقول ما يحفظه مثلما فعل سلفه وإنما استثار اهتمام طلبته بأسئلة تحرضهم على التفكير لم يبسمل ولم يحوقل ، ولم يقدم بأدعية مأثورة وإنما بدأ هكذا نرى بعض الذين يقرءون في المصحف يخطئون ويصحح لهم قراءتهم من ليس في يده مصحف فلماذا ؟ جاءته الإجابة من بعض الطلاب لأن الذى يصحح حافظ للقرآن . قال الشيخ الشاب : حسنٌ !! ولكننا نلحظ نفس الشيء مع من يقرأ الجريدة اليومية .. يصحح له أخطاءه من ليس في يده الجريدة فلماذا ؟

ولما لم تجئه الإجابة من أحد تبرع هو بالإجابة وقال لأن الذى يصحح يعرف قواعد اللغة ، بينما الذى يقرأ يجهل تلك القواعد .. ومن أجل ذلك فإننا يجب أن ندرس قواعد اللغة حتى لا تخطىء عند القراءةً أو الكلام . وهذا هو الذى سوف ندرسه معا هذا العام .

أحس الطالب أن نافذة من الضوء قد تفتحت لذهنه الصغير ، وتسلل نور الفهم إلى عقله وقلبه منذ تلك اللحظة ، وبدأت نفسيته المتعبة تستريح لهذا الفتح فانطلق جادا في تحصيل العلم في كل من أوقات الدرس وأوقات الاستذكار

٨ ـ نظام الاستذكار .

ولقد كان للاستذكار في مؤسسة المعهد الأزهرى بالاسكندرية نظام وأى نظام ؟ ذلك أن الطلاب كانوا يسكنون ويدرسون في نفس المؤسسة .. ووجد طالبنا نفسه بعد التمكن من السكن مع الطلاب أمام جناح كامل مفروش بالأسرة ومزود بكل المرافق المريحة .. هذا الجناح مخصص للنوم ولا يتم فتحه إلا في مواعيده المحددة كل ليلة . بعد تلك المواعيد كانت تغلق أبوابه الخارجية ، ويمنع السهر والضوضاء حتى ينام الطلاب نوما مريحا يستأنفون بعده الدراسة في صباح اليوم التالى وهم نشطون .

أما الجناح الآخر وكان مستقلا عن الجناح الأول ، فكان معدا للدراسة والاستذكار وكانت هناك حديقة واسعة تفصل بين الجناحين .. في هذه الحديقة كانت تزرع الخضروات بين أشجار التين المثمرة .. ولقد كان جناح الدراسة والاستذكار مكونا من طابقين . العلوى فيه حجرات الدرس ، والسفلى فيه حجرات المعيشة وحجرات الاستذكار . في الأولى كانت الكراسى المستطيلة حول الخوانات المبطنة بالصاج .. وكانت تقوم خلفها وإلى جوار الحوائط دواليب خشبية لكل طالب نصيب منها يضع فيه مئونته التى ترد إليه من قريته بين الحين والحين .

وفي الثانية كان يفرش الحصير ليجلس عليه الطلاب بعد تناول طعامهم والاسترواح بالصلاة لكى يستذكروا دروسهم .

وكانت حجرات الاستذكار هذه قليلة العدد ، فكانت تَغَصُّ بالطلاب الذين ينحشرون ثم يجلسون فرادى أو في حلقات صغيرة .. وكان من عادة الطلاب إذ يستذكرون في تلك الزحمة الشديدة أن ترتفع أصواتهم بما يقرءون أو يحفظون ، ويحدث من أثر لغط وضجيج لا تتحمله آذان المارة في الشوارع الرئيسية المحيطة .

على أية حال فإن الطالب الصغير قد انحشر في هذا الحشد الذى يحتشد كل يوم منذ الساعة الرابعة وحتى الساعة السابعة مساء . ثم منذ الساعة الثامنة حتى العاشرة وكان عليه أن يصطنع نفس الطريقة التى يستذكر بها هذا الجمع المتكدس الغريب !! فكان يرفع صوته حتى لا تنشغل أذنه بغير هذا الصوت الصادر من حنجرته !!

ولحظ الطالب منذ اليوم الأول أن هناك من الأساتذة من يكلف مراقبة الطلاب أثناء استذكارهم ـ وكانت المهمة التى يقومون بها تكاد تنحصر في فض الاشتباكات التى تحدث بين الطلاب ، والرد على أسئلتهم إذا أعوزهم شيء يريدون

الاستفسار عنه . كما لحظ أن صغار الطلاب وكبارهم يتحاورون فى قاعات الاستذكار .. ومن ثم حرص على الاستفادة بكل من الأساتذة والطلاب الكبار . فكان كلما انبهم عليه أمر واستغلقت عليه مسألة يعود إلى أى من هؤلاء وأولئك بالسؤال والإلحاح فى السؤال حتى يفهم . بل إنه كثيرا ما كان يتعمد الإصغاء إلى بعض هؤلاء الكبار ممن اشتهروا بالسبق العلمى بين أقرانهم لكى يتعلم منهم كيف يعربون اية من آيات القرآن الكريم ، أو كيف يقرءون بيتا من الشعر ، أو يحاولون تحرير المراد من عبارة غامضة ملتوية .

٩ ـ بداية التفتح :

ألف الطالب الصغير نظام الاستذكار هذا وتعود عليه ، وأصبح يومه يبدأ بالدروس التى استذكرها فى المساء السابق . وينتهى باستذكار الدروس التى درسها فى هذا اليوم . فى المساء اللاحق . ومن خلال هذا التعود تكون له رصيده العلمى الذى أخذ فى النمو والازدهار .

وما هى إلا شهور معدودة حتى أصبح واحدا من الطلاب المعروفين فى تلك المؤسسة الكبيرة . يعرفه الأساتذة ويشجعونه ، ويحترمه أقرانه ويقدرونه . وتولد لديه نوع من الطموح العلمى الشائق ، فأخذ ينفق أغلب نقوده القليلة على شراء الكتب من بائعها الذى كان يدلف إلى المعهد كل يوم ويجلس فى مدخله ، ويضع على الأرض بضاعته من الكتب القديمة .

وكثيرا ما كان يحلو لمن يشترون الكتب من هذا الشيخ الفانى أن يمزحوا معه فيسألونه عندك أدب يا عم محمود ؟ فيجيبهم بصفو نية وسلامة طوية . لا يا ابنى !! عندئذ كانوا يضحكون وينصرفون عنه

لكن طالبنا الصغير كان جادا فلا يسأل مثل هذه الأسئلة العابثة ، وإنما يقلب فى الكتب المرصوصة أمام عم محمود فإن راقه منها شىء اشتراه وانصرف .. والغريب أنه كان يشترى من الكتب ما لا يقوى على فهم ما فيه إن قراه .. وكان الكتاب الجيد الذى يستهويه هو ذلك الكتاب الذى يكون شعرا كله أو بعضه .. دون أن يعرف سببا لهذا الولع بالشعر دون سواه .

وعلى اية حال فأنه كان راغبا فى تحصيل العلم من أى نبع ينبع منه العلم ، وكانت هذه الرغبة تتجلى فيه عندما يختار أصفياءه من الأصدقاء . فهو لم يكن يصافى غير النابهين من الطلاب ، ولم يكن يحلو له اللهو والهذر الذى يميل إليه العديدون من أقرانه . بل إنه كان يأسى لسخرية البعض من ضعف هذا الشيخ الذى احوجته الأيام لحمل بضاعته على ظهره كل يوم لكى يبيعها لطلاب العلم .

ولربما كانت الدوافع التى تدفعه إلى هذا المسلك الجاد حيال المعرفة والناس ، شيئا من الحرص على اكتساب السمعة الحسنة بين الناس .. ومن خلال هذا الموقف الجاد فقد ظهرت عليه رغبة جموح فى مطالعات الكتب الخارجية ، والمجلات الدورية ـ ودأب على اتفاق كل ما ينبغى من ميزانيته المتواضعة فى شراء الكتب(٥) .. بل إنه خصص بدل « الجراية » الذى كان يتقاضاه طلاب الأزهر لانفاقه فى هذا السبيل .

١٠ ـ الصيف المبارك :

انتهى العام الدراسى الأول والثانى بالنجاح الموفق ، وبلغته نتيجة الامتحان مع ساعى البريد فى خطاب رسمى من إدارة المعهد . وتلقى وأسرته التهانى من الجميع حتى ساعى البريد الذى أصر على أن يتقاضى « **خمسة قروش**

صاغ » لكنه وبالرغم من كل هذه التهانى لم يكن مبتهجا ولا سعيدا فالنتيجة تقول إن ترتيبه السابع ـ وهو كان يطمع فى أن يكوت الأول ..

وما إن انتهت لحظات التهانى حتى قرر الاستفادة من عطلة الصيف إلى أبعد حد مستطاع ؛ فرسم لنفسه خطة يسير عليها وتتلخص تلك الخطة فى التوفر على حفظ « **الفية ابن مالك** » التى سمع أن كل علم النحو فيها . إلى جانب المطالعة فى الكتب التى اشتراها مدة لا تقل عن أربع ساعات فى كل يوم .

ومضى لطيته ينفذ هذه الخطة دون إخلال بشىء منها . فهو يصحو من النوم وقت الضحا فيبدأ بمطالعة إحدى الجرائد اليومية لكى يتعرف على أخبار الحرب العالمية الثانية ثم يثنى بعد ذلك بمحاولة حفظ أبيات من الألفية .. ويظل على هذا الحال حتى الظهر . بعد ذلك يتحلل من خطته إلى ما بعد صلاة العصر .. عندئذ يمضى وحده إلى ظل شجرة الجميز التى كان يهواها .. وهناك فى ظلها يجلس للمطالعة فى واحد من الكتب التى اشتراها أثناء الدراسة .

وحدث أنه كان يقرأ فى هذا المكان الأثير إلى نفسه كتاب « **مقامات الحريرى** » وإذا كوكبة من الأصدقـاء يتقدمهم أستاذ أزهرى نابه يقبلون عليه سلموا عليه فرد عليهم السلام وقام واقفا لاستقبالهم فلما أخذوا مجلسهم .. جلس إلى جوارهم وانصرف إلى كتابه الذى يقرأ فيه

كان يعرف هؤلاء الأصدقاء ، فهم أهله وأقرباؤه .. وكان يعرف هذا الأستاذ الأزهرى الذى يعمل واعظا بمدينة **طنطا** .. ولكم تمنى أن يصير مثل هذا الأستاذ محترما بعلمه بين أصدقائه وأهل قريته ..

وبينما هو منصرف إلى قراءته سأله الأستاذ الواعظ عن اسمه واسم أبيه والكتاب الذى يقرأ فيه .. فلما عرف أن الكتاب هو « **مقامات الحريرى** » دهش غاية الدهشة ذلك لأن هذا الكتاب ليس من الكتب التى تسهل قراءتها عند طالب مبتدىء كهذا الطالب .

سأل الأستاذ : أين تدرس يا ولدى ؟

قال الطالب : فى معهد الاسكندرية الدينى .

قال الأستاذ : وهل نجحت ؟

قال الطالب : نعم نجحت والحمد لله وأصبحت فى الصف الثالث الابتدائى .

قال الأستاذ : وهل تفهم من هذا الذى تقرؤه شيئا ؟

قال الطالب فى خجل : نعم .

فطلب الأستاذ منه أن يقرأ ما تقع عليه عينيه من الصفحة التى يقرأ فيها . عندئذ استجاب الطالب وقرأ بضعة أسطر بينما الأستاذ يتفحصه بعينه من خلف منظاره ، ويصغى إليه بكل انتباه .. وفجأة قطع الأستاذ تسلسله فى القراءة وسأله عن معانى بعض الكلمات « **الوعرة** » التى وردت فيما قرأ . ولحسن حظ الطالب الصغير أنه كان قد وقف على معانى هذه الكلمات من هامش الكتاب قبل قدوم الأستاذ وصحبه فأجاب عن أسئلة الأستاذ إجابات سديدة .

هنا رَبت الأستاذ على كتف الطالب برفق ، ودعا له قائلا : فتح الله عليك يا ولدى ، وهيأ لك التوفيق والسداد ما دمت حيا . ثم اتجه إلى الحاضرين فى فرحة ظاهرة . وقال بشراكم والله بشراكم .. فلسوف يصير هذا الفتى عالما عظيما إذا أطال الله فى عمره وحماه من غوائل الشر وشياطين الغواية

لم يقدر الطالب أن هذه اللحظة سوف تصبح البداية الأولى لأول صداقة سوف تربط بين قلبه وقلب هذا الأستاذ النابه لعدد طويل من السنين . ولم يدر بخلده إذ ذاك سوى أن الأستاذ يشجعه شأنه فى ذلك شأن أساتذته الذين يلقون عليه الدروس فى « المعهد » فهو كثيرا ما سمع تلك الدعوات من أفواههم .. بل إن كثيرا من هذه الدعوات مكتوب بخطوط معلميه فى كثير من صفحات أعماله التحريرية التى يقوم بها .

وعندما غربت الشمس قام الحاضرون لصلاة المغرب خلف الأستاذ الواعظ .. ثم انصرفوا إلى ديارهم ما عدا الأستاذ الذى أصر على أن يصحب الطالب إلى منزله .. وهناك التقى بوالده وشد على يده فى عطف ومودة ، وقال له : لقد سعدت بالتعرف على ولدك اليوم ، وكان لى مجلس ومحادثة معه .. ولقد عرفت أنه ولد مبارك فيه أن شا الله ولقد جئت إليك لأوصيك به خيرا .. فإنه يستحق منك ومن كل من يعرفه أكبر قدر من التشجيع والرعاية ..

شكر الوالد للأستاذ صنيعه ، وطلب منه أن يبقى لتناول العشاء ولكنه تأبى معتذرا بأن هذه هى الليلة الأولى فى القرية ، ووالدته تنتظره بصبر المشوق .

١١ ـ مولد الصداقة :

لم يكن للشيخ الواعظ أبناء ولا بنات رغم أنه تزوج مرتين ، وانجذب قلبه لهذا الطالب انجذاب قلب الوالد لولده ، وهكذا توطدت العلاقة التى نشأت تحت ظل شجرة الجميز فى أصيل أحد الأيام .. ومع توطدها كانت مشاعر الحب والإعزاز يزداد فيضانها كلما التقى التلميذ بأستاذه سواء كان ذلك بالنهار أو بالليل . ولقد غذى هذه المشاعر ونماها أن الأستاذ الشيخ كان من محبى الشعر والأدب . وكانت تشغفه طريقة القراءة التى اعتادها من هذا التلميذ « النجيب » كما كان يطلق عليه دائما .. بل إن الأستاذ الشيخ كان يستعيده قراءته كلما فرغ من جزء منها ويقول له : إننى أستمع إلى قراءتك مثلما أستمع إلى أعذب الألحان .

وبسبب فرط إعجاب الشيخ بهذه القراءة فإنه كان يستحضر الدوريات الأدبية ، ودواوين الشعراء ، وبعض الكتب الدينية . وكثيرا ما كان يسأله ماذا تريد أن تقرأ اليوم يا بنى ؟ رغبة منه فى عدم فرض شىء عليه ليقرأه ؛ فإذا ما عين الطالب الشىء الذى يميل لقراءته لم يعترض وإنما دعاه للقراءة الفورية المتحلية بالأناة ، وعندئذ كان يصغى الشيخ إصغاء المحب إلى ألحان صوت الحبيب ..

وكان للشيخ ولع شديد بالتعليق على ما يعجبه من المقروء ـ وكان الطالب فى بداية الأمر يقبل هذه التعليقات على ما هى عليه ـ لكنه بعد ذلك تجاسر وأخذ يناقش تعليقات الشيخ ويبدى رأيه فيها سواء بالموافقة أو الاعتراض أو الإضافة .. الأمر الذى لم يضق به صدر الشيخ بل تقبله فى مودة خالصة ، وإعزاز كبير .

١٢ ـ قيمة الحرية :

وفى إحدى المناقشات مدح الأستاذ رأى تلميذه إلى حد أخجله . ودعاه على الفور إلى إبداء رأيه فى خطبة الجمعة التى سمعها من أستاذه بالأمس .. وعندئذ عقد الخجل لسان التلميذ فلم يستطع الإبانة .. لكن أستاذه ألح عليه إلحاحا شديدا فبدأ يتكلم ولسانه يتعثر بالحياء ، وتلعثمت على شفتيه حروف الكلمات ، ولحظ الأستاذ ارتباكه ـ

فقال له لا تخجل ولا تتردد فى إبداء رأيك فى اى شىء تقرؤه أو تسمعه . وليس من المهم أن يكون رأيك صوابا ، وإنما المهم أن تبديه ليناقشك الناس فيه ، فإبداء الآراء ومناقشاتها هما الطريق الأمثل للتعلم .

إنك يا بنى تبدى رأيك فيما تقرأ من كتب أو مقالات ، وأنا دائما أستمع إليك وأناقشك فيما تبديه من رأى فلماذا إذن الإحجام عن إبداء الرأى فى قول قلته على منبر المسجد ؟ أليس ما قلته كلاما شبيها بهذا الذى تقرأ أو تطلع ؟ إعلم يا ولدى أنه لا فرق فى أبداء الرأى بين شخص تواجهه ، وشخص آخر لا تواجهه . فأنت إذ تبدى رأيك فى الكلام المكتوب لا بد أن تتصور أن صاحبه لو كان أمامك لواجهته بنفس الرأى دون خوف أو إشفاق . هذا .. وإلا تحولت عملية إبداء الرأى إلى نفاق مرذول يجرى كتمانه أمام من نعارض آراءهم .. إنك يا بنى لابد أن تعتاد الشجاعة الأدبية فهذه هى الوسيلة الوحيدة لتقويم الأخطاء ، ومواجهة الانحراف عن الجادة ، وعليك أن تعرف أن الإنسان بغير رأى بيديه إنسان فاقد لمعنى الحرية .

وجاءت الكلمات الأخيرة من أستاذه بردا وسلاما على قلبه ، وفهم أن الشيخ إنما أراد أن يلقنه درسا فى الشجاعة الأدبية ، كما فهم أن كتمان الرأى خطيئة فى حق النفس والغير على حد سواء ..

١٣ - المنبر والخطيب :

لكنه لم يفهم أن أستاذه كان يسوق كل حديثه السابق باعتباره تمهيدا لدعوته لإلقاء خطبة الجمعة القادمة ! !

ياسبحان الله ! ! كيف يمكنه أن يرتقى درجات المنبر وكل الناس ينظرون إليه ؟ ثم كيف يتصدى للحديث من فوق هذا المنبر مثلما يفعل الشيوخ الكبار ؟

دارت تساؤلات كثيرة فى خلجات نفسه قبل أن يرد على الاقتراح المفاجىء الذى دعاه فيه الأستاذ إلى إعداد خطبة الجمعة للأسبوع القادم ! !

وزاد من هول الموقف عليه قدوم بعض الأصدقاء الذين صارحهم الشيخ برغبته التى أعلن بها التلميذ .. عندئذ أعلنوا موافقتهم وتحبيذهم ، وألحوا على التلميذ أن يفعل مهما تكن الظروف .

لم يستطع التلميذ المقاومة ولا الإفلات من هذه الورطة التى وقع فيها .. ومن ثم راح يشجع نفسه على خوض تلك التجربة وليكن ما يكون . وبالفعل لزم بيته سحابة اليوم التالى . وأعد خطبة مكتوبة مختصرة ، بذل فيها جهدا كبيرا رجاء أن تحظى برضاء الجميع .. واختار موضوعا لتلك الخطبة ذلك الحديث النبوى الشريف « **اتق الله حيثما كنت ، واتبع السيئة الحسنة تمحها . وخالق الناس بخلق حسن** » .

ولما علمت أمه بما هو مقبل عليه حاولت منعه خوفا عليه من أعين الحساد !! لكنه لم يستجب لها رغبة فى تنفيذ وعد قطعه على نفسه . وحبا فى الدخول إلى تجربة مهما يكن شأنها فإنها سوف تعلمه بعض الجديد الذى لم يتعلمه .

وحانت ساعة الذهاب إلى المسجد فى يوم الجمعة المعهود .. حينئذٍ اغتسل وتطيب ، ولبس أحسن ما عنده من الثياب . ثم وضع على رأسه عمامته البيضاء وخرج فى صحبة أستاذه إلى المسجد .. وهناك تسلطت عليه أنظار

الناس ، وبدأ يتسلل إلى نوع من التهيب والإشفاق من هول ذلك الموقف العصيب ! ! وجلس يدير كلمات تلك الخطبة فى رأسه محاولا تذكرها ، بعد أن استظهرها على مدار أسبوع كامل . لقد كان يخشى أن ينساها أو جزءا منها فيضطرب عليه حبل أفكاره ، ويتلعثم لسانه وينهار كل أمل له فى انقاذ نفسه ..

وما زال على تلك الحال كلما اختلس نظرة إلى عيون الناس وجدها مركزة عليه .. حتى جاءت اللحظة الفاصلة . فأشار إليه أستاذه لكى يرقى المنبر .. هنا شعر أن الموقف أكبر من أن يقدر عليه فاشتد خفقان قلبه ، وامتقع لونه لكنه بالرغم من ذلك استجاب لرغبة أستاذه مستسلما .. ونهض يرتقى درج المنبر حتى وصل إلى أعلاه فجلس مواجها لجميع المصلين ، ولم ينس أن يسلم عليهم كما يفعل العلماء الكبار من أمثال أستاذه الجالس الآن على مقربة منه

وحاول أن يتأكد من وجود نص الخطبة المكتوب فى جيبه فاصطدمت يده بجسم صلب غريب . تأكد فيما بعد أنه تعويذة دستها والدته فى ملابسه خوفا عليه من سموم الحسد .

كان المؤذن بين يدى المنبر يردد نشيد الأذان كما تعود ، وكان الخطيب المنتظر فى قرارة نفسه يضرع إلى الله تعالى كى يعينه على ما هو مقبل عليه . فلما فرغ المؤذن قام ونشر النص المكتوب أمام عينيه خوف أن ينسى بعض ما فيها فلا يجد ما يسعفه بالتذكير . ثم بدأ بصوت عال كأنه يقول للمستمعين إليه اننى لست خائفا ولا يتملكنى التهيب من أى شىء على الإطلاق ، ثم هدأ قليلا وحلت الثقة من نفسه مكانها ، وأخذ يلقى خطبته بطريقة اجتهد أن يكون لها تأثيرها على من يسمعه . وكانت تحين منه بين الفينة والفينة بعض الالتفاتات إلى وجوه الناس فيخيل إليه أنهم معجبون به . الأمر الذى كان يشيع فى نفسه السرور ، ويشجعه على المضى فى إنجاز مهمته .

وهكذا فرغ من الخطبة الأولى وجلس .. ثم استأنف خطبته الثانية وكان قد أنس من نفسه القوة ، فلم يستعن بشىء مكتوب ينشره أمام عينيه كما فعل فى الخطبة الأولى ، وإنما ارتجلها ارتجالا كأنه يحفظ كل كلماتها .. ولشد ما كان سعيدا وهو يسمع الناس يؤمنون عقب كل دعاء كان يلهج به لسانه .

وهكذا إلى أن دعا لإقامة الصلاة فنزل من فوق المنبر ووقف فى المحراب إماما إلى أن فرغ من الصلاة فتلقى من الناس تهانئهم ، كما تلقى من أستاذه دعواته الحارة وتمنياته الطيبة ....

ومنذ ذلك اليوم أصبح التلميذ شيخا بحق فى نظر أهل قريته . لم يعد أحد يناديه إلا ويقرن اسمه بلقب الشيخ وصار له الحق فى أن يسأله الناس فى أمور دينهم فيفتيهم . ولم لا ؟ ألم يصل خلفه الأستاذ الواعظ الذى يفوق عمره عمر والده ؟

وهكذا دخل طورا جديدا من أطوار الحياة بلقب « الشيخ » فأصبح عليه الا يجالس اترابه نأيا بنفسه عن أن يصير ولدا ككل الأولاد . كما صار من واجباته الا يترك فرصة للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر دون أن يستغلها .. فهو يصلح بين المتخاصمين ، ويدعو إلى معاونة المحتاجين ، إنه لم يعد ذلك الصبى الذى كان يعرفه الناس فيما مضى .. وعليه أن يلتزم حدود الوقار والاتزان .. كيف لا وجميع جلسائه وأصدقائه فى عمر أجداده وأبويه ؟

□ □

الفصل الخامس

بوتقة الآلام

١ ـ البوابــة

انتهى الصيف المبارك الذى حفل بكل ما سبق من متعة وإيناس ـ وأصبح على التلميذ أن يتهيأ للعودة إلى الاسكندرية تلبية لموعد بدء الدراسة . وكان كل شوقه إلى الدرس والتحصيل والانتفاع بثمار قراءاته ومناقشاته الخصبة مع أستاذه الذى رحل إلى عمله منذ قريب . وكان يمنى نفسه بأن يجد عند والده ما يهيئه به لكى يذهب إلى المعهد الذى فارقه كل تلك الشهور . بيد أنه وللأسف الشديد لم يظفر بما يرتجيه ـ فـوالده المثقل بأعباء أسرة تتكون من سبعة أفراد لم يكن يمتلك النقود اللازمة لشراء الملابس والكتب على ضآلتها .. وكان كل ما يقدر عليه هو توفير إطعام الأولاد وبشق النفس .

وعندئذٍ وقف الوالدان حائرين فى كيفية تدبير المطلوب للأسرة ولهذا « الشيخ » الذى لا يتصوران تعطله عن استئناف دراسته مهما تكن الأسباب .

اتجهت الأم لبيع نصيبها من الميراث الذى ورثته عن جده ولكنها لم تفلح !! واتجه الوالد للاقتراض من بعض معارفه ولكنه لم يقو على مواجهة هذا الموقف ـ وأخيرا استقر الرأى على رهن قطعة أرض لبعض الموسرين لقـاء عشرين جنيها .. وبذلك تم تدبير المطلوب بعد طول عناء .

ولأول مرة يشعر التلميذ بأنهُ عبء على والديه وأسرته ، ولأول مرة يفكر فى أن هذه هى بوابة الآلام التى سوف تستمر طوال حياته التعليمية ، وظهرت على محياه علائم الحزن ولكن والده طيب خاطره ، وأفهمه أن حياة الناس لا تسير على وتيرة واحدة . ففيها من العسر ألوان وألوان . وفيها أيضا من اليسر ألوان وألوان .. ومهما تكن المتاعب فإنها تهون بالصبر . والصبر مفتاح الفرج كما يقولون .

وما زال به والده حتى طابت نفسه ، وعبر بوابة الألم الذى أبهظه . بعد أن وطد نفسه على ضرورة التجلد عند الملمات .

٢ ـ فظائع الحرب :

عاد إلى الاسكندرية ملهوفا إلى لقاء الأساتذة والطلاب . عاد وفى رأسه من ذكريات الصيف المبارك ما يشتاق إلى الحديث مع الأصفياء فيه . عاد وفى قلبه من الآمال والأحلام شىء كثير

وعند أول ليلة إثر عودته وبينما هو فى سمر مع أصدقائه انطلقت صفارات الإنذار حيث الحرب العالمية الثانية لم تزل فى بداياتها المروعة وفجأة أظلمت المدينة التى كان شأنها التلألؤ فى قلب الليل !! وهرع الناس إلى المخابىء فى باطن الأرض .. وامتلأ الأفق بالطائرات المغيرة ، ولاحقتها الكاشفات الأرضية تريد إظهار اماكنها فى السماء .. ثم انطلقت المدافع الراعدة ، وتفجرت القنابل المدوية التى راحت الطائرات تلقيها على المدينة وتزلزلت جدران المخبأ الذى كان قد لجأ إليه ، واصطكت الصرخات المكتوبة بمسمعه الخائف وأدركت الغيبوبة كثيرا من النساء والأطفال الذين لم يعد لهم متنفس من كثرة الزحام واستمر هذا الهول ، وطالت أوقاته .. وأخيرا .. انطلق صوت صفارة الأمان فخرج مع الناس إلى نهر الشارع مذهولا

وأثناء عودته إلى مسكنه شاهد جموع الخارجين من كهوف المخابىء الأخرى . وسمع ما تتناقله السنتهم المرتعشة من شدة الخوف !! كانوا يقولون إن الغارة هدمت حىَّ باب سدرة بأكمله ، وحولته إلى أنقاض !! وتساءل عن الكيفية التى تم بها وصول هذا الخبر إليهم بتلك السرعة الغريبة .. إنهم مثله خارجون لتوهم من أعماق المخابىء فكيف عرفوا بأمر ما حدث فى هذا الحىِّ البعيد ! ؟؟ وارتسمت الدهشة على وجهه عندما رأى الناس يتناقلون هذه الأخبار فى غير ألم ولا انزعاج بعد ذلك . ترى هل تتبلد الاحاسيس مع اعتياد الآلام ؟ ؟

والمهم أنه عاد إلى مسكنه وهو شبه مذهول .. يتحدث معه زملاؤه وهو صامت لا ينطق ! ! ويتبادلون الطرف عما حدث وهم فى طريقهم إلى المخبأ أو أثناء وجودهم فيه وهو كأنه فى أعماق بئر مظلمة

وهكذا وضع جسده فى فراشه وهو مفزع مروع وافترض أن تحدث غارة أخرى وهو نائم ، ثم تسقط قنبلة على المنزل الذى هو فيه فتفجره . وتتناثر أشلاؤه إلى حيث لا يعلم إلا الله !!! هنا زاد رعبه وفزعه .. وتملكه العجب لشخير زميليه النائمين حوله كيف لم يخطر لهما هذا الخاطر الذى يؤرقه ؟ ولماذا هو وحده مشدود الأعصاب ؟

وظل هذا حاله إلى أن سمع آذان الفجر وظهر له وجه النهار .. هنا شعر بالاطمئنان النسبى لأنه كان يعرف أن الغارات لا تقع إلا بالليل فنام .. وعند شروق الشمس كان لابد له أن يستيقظ لكى يواجه الحياة التى جاء من قريته ليحياها .

ذهب مع زميليه إلى المقر الجديد للدراسة ـ فالمقر القديم فى منطقة الأخطار حيث تقوم حوله مستودعات البترول .. وفى مدخل هذا المقر الجديد قرأ إعلانا إداريا بتأجيل الدراسة إلى موعد يحدد فيما بعد

عاد أدراجه إلى منزله قلقا مهموما ممتلىء النفس بمئات الأسئلة التى تثقلها ماذا يفعل السكان النائمون فى منازلهم لهؤلاء الأوغاد الذين يلقون عليهم بالقنابل ؟ ما الذى يكسبه هؤلاء المحاربون من هدم البيوت العامرة ؟ وتخريب الأحياء النابضة بالحياة ؟ ما الذى جناه طفل صغير فى حضن امه لكى يخطفه جنون الحرب فيحوله إلى كومة من اللحم المعجون فى الدماء !! ؟

ثم ما ذنب طلاب جاءوا من قراهم لكى يقطع عليهم طريق التعلم فى هدوء ؟ ترى هل نحن المصريين نركب الطائرات ونفعل ببلاد المغيرين علينا مثلما يفعلون هم ببلادنا ؟ هل وهل وهل ؟ إلى ما لا نهاية له من الأسئلة الحائرة التى لا تجد حتى متنفسا للبوح بها !!

وجلس فى منزله مهموما يستمع إلى المتحدثين من زملائه وجيرانهم ، وتبين له من خلال ما استمع إليه أن هذه الحرب يقوم بها النازيون الألمان ، وحلفاؤهم الايطاليون ضد الإنجليز ومن يقف معهم من الدول الأخرى ـ كما تبين له أن الإنجليز وإن لم تكن أرضنا وطنهم إلا أنهم يتخذون من وطننا قاعدة لهم . يحققون من خلالها مغانمهم الاقتصادية والسياسية . على مستوى الشرقين الأدنى والأقصى . كما يتخذون منه مرتكزا لمحاربة أعدائهم وأعداء مصالحهم من الألمان أو سواهم ..

وبدأت تتسلل إلى رأسه بعض الإجابات عن بعض الأسئلة التى كانت تدور فى نفسه .. وشيئا فشيئا وقف على الكثير من المعلومات التى لم يكن يعرف عنها أى شىء .. معلومات عن تاريخية الوجود الانجليزى فى مصر ، وأسباب هذا الوجود والكيفية التى وقع بها فى البداية ، والتطورات التى طرأت على هذا الوجود أثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها ، وكيف نشبت ثورة ١٩١٩ .. إلى غير ذلك من المعلومات .

بيد أنه ـ وبرغم كل هذه المعلومات ـ لم يقتنع أبدا بوجود سبب واحد يبرر قتل الآدميين من أبناء هذا الوطن المغلوب على أمره .. وحتى عندما كان يسمع من الناس أن الطائرات الألمانية والإيطالية التى تقذف قنابلها لا تقصد ضرب الأهداف المدنية ولكن ذلك يحدث عن طريق الخطأ ؛ فإنه كان يزداد اشمئزازه من هذا التبرير السخيف الذى يتفلسف به البعض ربما تعاطفا مع أعداء الانجليز .. فليس هناك فى الحقيقة شىء اسمه التخريب والقتل والدمار عن طريق الخطأ !! إن الخطأ هو ما يقتصر على إصابة فرد أو أفراد . أما هدم الأحياء على أهلها فليس إلا وحشية لا يمكن تبريرها . !!

ظلت هذه التساؤلات والمحاورات تتعمق فى وجدانه لمدة أسبوع كامل . سمع فيه من القصص والحكايا المرعبة عن فظائع الغارات ما ترك فى نفسه جراحا غائرة لم يمح آثارها تطاول الزمان ـ سمع عن الأم التى احتضنت طفلتها وخرجت تعدو إلى المخبأ عند حدوث الغارة ، وظلت تحتضنها وتحيطها بكل كيانها حتى انتهى القصف وانطلقت صفارة الأمان فعادت إلى منزلها فوجدته كوما من التراب .. ثم !!!! ثم اكتشفت أن الذى كانت تحتضنه طوال الوقت ليس ابنتها وإنما وسادة كانت تنام عليها !!

وسمع وسمع غير ذلك الكثير مما يؤلم ويدمى الفؤاد .

٣ ـ الهجرة :

بعد هذا الأسبوع الرهيب تم اتخاذ قرار بهجرة الطلاب وأساتذتهم إلى مدينة دمنهور .. وفى هذه المدينة الصغيرة وجد نفسه يطلب العلم فى مقر جمعية المحافظة على القرآن الكريم . ووجد معه فى مساكن ومتاجر تلك المدينة الكثيرين من المهاجرين الذين طردتهم الحرب من مساكنهم بعد أن قتلت العديدين من أحبابهم وأهليهم وتركتهم للضياع !!

وكان لابد له أن يشارك هؤلاء مآسيهم التى عاش جزءا منها وهو فى مدينة الاسكندرية قبل التهجير . شاركهم البحث لبعضهم عن المأوى والطعام والشراب والعمل .. نعم .. فقد كان من بينهم بعض أقربائه المقربين ، وكان لا يمكنه إلا أن يسعى معهم كل مسعى يحاولون به الوصول إلى مأمن لهم .. حتى ولو كان هذا المسعى إلى العديد من القرى النائية بالإقليم .

ولقد كان الألم يعتصر قلبه وهو يشاهد الأمهات يبكين من أجل اطفالهن الجياع لكن الشهامة المصرية المعروفة كثيرا ما كانت تسكن من المه ، وتدخل في روعه نوعا من الاطمئنان فكم شاهد من تضحيات القرويين البسطاء . وإفساح بيوتهم وأكواخهم وأرزاقهم لهؤلاء المهاجرين التعساء !! وكم شاهد من حدب القادرين على المنكوبين في أهليهم وعائليهم

وهكذا تأقلمت مشاعره مع وحر الألم . وهدهدة المروءات المصريّة الصميمة وصار يلتقى مع كل أحداث يومه بنوع من الألفة والتواؤم إن صح التعبير .

٤ ـ أستاذ في الوطنية :

وفي غمار هذا الجو المشحون بالتوترات ، كان لابد له من أن ينكَبَّ كما تعود على الاستذكار الجاد ، والعمل الدءوب .. لكن مآسى الاسكندرية لم تكن يبرح خياله ، ومن ثم فإنه كان يذعن لنداء داخلي يحثه على معرفة حقائق التاريخ والحرب ، فيدلف إلى المكتبة العامة ، ويحاول الاطلاع على بعض الكتب أو الوثائق المدونة في المجلات والصحف القديمة .

وشاء الله أن يكون أحد أساتذته ـ في تلك الفترة ـ من هؤلاء المسهدة جفونهم من أجل مصر . فكان يسخر درس التاريخ الاسبوعى في توعية الطلاب بحقائق الحرب وأهوالها ، ثم يعرج على ما صنعه الإنجليز بمصر منذ ثورة عرابى ١٨٨٢ وحتى الآن .. وكثيرا ما كان هذا الأستاذ الجليل يدفع طلابه إلى الكتابة عن أحزان الوطن وهمومه ، ولكى يزودهم بطاقة تدفعهم إلى التفكير الجاد في إنقاذ وطنهم ، فإنه كان يستعين بالاشعار والأقوال المأثورة .

ومن غير تفكير ولا تدبر وجد الطالب نفسه مشدودا لهذا الأستاذ الشاب ، مشدودا لكل الحقائق التى يفيض في ذكرها عن المآسى والأحزان المصرية . مشدودا إلى الإيحاءات والإيماءات التى يحرص بها طلابه على السخط والغضب من أجل بلادهم . مشدودا إلى الآمال التى يرقبها في أفق الأحداث الجارية .. وصار درس التاريخ أحب الدروس إلى قلبه وعقله ، وأصبحت الواجبات التى يكلفها من هذا الأستاذ أخف الواجبات وأيسرها على نفسه .. الأمر الذى لفت الأستاذ إليه فانعطف نحوه يحاوره ، ويؤثره على غيره عند كل مناقشة حرة يهدف من ورائها إلى الإقناع والإقتناع .

ورغم أن الاستاذ لم يكن من شأنه تدريس « الإنشاء » فإنه كان يدفع الطالب دفعا إلى الكتابة في بعض الموضوعات التى يختارها ، ويشجعهُ على عرض ما يكتبه على الطلاب لكى يتم نقده وإبداء الرأى فيه .. وتبين أن الاستاذ إنما يفعل ذلك لكى يبلغ من نفوس من يعلمهم مبلغا لم يبلغه أحد ..

فهو عن طريق المحاورة فيما كتبه أحدهم يحفز فيهم دوافع المنافسة والتسابق في الكتابة ، وهو يجد بعد ذلك فرصة لالتقاط النابهين وتوجيههم . وهو في النهاية يستطيع أن يقول ما يريده باعتباره أحد أطراف الحوار فيما يعرض ، ومن خلال كل ذلك فإن الأستاذ كان يعمد إلى المقارنة بين حقائق التاريخ في مصر القديمة ، وحقائق التاريخ في مصر الآن .

ولكم خرج الطلاب من درس التاريخ وهم مشحونون بالحماس الشديد من أجل وطنهم ولكم استخفهم

الحماس فصفقوا أو خرجوا من ساحة الدرس وهم يتصايحون ، ولكم استعاد الطلاب أقوال الأستاذ وهم يذاكرون أو يتسامرون . وكانت أهم النجاحات التى حققها هى الخروج باهتمامات أبنائه من حيزها الأنانى الضيق إلى حيزها الوطنى العام !!

٥ ـ مدخل العمل السياسى

وتحت تأثير هذا الأستاذ الخطير ، ومجموعة الالام التى ضاعفتها آثار الحرب ، والتدمير بالقنابل والرعب المخيم على جو مصر ، اخذ هذا الطالب ومعه نفر من زملائه الشباب يسخطون على استمرار بلادهم على تلك الحال ، واشتاقت نفوسهم إلى البحث عن طريقة تمكنهم من المساهمة فى التغيير .. وفى هذه الاثناء كانت « **جماعة الإخوان المسلمين** » يبزغ فجرها ، وكان فى مدينة دمنهور مقر متواضع لبعض المنتسبين إليها من الشباب ..

ذهب الطالب ومعه بعض زملائه إلى هذا المقر أول مرة . وهو يريد أن يعرف ما الذى تريده تلك الجماعة : فهو حتى هذه اللحظات لم يكن يعرف شيئا عن الجماعات أو الأحزاب السياسية ، وهو مشوق كل الشوق إلى العثور على طريق يجعله قادرا على توظيف جهده وحماسه من أجل وطنه المثخن بالجراح ..

وهناك فى هذا المقر ابصر عددا من الشباب لا تنقصهم حماسته ، واستمع معهم إلى بعض الاحاديث التى كانت تستخدم نفس المفردات التى يستخدمها ـ فمصر المستعمرة يجب أن تتحرر وتتخلص من ذلتهـا واستعبادهـا ، ولا يمكن أن يتحقق لها ذلك إلا عن طريق الدين والرجوع الكامل إلى مثله العليـا ، واصوله الخـالدة من الكتاب والسنة . وعلى الشباب أن يتمسكوا بدينهم من أجل إنقاذ وطنهم ..

كان الحاضرون إلى هذا الاجتماع لا يزيدون عن عشرة ، ووزعت على الجدد منهم وكانوا ثلاثة فقط استمارة يحررها كل منهم للانتساب إلى الجماعة .. وكان منقوشا على تلك الاستمارة عمود من الشعارات التىتَرَدَدَ بعضها اثناء الاجتماع . ولقد وقعت هذه الشعارات موقعها الخاص من قلبه ووجدانه .

فالله غايتنا : تعنى التحرر الكامل من كل الغايات الأخرى كالمال والمجد والشهرة وما إليها .
والرسول زعيمنا : تعنى الإلتزام الكامل بالاقتداء به فى كل ما قال أو فعل . أو أقر .
والجهاد سبيلنا : تعنى أن الوسيلة التى يجب استخدامها لخلاص مصر هى الجهاد والبذل والتضحية .
والقرآن دستورنا : تعنى أن القواعد التى يجب أن تحكم العلاقات فى المجتمع هى أحكام القرآن الكريم .
والموت فى سبيل الله اسمى امانينا : تعنى الرغبة العارمة فى الاستشهاد لأنه فوق كل الأمانى والرغبات .

حقا إنها شعارات رائعة . والالتزام بمضمونها يعنى الرجوع إلى العهد الإسلامى الأول عهد النبوة وما أعقبه من عهد الخلفاء الراشدين . ولكن كيف ؟

ورغبة فى الحصول على الإجابة عن « **كيف** » هذه كثر تردده على جماعة الإخوان المسلمين فى تلك المدينـة الصغيرة . وطال بحثه وتنقيبه . وتسأله ـ ؛ فقد كان كل ما حوله يؤكد له أن السدود والحواجز المانعة أكبر من أن تقتحم ... وأن الوصول إلى عهد إسلامى نقى بحاجة إلى أشخاص لهم كل المواصفات الإيمانية التى كانت لاصحاب الرسول .

واستمر يتردد ويبحث ويسأل حتى بلغ مرحلة الافتراض بأن ذلك ممكن حدوثه بفضل الدأب والإلحاح والصبر على المكاره

وفى تلك الفترة القلقة تكونت له مجموعة من الاهتمامات التى تجاوزت حدود الالتزام بالدراسة الرسمية فى معهده ـ لكنه لم يسمح لهذه الاهتمامات وإن كانت جادة بأن تنسيه واجباته الدراسية ، أو تثنيه عن الإيغال فى دروبها بكل قوته . كما انه لم ينس حقه فى الترويح عن نفسه من عناء الاهتمامات ، أو الواجبات الدراسية ببعض الوان اللعب والمزاح البرىء ، ومشاهدة بعض الأفلام السينمائية وغيرها

٦ ـ خشونة العيـــش :

وكثيرا ما كانت تفاصيل الحياة اليومية الخشنة تشقيه . فهو ونفر من زملائه يسكنون شقة رطبة ، تفوح رائحة العفونة من جدرانها ، يخترقون إليها عددا من الحارات والأزقة لكى ينعموا بالإقامة فيها بعد انتهاء الدرس فى كل يوم .. وفى هذه الشقة الرطبة كانوا يفترشون الحصير الذى يعزل أجسادهم عن البلاط المتآكل ؛ وكانوا يجتمعون حول مصباح « الكيروسين » لكى يستذكروا دروسهم ـ فإذا ما امتد بهم الليل وشعروا بوطأة الجوع قام واحد منهم إلى الشارع لكى يستحضر لهم ما يريدون من أغذية الفقراء المعتادة الفول .. ومشتقاته وتوابعه من الطرشى والخضروات الطازجة فإذا عاد إليهم جالب الطعام جلسوا وأكلوه بالخبز الجاف الذى كانوا يحضرونه من قراهم .

هكذا كان عيشهم الخشن الذى لا يخفف من مرارة تحمله إلا ورود بعض الأكلات الشهية أحيانا .. حيث كانت كل الأسر تحرص على القيام بتزويد أبنائها بمثل هذه الأكلات بين الحين والآخر

وكان الشاى الأسود هو الترفيه الذى يحرصون عليه ـ يشربونه عقب كل طعام ، يشربونه وهم يتضاحكون ، أو يتناقشون فى بعض الأحداث التى تمر بهم . ولربما ظلوا يشربون الشاى فى بعض الليالى الباردة حتى يحين وقت النوم ..

عندئذ كانوا يتراصون متجاورين على الحصير ، وغالبا ما يتدثرون بأغطية مشتركة طلبا للدفء الذى يشيع من أجسادهم فيعينهم على احتمال برد الشتاء .

وعند الفجر كانوا ينهضون على صوت المؤذن ، ويخـرجون إلى المسجـد لكى يصلوا ، وفى المسجد كـانوا يتوضئون بالماء البارد ولا يتأففون ، ويرجعون إلى مسكنهم لتناول الإفطار الذى لم يكن يتغير على مدار العام إلا قليلا .. فهو هو أفطار كل يوم . وهو هو من نفس الطعام الذى يتناولونه فى العشاء .. نعم نعم ، فكلهم فقراء وليس فى مقدورهم غير ذلك اللون من الشظف فى المطعم والمشرب والمنام .

على أن أعمارهم الفتية كانت العون الأكبر لهم على التحمل ، ناهيك عن أنهم كانوا يتطلعون إلى مستقبل ربما يعوضهم عن شدة البؤس التى يكابدونها الآن ، وكثيرا ما كان بعضهم يردد : لا بد دون الشهد من إبر النحل .

٧ ـ حدث خطير :

وخلال تلك الفترة من حياته التى اختلط فيها الجد بالهزل ، والمعاناة بالتحمل والأمل بالألم . لم يكن هناك شىء يستحق الاستحواز على تفكيره أكثر من أحاديث أستاذ التاريخ المثيرة ، وأفكار هؤلاء الشبان المهمومين بأمور الوطن

والدين إلى أن جاء يوم اهتزت معه كل مصر من أقصاها إلى أقصاها .. وكان هذا اليوم هو يوم ٤ فبراير ١٩٤٢ .

فى هذا اليوم وقف أستاذ التاريخ يذرف الدموع داخل حجرة الدراسة ، بينما كان يتحدث عن مصر التى ديست كرامتها بنعال الإنجليز المستعمرين .. وكان مجمل حديثه أن الجنود الإنجليز ذهبوا إلى القصر الملكى أمس . وحاصروه بالدبابات والسيارات المصفحة ، ثم أرغموا الملك على توقيع قرار باستدعاء حكومة الوفد .. حكومة يريدونها ويرغبون أن تساعدهم على الانتصار فى الحرب بتوفير كل الضمانات اللازمة ، وخاصة الضمانات التموينية ، كان تأمين الامدادات يتطلب نوعا من القواعد والمرتكزات التى يجب أن تحميها حكومة يثقون فيها .

وهكذا فرضت حكومة النحاس باشا بقوة الحراب البريطانية ، وقال أستاذ التاريخ ان الملك وقع القرار وهو يبكى !! ولما تساءل الطلاب عن عدم ثقة الانجليز فى غير من فرضوا أجاب الأستاذ أنهم يعرفون أن هناك الكثير ممن يتعاطفون مع اعدائهم .. هكذا جاءت الإجابة مبهمة غامضة ، ولم يحاول الطلاب أن يطلبوا زيادة أو تفصيلات . ربما لأنهم كانوا يعرفون هذه الحقيقة من قبل .

المهم أن الحديث المثير من استاذ التاريخ ، وملابسات الحدث الخطير الذى وقع ، والغليان الفورى الذى شاع فى الشعب ، كل ذلك حمل طلاب الأستاذ على المشاركة فى المظاهرات التى اندلعت بدون تدبير أو ترتيب مسبق ، وخرج كل الطلاب يجوبون شوارع المدينة ، ويرفعون شعارات الاحتجاج المعادية للانجليز . كما رفعوا شعارات التأييد بالملك والوطن . ونددوا بالجبن والعار والنذالة التى قبل بها حزب الحكومة التكليف بالحكم تحت تأثير الأعداد وبإملائهم .

كانت هذه المظاهرات شيئا مبهجا لنفسه ؛ ففيها التقى بالعديدين من الشباب الذين كان يراهم فى مقر الإخوان المسلمين . وفيها افرغ الكثير مما يجثم على صدره ويكاد يخنقه وفيها رأى بعينيه أن مصر بخير وأن لها من بنيها من يغار عليها . ويرغب التضحية فى سبيلها ..

وهكذا اهتم بكل كلمة قيلت عن هذا الحدث الخطير . وتشوقت نفسه إلى معرفة بعض التفاصيل التى كان يتداولها الناس مستخفين لكنه لم يظفر بشىء يمكن التأكد منه ـ وكان حسبه أنه وجميع من يلقاهم كانوا يشعرون بالأسى والحزن . لم يكن هناك مجال للحديث فى كل مصر إلا عن هذا الحدث الذى مرغ الكرامة المصرية فى الوحل . وظل هذا هو الواقع المر لمدة طويلة جدا .

ومنذ ذلك التاريخ تفتحت عيناه على أحداث السياسة ، يتابعها ، ويهتم بالتحليلات التى تدور حولها ، ويخوض حرب المناقشات فيها ، منتصرا لبعض المواقف والاتجاهات وكان الغالب عليه فى تلك الفترة هو التحيز الظاهر ضد حكومة الوفد.وكثيرا ما كان يستند فى مناقشاته إلى أدلة مستلهمة من منابع التاريخ والدين والأخلاق والعرف والتقاليد إلى غير ذلك ؛ فهو لم يكن يتصور أن يتعاون وطنى واحد ولو لحظة واحدة مع من هم أعداء مصر . وكان فى قرارة نفسه لا يستطيع فهم موقف . الزعيم الوطنى **مصطفى النحاس** . فهو من وجهة نظر التاريخ ذو ماضٍ ثورى حافل بالتضحية ضد الانجليز وهو خليفة الزعيم الوطنى الخالد **سعد زغلول** !! فما باله اليوم يستخزى ويرضى بهذا العار الذى لحق بالوطن كله !!؟

أمن الممكن أن يتغير الناس إلى هذا الحد ! وكثيرا ما كان يسمع من بعض المدافعين عن الحكومة أنه لولا قبول الوفد لتشكيل الحكومة لتم خلع الملك نهائيا وأعلنت الحماية على مصر ـ بيد أنه لم يكن يقتنع أبدا بمثل هذه الأقوال .

٨ ـ شيوع الإرهاب :

اتخذت حكومة الوفد بعد ذلك قرارا بإغلاق شعب الإخوان المسلمين فتعاظم استياؤه ، خصوصا وان هذا

القرار جاء مقرونا بالقبض على العديدين من من الوطنيين المصريين من امثال **عزيز المصرى** وغيره من البارزين وكان من بين هؤلاء المقبوض عليهم نفر من الإخوان . وكان المعنى الواضح لهذا القرار ـ فى وجهة نظره ـ أنه نوع من الحجر الظالم على تلك الدعوة الناهضة ، وعلى هؤلاء الشباب الذين يدعون بها رغبة فى إصلاح انفسهم وأهليهم ، وكل مناحى الحياة التى ينخر فيها الفساد

وفهم الجميع آنذاك أن إغلاق شعب الإخوان المسلمين إنما تم إرضاء لرغبات الانجليز . وبإملاء منهم ؟! بعد ذلك تسرب الخوف إلى قلبه فكف لسانه عن المجاهرة بسخطه . وقلت مشاركته فى المناقشات السياسية التى كانت هوايته التى يفرغ عن طريقها جميع الشحنات الغاضبة التى تتأجج فى صدره . وهكذا عاش فترة من الصمت والحذر والترقب . والإنكفاء على الذات ، لا يكاد يظهر عليه الاهتمام الإيدروسه التى يتلقاها عن أساتذته الذين كفوا مثله عن التعليقات السياسية .. حتى أستاذ التاريخ البطل لم يعد يستطيع التحريض الذى كان يمارسه فى كل درس من دروسه السابقة !!

عندئذ امتلأ قلبه بالحرن . ورأى عمليا كيف يصنع سيف الأحكام العسكرية المصلت على رقاب الجميع ..

إن بعض زعماء مصر لم تعصمهم زعامتهم من الاعتقال ، وكذلك الأمر بالنسبة لكبار القادة العسكريين . الأمر الذى أحل لغة الهمس محل الصوت العالى ، فالناس لا يتحدثون إلا سرا ، وفى احتياط شديد وكانت كل الأحاديث الهامسة تمتلىء بالسخط على الارهاب والبطش بالأبرياء . خصوصا وقد واكب ذلك لون من الضيق والعسر فى حياة جميع المصريين ، نتيجة لتسخير كل الموارد التموينية فى خدمة أغراض الحرب

وهكذا امتزجت الهموم الوطنية بالهموم المعيشية . واختلطت مآسى الحرب بمآسى الخبز الأسود ، والتقتير فى توزيع السكر والاقمشة والزيت وغيرها ، ونتيجة لهذا الاختلاط فإن الكثيرين قد راحوا يتخبطون فى ظلمات رهيبة ، ولم يعد أحد يستطيع أن يرى أية فرصة من فرص الخلاص . وفى ظل هذا الجو المقبض بدأت تتولد الاتجاهات الواعية الى الرد على الإرهاب بارهاب مماثل .. إرهاب يقوم به البعض ليخاف المجرمون . واستمع فى بعض لقاءاته إلى هذه الأفكار بخوف واستحسان .. أما الخوف فلأنه لا يعتقد أن نجاح مثل هذا الإرهاب الفردى مضمون ، وأما الاستحسان فلأن فى شباب مصر من لديه روح المخاطرة عند اللزوم ، ولكنه بعد ذلك تراجع عن هذا الاستحسان وقال إنه إذا كان بعض الوطنيين قد مارسوا الإرهاب فى الماضى ضد الانجليز فى ثورة سنة ١٩١٩ من خلال « اليد السوداء » فان ذلك لا يجب أن يقاس عليه الإرهاب الذى سوف يمارسه المصريون ضد المصريين !!

ودخل من أجل ذلك فى عشرات من المناقشات .. وعندما كان يحرجه مناقشوه ويطلبون منه البديل عن الإرهاب الذى يستنكره فإنه لم يكن يجد بديلا .. فقط كان يقول لابد من يوم يقوم فيه الشعب قومة رجل واحد !! وعندما كان يسأل سائلوه ومتى هذا اليوم ؟ فإنه كان يقول : انهم يرونه بعيدا ونراه قريبا . ذلك لأن حالة التململ المكتوم ليست حالة خاصة . وانما هى حالة عامة .. ومادام الأمر كذلك فإنها سوف تتحول إلى تململ ظاهر وواضح .. بل إنها سوف تتحول إلى انفجار عارم يخلصنا من الاحتلال وكل آثاره .

كانت تلك الأفكار أفكاراً وهلية لا تستند إلا إلى الاحساس ولا تقوم إلا على المجازفة .. فهو بعد لا يزال شابا ناشئا . ومعلوماته عن الدنيا ، والحياة السياسية ، وصنع التاريخ لاتكاد تكفى لتكوين وجهة نظر كاملة يستطيع أن يركن إليها وهو يحاول الإقناع أو الإقتناع . ومن ثم تحول إلى باحث يحاول أن يجد من الحقائق ما يؤمن خطاه .

فهو فى المناقشات يستقبل اكثر مما يعطى . وهو إذا قرأ يسأل من يعرف عن بعض ما يقرأ .. وهو إذا جلس فى مجالس الكبار من أساتذته أو حتى أقربائه يطيل الإصغاء إلى ما يقال .. كل ذلك رغبة فى التعرف على حقائق الموقف المرتقب بالنسبة لمصر .. واستمر على تلك الحال مدة طويلة إلى أن أذن الله باقتراب خمود نار الحرب

الفصل السادس

أشـــواق التحـرر

١ ـ عودة المهاجرين :

بعد عامين من الهجرة ، وقعت الهزيمة التى مُنِىَ بها الألمان فى معركة « العلمين » بالصحراء الغربية لمصر ، وتداعت على دول المحور فى كل الجبهات آثار تلك الهزيمة ولاحت فى الآفاق بوادر النصر للحلفاء الذين كانوا يشكلون جبهة تكاد تستوعب معظم دول وشعوب العالم .

حينئذٍ اطمأن المسئولون وبدءوا يسمحون بعودة المهاجرين إلى الإسكندرية ، فعاد إليها مع العائدين من طلبة المعهد الدينى الأزهرى .

إنه الآن شاب اشتد عوده ، وقـويت بنيته ، وتكـون له رصيد من الفهم والمعـارف . ذلك لأنه ومنـذ غادر الإسكندرية مهاجرا كان يمر بالعديد من التجارب الغنية ، فضلا عن أن اهتمامه بالسياسة قد جعل منه قارئا جيدا .. يتابع الصحف والمجلات الأسبوعية والشهرية . وبخاصة أثناء الإجازات الصيفية التى كان يلتقى معها بأستاذه الواعظ الصديق ، وكثيرا ما كانا يستمتعان معا بالتأملات والتعليقات الخصبة على ما يقرآن . وهناك فى القرية لم يكن يوجد الخوف من السلطة المعتاد فى المدينة ، فكانت المناقشات السياسية متاحة ، والالتقاء على كراهية السلطة التى لا تحل أزمات الناس أمرا جد مألوف .

وخلاصة القول أنه عاد إلى الإسكندرية شخصا آخر غير ذلك الشخص الذى تركها منذ سنوات . إنه الآن فى المرحلة الثانوية ، ورؤيته للأمور فى مجملها تقوم على نوع من الفهم والإدراك . قبل أن تقوم على الحماس والعاطفة . صحيح أن ضميره لم تزل تدميه تلك الجراح التى خلفها يوم ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ .. لكنه الآن يستطيع أن ينطلق من أحداث يومه وليس من أحداث الأمس فالمدينة التى عاد إليها تموج بالآلاف من جنود الاحتلال فى معظم أوقات النهار او الليل ، وهؤلاء الجنود يرتكبون من الجرائم فى حق المصريين ما يكفى لإثارته والاستئثار بكل تفكيره . فهو كغيره يجرى ويسمع عن خطف الفتيات المصريات فى وضح النهار والانطلاق بهن فى سيارات الجنود إلى حيث لا يعلم إلا الله !! وهو كغيره يرى ويسمع عن جرائم السكارى من هؤلاء الأنذال الذى يقومون بأعمال قطاع الطرق فى الليل !! وهو كغيره يرى ويسمع عن اختطاف أغطية رؤوس الجنود المصريين لكى يمسح بها هؤلاء الأوباش أحذيتهم ثم يطوحون بها . أو يركلونها بأحذيتهم أمام الجميع !! وهو كغيره تبعا لذلك كله كان يغلى كالمرجـل ، ويتمنى لو انشقت الأرض فابتلعته حتى لا يرى أو يسمع شيئا من ذلك كله .

ولقد كان يثلج صدره ما يراه من حمية المصرين الذين كانت تستفزهم مثل هذه الحماقات فيندفعون فى تلقائية محببة للاصطدام بهؤلاء الجنود ، والانتقام منهم .. صحيح أن هؤلاء المصريين كانت تقبض عليهم سلطة الشرطة . وتتولى الزج بهم إما فى الأقسام أو السجون والمعتقلات ، ولكن ذلك كان يرضى نفسه ، ويغريه أن يصنع نفس الصنيع غير أنه لم يكن يتحسر أبدا .. ربما لأن تكوينه النحيل كان يوحى إليه بأن لن يقوى على الاحتمال .

٢ ـ المحامى الوطنى :

وفى صباح يوم من تلك الايام المليئة بالتقلبات والأحداث ، وبينما كان هو فى طريقه إلى المعهد الذى يدرس فيه ، توقفت مركبة الترام فى ميدان « المنشية » ولحظ ان زحاما شديدا يملأ الميدان ويعوق المرور فيه ، فأسرع بالنزول من المركبة لكى يستوضح الامر وفجأة وجد نفسه أمام خطيب يقف فوق كرسى وقد استبد به الحماس ، وراح يشرح للجمهور صورا من العربدة التى يمارسها الجنود الانجليز ، وكيف انهم بالأمس قتلوا عددا من المصريين وهم سكارى بشارع السبع بنات ، وبقهوة الإسعاف التى نحن أمامها الآن ـ لقد دخلوا الى المقهى وجردوا كل من فيه من نقودهم ـ ثم استداروا الى صاحب المقهى فأخذوا كل ما معه وقتلوه !! وارتفع صوت الخطيب وهو يندد بتلك الجرائم البشعة ، ويطالب بالتصدى والتحدى الجماهيرى لهؤلاء المعربدين . مادامت الحكومة لا تقدر على شيء تفعله . ثم ارتفع صوته مرة أخرى وهو يقول للمواطنين هذا هو الدم المصرى المستباح .. يأتى الجنود السكارى وهم مسلحون عند منتصف الليل ، ثم يمارسون جرائم النهب والسلب والقتل وبعد هذا ينصرفون وهم يتضاحكون ويرقصون !! أين مسئولية رجال الامن من المصريين ؟ أليسوا مسئولين عن حماية أرواحنا ، ماهى الإجراءات التى اتخذوها لمنع هذه الجرائم ؟ لماذا لا يطالبون البريطانيين بردع جنودهم ـ أو بتجريدهم من الأسلحة عند النزول إلى المدينة ؟ ما هذا الخذع والذل ؟ ما هذا التخاذل والتفريط ؟ إنها والله لمأساة ولن يردعها إلا سواعد الشعب المتحدة ـ فليسقط التخاذل والاستخزاء .. ولتحى الحرية والاستقلال ..

وانطلقت عاصفة مدوية من التصفيق لكنها لم تستمر سوى لحظات قليلة ـ بعدها هجم ضباط البوليس السياسى الذين كانوا قد حضروا منذ قليل ، والقوا القبض على **عبد الفتاح** كرشاه المحامى وهو يقول : مرحبا بالموت او بالاعتقال أو بأى شيء شئتم فقد قلت كلمتى وانتهى الأمر .

شعر نحو هذا المحامى بشعور جارف من المحبة والإعزاز . ودهش فى نفس الوقت لان أحدا من جمهور المصفقين لم يقدر على الدفاع عنه وتخليصه من القابضين عليه ، بل إنه اغتم غاية الغم لأن أحدا من زملائه المحامين الذين كانوا يرقبونه من نوافذ المحكمة لم يجرؤ على التضامن معه . مجرد التضامن ولو من بعض المحامين كان مطلوبا فى هذه اللحظات ولكن للأسف !!

وهكذا أمر ضباط الشرطة بالتفرق ، فانصرف الجمهور كل إلى حال سبيله ، وانصرف هو إلى معهده ـ وحاول التنفيس عما بداخله من خلال التحدث الى بعض زملائه ـ وكانوا يبهتون وهم يستمعون إليه .. ولكنهم لم يستطيعوا حتى التفكير فى اى شيء يمكن عمله .. واكتفى كل منهم بالتعليق اليائس الناقم على السلطات التى لاهم لها إلا إرضاء المحتلين .

٣ ـ لقاء مهم :

وهكذا تراكمت على صدره الهموم والاحزان ، وازدادت عليه وطأة الشعور بالعجز والقهر ، وتمنى لو استطاع ان يفعل شيئا من أجل الثأر لوطنه ومواطنيه . وجد نفسه يسأل عقله فى إلحاح بالغ . الا يوجد آخرون لهم نفس الاهتمامات التى ترهقنى ! أمن المعقول أن أكون وحدى الذى يتلمس طريقه لكى يقوم بعمل وطنى جاد ؟ وإنه لفى هذه الدوامة من التفكير الذى لم يبرح ذاته إلا مع صديق واحد يثق فيه . إذ تعرف على أحد أعضاء حزب مصر الفتاة ـ وكان هذا العضو هو الشاب المعروف **عبد القادر عامر** .. تعرف عليه واكتشف فيه إرادة فولاذية كان يتمنى لو تحلى بشيء منها ..

وجد فى عبد القادر ضالته المنشودة . فتفاهم معه بسرعة خاطفة ، وتبين لهما أنهما يستطيعان التعاون فى عمل أى شىء يخدم الوطن .. ومن خلال هذا التفاهم تم الالتقاء ببعض الشبان الذين كانوا على نفس الشاكلة .. وفى هذا الالتقاء قر قرارهم . واجتمعت إرادتهم على القيام بعمليات إرهابية ضد عربدة الجنود السكارى ، وليكن ذلك عن طريق الحصول على متفجرات ، يتم تفجيرها فى الطرق التى تعودوا السير فيها ، وفى الكاباريهات والمحلات العامة التى يرتادونها .

وتكونت من الجميع لجنة تحصنت بالسرية المطلقة ، وتوزعت الأدوار فيما بينها فهذا دوره الحصول على المتفجرات ، وهذا دوره تامينها ، وثالث دوره رسم خطة العملية وعرضها قبل تنفيذها ، وهذا دوره قيادة التنفيذ . وهكذا .

وكان الدور الذى أسند إليه دورا ثانويا جدا .. مجرد استطلاع الطرق والأماكن التى يتجمع فيها هؤلاء الجنود ـ وتحديد الليالى التى يكثرون فيها والليالى التى يقلون . وحاول الحصول على دور أكبر من ذلك ولكن محاولته باءت بالفشل .. وعندئذ امتثل وقنع بهذا الدور الثانوى وهو يكاد يبكى من الألم .

٤ ـ عمليات ناجحة :

وبعد فترة غير طويلة من هذا القرار الذى اتخذه نفر من الشبان « الأغرار » كما كانت بعض الأقلام تنعتهم آنذاك ، بدأت العمليات المتفق عليها ، وبمعدل عملية واحدة كل عشرة أيام . وأخذت السلطات المصرية تلتقطمن شوارع المدينة جثث الضحايا والمصابين من الجنود السكارى ، فالأمر لم يقتصر على المتفجرات بل تجاوزها إلى استعمال المسدسات والخناجر . وكانت ظروف طوارىء الحرب عاملا مساعدا على تنفيذ تلك العمليات ، فالإضاءة كانت قليلة ، ومعظم الشوارع والميادين يسودها الإظلام التام ، وهكذا انقلبت الصورة ، وأصبح الذين كانوا يفزعون من هؤلاء الجنود هم الذين يفزعونهم ويحولون الكثيرين منهم إلى ضحا مجندلين فى الطرقات !! !

وعجزت السلطات المصرية عن توفير الحماية لهم ، أو القبض على الذين يقومون بتلك العمليات ضدهم ..وبعد أن تكررت تلك العمليات لم تجد سلطات الاحتلال أمامها إلا عدم التصريح للجنود بالنزول الى المدينة ليلا على الإطلاق .

وبهذا تأكد القائمون بهذه العمليات من نجاحها ، ووصلوا إلى الاقتناع بأن تحرير الوطن لن يكون إلا بقوة السلاح .

٥ ـ منعطف طارىء :

ونشب فى تلك الفترة نوع من الصراع الحاد بين الأزهريين وحكومة الوفد . أدى إلى اعتكاف « المراغى » شيخ الأزهر آنذاك فى منزله . وهنا ثارت ثائرة الطلاب وأساتذه الأزهر فى كل أنحاء مصر . فأعلنوا الاضرابات . وقاموا بالمظاهرات ، وقبضت السلطات على أعداد منهم وألقت بهم خلف أسوار المعتقلات . وكان من بين هؤلاء الذين قبض عليهم شيوخ واساتذة أجلاء .

عندئذٍ وجد نفسه ينعطف بكل نشاطه وحيويته لكى ينغمس فى معمعة هذا الصراع . ذلك لأن حكومة الوفد ـ من وجهة نظره ـ حكومة مفروضة على البلاد بأمر من الإنجليز الذين هم سبب كل البلايا والنكبات التى تصيب الوطن وأهله من ناحية . ولأن شيخ الأزهر الذى تحاربه الحكومة ليس إلا واحدا من أصحاب المواقف المشرفة ضد

سلطات الاحتلال الانجليزى منذ كان قاضيا فى السودان من ناحية أخرى

ومن ناحية ثالثه فإن حكومة الوفد هى التى اتخذت موقفا عدائيا من جماعة الاخوان المسلمين ارضاء لسادتها المستعمرين .

لكل هذه الأسباب ، وربما لأسباب أخرى غيرها وجد نفسه ينطلق لكى يصبح فى طليعة المناوئين لهذه الحكومة .. فأخذ يتصدى لقيادة الإضرابات والمظاهرات . وانعقدت له بسبب ذلك صلات حميمة مع زعماء الطلبة الأزهريين من خارج الاسكندرية . وتم القبض عليه بسبب بعض تلك الصلات وتعرض للمساءلة أمام البوليس السياسى لأول مرة فى حياته .

ثم تطورت الأمور بعد ذلك فصدر قرار بفصله وآخرين من المعهد ، والعجيب أن هذا القرار لم ينل من معنوياتهم فذهبوا إلى المعزل الذى عزلتهم السلطات فيه ، وكتبوا على باب الجناح الذى ينزلونه « حجرة الزعماء » .

ومن هذا المنعزل كان ينزل كل يوم متنكرا فى زى مختلف عن زى اليوم السابق . فهو تارة بائع للصحف اليومية ، وهو مرة أخرى عامل من عمال بلدية الاسكندرية ، وهو ثالثة واحد من أبناء الأعيان فى الريف .. وإنما كان يفعل ذلك لكى يضلل مراكز الحراسة التى اقيمتحول المعهد ، ولكى يبلغ التعليمات التى يجب أن يتبعها طلاب المعهد ..

واستمر يقوم باتصالاته ، وتنظيم حركات الاضراب ، والاحتجاجات البرقية على أعمال السلطات الحكومية حتى اقتربت المواعيد الخاصة بامتحانات آخر العام .

هنا انقسم الطلاب على أنفسهم .. فالبعض يحبذ الاستمرار فى الإضراب حتى تجاب المطالب . والبعض يطلب العدول عن الإضراب تمكينا للطلاب من الاستعداد للامتحانات . وكان هو مع الرأى الأول لا يرى فى العدول عن الإضراب إلا إعلانا للافلاس أمام الحكومة ، وتنازلا عن المطلب الأساسى للحركة الطلابية وهو عودة شيخ الأزهر إلى الكرسى الذى تركه منذ شهور .

وللخروج من مأزق الانقسام رأى الجميع أن يستطلعوا رأى « المراغى » شخصيا . وكلفوه هو أن يقوم بالاتصالات اللازمة للحصول على رد يهتدون به .

٦ ـ موظفان فى شركة الألبان :

قبل هذا التكليف ، ولكنه لم يعرف الطريق إلى تنفيذه ، وظل يتردد حتى واتته فكرة اصطحاب صديقه الأثير الى نفسه فى تلك الفترة وكان زميلا له .. ورسم الخطة على اساس أن ينطلقا إلى خارج الاسكندرية ، ثم يبيتان عند اقربائه بالقرب من « عزبة » « المراغى » القريبة من « خورشيد » ومن هناك يذهبان فى الصباح لمقابلة الشيخ ـ على أن يكونا متنكرين فى زى غير أزهرى لكيلايلفتا الأنظار إليهما . وبالفعل قاما بتنفيذ تلك الخطة . وذهبا فى صباح اليوم التالى مشيا على الاقدام حتى بلغا مشارف المزرعة التى تقوم فى طرفها فيلا أنيقة ينزل فيها شيخ الأزهر ـ عندئذ اقتربا من أحد العاملين بهذه المزرعة وأخبره أنهما موظفان فى شركة الألبان . وقادمان للتعاقد على شراء ألبان المزرعة ، ويريدان مقابلة الشيخ من أجل هذا الغرض .

فتح لهما العامل باب « الفيلا » وجلسا ينتظران قدوم الشيخ الذى كان يتفقد أحوال المزرعة إزجاء للفراغ الذى كان يعيش فيه . وما هو إلا وقت قصير حتى قدم الشيخ وكان فارع الطول ، ومهيب الطلعة . يمشى الهوينى كأنه يدل على الدنيا بمشيته .

سلم الشيخ عليهما وهو لا يعرف إلا انهما من موظفى شركة الألبان . ثم انتحى بهما جانبا ، وجلس إليهما

بعد أن هتف بخادمه أن تحضر الشاى

وقبل أن يسأل الشيخ عن الغرض من هذه الزيارة بادره مشير إليه وإلى صديقه : نحن طالبان من معهد الاسكندرية الازهرى .. جئنا لاستطلاع رأى فضيلتكم فيما إذا كنتم سوف تستجيبون لرغبة أبنائكم الإجماعية . وتعودون إلى مركزكم منهم أم لا ؟ ذلك لأن نهاية العام الدراسى أصبحت وشيكة ، والطلاب يخشون أن تصبح جهودهم سدى إذا استمر إصراركم على البقاء بعيدا عن قيادة الأزهر .

هنا أغمض الشيخ عينيه - وكانت تلك عادته إذا تكلم - وقال : يابنى أنا قدمت استقاله مسببة إلى جلالة الملك .. وانتم طلاب لا يجوز لكم أن تلجئوا إلى العنف وأعمال التخريب كما حدث فى بعض المعاهد .. كما أنه لا يجوز لكم أن تضيعوا على انفسكم عاما من أعوام عمركم دون أن تحصلوا العلم ، وتنجحوا فى الامتحان .. لقد سمعت عن حرائق اشعلها البعض فى المبانى التى يدرسون فيها .. وهذا ولا شك خروج عن النظام ، وينطبق عليه قول الله تعالى : « يخربون بيوتهم بايديهم وايدى الذين .. ولم يكمل الآية بكلمة كفروا كما هى فى القرآن الكريم وإنما قال مبتسما « آمنوا » ..

ثم عاد إلى موضوع الاستقالة وقال إنه يرفض إعلان نيته فيما يتعلق بالرجوع عنها ولو طالت المحاولة معه شهرا بأكمله !!

وعلى الفور قال الطالب : وما الموقف إذا لم يقبل جلالة الملك تلك الاستقالة ؟ حينئذ اعتدل الشيخ فى جلسته ثم قال : مولاى فاروق إذا أمرنى بالذهاب إلى مكتبى فسوف أذهب فورا ..

وهنا ظهرت أمارات الفرح على وجه الطالب الشاب وقال : يكفينا ذلك .. لكن الشيخ لم يتركه بل سأله فى رفق عن اسمه - فلما علم منه ما سأل عنه هش وبش وظهرت آمارات الفرح على وجهه هو . فقد كان يسمع من حواربيه عن النشاط والاخلاص اللذين كان يتحلى بهما . فضلا عن أنه كان قد تلقى منه قصيدة تحمل التأييد للشيخ والتنديد بخصوصه .

فهم الطالب الشاب فى هذه اللحظة أن سحابة الشك التى خيمت عند أول اللقاء قد انقشعت ، وحلت محلها أضواء الثقة والاطمئنان .

عندئذٍ استأذن الطالبان للانصراف فاذن لهما بعد أن الح فى استبقائهما إلى موعد الغداء .

٧ - دروس جديدة :

من خلال هذا الصراع الازهرى الذى تقلب فيه ولمدة عام كامل . تعلم عددا من الأشياء التى لم يكن يتسنى له التعرف عليها من قراءة الكتب ؛ فقد أضحت الحكومات فى نظره كائنات يمكن أن تخطىء . وأن تتم معارضتها وشن المعارك عليها - فقط يجب أن يكون المكافحون ضد الحكومات على وعى كامل بمطالبهم ومتحدين فعلا من أجل تحقيق تلك المطالب .. وليس من المهم بعد ذلك أن يكون هناك بعض المخالفين لرأى الجماعة ؛ فهؤلاء يمكن إبطال أثرهم بقوة الاندفاع الجماعية .

عرف ذلك من خلال تعايشه مع موقف اللجنة الوفدية التى تشكلت لكى تكون تيارا مناوئا هدفه تأييد الحكومة .. لقد تعايش مع هذه اللجنة الحكومية التى نشرت بيانا فى إحدى صحف الوفد يتضمن الإدانة لحركة الطلاب الازهريين . ويشيد بالموقف العظيم لحكومة الوفد الممثل لكل الأمة !!

وعندما ثار الأزهريون ضد هذه اللجنة وحاولوا الانتقام منها وقف هو ناصحا لزملائه بالابتعاد عن طريق الانتقام . مؤكدا لهم أن أثر هذا البيان لن يتجاوز صدور ناشريه .. ويكفى هذا الغضب الذى جلبه عليهم .

ومن الدروس الجديدة التي تعلمها ايضا أن قوة الإدارة هي العتاد الذي يجب ان يعتمد عليه أصحاب الحق في مواجهة السلطات . وأن التهديد والوعيد ، والنفي والاعتقال كلها أسلحة مغلولة أمام قوة وصلابة الإرادة .

ووقر في ذهنه منذ ذلك الوقت أن الارادة القوية هي الوقود الذي تندفع به تحركات الجموع ، وأن تحركات الجموع أقوى من كل صور البطش والإرهاب

وإلى جانب كل ما سبق فإنه تعلم كيف يقيم العلاقات مع الآخرين خارج الإطار المحدود للمعهد الذي يدرس فيه .. ومنذ ذلك الوقت اخذت حركة وجوده في النمو من خلال الارتباطات والعلاقات السياسية ، وظهرت عليه بعض ملامح الاعتداد بالنفس ، وعندما أحس بتميزه عن الأقران المحيطين به بدأ يتطلع إلى مصاحبة الكبار وبالفعل أمكنه أن يصير صديقا لأكثر من واحد من الأساتذة الأصفياء

٨ ـ ليالي الثقافة :

عاد الى القرية في عطلة الصيف كما تعود مشتاقا إلى رؤية الأهل والأحباب ، وكانت له في تلك القرية من خفق لها قلبه ، واستقرت في وجدانه . وعاشت في أحلامه منذ شهور طويلة كأنها الدهور ـ عاد وفي حقيبته لها بعض الهدايا المخبأة بين طيات الكتب والمجلات التي كان يجتلبها ليقراها في ليالي القرية الممتعة .

وما إن بلغ داره حتى تهافت عليه المرحبون بمقدمه فحياهم ، وجالسهم ، وسمع منهم وأسمعهم فلما انصرفوا عنه كان أول شيء يعمله هو حمل تلك الهدايا الى فتاة الأحلام التي كانت تنتظره على أحر من الجمر .. وهناك سعد بفرحة اللقاء وغمرته الفرحة من شتى جوانبه ..

وبينما هو ناغم النفس ، منشرح الصدر ، مذهول بما هو فيه عن كل ما حوله جاء اليه من يدعوه للقاء والده فأسرع على غير رغبة منه بعد أن وعد بالعودة مرة أخرى ومرات .

وهناك في دار الوالد أبصر أستاذه الواعظ فاهتاجت خواطره ، واضطربت روحه بشتى المعاني الطيبة .. وسلم وجلس معبرا عن مكنون مشاعره تجاه هذا الصديق الرائع ..

كان وجود الواعظ في داره مفاجأة له أذهلته للحظة عن وجود والده في نفس المكان .. لكنه ما لبث أن تنبه واعتذر ..

وبعد المجاملات المعتادة بين كل صديقين يلتقيان بعد فراق . بدأ يتحدث على سجيته عن مغامرات هذا العام . والصراع الطويل الذي خاضه ضد الحكومة من اجل الأزهر .. وأخيرا عن اللقاء الذي توج مرحلة طويلة من القلق والخوف وكان يقصد بهذا اللقاء ما تم للموظفين المندوبين عن شركة الألبان .

كان يتحدث عن كل ذلك وفي صوته نبرة الفخر ورنين الاعتزاز بالنفس وكأنه الفارس القادم من ميدان القتال

لم يسترح الاستاذ الواعظ إلى ظهور هذه المظاهر على تلميذه . ومع ذلك فإنه لم يخف عليه إعجابه المتزايد بشخصيته التي بدأت تنضج .. ودعاه بكل الاحترام والتقدير إلى استئناف ليالي القراءة .. وهنا قدم التلميذ ما لحضره من الكتب ، من أجل تلك الليالي .. كما قدم الشيخ أيضا ما حرص على استحضاره لنفس الغرض .

وكان اهم ما اتفقا على قراءته أعمال المرحوم مصطفى صادق الرافعي .. ونظرا لأن الكم المطلوبة قراءته كان كبيرا ، فإنهما رسما خطة تعهدا بتنفيذها ، وكان المبدأ الحاكم لتلك الخطة هو الهروب من الأقرباء والأصدقاء معظم الليالي .

ولكي يتم لهما تنفيذ خطة الهرب هذه فإنهما كانا ينامان طيلة النهار ، ولا يصحوان الا عند العصر من كل يوم .. يصحوان فيذهبان معا إلى ناديهما تحت شجرة « **الجميز** » المعهودة حيث يحضر اليهما أحبابهما ، ويظلان

معهم حتى تحين صلاة المغرب وكثيرا ما كانت تتم فى هذا الوقت من كل يوم قراءة الصحف اليومية ، والمجلات الأسبوعية فى هذا النادى المتواضع الجميل حيث الهواء الطلق ، ورائحة النباتات المنعشة فى الحقول . وبساطة المجلس على قش الحلفاء المعد للصلاة

وهكذا كانت تمضى أصائل أيام الصيف فى القرية ، قراءات ومناقشات تنتهى بصلاة المغرب ثم ينصـرف الجميع الى منازلهم .. وبعد العشاء كان يلتقى الاستاذ وتلميذه ثم يذهبان إلى صلاة العشاء فى مصلى آخر بعيد ـ ومن هناك كانا يتخذان طريقا دائريا يعودان معه إلى منزل الطالب الشاب فى شبه تخف عن الأعين التى ترقبهما . فاذا ما استقر بهما المجلس وضعا بينهما مصباح الكيروسين . واسند الشيخ رأسه إلى وسادة . ثم بدأ الطالب يقرأ من حيث انتهيا أمس . وما يزالان على هذا الحال لا يقطع عليهما حبل الاستمتاع بالقراءة غير ما يقدم لهما بين الحين والآخر من أكواب الشاى أو غيرها من المشروبات .

وتأكيدا لهذا الاستمتاع الرائع فإنهما كانا يناقشان ويحاوران أفكار الكاتب الذى يقرءان له .. وفى عديد من الأحيان كانا يختلفان فى الرأى . ثم يعودان الى التصالح حول فهم مشترك .

وكانت الليالى الثقافية هذه تستمر على تلك الصورة حتى يؤذن للفجر فيقومان الى صلاتهما ، ثم يأوى كل منهما الى فراشه لكى ينام .

٩ ـ إقالة الحكومة :

بعد انتهاء هذا الصيف الثقافى الممتع . رحل الشيخ عن القري على أمل الالتقاء بتلميذه بعد اسبوعين اثنين فى احتفالات المولد السنوى للسيد البدوى . وكان التلميذ معتادا الذهاب لتلك الاحتفالات وبخاصة فى ليلة المولد الأخيرة من كل عام

وهكذا جاء الموعد فانطلق التلميذ فى إحدى السيارات الذاهبة إلى « طنطا » وأخذ وهو فى طريقه يرسل حبل الأمانى العذاب من رؤية استاذه الصديق ـ إلى الأنس بأبناء عمه المقيمين عند شيخ العرب السيد . إلى معايشة الدراويش ومحاولة اكتشاف بعض أسرارهم . إلى الاستمتاع بالولائم السخية .. الخ ..

وإنه لفارق فى تلك الأمنيات وإذا بصوت بائع الصحف يصبح .. إقالة حكومة الوفد .. اقالة حكومة الوفد ..

لم يصدق اذنيه ، وامتدت يده بقرش واحد الى البائع فأعطاه صحيفة الأهرام التى نشرها أمام عينيه ليطالع فى صدرها تلك العناوين المثيرة : إقالة حكومة الوفد المشاورات الخاصة بتاليف الحكومة الجديدة تنتهى اليوم . نص خطاب الإقالة الخ

اهتز لهذا الخبر المثير كل كيانه ، وبدأ يقرأ خطاب الإقالة الذى كان صورة من صور الثأر لما وقع بالقصر الملكى منذ سنوات .

« لما كنت حريصا على ان تحكم شعبى حكومة دستورية تنفذ روح الدستور الصحيح وتعمل على توفير الغذاء والكساء لجميع ابناء الشعب . فقد راينا إقالتكم .. شاكرين لكم ولجميع زملائكم الوزراء ما قمتم به خلال توليكم الحكم ..» فاروق .

كان هذا الخطاب الصاعق موجها إلى مصطفى النحاس باشا رئيس الحكومة . وشعر عند قراءته بأنه خطاب إدانة للحكومة من زاوية تفريطها فى الالتزام بالدستورية من ناحية ، وفشلها فى تدبير أمور الغذاء والكساء للشعب من ناحية أخرى .

تهللت نفسه عندما قرأ هذا الخطاب ، وأحس بأن معارك الأزهرين خلال عام كامل قد تكللت بالنجاح . ولفرط

نشوته بما قرأ فإنه قد نسي « طنطا » ونمياته التي كانت تستغرقه منذ لحظات وشرد ذهنه إلى مظاهر السعادة التي عليها الآن كل أصدقائه الذين شاركوه أمل الانتصار على تلك الحكومة وبرزت أمام عينيه صورة الشيخ الأكبر ، وما عساها ان تكون الآن .. وفكر كثيرا في الكيفية التي بها يستطيع أن يقتسم السعادة التي تغمره مع بعض الناس ..

ولأول مرة في حياته يفطن عقله إلى أن السعادة الحقيقية لا يستطاع الاستمتاع بها إلا عن طريق المشاركة فيها .. ولكن كيف ؟ الأصدقاء في عطلة وتتوزعهم المدن والقرى المتناثرة فوق ارض الوطن .. وهو لن يستطيع الالتقاء بأحد منهم الآن .

ولمعت في ذهنه فكرة الذهاب إلى الشيخ الأكبر بمنزله في حلوان . لكنه توقف قليلا قبل أن يقدم على تنفيذ تلك الفكرة .. فهو الآن لا يلبس الملابس الرسمية اللائقة وإنما يضع فوق رأسه طربوشا ويلبس جلبابا صوفيا كأنه أحد أعيان الريف ..

وفي أثناء توقفه عن تنفيذ تلك الفكرة مالت نفسه إلى استبدال برقية تهنئة بها وبالفعل دخل إلى مكتب التلغراف وكتب البرقية وسلمها للموظف المختص .. ومضى يريد الوصول الى مسجد السيد البدوى ولكنه لم يفعل وإنما توقف من جديد .. وأخيرا حسم التردد وانطلق إلى القطار الذاهب إلى القاهرة

وعندما أصبح في القطار راودته بعض التصورات المزعجة .. إن الشيخ الأكبر يسكن في ضاحية حلوان وهو لم يسبق له الذهاب الى هذه الضاحية من قبل . كما أن كل معلوماته عن القاهرة جد قليلة وقد لا تسعفه في الاستدلال على طريقه الذي يجب أن يسلكه بعد الوصول اليها ..

وهكذا بدأت تلح عليه فكرة الاحتيال إلى غرضه بالسؤال عن المواصلات التي تذهب إلى حلوان .. ومال إلى أن يسأل بعض ركاب القطار حتى لا يبدو أمام القاهريين ريفيا ساذجا لا يعرف طريقه في المدينة . ومن حسن حظه ان من سأله كانت حلوان وجهته التي يريد

١٠ - في حلوان

نزل من القطار في صحبة دليله وانطلق معه حتى بلغا الغرض الذي يقصدانه هنالك افترقا وسار هو شبه مذهول ، هذه اذن هي « حلوان » التي كان يسمع أن بها مصحة للصدر منذ جاء اليها بعض مرضى قريته في الماضي !! ولكن أين منزل شيخ الأزهر ؟ قال له البعض ، أصعد شمالا فصعد ولكنه لم يصل الى شيء ، فعاد أدراجه وسأل مرة أخرى فقيل له اصعد جنوبا فصعد ، وتكررت الصورة السابقة .. إلى أن أخذ بيده شيخ مجرب ولم يتركه إلا امام « الفيلا » الخاصة بشيخ الأزهر !!

كانت هناك عشرات السيارات الفارهة تزحم نهر الشارع . وكانت بوابة « الفيلا » تموج بالداخلين والخارجين من كبار رجالات مصر ، وكان المستقبلون والمدعون يظهرون في مظهر ارستوقراطي بالغ التأثير . والكلمات المتبادلة بين هذا الموج الصاخب . أهلا يا باشا مع السلامة يا بيه . مرحبا يا صاحب الفضيلة ..... الخ الخ .

انكمش الطالب على نفسه . وتضاءل كيانه الهزيل .. أين يذهب في هذا الزحام المملوء بالأكابر ؟ .. وحدثته نفسه أن يعود من حيث أتى . ولكنه استهول الرجوع دون أن يحقق الغرض الذي جاء من أجله . فاستجمع أطراف شجاعته ، وأقدم نحو حارس البوابة مندفعا إلى الداخل فاعترض الحارس .. إلى أين ؟ قال إلى فضيلة الإمام الأكبر . وسمع المحاورة أحد القريبين من مكانها فاستدار نحو الطالب وسأله : أقول للإمام من الذي يريد مقابلتك ؟ قال الطالب : فلان ... قالها بثقة كأنه من الأعلام المعروفين . ووقف ينتظر الرد إلى أن عاد اليه من سأله وأشار إليه بيده تفضل .. !!

ومضى خلفه إلى قاعة فسيحة ممتلئة بالزوار .. لم يكن يعرف أحدا فيها سوى شيخ الأزهر .. ولقد أسعده كثيرا اهتمام الشيخ به ووقوفه تحية له وهو فى عمر أصغر أولاده .. وبعد أن سلم عليه أجلسه إلى جواره .. ثم قال له : وصلتنى البرقية وشكرا يا بنى وما كان هناك ما يدعوك للحضور إلينا الآن .. ولكن لا بأس .. ثم أمر باستحضار البرقية فأحضرت .. ودعا أحد الشيوخ لقراءتها بصوت مرتفع لكى يسمع الجميع « انجابت الغمة عن هذه الأمة ، والبقاء دائما للأصلح ، فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض »

انتهت قراءة البرقية واتخذ منها الجميع محورا للتعليقات المنطوية على المجاملة للشيخ ، وعلى الشماتة فى الحكم الراحل فى وقت معا .

وهنا قام أحد الشيوخ من مجلسه ، وكان دقيق الملامح نحيف البنيان ، أشيب الشعر ، فيه صورة من الفهد .. قام وانتقل الى مكان الطالب وصافحه ، ثم سأله فى مودة ظاهرة : أصعيدى أنت يا ولدى ؟

اجاب الطالب : لا

ساله الشيخ مرة أخرى ولماذا تحب شيخ الأزهر وهو صعيدى ؟

اجاب الطالب : كما تحبه انت أيضا .

عندئذ ضحك الشيخ مسرورا بفطنة الطالب.. ولم يشأ الاسترسال فى المحاورة أبعد من ذلك . فقد لحظ أن الطالب تضطرب نفسه مع المشاهد الكثيرة التى يراها الآن . واستشعر أنه أحرجته الأسئلة التى اقتحمته دون سابقة ألفة بينه وبين من سأله .

وكانت الحقيقة التى يعيشها الطالب فى تلك اللحظات حقيقة غريبة عليه . فهو الآن بين كبار السياسيين والاساتذة . وهو لم يسبق له التمتع بمثل هذا الشرف من قبل . كما أنه الآن يحظى باهتمام وتقدير بعض منهم على الأقل . إلى جانب أنه كان يرغب فى التعبير عن نفسه فتخذله الكلمات .

أخيرا قرر أن يتوجه باسم طلاب الاسكندرية إلى شيخ الأزهر يدعوه لزيارة معهدهم فى أى يوم يحدده لكى يكرموه ، وما إن تلقى الشيخ تلك الدعوة حتى قبلها ووعد بتلبيتها فى أقرب وقت ممكن .. وعندئذ استأذن الطالب لينصرف ..

١١ ـ الصديق الأكبر

وهنا قام الشيخ الذى حاوره منذ قليل وقال له فى لهجة آمرة : لا تتحرك قدماك يا بنى قبل ان اتحرك أنا ..

وفى امتثال وأدب توقف الطالب الشاب حتى تحرك الاستاذ الشيخ فتحرك وراءه . وعند الباب تعانق ذراعاهما كأنهما أصدقاء .. وسارا معا حتى بلغا محطة القطار فهم الطالب بالاستئذان لكن الشيخ لم يأذن له . وانما أصر على مصاحبته إلى منزله لكى يتناولا معا طعام الغذاء . وبقدر ما كانت محاولات الاعتذار التى لجأ اليها الطالب ، كانت محاولات الاصرار التى تشبث بها الشيخ .. وأخيرا انتصرت إرادة الأكبر ومضيا إلى المنزل الذى شهد مولد صداقة توطدت دعائمها لعدد طويل من السنين .

كان هذا الشيخ العظيم هو فضيلة الاستاذ محمد عبد اللطيف دراز .. وكانت آية عظمته فى هذا اللقاء الأول أنه كان شديد التواضع مع ضيفه الشاب ، فهو يتحدث معه حديث الأنداد ، وينوع من أساليب الحوار معه لكى يزداد تعرفه عليه .. وبعد قليل اخذ يشعره بأنهما يشتركان فى النشأة الريفية لكل منهما . كما أنهما يتشابهان فى أن كلا منهما ينتسب إلى أسرة كبيرة العدد لها من التقاليد والعادات ما يجعلها عزيزة الجانب وهذا بدوره ينعكس أثره على كل ابنائها ولو كانوا أفقر الناس ، ثم دلف الشيخ بعد ذلك إلى السياسة فأكد للطالب انهما أيضا يتماثلان فى

الاهتمام بالشئون العامة منذ بواكير الشباب ..

واتسعت ساعات الضيافة الأولى لكى يعرف الطالب عن محدثه أنه واحد من أبطال ثورة سنة ١٩١٩ . وأنه بدأ عمله السياسى فى حزب **مصطفى كامل ومحمد فريد** كما اتسعت الساعات أيضا للتعرف على ذكاء الشيخ ومقدرته على تناول القضية الوطنية من زواياه المتعددة طبقا لنظرية الحزب الوطنى الذى كان يرفع شعار رفض المفاوضة إلا بعد الجلاء .

وعندما امتد الحوار بينهما تبين الطالب أن هذا الشيخ ليس ككل الشيوخ الذين يعرفهم .. فهو موسوعة مستنيرة . قادرة على قيادة المشاعر والأحاسيس نحو كل ما هو نبيل وفاضل بين السلوك الجسور الرافض للخنوع والضعة ، إلى القدرة على التضحية النبيلة ، وظهر ذلك واضحا من الاعتزاز البالغ الذى تضمنه حديثه عن ذكريات الزعيم الخالد **محمد فريد** .

وانعقد قلب الطالب الشاب على قلب استاذه الشيخ . وظلا يتحاوران ويتسامران وقد نسى كل منهما مرور الوقت إلى أن أقبل المساء . عندئذ انصرف الطالب من حيث أتى ـ بعد أن استقرت فى ذهنه وقلبه صور من الاعجاب والحب لهذه الشخصية التى اختلفت عن كل الشخصيات التى تعرف عليها فى الماضى ..

ومنذ ذلك الوقت ظل على أوثق العلاقات بهذا الصديق الحميم . واكتشف فيما بعد أن مناط الاعجاب به إنما كان يكمن فى وطنيته الصادقة التى تجلت فى العديد من أحاديثه ومواقفه . كما اكتشف أنه مثل وقدوة فى كثير من صفاته . فهو وفى الى أبعد حدود الوفاء . وهو عزوف عن الدنيا وغير مبال بها وهو شهم كريم يعتمد عليه أصدقاؤه عند الملمات ، وفى ساعات الحرج . وهو إلى جوار كل ذلك غاية فى البساطة وعدم التكلف ، لا يصدر فيما يأتيه أو يدعه عن عقد التعالى ، أو مركبات الغرور الى جانب أنه كان يتمتع بقوة خارقة فى فهم الأشخاص ، فهو لا ينخدع عن المعدن النفيس بغيره من المعادن الرخيصة مهما زيفت نفسها أو بالغت فى الطلاء .

على أن أهم ما كان يسترعى الانتباه فى مسلكه ، هو تلك الفتوة التى لم تعترف بالشيوخة . فهو لم يكن رغم كبر سنه من هؤلاء المتهالكين على انفسهم وإنما كانت له فتوته التى يباهى بها أصغر الشباب .. وكثيرا ما كان يقول فى خطبه أنا لست أضعف من أقواكم

□ □

الفصل السابع :
أشواق الخلاص

١ ـ الاجتماع الأول :

عاد مع العائدين إلى دراسته عند بداية العام الجديد ، عاد وفى قلبه شوق شديد لاكتشاف موقع له فى صفوف المناضلين من أجل الوطن . ولقد بلغ به الشوق حدا لم يكن يمكن تجاهله . فهو قد خاض بعض التجارب النضالية فى العام الماضى ، وهو قد ازداد فهمه لأعماق المأساة التى يعيشها الوطن بعد الجلسة الطويلة التى امضاها مع الشيخ العظيم . وهو قد اقتنع إلى أعمق أعماقه أن الحياة بغير نضال تتساوى مع حياة السوائم .

وتحت إلحاح هذا الشوق العارم بدأ طريقه إلى جماعة الإخوان المسلمين فى إحدى الشعب بالاسكندرية ـ كان ذلك ليلا ، وكان هناك اجتماع منعقد لأعضاء تلك الشعبة ، وكان على واحد من القياديين الإخوان بالمدينة أن يتحدث حديثا توجيهيا فى هذا الاجتماع ، فاستمع إليه ضمن المستمعين . وعلى الرغم من أن الحديث لم يكن مقنعا لوجدانانه المنفعلة بهموم الوطن إلا أنه وجد نفسه فى نهاية الاجتماع يكتب اسمه وبياناته ليصبح عضوا فى تلك الشعبة ، ولكن بعد مناقشات ومجادلات طالت إلى منتصف الليل . ذلك لأن الاخ القيادى كان قد انتهز فرصة وجود طالب معمم وأخذ يكيل العتب واللوم إلى الأزهريين الذين يباعدون ما بينهم وبين جماعة الإخوان المسلمين .. مع أنهم أولى بها من كل من فيها ..

وحول هذا المعنى دار النقاش والجدل الذى انفرد به الطالب بالدفاع عن وجهة نظره .. وملخصها أن الأزهر مؤسسة تعليمية . وجماعة الإخوان جماعة سياسية ، وليس من اللازم أن ينتسب كل الأزهريين لجماعة الإخوان المسلمين ..

لكن وجهة النظر هذه لم ترق لأى من الحاضرين ، وتصدى الاخ القيادى يبين أن جماعة الإخوان المسلمين ليست جماعة سياسية . وعلى فرض أنها كذلك فإن سياستها هى إعادة مجد الدين ، وإنقاذ المسلمين من تدهور أحوالهم ، وليس هناك من هو أولى بالدفاع عن هذه السياسة من الأزهريين . وقد تظاهر على هذا الرأى كل الحاضرين ولم يجد طالبنا فرصة لتنفيذ هذا الرأى فأعلن اختلافه معه ، ثم طلب قيده عضوا ليس بصفته أزهريا وإنما بصفته مسلما لا غير .

وانتهى الاجتماع بترديد الشعارات الاخوانية المعروفة . واهتز قلبه كعادته مع تلك الشعارات التى طالت غيبته عنها منذ كان فى مدينة « دمنهور » ووجد نفسه يخرج فى وقت متأخر من الليل وقد امتلأت جوانحه بالانفعالات المحتدمة ، ومضى إلى مكان نومه فاعتراه الارق . وأدار فى رأسه عشرات من الأسئلة ، ومازالت تلح عليه رغبته فى أن يصنع شيئا لوطنه المنكود الحظ ، حتى اقتنع بأنه سوف يكون عظيما جدا لو استطاع عن طريق عضويته فى جماعة الإخوان المسلمين أن يصنع هذا الشىء . ولم لا ؟ ألم تصنع جماعة المسلمين الأولى رغم ضعف شأنها فى أول الأمر عن طريق الالتزام المؤمن أخطر الأشياء ؟ ومازال بين الأخذ والرد حتى انتهى الى ضرورة العمل فى إطار هذه الجماعة .

٢ ـ النشاط الدعوى :

وفى اليوم التالى وقبل أن يهدأ حماسه . وجد نفسه يسعى للالتقاء بشباب الاخوان المسلمين لكى ينـاقش الوسائل الكفيلة بنشر الدعوة . وتوسيع نفوذها بين جماهير المصريين ... وتواصلت المناقشات ولكنها لم تكشف له عن خطة جاهزة يستطيع بالوقوف عليها تحقيق ما يريد !!

وهداه تفكيره الى تأسيس شعبة خاصة بطلبة المعهد الدينى حيث مجال دراساته . ومـركز صـداقاتـه .. وعلاقات مودته . وبالفعل دعا لاجتماع واسع لتأسيس تلك الشعبة . وطلب من جمهور الطلاب أن يختاروا هيئة المكتب .. وتم انتخابه وبعض أصدقائه الحميمة لتشكيل هيئة المكتب .. علما بأن شعب الاخوان المسلمين لم تتكون بتلك الطريقة . وإنما كان يتحمس شخص فيجمع حوله عدة أشخاص ويعلنون أنهم شعبة ثم يمارسون نشاطهم . لكن شعبة المعهد تكونت من خلال انتخاب جماهيرى مارسه جميع الطلاب ..

وانفتح المجال أمامه منذ تلك اللحظة للعمل والابتكار مع هؤلاء الفتية المتلئين بالحماس . واتفقوا فيما بينهم على أن يكونوا فى مركز الريادة لجميع الشعب الأخرى .. ونتيجة لهذا الاتفاق ، فإنه قد اقترح أن تكون فى المعهد فرقة من الدعاة . مهمتهم التزود بالحقائق الدينية والتدرب على إلقائها إلقاء حماسيا مقنعاً فى مساجد المدينة عقب صلاة الجمعة من كل اسبوع .. ولكى يتم تنفيذ هذا الاقتراح فإنه وضع على عاتقه مسئولية تكوين هذه الفرقة وتدريبها وقيادتها .. ولم يتوان لحظة واحدة عن القيام بهذه المسئولية .. فاختار عددا من زملائه واجتمع بهم . وكلف كلا منهم إعداد خطبة دينية فى أى موضوع يروقه ، على أن تكون مدعمة بالاسانيد القاطعة من الكتاب والسنة وأقوال السلف ومواقفهم .. وترك لكل منهم مهلة أسبوع لكى يعود ومعه المطلوب .

وبعد هذا الأسبوع عاد الجميع للاجتماع .. فسمع من كل منهم . وعدل ، وصوب ثم طلب من كل منهم حفظ ما كتب حفظا جيدا لا تشوبه تعتعة أو لجلجة . وبعد هذه الخطوة الثانية كان له لقاء ثان بهؤلاء الدعاة . سمع ما حفظوا واطمأن تماما إلى سلامة هذا الحفظ ثم طلب من الجميع أن يجتمعوا فى صباح الجمعة .. حتى إذا حضروا دعاهم إلى حمل المصاحف والخروج فى موكب .. وكان عدد هؤلاء الدعاة خمسة عشر شابا بدءوا مسيرتهم من باب معهدهم قبيل صلاة الجمعة بوقت كاف . واخذوا يرددون شعارات الاخوان المعروفة وبأيديهم مصاحفهم المشرعة فوق رءوسهم .. وكانوا كلما بلغوا مسجدا يتركون أحدهم فيه . وهكذا حتى توزعوا على خمسة عشر مسجدا .. فلما انتهت صلاة الجمعة قام كل منهم فى مسجده بإلقاء خطابه إلقاء إثاريا متأججا بالحماس .. وكان هو فى مسجده ساعة القاء خطابه متمثلا المعنى الكبير الذى كان يلح عليه مرشد الاخوان العام كلما تحدث أوكتب . فقد كان من دأبه أن ينطلق الى اقناع الناس من ضرورة التعرف على أحوال أمتهم الجاهدة . تلك الأمة التى « **استولى عليها غيرها . واستبد بشئونها خصمها فهى تجاهد ما استطاعت فى سبيل استرداد الحق المسلوب والتراث المغصوب .. والحرية الضائعة والامجاد الرفيعة والمثل العالية** »[1]

وأدى به تمثله لهذا المعنى إلى إذكاء الحماس فى نفوس الشباب فاستبد بهم أمره وخرجوا معه فى شبه مظاهرة تصدى لها رجال الشرطة وفرقوها قبل ان تغادر منطقة المسجد ..

ثم عاد هؤلاء الدعاة وقد ازدادت ثقة كل منهم بنفسه واستعرض الجميع ظروف كل منهم وما وقع له . وكانت النتيجة رائعة للغاية . عندئذ دعاهم الى تكرار ما حدث مرة أخرى ، ولكن من خلال اعداد خطب جديدة وحفظها على نفس النسق السابق . وبتكرار تلك المسيرة والخطب اكثر من خمس مرات . دعا الجميع الى الاعتماد على ما حفظوا والتصدى بالارتجال الواثق والمعتمد على الله .

وهكذا تكونت فرقة الدعاة من شباب المعهد الدينى بالاسكندرية . وكانت تتتلمذ فى تصـديها للدعـوة على

المقولات المطلقة للمرشد العام للاخوان المسلمين فهزوا العالم كله حائر يضطرب . وكل مافيه من نظم قد عجز عن علاجه . ولا دواء له إلا الاسلام . فتقدموا باسم الله لانقاذه فالجميع فى انتظار المنقذ ، ولن يكون المنقذ الا رسالة الاسلام التى تحملون مشعلها وتبشرون بها أيها الشباب »[٢]

٣ ـ النمو السريع .

وفى شهور معدودة حدث برد الفعل المباشر لهذه النشاطات المتواصلة فى حقل الدعوة من خلال المساجد ، نمو سريع فى عدد الشعب ، وعدد المنتسبين الى جماعة الاخوان المسلمين بالاسكندرية .. فلقد كان عدد الشعب قبل هذه النشاطات لا يزيد عن أصابع اليد الواحدة ، وبفضل هذه النشاطات بلغ تسعا وثلاثين شعبة منتشرة بين شتى الأحياء والمصالح والهيئات . وصار من المألوف ان تقام الاجتماعات الحاشدة فى كل حى لكى يتبارى فيها الدعاة حثا للشعب على الانضمام الى صفوف الاخوان المسلمين . وفى هذه الاجتماعات كانت الاثارة الوطنية والسياسية هى الصنو المكمل للاثارة الدينية والروحية . وكان الربط بين حل المشكلات الشخصية وبين حلول المشكلات العامة هو الذى يعطى للاخوان صورة الوضوح والقوة . ويضفى عليها من الثقة ما لم يكن لها من قبل .

فى ظل هذا المناخ تكاثر المنتمون الى الجماعة ، وتضاعف نشاطهم ، وكثرت التبرعات السخية وتعدى تأثيرهم حدود المدينة الى الضواحى والقرى ، ولم يكن فى مصر آنذاك من يستطيع حشد عشرات الآلاف فى اجتماعاته سوى الاخوان المسلمين . وعكست هذه الصورة نفسها على نفسيات الخصوم فراحوا يخطبون ود تلك الجماعة .. ويتقربون اليها

حدث يوما أن اتصل المركز العام للاخوان المسلمين من القاهرة بمنطقة الاخوان فى الاسكندرية . وكان هذا الاتصال فى تمام الساعة السادسة مساء . وكان فحوى الرسالة المبلغة يدور حول ضرورة حشد أكبر عدد ممكن من المواطنين بالاسكندرية لسماع الخطاب الجامع الذى سيلقيه فضيلة المرشد العام فى السادسة من مساء الغد .. وللاشتراك فى المؤتمر الذى سيلقى فيه هذا الخطاب .

وبقدرات خارقة تم استئجار دار للسينما الصيفى بمحرم بك ، وطافت كتائب الدعاة والجوالة بشوارع المدينة من أقصاها الى أقصاها تدعو لهذا المؤتمر الحاشد وتبشر الوطنيين بدحر الاستعمار .. وظلت تطوف من وقت ابلاغ المكالمة الى ما بعد منتصف الليل ..

وفى صباح اليوم التالى كان المكان الذى أعلن عن عقد المؤتمر فيه يتم تجهيزه بالاثاث اللازم . ومكبرات الصوت .. ومولدات الانوار الاساسية والاحتياطية الخ وهكذا حتى حان موعد انعقاد المؤتمر فاحتشد عشرات الآلاف .. وكان فى مقدمة الحاضرين بعض اقطاب حزب الوفد .. ومنهم **فؤاد سراج الدين « باشا »**

يا سبحان الله . هذا الوفد الذى اغلقت حكومته جميع شعب الاخوان منذ سنوات .. يحضر اليوم أكبر مؤتمر لهم !! وها هو ذا أمل الامة فى الخلاص يقترب .

٤ ـ وطنية المؤتمر :

كان الذين حضروا الى هذا المؤتمر يأملون أن يحققوا من ورائه بعض المكاسب الوطنية ، ذلك لأن مصر كانت ترقب كغيرها من المستعمرات نهاية الحرب لكى تستأنف مسيرتها من أجل الحصول على استقلالها .

ومن هنا تعلقت القلوب والعقول بأفواه المتحدثن من فوق المنصة العالية .. وازداد تعلقهم بكلمات المرشد العام

الذى ركز حديثه تركيزا أراد منه ان يحدث أثرا يبقى ولا يضيع فى زحمة القضايا الفرعية الأخرى
واستنادا إلى هذه انفوة الظاهرة لجماعة الاخوان المسلمين واستصحابا للمشاعر الوطنية المتأججة . كانت كلماته قوية رصينة واعدة فقد أكد للحاضرين أن القضية الأولى لمصر المسلمة . هى التحرر من الاستعمار الذى جلب الخراب على مصر وعلى غيرها من بلدان العالم الاسلامى كله ، منذ أزال خلافته ، وشتت كلمته ، وفرق جماعته ، وزرع الأحقاد والضغائن فى كل شبر فيه
وانطلاقا من الآية الكريمة .. « واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا » قال إن دعوة الاخوان المسلمين جوهرها الدعوة للاتحاد والاعتصام بحبل الله المتين .. ونبذ كل المفاهيم المغلوطة التى ادخلت الزيف الى العقول والقلوب .. ثم قال : إن الاخوان يحتضنون كل من يقبل على دعوتهم .. مهما يكن موقفه منهم فيما مضى .. وهذه هى سماحة الاسلام

وتعميقا لمشاعر الكره للاستعباد والاستعمار ، ربط بين شهادتى ألا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وبين رفض العبودية فى شتى مظاهرها واشكالها فالإسلام القائم على توحيد الحق لا يتضح معناه إلا بتوحيد الخلق فى ظل عدله الوارف الذى لا يميل ولا ينحرف . وضرب مثلا بمقولة ابن الخطاب الشهيرة فى واقعة القصاص من ابن عمرو بن العاص لابن المصرى المهين . كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم احرار ؟

ولم يشأ أن يغادر موقعه حتى يعد الناس بنصر الله الذى وعد عباده المؤمنين فى قوله جل ثناؤه « وكان حقا علينا نصر المؤمنين » مؤكدا لهم أن وسيلة النصر الأولى هى الاقتراب من الله ، وصدق التوكل عليه ، وضر مثلا لذلك بالذى حدث من نوح حينما استعصى عليه قومه وغلبوه على أمره . فما كان منه إلا الدعاء « فدعا ربه انى مغلوب فانتصر .. ففتحنا ابواب السماء بماء منهمر ، وفجرنا الأرض عيونا فالتقى الماء على أمر قد قدر ، وحملناه على ذات الواح ودسر تجرى باعيننا جزاء لمن كان كفر »

٥ ـ اللقاء الخاص :

واعقب هذا المؤتمر الحاشد لقاء خاص بمرشد الجماعة ، دعى إليه خاصة الإخوان المسلمين تحت عنوان « إخوان المرشد »
وحضر طالبنا الشاب النشيط هذا اللقاء . لانه كان فى نظر من دعوا إليه واحدا من هؤلاء الخاصة . حضر وفى ظنه أنه سوف يستمع إلى ما لم يقله المرشد العام فى المؤتمر . وبالفعل علم من بعض الإخوان أن إخوان المرشد من خصائصهم ان يكون الواحد منهم تحت أمر وطلب القيادة فى اى وقت تشاء ، وأن تكون له القدرة على الطاعة العمياء ، ودون أى مناقشة ! !

سأل من أعلمه بذلك : هل أفهم من ذلك أن هناك أعمالا خطيرة سوف نقوم بها ضد الاستعمار ؟ وجاءه الجواب السريع . وهل تشك فى ذلك ؟ فسكت .

وانعقد اللقاء ، وحضر فضيلة المرشد العام . وطلب إلى الحاضرين أن يناقشوا معه ما يريدون مناقشته مما يشغل افكارهم ، حينئذ انهالت الاسئلة والاستفسارات ، وكانت كلها تعكس الرغبة العارمة فى نفوس

الشباب نحو الطريق الذى يجب أن يسلكوه حيال النضال الوطنى ، كما كانت تعكس القلق البالغ من لجوء الحكام إلى إغراق القضية المصرية فى دوامة المفاوضات والمحادثات والمباحثات من جديد . وجاءت إجابات المرشد العام قاطعة حاسمة ، فقد وعد الشباب بأن هناك خطة تتم دراستها هدفها تحديد المسار العملى للجهاد المباشر ضد قوات الاحتلال . كما وعد بعدم تمكين الحكام من لعبة المفاوضات مرة أخرى .. وقال فى هذا الصدد كفانا من المماطلات كل هذه السنين الطوال ! !

وعندما طرح السؤال عن المفاوضات بصورة أخرى قال : إن هذه المفاوضات لن تتم ، وأن المتعلقين بها إنما يتعلقون بالأوهام .

ترك هذا اللقاء فى نفسه انطباعا بأن المرشد العام يتكلم كلام الواثق المقرر المتمكن من تنفيذ القرار . الأمر الذى ضاعف من همته . وهمة الكثيرين من الشباب الذين حضروا هذا اللقاء ، وتحول بهم إلى قذائف مندفعة لا تتوانى عن أى عمل ، ولا تتقاعس عن أى أداء .

وانغمس صاحبنا فى المعمعة ليلا ونهارا ، فهو دائما فى اجتماعات ، ولقاءات ، وأحاديث ، واشتهر أمره فى الإسكندرية بوصفه خطيبا قادرا على إثارة الوجدانات والمشاعر ، وامتد نشاطه إلى القرى الكثيرة من أعمال إقليم البحيرة ، وافتتح فى قريته شعبة للإخوان المسلمين .. وكان لا يعطى لدراسته من الوقت إلا أقله ، بينما يعطى أغلب وقته للعمل الإخوانى الدءوب .

٦ - إرهاصات المعارك :

كانت الحرب العالمية الثانية على وشك الإنتهاء . فقوات دول المحور تتداعى عليها الهزائم فى جميع الجبهات ، وقوات الحلفاء تتقدم صوب الإجهاز الأخير على فلول تلك القوات . وفى تلك الظروف التى تتعلق فيها أنظار كل الناس بالآمال المرتقبة بعد الحرب . أعلنت مصر رسميا الحرب على ألمانيا الهتلرية فى أوائل عام ١٩٤٥ ، وكان هذا الإعلان فى مجلس النواب ، وعلى لسان رئيس الوزراء إذ ذاك « أحمد ماهر باشا » .

وبعد هذا الإعلان بأيام قلائل تم اغتيال ماهر باشا . عندما كان طالبنا الشاب فى مهمة إخوانية بمنطقة الدخيلة ، وبينما هو عائد من مهمته تلك سمع نبأ الاغتيال ، وتوقع شرا من وراء هذا الحدث المؤسف ، ذلك لأن الشائعات بدأت تنطلق ملصقة التهمة بجماعة الإخوان المسلمين . غير أنه لم يكترث لهذا الأمر كثيرا ، ولم يصدق الشائعات التى تكاثرت ، ربما لأنه كان يعرف من تاريخ أحمد ماهر ومحمود فهمى النقراشى وغيرهما من أبطال ثورة سنة ١٩١٩ ما يستحيل معه تصديق أن الإخوان يُدبرون لقتلهم .

والمهم أنه تماسك على نفسه ، وظل يرسخ قدميه على أرضية الإخوان المسلمين . ويسعى معهم إلى ما يسعون إليه وهو واثق كل الثقة من أن معركة نصرهم على الاستعمار أضحت وشيكة .

وعلى الجانب الرسمى كان النقراشى باشا قد أصبح رئيسا للوزارة خلفا لسلفه زعيم السعديين . وكانت هناك لقاءات ومحادثات ، وخطابات يتم تبادلها بين مصر وحكومة المملكة المتحدة . ولم يكن هناك

ما يطمئن إلى أن المستعمرين سوف ينسحبون من البلاد أو يعوضونها عن خسائر الحرب أو المساعدات التى قدمتها مصر فى حربهم ضد دول المحور

وعلى الجانب الآخر كان المصريون كل المصريين يتضررون ويتضجرون ، ويتململون سُخطا وغضبا ، ويتلمسون طريقا إلى الالتحام الجرىء فى معارك التحرر الفاصلة ومن أجل ذلك كان طالبنا الشاب يكثر الأسئلة مع قادة الإخوان عن مدى الاستعداد للمعارك المرتقبة ، وعن الخطوط العامة لخطة تحريك الشعب وقيادته فى معركة المصير ، وغالبا ما كانت الإجابات مؤكدة أنه بدون الإخوان لن تكون هناك أية معارك وأن الاستعدادات ليوم الفصل قائمة على قدم وساق . ومن هنا كانت ثقته فى اقتراب يوم الخلاص تتزايد ، على الرغم من أنه شخصيا لم يرأى مظهر من مظاهر هذه الاستعدادات سوى هذا النشاط الإثارى العام .. وكثيرا ما كان يقول لنفسه : إن المعارك فى هذه المرة يجب أن تكون مسلحة ولا بد لمن يريد قيادتها من وضع ذلك فى حسابه ..

٧ - ذكرى وعد بلفور سنة ١٩٤٥

حلت هذه الذكرى المشئومة فى هذا العام وصدور الوطنيين تغلى بالحقد على المستعمرين ، وتنتظر أية فرصة لإعلان الاحتجاجات على جرائمهم ومخازيهم ، وكان لابد من أن ينفجر السخط المكتوم ضد حكومة المملكة المتحدة ، فهى التى منحت الصهاينة حق إقامة وطن قومى لهم فوق أرض فلسطين العربية ..

وفى اليوم السابق على حلول تلك الذكرى تم اتصال هاتفى من المركز العام للإخوان المسلمين بالقاهرة ، يدعو قيادات الإخوان فى مدينة الاسكندرية لكى يشرفوا على تنظيم المسيرات والاحتجاجات على أوسع نطاق غدا الجمعة ٢ من نوفمبر .. مع ضرورة الإبراق إلى الجهات المسئولة لكى يحاطوا علما بصورة الاحتجاجات والهدف منها .

وتبعا لهذا التكليف التقت هذه القيادات بطالبنا الشاب ، وأبلغته فحوى الاتصال الهاتفى ، وطلبت منه تنظيم إخوان المعهد وتكليفهم قيادة هذا اليوم على أوسع نطاق ممكن . وعندئذٍ صدع بالأمر . ونزل إلى المعهد ودعا إخوانه للاجتماع ، وأبلغهم ما تلقاه ثم طلب منهم الخروج إلى المساجد لكى ينطلقوا بالمصلين بعد الصلاة عبر شوارع المدينة هاتفين بسقوط وعد بلفور والصهيونية ، وبحياة فلسطين العربية .. وعليهم بعد ذلك أن يتجهوا بالجموع الغفيرة إلى مراكز المسئولين لكى يسجلوا رسميا صور الاحتجاج على هذا الوعد المشئوم .

وفى نهاية الاجتماع أعلن تكليف نفسه وآخرين معه قيادة اليوم فى كل من ادكو ورشيد .. وإنما اختار لنفسه ومن معه هذا التكليف لأنه أشق ، وهو يطمع فى الجزاء الأوفى ، حيث المثوبة بقدر المشقة .

ورغبة فى إثارة المشاعر وحفز الهمم ، فإنه قال لإخوانه بعد الاجتماع لا تنسوا أن هذا اليوم يوم جهاد فى سبيل الله والمسجد الأقصى وأكد أن عليهم ألا يتهيبوا من أى عنف حتى يؤدوا واجبهم خير أداء

وجاء الصباح فانطلق مع اخويه إلى قطار رشيد ، وفى القطار جلس ثلاثتهم يتذاكرون ما يجب أن يقوم به كل منهم إلى ان بلغوا مدينة ادكو عندئذٍ نزل من كلف العمل فيها ، وكان الاتفاق أن يصلى الجمعة فى أكبر مساجدها ثم ينطلق بالناس بعد إثارتهم عبر الشوارع المؤدية إلى مركز الشرطة لكى تتم إثارة الشعب ، ثم يقوم الجميع بابلاغ الإحتجاج

ومضى هو وصاحبه إلى مدينة رشيد .. وهناك توزعا .. طالبنا الشاب فى المسجد الكبير ، وصديقه الذى يرافقه فى المسجد الذى يليه . وبعد صلاة الجمعة وقف كل منهما خطيبا منددا بالاستعمار الانجليزى ومذكرا بوعد بلفور المشهور ، وحاثا للناس على الجهاد فى سبيل الله من أجل المسجد الاقصى . أول القبلتين وثانى الحرمين . وخرجت من المسجدين مظاهرة كبرى تهتف بسقوط الصهيونية والاستعمار وبحياة الأمة العربية وفلسطين .

فلما بلغت المظاهرة مقر الأمن تقدم هو وصاحبه إلى تسجيل احتجاجات المتظاهرين وتقديمها للمسئولين . ثم ابرق الجميع بما ثم لرئيس الحكومة ووزير خارجيته . والأمين العام للجامعة العربية التى كانت قد وقع ميثاقها منذ مارس ١٩٤٥ .

بعد ذلك تفرق المتظاهرون إلا نفرا من إخوان رشيد. ظلوا مع ضيفهم حتى ما بعد صلاة العصر .. وعندما جاء موعد القطار الذاهب إلى الاسكندرية ركبا وهما سعيدان كل السعادة بكل ما قاما به فى هذا اليوم . لكن طالبنا الشاب كل مشغول الفكر والبال بأمر من ذهب إلى ادكو ، ومن بقوا فى الاسكندرية . واشرك صديقه فى الذى ينشغل به فهوّن عليه الأمر ، وقال له : بعد قليل ستعرف كل شىء ، ولابد أن الأمور سارت على نفس الصورة التى سارت بها فى مدينة رشيد باذن الله

٨ ـ المفاجاة القاسية :

وعند الوصول إلى محطة الاسكندرية ، فوجىء طالبنا الشاب بمن يتشبث بذراعه ليخبره أن عددا كبيرا من طلبة المعهد مقبوض عليهم ، وهم الآن فى أقسام البوليس . عندئـذ سأله عن سبب حضـوره إلى محطة السكـك الحديدية .. فأخبره أن الجميع قالوا إنك فى مدينة رشيد ونحن ننتظرك منذ ثلاث ساعات .

كانت الساعة تشير إلى التاسعة مساء ، وأراد أن يعرف الذى حدث وأدى إلى القبض على الطلاب . فقيل له لم يحدث شىء ، فقد كان الطلاب ما يزالون فى طريقهم إلى صلاة الجمعة . وكانوا يسيرون بشكل جماعى فتصدى لهم البوليس وفرقهم بعد القبض على عدد كبير منهم ..

اهتم بأخبار الإخوان المسلمين من غير شعبة المعهد فلم يجد شيئا يذكر ، حتى ولا نوعا من المواساة لمن قبض عليهم !! وسأل ألم تخرج مظاهرات فى المدينة ؟ فأجيب لا !! وعندئذٍ انطلق مسرعا إلى مقر قيادة الإخوان فى مدينة الإسكندرية ، بعد أن طلب من الطلاب الذين كانوا معه فى مبنى المحطة انتظاره عند قسم البوليس .. وفى هذا المقر وجد بعض القادة ـ سامحهم الله ـ جالسين وكأن شيئا لم يكن ، فاهتاجت نفسه ، وحاول ضبطها وسأل بعد أن سلم ما الذى حدث ؟

قال احدهم : لا شىء !!

سأل مرة أخرى : لماذا لم تنفذوا ما اتفقنا عليه أمس ؟

قال احدهم : لأن تعليمات جديدة جاءت من القاهرة تلغى ما اتفقنا عليه !!

سأل : ومتى جاءت هذه التعليمات ؟

قال احدهم بعد الثانية عشرة من مساء أمس !!

سأل : وماذا كان فحوى هذه التعليمات الجديدة التى وردت بعد منتصف الليل ؟

- فحواها منع الخروج فى مظاهرات أو تجمهرات خوفا من الاصطدامات التى لا لزوم لها !

- سبحان الله !! وإذا كان الأمر كذلك فلماذا لم نبلغ بهذه التعليمات ؟ لماذا تركتمونا نذهب ونتعرض لما تعرضنا له ؟ أو لم تكن هناك احتمالات للاصطدامات الدامية ؟

- كان الوقت متأخرا ولم نستطع الإبلاغ !!

- حسن جدا .. وليس الآن وقت الكلام !!

وانطلق إلى المقبوض عليهم . وكانوا مجتمعين فى قسم المنشية .. وكان ما يدور فى ذهنه أثناء انطلاقه إليهم نوع من التساؤلات الحائرة ، حول سلوك تلك القيادات وأسبابه . انه لم يكن يعقل التعلل بالوقت المتأخر من الليل ، ومن ثم فهو مرتاب فى الأمر .. وحتى لو صدق هذا التعلل غير المقبول فكيف يصدق أن القيادة العليا تصدر تعليمات ثم تلغيها بعد قليل .. وماذا عساها أن تكون الأسباب التى تدفع إلى ذلك ؟ .

ولم تزل تتردد أصداء تلك التساؤلات فى نفسه حتى بلغ قسم البوليس ، فشغل نفسه بالتسليم على المقبوض عليهم ، وسؤالهم عن احتياجاتهم التى يريدونها .. واستحضار المأكولات اللازمة لهم .. وهداه تفكيره للاتصال تليفونيا بشيخ العلماء محمود ابو العيون . وكان صاحب مركز مرموق ، ونفوذ قوى فاستنجد به ..

وتحركت عواطف الأبوة فى الشيخ ، فاتصل بالجهات المسئولة ، ويسروا له أمر الحضور إلى القسم ليضمن الطلاب قبل الإفراج عنهم .. وقبل الشيخ القيام بهذه المهمة الشاقة على شيخوخته . وحضر فى هذا الوقت المتأخر من الليل . وبعد قليل من الإجراءات خرج الطلاب فى الساعة الواحدة من بعد منتصف الليل .

خرج معهم وذهنه شارد من مرارة المفاجأة القاسية التى اعترضته وهو قادم لتوه من مدينة رشيد !! ولم يخفف تلك المرارة فى نفسه حضور بعض المحامين من قيادات الإخوان المسلمين بالإسكندرية إلى قسم بوليس المنشية إثر وصوله إليه . ذلك لأن الأمر فى نظره أكبر وأخطر من أن يمر دون الوقوف على جلية الحق فيه .

٩ ـ تكشف الحقيقة :

وشاء الله أن يعرف فى صباح اليوم التالى عن طريق بعض القادمين من القاهرة أن يوم أمس كان يوما مشهودا فى تاريخ مصر .. ذلك لأن المرشد العام للإخوان المسلمين صلى فى الأزهر ، وخرج محمولا على أعناق المصلين فى مظاهرة ضخمة طافت بأهم شوارع المدينة ، وردد فيها المتظاهرون معه ما لو تم جمعه لكوّن كتابا بأكمله .

وعزز ذلك من سوء ظنه بهؤلاء المسئولين المحليين فى الاسكندرية ، وقال لنفسه لو كانت هناك تعليمات جديدة كما يقررون ، فلماذا تظاهرت القاهرة خلف المرشد العام ؟ وانتقل ذهنه إلى إبلاغ تلك التعليمات المضادة لو صحت فافترض أن يكون إبلاغها من شخص سيىء القصد ، ثم تساءل عن هوية الشخص وأغراضه ، والطريقة التى عرف بها خطة اليوم قبل أن تنفذ .

وشيئا فشيئا تراكمت عليه سحب الأحزان لانه تكشف له ان بين الإخوان من يكذب .. ذلك لأن التعليمات الجديدة المزعومة صارت فى نظره محض اختلاق ، والذى اختلقها إما المسئولون المحليون تبريرا لجبنهم عن مواجهة اليوم . وما كان يكتنفه من شتى الاحتمالات . وإما شخص آخر المركز العام للإخوان المسلمين وكلا الأمرين ـ لو صح ـ كارثة بكل المقاييس

ومن هنا أخذت تلح عليه نفسه فى ضرورة التعرف على شخصية الكذاب المدعى صاحب الفكرة المفضوحة عن

التعليمات الجديدة ، لكنه بعد قليل اكتشف أنه لن يستطيع . فأضمر الأمر فى نفسه ولم يبح بـه لأى احد عـلى الاطلاق . حتى لا يشيع الشك فى نفوس الآخرين من الإخوان الأنقياء . وركن إلى أنه لابد من أن يكشف المجرم نفسه فى يوم من الأيام مهما توارى أو تخفى عن أعين الناس .

لكنه منذ ذلك اليوم الزم نفسه بأن يكون على حذر حتى وهو بين جند الله المخلصين ! على أن الحذر لم يحجب ثقته المطلقة فى جماعة الإخوان ، وقدرتها على الوصول بالوطن إلى التحرر الكامل من شرور الاستعمار . وحسبه أن مثل هذه الأحداث كانت تقع على عهد الرسول صلى الله عليه وسلم . فلقد كان هناك المنافقون والمراءون ، وذوو الوجهين . ومن ثم فإن افتراض الصدق فى كل من ينتسب إلى جماعة الإخوان ليس الا نوعا من السذاجة ـ فمن الممكن أن يندس بين الصفوف من ليس فيها .

لكن الأمر على اية حال يقتضى إبلاغ المرشد العام كى يضع هو لكل شىء حسابه وبالفعل كتب تقريرا عن الواقعة كما وقعت وسلمه بيده إلى إمام الجماعة فى القاهرة .

١٠ ـ بداية الإعتماد على النفس :

كان لما حدث فى ٢ **نوفمبر ١٩٤٥** أثره المباشر عليه ، فبدأ يفكر فى كل ما يسمع أو يتلقى من تعليمات ، واستمر واحدا من الإخوان كما كان . لكنه لم يعد يثق تلك الثقة العمياء فى كل ما هو إخوانى جميل !! وأخذ يعطى بصيرته وعقله فرصة التدبر الواعى عند كل خطوة يخطوها .

ولما كانت قضية الخلاص الوطنى هى شغله الشاغل منذ سنوات طوال ، فإنه راح يتحسس الطرق المؤدية إلى المساهمة فى هذا الخلاص . كان يحضر الاجتماعات الإخوانية بانتظام . وكان يسأل فى كل اجتماع عن التعليمات الخاصة بالعمل الوطنى ، وفى كل مرة كان يتلقى تلك الإجابة التقليدية : **لم ترد إلينا اية تعليمات حتى الآن** .

عندئذٍ كان يخرج من تلك الاجتماعات لكى يلتقى مع بعض شباب الأحزاب الأخرى .. لمصر الفتاة ، وحزب الوفد ، وغيرهما .. وكان همه الكبير أن يعثر على من يجد عنده شيئا يشفى تحرقه للعمل الفعال . ولكنه ـ وياللأسف ـ لم يكن يظفر بشىء !! فالكل كان يرابط على ما تعوده من أساليب الحياة ، والتفكير والتطلع ، اللهم إلا بعض من لقيهم فى أيام مقاومة العربدة الإنجليزية بمدينة الإسكندرية . **فهؤلاء كانوا مثله يشعرون نفس مشاعره . ويحسون نفس إحساساته ، يتململون بالضجر من العجز عن الحركة ، وينتظرون من القادة الكبار أن يقودوا خطاهم . وكانوا حينما يلتقون بمحض الصدفة يتناجون بالشكوى من هذا الوضع الزرى ، وكثيرا ما كانت تنعكس عليهم تلك المقولات الإنهزامية عن انه ليس فى الإمكان إلا ما كان !!**

وضاق ذرعا بنفسه وبمحاوراته التى آجراها مع العديد من الناس ، وكاد أن يقضى الملل على كل مصادر الحماس فيه . ذلك لانه قد ادرك أن القادة الوطنيين القدامى قد تحولوا مع السن ، وأبهة الحكم إلى حالة لا يستطيعون معها قيادة الشعب نحو طموحاته الثورية ، وأدرك أيضا أن المرشحين الجدد للقيادة من زعماء الجماعات والأحزاب غير التقليدية ليست لديهم خطط واضحة للعمل .. واصبح واضحا لديه أن الأمر بحاجة إلى نوع من القيادات الشابة .. القادرة على الإنطلاق بهذا الشعب إلى تحقيق آماله .. وساورته فكرة الاعتماد على النفس دون انتظار لأية قيادات اخرى ، ولكن كيف ؟

١٠ ـ مذكرتان وموقف

وإنه لفى حيرة وألم شديدين وإذا به يطالع فى صحف الصباح ذات يوم من يناير ١٩٤٦ مذكرتين حول القضية الوطنية المصرية الأولى توضح وجهة نظر الحكومة المصرية ، وتطرح مطالب الشعب العادلة فى الحرية والاستقلال .. والأخرى توضح وجهة نظر حكومة العمال البريطانية فى الرد على ما أثارته المذكرة السابقة

قرأ المذكرتين وشعر بالخزى والعار ، ذلك لأن مذكرة الحكومة المصرية الممهورة بتوقيع « النقراشى » صاحب التاريخ الوطنى العريق كانت شاحبة هزيلة متهالكة . بينما مذكرة الحكومة البريطانية الممهورة بتوقيع وزير خارجية حزب العمال « بيفن » تبدو متعالية ومملوءة بالصلف والغرور ، وشتى صور الاستفزاز والاستهانة [١]

أحسَّ طالبنا الشاب بحاجته الملحة للحديث مع شخص أو أشخاص يهمهم ما يهمه ، وساقته قدماه إلى مقر جماعة الإخوان المسلمين . وهناك التقى بالبعض . وناقشهم فيما نشرته صحف الصباح من نبأ المذكرتين اللتين تلخصان المأساة الحقيقية للوطن . وطالت المناقشة ، وكانت نبرات صوته تعبر عن قسوة الألم الذى يشعر به . وكأنه كان يريد أن يندفع بمن يناقشهم إلى أى عمل فورى ينزع الفتيل ويفجر الموقف ، ولكن هيهات !! قيل له لابد أن قيادة الإخوان سوف تزودنا بالتعليمات اللازمة .. ونحن فى انتظار .

ومر يوم ، ويوم ، ويوم ولا تعليمات !! وادار هو التفكير مع ذاته عددا من المرات ، ثم قرر ألا ينتظر أية تعليمات من أى أحد .. واجتمع مع نفر من أصدقائه الأصفياء ، وتحدث معهم وإليهم موضحا أن مصر اليوم فى حاجة إلى جهود أبنائها . كل أبنائها لكى يستخلصوا حقوقها من براثن المستعمرين ، وبين أن الفرصة اليوم مواتية لأن الشعب كله يغلى غليان المرجل فوق النار ، وقال . إن الانجليز الخارجين من الحرب وبرغم الانتصار الذى أحرزته جبهة الحلفاء ـ لابد أن يكونوا أضعفُ منهم فى أى عهد سابق ـ وإذا كان الثوار القدامى قد وصلوا إلى المستوى الذى وصل إليه رئيس الحكومة فى عرضه للقضية ، فإن مصر يجب أن تقرر أمرها بثوار آخرين ثوار تصنعهم الأحداث . وتصهرهم نيران المعارك .. ومن الممكن أن نكون نحن هؤلاء الثوار المنتظرين . ولكى نكون كذلك فإننا يجب أن نتصدى للعمل الوطنى معتمدين على أنفسنا ، وعلى الله القادر على نصرتنا .

وظل يلح على ضرورة التفكير وإعداد العدة للبدء ، مندداً بروح الإستسلام والتواكل التى سوف تضيع الفرص المواتية لكسب الحقوق حتى سأله بعض أصدقائه

- ماذا يمكن أن نعمل ؟
- ندعو الشعب للثورة
- وكيف ؟
- نبدأ بجمع مبلغ قليل من المال تحت اسم مشروع « **مكافحة الأمية الوطنية** » ، ثم بعد ذلك نوظف هذا المبلغ فى استخدام الوسائل الكفيلة بنشر الدعوة إلى الثورة
- ومن أين نجمع هذا المبلغ مهما يكن قليلا ؟
- من الواثقين فينا . زملائنا . أساتذتنا . أصدقائنا . وأهلينا لو أمكن .
- وكيف ؟
- نتوزع لجانا . لكل نوعية من النوعيات التى ذكرت لجنة ، وعليها أن تتصرف فى طريقة الجمع كما تشاء . بحيث نلتقى بعد ثلاثة أيام ، وتقدم كل لجنة ما جمعت
- وبعد ذلك ؟
- وبعد ذلك نجتمع لنقرر الخطوة التالية

واقتنع الجميع بعد هذه المحاورة بتكوين اللجان . واختار هو لجنة الأساتذة نظرا لما كـان له من دالة على العديدين منهم فقد كانوا يقدرون له جديته فى طلب العلم ، ويحمدون له عددا من الخصـال الطيبة فيه .

وهكذا انطلق ومعه أعضاء لجنته إلى هؤلاء الأساتذة فى منازلهم فى نفس الليلة التى تكونت فيها اللجان . وكان يطلب من كل منهم تبرعا **للجنة مكافحة الأمية الوطنية** . فإذا سئل من أعضاء هذه اللجنة ، قال : أنا واحد منهم . وإذا قيل له وما عمل هذه اللجنة ؟ قال « **محو الأمية الوطنية** » ثم يكف عن البوح بأكثر من ذلك .

والغريب أن جميع الأساتذة كانوا أسخياء فى البذل ، فلم يحجب أحد تبرعه عن هذه اللجنة المجهولة الهوية ، وتفاوتت التبرعات ما بين ريال أو اكثر ، ولكن أحدا لم يدفع اكثر من جنيه .

أما اللجان الأخرى فقد انطلقت كل إلى وجهتها ، ثم عادت فى الموعد المحدد لاستعراض الحصيلة . وكانت جملة المبالغ التى تم تحصيلها لا تزيد عن عشرين جنيها . ومع ذلك فقد اجتمعت **لجنة مكافحة الأمية الوطنية** فى ركن من أركان **المعهد الدينى بمدينة الاسكندرية** ، وبدأ المجتمعون يستعرضون مـاذا يمكن عمله بهذا المبلغ الزهيد ؟ وهنا قال الطالب الشاب : إن هذا المبلغ ليس زهيدا بل إنه سيمكننا من عمل الكثير وسوف ترون بأعينكم .

وأرهف الجميع أسماعهم ليعرفوا ماذا يريد ؟

قال لا تندهشوا .. هذا المبلغ يكفى لطبع آلاف المنشورات التى ندعو فيها الشعب للثورة ، وهذا وحده سوف يكون عملا كبير الأثر على مستقبل الحركة الوطنية ، فقط يجب أن نعرف ما الذى يمكن أن نقوله فى هذا المنشور ، كما يجب أن نعرف الطريقة التى بها يتم طبعه وتوزيعه على أوسع نطاق .

□ □

الفصل الثامن :

أشـــواق المعـــارك

١ ـ المنشور الأول :

قال احد اعضاء اللجنة : قل لنا بالله ماذا يمكن أن نقول فى هذا المنشور الذى اقترحت أن ندعو عن طريقه الشعب للثورة .

قال : اقترح أن يكتب كل واحد من الحاضرين صيغة لمنشور وطنى يراه قوى التأثير ، ثم يقرأ ما كتبه على الجميع .. فإما أن يتم تلفيق منشور من كل الصيغ التى يتم عرضها ، وإما أن يرتضى المجتمعون إحدى الكتابات ويدفعون بها إلى النشر .

وامسك كل عضو فى اللجنة قلمه ، وراح يكتب مجتهدا أن يكون قوى العبارات والكلمات لكى تكون صيغته افضل الصيغ عند العرض . وبعد نصف ساعة فقط كان الجميع قد كتبوا ، وبدأ الاستعراض .. لكن الصيغة التى راقت فى أعين الجميع هى تلك التى كتبها هو .. وكان عنوانها « **ثورة حمراء** » . وبعد العنوان جاءت العبارات الملتهبة . **نعم ثورة حمراء ، وساعة سوداء ، وهجمة عمياء ، فإما حيـاة وإما فنـاء** . وبعد هـذه العبارات الملتهبة . جاءت مخاطبة الشعب لكى توضح له فى أقل الكلمات مأساة الاحتلال الانجليزى لمصر ، وإذلاله لأهلها طوال ما يقرب من سبعين سنة .. ثم أعقب ذلك استنهاض همم كل أبناء الشعب للجهاد ، ودعوتهم لتسليح انفسهم بكل ما تصل إليه أيديهم من شتى أنواع السلاح . لكى يلبوا نداء الوطن باقتحام المعارك التى لا تنتصر الشعوب بغير اقتحامها .

وعلق الجميع على هذه الصيغة بالاستحسان . ووافقوا على أن يكون التوقيع الذى يذيل به المنشور « **شباب الازهر بالإسكندرية** » .

بعد ذلك ارتبكوا وتحيروا ، ولم يستطيعوا الاهتداء إلى الكيفية التى يطبعون بها هذا المنشور أو يوزعونه .. فكلهم شباب دون العشرين ، ولم يسبق لهم التمرس على شىء من ذلك .

وفى ظل تلك الحيرة أعلن رأيه فقال .. التوزيع مشكلة لن نواجهها إلا بعد الطبع ، وليس من اللازم التفكير فيها منذ الآن .. أما مسالة الطبع فتجب استشارة من هو أكبر وأخبر بها من الثوار الوطنيين القدامى !!

سالوه من ؟ قال بعض المحامين الوطنيين مثلا من أمثال **الأستاذ عبد الفتاح كرشاه المحامى** ... **او الأستاذ ابراهيم طلعت المحامى** .. أو غيرهما .

عندئذٍ انتهت المناقشة ، وفى مساء نفس اليوم حمل أعضاء اللجنة منشورهم إلى **الأستاذ ابراهيم طلعت المحامى** الوفدى الشاب .. وبعرض الأمر عليه طلبا للمساعدة ولو بالنصح ، تنصل وقال : إننى لا خبرة لى بهذه المسائل . وكل ما أعرفه هو أنكم لن تستطيعوا طبع هذا المنشور فى مدينة الاسكندرية . ذلك لأن البوليس السياسى لديه صورة من حروف كل مطبعة بالمدينة . وعند طبع أية ورقة مخالفة للقانون فإنه من الممكن الاستدلال على المطبعة

التى قامت بطبعها   ثم حذر قائلا وإياكم أن تنسوا أن هذا المنشور مرعج للسلطات   وسوف تتعقب السلطات من كتب أو طبع أو وزع   وعليكم أن تبتكروا من الوسائل ما لا يمكن السلطات من رقابكم

خرج هؤلاء الشباب من هذا اللقاء بخيبة الأمل . وكادوا يعودون من حيث أتوا . وقال بعضهم   لابد أن هذا المحامى قد خشى التورط ، وخاف أن يقع فى المحظور لو وثق فينا

لكن طالبنا الشاب لم يستسلم لخيبة الأمل هذه ، وانطلق بزملائه إلى مكتب **الأستاذ عبد الفتاح كرشاه المحامى** .. فهو البطل الذى وقف يستثير الجماهير منذ سنوات أمام قهوة الإسعاف . ولاشك أنه سيعطف على هؤلاء الشباب الوطنيين الذين يتلمسون طريقهم من أجل رفعة شأن مصر .

وعندما بلغوا المكتب جلسوا على غير موعد سابق مع صاحبه . حتى إذا فرغ من بعض شئونه جلس إليهم . كانوا خمسة شبان يبدو عليهم الارتباك والحيرة ، ومن أجل ذلك فإنه رحب بهم فى مودة ظاهرة حتى يزيل عنهم الارتباك الذى يشعرون به .. وقبل أن يسألهم عن الموضوع الذى حضروا من أجله تحدث إليه الطالب الشاب الذى دعاهم للقائه ، وقال : نحن مجموعة من شباب طلبة الأزهر ، وقد اشتد المنا من أجل بلادنا فقررنا ضرورة خوض المعارك من أجلها مع المحتلين الغاصبين .. وكبداية لهذه المعارك فإننا قمنا بكتابة منشور أحضرنا صيغته لنطلعكم عليها بوصفكم من رجال الحزب الوطنى أولا ، وبوصفكم من رجال القانون بعد ذلك . وكل الذى نطلبه هو مساعدتنا ولو بالنصيحة لكى نقوم بطبع وتوزيع هذا المنشور   ثم ناوله الصيغة المكتوبة

٢ - درس لا ينسى

قرأ الأستاذ كرشاه صيغة المنشور فظهرت عليه أمارات الاهتمام والجدية ، وبدأ الحديث فور فراغه من القراءة قائلا : هذا المنشور من الناحية الوطنية سليم ١٠٠ ٪ أما من الناحية الجنائية فإنه يعطى كاتبه أو موزعه عقوبة تصل إلى السجن خمسة عشر عاما   ثم أضاف مسرعا ' لا أقول ذلك لكى تخافوا وتتراجعوا عما انتويتم القيام به من المعارك .. فالوطنى الحق لا يخشى السجن ولا الموت فى سبيل قضية الوطن العادلة .. وعليكم وقد رشحتم انفسكم لهذه المهمة المقدسة أن تضعوا نصب أعينكم أن طريق التحرير هو طريق التضحية المتواصلة من أجله . ومن حسن الحظ أنكم شباب ، وليس هناك من هو أقدر على العمل فى سبيل الأوطان من الشباب . أما فيما يتعلق بالمساعدة التى أستطيع أن أساعدكم بها ، فإنه يشرفنى أن أجند مكتبى ومكاتب الزملاء المحامين لخدمة أى منكم إذا وقع فى قبضة السلطات   ولسوف نكون إلى جواره فى جميع مراحل التحقيق والمحاكمة .. هذا جانب ، والجانب الثانى من المساعدة التى يشرفنى أن أقوم بها نحوكم فإننى ومنذ هذه اللحظة أضع كل إمكانياتى المالية تحت تصرفكم إذا احتجتم إلى تكاليف طبع المنشور أو توزيعه .. وأعدكم بأننى لن أبخل عليكم ولو بثمن ثيابى التى ألبسها .

أما مسألة الطبع والتوزيع فإننى أتركها لكم لأننى لا أعرف عنها شيئا .. والآن دعونى أؤكد لكم أن مسلككم الوطنى هو المسلك الصحيح . وامتدت يده إلى مرجع تاريخى ضخم عنوانه « **مذكرات ملنر** » وقدم هذا المرجع للطالب الذى بدأ معه الحديث منذ قليل ، وطلب منه أن يقرأ من صفحة معينة ..

قرأ الطالب والجميع يسمعون بضعة أسطر ، استخلص منها **الأستاذ كرشاه** أن الانجليز يقررون على لسان « ملنر » أنهم إنما صاروا أصحاب حق مشروع فى مصر بفضل المفاوضات التى اضطلع بإجرائها سعد زغلول مع حكومة المملكة المتحدة .. ذلك لأن معنى القبول بمبدأ التفاوض مع الغاصب المحتل هو الإقرار بأنه صاحب حق يمكن

أن يختلف على تحديده . والتفاوض فى هذه الحالة مجرد وسيلة لحل هذا الاختلاف ، وتحديد حجم الحق المقرر سلفا بحكم قبول مبدأ المفاوضة !!

واستمر الأستاذ كرشاه يشرح وجهة النظر هذه ويؤكدها لكى يبرهن على صحة الشعار الذى كان يرفعه الحزب الوطنى « لا مفاوضة إلا بعد الجلاء » ولم يشعر الشبان الجالسون إليه بالرغبة فى الانصراف عنه إلى ما بعد منتصف الليل .. وحينئذٍ انصرف الطلاب وقد امتلئوا بالحماس إلى أقصى حد ممكن .

وفى الشارع الذى كانوا يسلكونه ، كان الهدوء ، وكان السكون ، وكانت البرودة الشائعة فى الجو شديدة القسوة .. وساروا صامتين لفترة غير قصيرة .. فقد كانت قلوبهم المشتعلة بحب بلادهم تستحث تفكيرهم ، وتعقد السنتهم ، وتدفعهم دفعا إلى البحث عن حل ملائم لمشكلة طبع المنشور وتوزيعه .. وبخاصة بعد أن عرفوا أن أحدا لن يستطيع مساعدتهم غير تفكيرهم هم .

وفجأة توقف الطالب الشاب فى عرض الطريق ، وقال مثلما قال أرشميدس عندما كان يستحم وهو يفكر فى حل لغز طفو الأجسام فوق الماء .. وجدتها .. وجدتها .. ضحك أصدقاؤه وسألوه : ما هى ؟ قال فكرة سليمة لحل مشكلة الطبع .. وفى لهفة قال له أكثر من واحد : وما هى الفكرة ؟ قال نطبع المنشور فى الأرياف !!

عندئذٍ أبدى الجميع دهشتهم ، فى الأرياف ؟ وقال واحد :

ـ كيف ؟

ـ نذهب إلى حاضرة ريفية بها مطبعة .. حيث لم تتعرض مطابع الأرياف فيما أظن إلى ما تعرضت له أية مطبعة فى الإسكندرية .. فليس هناك بوليس سياسى فيما أعتقد ، ولا يوجد أى مبرر لكى يطلب مأمور المركز مثلا صورة من حروف المطبعة القائمة فى حاضرته .. وعلى ذلك فإن أية مطبعة ريفية سوف تقبل طبع المنشور ولن تتعرض لأى خطر .

وبدا على الجميع الاقتناع بسلامة هذه الفكرة التى هبطت من السماء .. وتكونت لجنة فرعية مهمتها القيام بالطبع خارج الاسكندرية ، ثم تعود وتخطر الباقين بعودتها لكى يفكروا وقتها فى خطة التوزيع . على أن يكون الكتمان هو الحصن الذى يبعدنا عن أى فشل .

وتسلمت اللجنة الفرعية النقود وصيغة المنشور وذهبت تحت جنح الليل إلى حال سبيلها .

٣ ـ التاكتيك البارع :

بعد يومين اثنين تلقى الطالب الشاب مكالمة تليفونية من أحد أعضاء اللجنة المكلفة بطبع المنشور .. كان يتكلم من الإسكندرية ورنين الفرحة فى صوته .. قال : كل شىء تم بنجاح وأنا فى انتظارك فى بيتنا بمحرم بك ومعى بقية الأصدقاء .. عندئذٍ انطلق مسرعا إلى بيت هذا الصديق ومعه صديقان آخران .. ولم يكن هذا الصديق سوى الطالب عبد اللطيف عبد النبى خليف .. كان شابا متحمسا ، وذكيا ، وقادرا على تحمل المسئوليات الكبار ..

وهناك فى منزل هذا الصديق فوجىء بكميات المنشور المطبوع مكدسة فى إحدى الغرف وسمع قصة طبعها فى مدينة كفر الزيات ، بكمية قدرها عشرة آلاف منشور .. وبعد الثناء على حسن التصرف الذى تم قال الطالب الشاب والآن يجب أن نخطط بسرعة لكى نتم توزيع المنشور ، وسأله البعض كيف ؟

لم تكن الخطة جاهزة فى رأسه .. ومع ذلك فقد تجاسر واقترح ما اتفقوا عليه . قال رأيى أن تقوم الآن بتقسيم هذا الكم الكبير إلى أقسام بعدد أحياء المدينة بحيث يختص كل حى بألف منشور . تغليف بغلاف ملصق ، ويكتب عليه اسم الحىّ الذى سيوزع فيه . وإلى جوار الاسم تكتب كلمة « التاسعة مساء بالضبط » . ثم بعد الانتهاء من

هذه العملية بجمع نصيب الأحياء فى حقيبتين اثنتين حقيبة ينطلق بها واحد منا إلى قهوة الإسعاف والأخرى ينطلق بها الثانى إلى قهوة العثمانية بالمنشية .. وعلى كل من هذين الواحدين أن يجلس ليشرب ما يشاء . فإذا قدم عليه شخص يعرفه ، وقال له هات الأمانة سلمه اعتباطا نصيب اى حىّ وسوف أذهب أنا لتجنيد الموزعين وتزويدهم بالتعليمات اللازمة

وبالفعل تم تنفيذ الاقتراح ولم يقم فى مجلسه إلا وقد وضعت المنشورات فى الحقائب بعد تقسيمها وتغليفها وكتابة اللازم عليها .. وقال وهو ماض إلى مسكن الطلاب ومعهدهم .. أرجو أن يغرق هذا المنشور كل الأحياء فى زمن لا يزيد عن عشر دقائق .

وقرأ الارتياح فى عيون زملائه لنجاح هذا التاكتيك قبل أن ينصرف عنهم . وساعدته خبرته بطلاب المعهد على اختيار من يصلحون لتلك المهمة .. فكان يدعو الواحد منهم ويهمس فى أذنه أن ينتقى زميلا له يثق فيه وينطلق فورا إلى مقهى « كذا » وستجد هناك « فلانا » فلتسلم عليه أنت وزميلك . ولسوف يعطى لكما كماً مغلقاً من المنشورات مكتوب عليه اسم حى من أحياء المدينة . عليكما أن تنطلقا بها إلى هذا الحىّ وأن تتما التوزيع فى الموعد المحدد بالضبط حتى لا تتعرضا أو تعرضا زملاءكما فى الأحياء الأخرى لخطر الشرطة .. ولك ولزميلك حرية ابتكار الطريقة التى يتم بها التوزيع . شريطة أن يتم التوزيع فى أقصر وقت ممكن .. وهكذا تم له تكليف فريق من عشرين طالبا القيام بهذه العملية الجسورة .. لم يشعر أحد من المكلفين بغضاضة ، ولم يبد على أى منهم التردد ، وذهبوا على التوالى بملابسهم التى كانوا يلبسونها حتى لا يبطئوا .. والغريب أن كل ذلك تم فى كتمان مطلق . بحيث لم يشعر أى من الطلاب غير المكلفين بأى شىء ..

وما إن فرغ من مهمة التكليف حتى جلس ينظر إلى ساعته فى قلق .. وكان إلى جواره واحد من اللجنة له دراية بالذى سوف يحدث بعد قليل .. سأله فجأة أأنت قلق ؟ فتظاهر بعدم الاهتمام مخفيا قلقه .. وقال لا . فقط أخشى أن يتسرع أو يبطىء البعض فتقع الخسائر التى لا نرجوها ونحن فى بداية البداية .

وبلغت الساعة التاسعة مساء .. وأخذ قلبه يدق دقا عاليا يكاد يسمعه ، ولكى يدارى اضطرابه قام يتمشى مع صديقه فى دهاليز المكان ، حتى إذا مضى ربع ساعة فقط بدأت طلائع العائدين من اداء المهمة يفدون إليه وهم فى غاية السعادة والزهو بما صنعوا .. وما إن بلغت الساعة التاسعة والنصف حتى كان الجميع قد حضروا .. لم يتخلف أحد ، ولم يخطىء أحد فى تنفيذ التعليمات ، وابتدع الكثيرون منهم طرائق مثيرة للتوزيع .. ولولا التوقيع الذى تذيل به المنشور لما تنبه أحد إلى نوعيتهم .

وأخذ الطلاب يرقصون ، ويغنون ، ويمرحون ، ويتبادلون التهانى ، والنوادر التى صادفتهم أثناء قيامهم بهذا العمل المجيد .

٤ - جولة فى المدينة :

واهتم الطالب الشاب بعد ذلك بالوقوف على الأثر المباشر لهذه العملية بين جماهير الشعب التى لابد أنها تتحدث الآن فى أمر هذا المنشور ، فأقترح على صديقين له أن ينطلقوا ثلاثتهم إلى شوارع المدينة لكى يتبينوا الأمر .

وعندما بدءوا التجوال كانت الساعة بعد العاشرة مساء ، وحاول زميلاه إقناعه بركوب المواصلات المتجهة إلى اى اتجاه ولكنه رفض . وقال إننا يجب أن نسير راجلين لكى نعرف ما نريد ، ومضوا يسيرون كيفما اتفق .

ولشد ما أسعدهم هذا النشاط المحموم لسيارات ورجال الشرطة المنهمكين فى البحث عن الجناة الذين ارتكبوا

حماقة توزيع المنشور بل إنهم نعموا ببعض الأعمال التى أضحكتهم .. فهذا واحد من رجال الشرطة يحاول تمزيق منشور ملصق على بوابة محل تجارى بينما كان على ظهر المعطف الذى يلبسه منشور ملصق لم ينتبه إليه .

وساروا يستمعون إلى تعليقات الناس على توزيع المنشور فيبهرون .. فالناس دائما يميلون للمبالغة ، ولقد كانوا يبالغون فى تقدير حجم ما تم توزيعه إلى درجة خرافية . وكانوا أكثر مبالغة فى تقدير الأثر المنتظر حدوثه بعد هذه الحركة الجريئة .

وانتهى المطاف إلى محل ألبان كان يديره بعض طلبة الجامعة فى حى « محرم بك » وهناك جلس الثلاثة مع مجموعة من طلاب جامعة الأسكندرية ، وبدأت المحاورات حول المنشور ، وحول القضية الوطنية ، وضرورات النضال من أجل التحرير ، وكان بعض الطلاب يائسين من حدوث أى تقدم لأن الاخلاص منعدم ، والضمائر ميتة .. الخ ما يتضمنه قاموس اليائسين من عبارات متخاذلة ..

واندفع الطالب الشاب يهاجم هذا الاتجاه بكل عنف ، ويستحث فى الجميع نخوتهم الوطنية وغيرتهم على المقدسات المنتهكة ، وقال لهم إن أضعف الإيمان إن لم تكونوا قادرين على التحلى بشجاعة المجاهدين أن تلوذوا بالصمت .. أما أن تنطقوا بما يخذل النفوس الشابة ، ويدفعها إلى اليأس والقنوط .. فذلك مسلك يجلب العار على كل من يشترك فيه .. وزادت حدة نبرته وهو يقول إن من أوجب الواجبات ونحن نجاهد من أجل الوطن .. أن نجاهد أيضا دعاة التخاذل واليأس .

ولم يجد مجادلوه أمام هذه المهاجمة الحادة إلا أن يسكتوا .. فالأمر جد لا هزل فيه ، ولا مجال لاستمرار الدعوة التى كانوا يدعون إليها . وانتهت المناقشات بانصراف الجميع بعد منتصف الليل والجو عاصف شديد البرودة

٥ - رجع الصدى :

كان أخطر ما فى هذا المنشور دعوة الشعب لحمل السلاح ، والاستعداد ليوم قريب ينطلق فيه النداء للعمل .. وكان المنشور يعد الشعب بأن هذا اليوم سوف يحدده منشور آخر !!

من هنا اهتمت الدوائر السياسية والأمنية بالصدى الواسع الذى لقيه هذا المنشور وبخاصة بعد أن أذاعت محطة الشرق الأدنى نص المنشور فى اليوم التالى لتوزيعه . واتجهت أنظار الجهات الرسمية إلى هذا الازهر القائم فى الاسكندرية ، وكان أشد تلك الجهات تحسبا للموقف رجال القلم المخصوص . هؤلاء الذين لم يعلموا بأمر هذا المنشور إلا بعد أن أذيع . وقرأه الناس . وكان أسوأ ما أصابهم بالهلع أنهم اكتشفوا نسخا من هذا المنشور فوق مكاتبهم الرسمية عند صباح اليوم التالى لتوزيعه

وبدءوا حركة التحريات الواسعة المعتادة فى مثل هذه المواقف .. لكن الذى زاد من اضطراب الأمور عليهم وصول أخبار عن توزيع هذا المنشور فى خارج محافظة الاسكندرية .. ذلك لأن اللجنة التى قامت بطبع وتوزيع هذا لمنشور قد نجحت فى تسليم كميات منه إلى بعض الوطنيين من خارج المدينة .

وكان الانطباع الذى تركه هذا المنشور بعد توزيعه عند الناس العاديين أو الرسميين ، ودوائر الإعلام المهتمة هو أن وراء هذا المنشور تنظيما ثوريا مدربا على حمل السلاح وله القدرة على قلب ميزان الحركة فى مصر خلال وقت قريب .

وكان رد الفعل لكل ذلك أن لجنة شباب الأزهر بالاسكندرية قد تملكها الزهو ، واعتقدت أنها على الطريق الصحيح ، وبخاصة عندما سمع أعضاؤها من كبار أساتذتهم ثناء ومدحا وإطراء على المنشور ومن طبعوه وقاموا

بتوزيعه عندئذٍ فهموا أنهم ليسوا نشازا ولا بدعا فى تلك الظروف التى تتطلب أعلى قدر من الاندفاع والتضحية وزاد من هذا الاعتقاد عندهم أن بسطاء الناس كانوا قد حفظوا فقرات كاملة من هذا المنشور وأخذوا يرددونها مصحوبة بالابتهال الى الله أن ينصر هؤلاء الشباب كل ذلك قد أكد لهم أن بدايتهم تلك هى البداية المناسبة التى تساعد على خلق الجو المناسب للعمل الكبير والعمل الكبير لا يكون إلا بالشعب الكبير

٦ ـ فرقة الصدام :

وفى ضوء هذا الفهم الذى انقدح فى أذهان تلك الحفنة من شباب الطلاب الأزهرين الفقراء قرروا القيام بتشكيل أولى فرق الصدام الشعبى فى هذه المدينة .. ولكن كيف ؟

لقد اتضح فى الأيام التالية لتوزيع هذا المنشور أن الشعب يتطلع بالفعل الى من يقوده . فالكثيرون من ابناء هذا الشعب عن طريق إعجابهم المتزايد بهؤلاء الشباب المجهولين كانوا يعدونهم ضمنا بأنهم سوف يقفون منهم عندما تقع الواقعة !! ولكن ما هى تلك الواقعة التى ستقع ؟ سأل الشباب أنفسهم هذا السؤال وتبين لهم أن أية محاولة للاصطدام بالمحتلين المرابطين فى قلاع المدينة أو غيرها سوف تتصدى لها قوات الشرطة المصرية ، ودوائر الأمن الحكومية المسئولة . ومعنى ذلك أن الصدام سوف يقع أول ما يقع بين المصريين والمصريين .. وأن الأعداء المستهدفين لن يصيبهم أى ضرر !!

ولفترة قصيرة سيطر التردد على جو هذه الجماعة الفتية المناضلة . ولم يستطع احد منهم التوجه إلى فتح ثغرة فى جدار هذا التفكير الذى كان يخشى تحول الموقف إلى صدام دموى بين أبناء الوطن الواحد . وانطلق الطالب الشاب يلتمس العون من الاتصال ببعض الوطنيين من طلاب المدارس الثانوية . هؤلاء الذين قد تعرف عليهم أثناء فترة الحرب ، ومحاولة الثأر من عربدة جنود الانجليز . وأدت الاتصالات والمناقشات المستمرة الى اليقين بأنه لابد من الاصطدام بين المصريين والمصريين . وأن ثمرة هذا الصدام سوف تكون هى الشرارة الضرورية لإشعال لهيب الثورة فى مصر كلها ... !!

وتقرر عقد اجتماع لإصدار بعض القرارات فى هذا الصدد .. وعند الاجتماع حدث خلاف بين الأعضاء . فالجميع متحمسون للإنطلاق من نقطة التظاهرات الطلابية المتحدية . وعليها أن تتصدى لأى عدوان يقع عليها حتى ولو بالاستشهاد .. لأن غاية الغايات هو أن يتحرك الشعب مقتديا بهؤلاء الذين يبدءون . لكن الطالب ، الشاب لم يقتنع بهذا التفكير ، ووقف يحذر من نتائج الصدام غير المتكافىء على معنويات المتظاهرين الذين سوف لا يكون فى حوزتهم غير الحناجر والهتاف . ومن ثم طلب التريث حتى يتوفر حد أدنى من التسليح القادر على الدفاع ولو جزئيا عن تلك المظاهرات المنتظرة ..

لكن حماس المجتمعين لم يجعلهم يصغون إليه فاضطر إلى الخضوع لرأى الأغلبية من زملائه وزملاء المدارس الأخرى ، وضرب الجميع موعدا لانطلاق المظاهرات فى قلب المدينة صباح التاسع من فبراير سنة ١٩٤٦

٧ ـ هزيمة الجنرالات :

علمت دوائر الأمن بالذى سوف يحدث . فأعلنت حالة الطوارىء ، وأصدرت الأوامر بالتصدى للمظاهرات ، ومنعها من الخروج على أى وجه وفى صباح هذا اليوم حضرت الحشود من قوات الأمن ، وأخذت مواقعها بقيادة الضباط الكبار عند مداخل الشوارع المؤدية إلى الباب الرئيسى للمعهد .. وبالطبع كانت هذه الحشود تحمل

الهراوات ، والدروع ، والبنادق ، وبدا لها أنها قد أحبطت خطة الطلاب فى مهدها ...

لكن الطلاب ـ وقد رأوا ـ تلك الحشود لم يستسلموا لليأس ، وسارعوا إلى اغلاق الباب الرئيسى بينهم وبين الشرطة بعد أنْ كتبوا عليه لافتة تقول « احذر فالباب مكهرب »

وتبارى خطباؤهم فى إثارة الحماس ، والدعوة لاقتحام كل الحواجز من أجل إظهار المشاعر الوطنية ، والتفانى فى سبيل عزة الوطن واستقلاله . وبعد هذه الخطب الحماسية نبتت فكرة وافق عليها الجميع . وكان ملخص تلك الفكرة أن يصعد إلى سطح المبنى من يتظاهرون بحمل سلاح . كان فى حقيقته بعض مواسير المياه .. ويطلبون من حاملى السلام الحقيقى فى الشارع أن يبتعدوا عن المكان ، وإلا عرضوا حياتهم للخطر . كل ذلك من أجل منع الشرطة من اقتحام المبنى . وفى هذه الأثناء يتم فتح الباب الخلفى الموصل إلى أزقة لم يدخل فى حساب الشرطة حراستها ، وينطلق الطلاب من تلك الأزقة صامتين ، وحاملين معهم كميات من الحجارة .. فإذا بلغوا مركبات الترام المتجهة إلى حى الجامعة ركبوا .. وفى عربات الترام هذه عليهم أن يملئوا الشوارع التى يمرون بها بالهتاف العالى لحياة الوطن ، وسقوط الاستعمار وأعوان الاستعمار .

وتنفذت الخطة ، وابتلع الجنرالات الطعم ، وظلوا مرابطين فى مواقعهم بينما ثلاثة من الطلاب فوق سطح المعهد يهددونهم بإطلاق النار على من يقترب منهم .. ويحذرونهم من استمرار مرابطتهم على هذا النحو الغريب .. وفى تلك الأثناء كانت جموع طلاب المعهد الأزهرى قد وصلت إلى الجامعة فى مبناها الرئيسى بحى محرم بك . وفوجىء الحرس الجامعى بالأبواب تقتحم عليه ، وبرعود الهتافات تنطلق من الحناجر الشابة . وتدعو طلاب الجامعة للعطاء ..

وفى دقائق معدودة كان طلاب الجامعة قد تجـاوبوا ، ونـزلوا كالسيـل الهادر من قـاعات الدرس يهتفـون ويصيحون ، واختلط الجميع وهم يرددون أناشيد الوطنية ، وقرروا فورا الزحف على شوارع المدينة .. وفى الشارع الرئيسى الكبير سارت الآلاف فى موكب المطالبة بالجلاء ووحدة وادى النيل .

واهتزت القلوب العطشى لمثل هذه المواقف ، فوقفت السيدات فى شرفات المنازل يحيين المتظاهرين بالزغاريد ، وأغلق أصحاب المحلات التجارية محالهم ، وانخرطوا فى الموكب المهيب يهتفون ، ونزل ركاب المواصلات التى توقفت وفعلوا مثلما فعل المتظاهرون ومع استمرار المسيرة تكاثر العدد . وأضحى الموقف ينذر بالخطر ؛ وتذكر الطالب الشاب كيف هزم الحماس الطلابى خطط الجنرالات وأفشلها .

٨ ـ الصـــدام الدمــوى :

وبلغت المظاهرات العارمة ميدان المحطة الفسيح ، وازداد حماس المتظاهرين عندما شهدوا جنود الاحتلال فوق قلعة « كوم الدكة » المواجهة للميدان .. ولكنهم فوجئوا برجال الشرطة وبلوكات النظام ينقضون عليهم من جميع النواحى ، وأخذوا يضربون بالهراوات ، ويطلقون عليهم الأعيرة النارية ، بينما أخذ المتظاهرون يدافعون عن انفسهم بما لديهم من الأحجار ، وبعد قليل من الوقت فر المتظاهرون إلا من قبض عليه منهم . وصار ميدان المحطة خاليا إلا من الجنود المدججين بالسلاح ، وسياراتهم العسكرية ، وبعض الدماء التى سالت على الأرض أثناء لحظة الصدام .

وكان الطالب الشاب ضمن من فروا إلى غير اتجاه ، ولما خشى أن تلحق به الشرطة دخل منزلا وصعد على السلم بغية الاحتماء فيه .. وأدركته عناية الله عندما فتحت له إحدى الأسر بابها وأدخلته إليها ريثما يهدأ ويكف الطلب عنه .. واستمع فى تلك اللحظات من عبارات التشجيع ما قوى عزيمته وطيب قلبه .. كما استمع إلى كلمات السخط والغضب على هؤلاء الذين يطلقون النار على إخوانهم الوطنيين فاشتعل غضبه . وضاق صدره .

ولما اطمأن إلى أن أحدا لم يعد يتعقبه نزل إلى الميدان وهو حزين لما حدث وهناك التقى بزميله القديم ، عبد القادر عامر ، واخذ يوضح له كيف كان بعيد النظر عندما طلب التأجيل حتى يمكن تدبير بعض الأسلحة لكن عبد القادر لم يقتنع وقال له غدا سنرى أن ما حدث اليوم سوف يفجر غضب الشعب كله . وهذا هو المطلوب

وسارا معا يودان اختراق الميدان فاعترضهما رجال الأمن . وامروهما بسلوك طريق آخر لأن كل الطرق المؤدية للميدان مغلقة . عندئذ امتثل عبد القادر اما هو فإنه لم يرغب في الامتثال وقال إنني حر أسير من أي طريق !! فما كان من الضابط القائد لهذه المنطقة من الميدان إلا أن أمر بالقبض عليه ، وتسليمه إلى « قسم العطارين » مع إبلاغ القسم بأنه هو الذي فقأ عين الجندي « ابو زيد » !!

عجب الطالب الشاب من أمر هذا الضابط الذي يريد أن يلفق له اتهاما هو منه برىء . ونظر فوق رأسه وأشار بيده قائلا هؤلاء الجنود البريطانيون أولى بحنقك وغضبك يا حضرة الضابط !!

ولم يمهله الجنود الذين كلفوا القبض عليه بل سحبوه إلى « القسم » وبعد الاجراءات المعتادة قاده الجنود إلى غرفة فسيحة وجد فيها اكثر من مائة طالب سبقوه مقبوضا عليهم .. وكان الكثيرون منهم مصابين ، وثيابهم ملوثة بالدماء ، ووجدهم يجلسون وكأنهم أسرى الحرب . وكان من بين هؤلاء بعض شباب المعهد الذين شاركوه في لجنة مكافحة الأمية الوطنية

انفعلت نفسه بمرأى الجميع ، وتذكر أنَّ ما حل بهم اليوم لا يخدم أحدا سوى المحتلين أعداء الوطن ثم تذكر أن جنودنا وضباطنا المدججين بالإسلحة والخوذات والدروع في ميدان المحطة كان أولى بهم أن يصوبوا بنادقهم إلى صدور الأجانب المرابطين في المدينة . فامتلأت نفسه بالغم والكمد والألم العميق .

٩ - في انتظار التحقيق

كان هؤلاء الضحايا في أحد العنابر الخاصة بجنود البوليس . وكان يجلسون متلاصقين ينتظرون التحقيق معهم .. وكان يبدو على بعضهم الحزن والإشفاق مما سيحدث .. وما إن لحظ الطالب الشاب ذلك حتى بدأ يتحدث مع هؤلاء الطلاب لكي يرفع من معنوياتهم ، ويبدد شبح الخوف من أنفسهم . فزعم لهم أولا أنهم أبطال ، وأن قطرات الدماء التي سالت منهم اليوم إنما تشكل سطرا من سطور الجهاد الوطني الخالد ، ودعا كـلا منهم للاحتفاظ بملابسه الملوثة بدماء هذا اليوم للذكرى والتاريخ ، ولكي يباهي أولاده وأحفاده ويوضح لهم بالدليل أنه كان بطلا مجاهدا في سبيل مصر .

ثم استدار بهم بعد ذلك إلى قصص البطولة في التاريخ المصري والإسلامي ، وكان يحاول الربط بين ما يتحدث عنه من بطولات ، وبين تلك المواقف المتخاذلة للحكومة وجنودها ، وضباطها الذين يسلطون نيرانهم على الوطنيين ويجبنون كل الجبن أمام أعداء الوطن .. وكثيرا ما كان يبلغ به الانفعال حد البكاء وهو يتحدث عن المهانة التي حلت بمصر ..

وظلت الأحاديث تتلو الأحاديث وهو لا يمل ، ووجد فرصته في تلك الساعات للتعرف على بعض الشخصيات التي لم يكن له بها علاقة سابقة . وكان من بين هؤلاء طالب الحقوق إذ ذاك محمود ابو وافيه .. لقد أقبل عليه وهو يتحدث وسأله عن اسمه وعنوان بلده ، ثم عرفه بنفسه وأخبره بأنهما « بلديات » وأنه من المهم أن تبقى لهما علاقة دائمة بعد الأفراج عنهما .. وبالطبع لم يرفض الطالب الشاب هذا العرض بل رحب به فتلك كانت سجيته، إقامة العلاقات مع أكبر عدد ممكن من الناس

١٠ - أمــام النيابــة :

وبدأت النيابة التحقيق مع المقبوض عليهم ، واستدعيت الطلاب واحدا إثر الآخر . واستمر التحقيق منذ الثانية وحتى الرابعة مساء وكانت التهمة الموجهة لكل منهم هى التظاهر وإحداث الشغب . وكان كل من تم استجوابه يلوذ بالإنكار رغم الإصابات القاطعة بصحة الاتهام .. فلما جاء دور الطالب الشاب .. دخل على المحقق وجلس . ثم اجاب عن الأسئلة الأولية الخاصة بالاسم والسن والصنعة الخ .. وعندما سئل عن الاشتراك فى التجمهر والتظاهر ، واستخدام قذف الحجارة على رجال الأمن لم ينكر وقال إن من حقى كوطنى أن أهتف بحياة مصر مع كل المصريين .. أما واقعة قذف الحجارة وإصابة الجندى « ابو زيد » التى شهد بها جنديان سبقاه إلى الإدلاء بشهادتهما فإنه انكرها .

وكان فى غرفة التحقيق عدد من المحامين الوطنيين الذى حضروا للدفاع عن الطلبة ، فلم يكتف بالانكار . بل راح يشرح الكيفية التى تم بها القبض عليه ، والمناقشة الاستفزازية التى وقعت بينه وبين الضابط المنوط به حراسة الميدان .

وأحس ان النيابة اوسعت صدرها لكلامه ، فاسترسل وحول حديثه إلى إثارة وطنية . امرت النيابة بتسجيل كل كلمة منها .. وبالرغم من نصيحة المحامين له فإنه لم يكف عن الاسترسال ، وقال إننى أعتقد أن المحامى ، ورجل النيابة ، والضابط ، والشرطى ، والطالب ، والعامل والفلاح والتاجر كلهم وطنيون .. وكلهم سوف يشتـركون فى موكب الثورة على الاستعمار الإنجليزى ومن يقفون معه .. وظل الكاتب يكتب فترة طويلة بعدها سألته النيابة هل لديك أقوال أخرى .. قال لا .. ووقع وخرج ليجد سيارة كبيرة فيها حشد من الطلبة المصابين فركب معهم .. واتجهت بهم السيارة إلى سجن الحضرة بمدينة الاسكندرية

١١ - ليلــة نابغيــة :

انفتحت بوابة السجن الرهيبة ونزل النزلاء الجدد من السيارة بين صفين من جند الحراسة إلى الباب المفتوح فدخلوا ، ثم أمروا بأن يصطفوا إلى أن نتم الإجراءات ، وامتثلوا طبعا للأمر . لقد كان كل شىء غريبـا عليهم .. والوقت كان وقت الغروب ، وكأن بعض السجناء فى ملابسهم الرزية يقومون على بعض الخدمات فى فناء السجن ، وفجأة انفجر « ابو وافيه » فى البكاء .. فقد طافت فى خياله صورة النعيم الذى يعيش فيه ولم تحتمل أعصابه رؤية السجن والسجان والسجناء .. وعندئذٍ اقترب منه الطالب الشاب ونهره بشدة .. وقال له كيف تبكى وأنت اليوم بطل من ابطال الجهاد فى سبيل مصر ؟ إنك لست واحدا من هؤلاء المذنبين ومرتكبى الجرائم . وعليك أن تحتفظ بثبات معنوياتك حتى تكون جديرا بالاحترام ، ولم يزل به حتى جفف دموعه وكف عن البكاء .

وفى سرعة سريعة جىء بكمية من « الأبراش » المتآكلة ، والبطاطين المهلهلة . وأودع الطلاب فى الزنازين التى اغلقت عليهم . ولم تكن هناك إضاءة أو تدفئة .. ووجد طالبنا الشاب نفسه ضمن ستة أفراد فى إحدى الزنازين على الأرض الأسفلتية الباردة ، والتى لا يحول الفراش المتآكل بينها وبين أجساد من ينامون فوقها . وتوزع هؤلاء الستة تلك الأغطية المهلهلة فيما بينهم وحاولوا النوم ولكن هيهات !! فالزنزانة مفتوحة القضبان ، والليل ليل شتوى تعول فيـه الرياح ، والتيارات الباردة تدخل من الشباك إلى الباب لافحة حادة .. والفراش ولأغطية لا تكفى لجلب أى نوع من الدفء . وهؤلاء الطلاب لم يتعودوا فى حياتهم الدخول فى مثل تلك التجربة القاسية .

تظاهر الطالب الشاب بالنوم ، بعد أن نصح بالاحتمال ، وسوى مكانا على أرضية الزنزانة ووضع جسده فيه .

واقتدى به صديقه عبد اللطيف فصنع صنيعه . وسرت العدوى فى الجميع مع تقدم الليل والشعور بالإرهاق لكن هطول الأمطار المختلط بصيحات الحراس ، مع استمرار فحيح البرودة لم يسمح بنوم أحد . وتلاحقت أصوات الجميع طلبا للدفء وانخذ جاره من صدره وعنقه وسادة أراح رأسه عليها لكى يستدفىء .. لكن النوم أقسم ألا يدخل جفن احد إلى أن أصبح الصباح

١٢ ـ حفاوة السجَّان :

وبعد فتح الزنازين فى الصباح فوجىء الطلاب بأنهم مطلوبون لمكتب مأمور السجن .. فلما بلغوه فوجئوا بأنّه أخذ يصافح كلا منهم ، ويرحب به ترحيب الكريم بضيفه العزيز .. وأجلسهم فى مكتبه ، وطلب من رجاله تهيئة فرش وأغطية جديدة ووفيرة ، مع الاهتمام بتقديم كل الأغذية التى ترد إليهم من زائريهم فورا ..

وفى حنو بالغ قال هذا المأمور العظيم : أنتم لستم مجرمين ، ونحن نتعامل معكم على أنكم من أشرف الشرفاء وأنا موصى عليكم من ابنتى التى هى زميلتكم والطالبة فى كلية الآداب .. وإذا كنتم قد عانيتم أمس من البرد فتأكدوا أن ذلك لن يحدث مرة أخرى !!

خرج الطلاب من مكتبه وهم ممتنون لتلك الحفاوة ، ولهذه المعاملة الإنسانية الكريمة وعندما عادوا إلى العنبر ، الذى يضم زنازينهم وجدوا حفاوة أكبر من النزلاء الذين تقاطرو عليهم يصافحون ، ويشجعون ، ويقدمـون لهم ما يستطيعون من وسائل الترفيه المسموح بها ، والممنوعة على حد سواء وبعد قليل حضر من يستدعى طالبنا الشاب الى مكتب المأمور ، ولشد ما كانت دهشته عندما رأى فى هذا المكتب شيخا من شيوخ المعهد ..وكان هذا الشيخ ذا علاقة خاصة بمأمور السجن وقد حضر خصيصا للتوصية على الطلاب المقبوض عليهم ، ولتسهيل مهمة توصيل الأغذية لهم من زملائهم الذين أصَرُّوا على حضوره . وبعد المجاملة المعهودة من كل مصرى يَسْدى له الجميل ، والشكر على تلك المشاعر عاد الى زنزانته وأفهم زملاءه عن سبب استدعائه . ففرحوا ، وسعدوا ، وعرفوا أنهم فى قلوب الآخرين .

وبعد قليل قدم الزوار من الأقارب والأصدقاء ومع الزوار جاءت الأخبار بأن مصر اليوم كلها فى مظاهرات عارمة ، والحكومة تحاول قمع هذه المظاهرات بإطلاق الرصاص عليها ولكنها لا تستطيع ، وقد سقط العديد من الضحايا والشهداء .. والهتافات تدوى بسقوط الاستعمار وأعوان الاستعمار .

وأحدثت هذه الأخبار بين النزلاء والحراس نوعا من الغبطة ، فتسابقوا إلى استحضار الصحف من خارج الأسور بطرقهم الخاصة ، وقدموها للطلاب فى آخر النهار كنوع من التكريم والاعتراف بالفضل .

واستمرت الأخبار تتجدد فى كل يوم ، كما استمرت الحفاوة تتوالى ، ولكن الطالب الشاب كان مشغولا عن كل ذلك بمحاولة التعرف على موقف الإخوان المسلمين من تلك المعارك التى تدور فى مصر الآن .

كان فى تصوره أن الاخوان المسلمين هم القوة الوحيدة المنظمة والقادرة على قيادة الثورة حتى النصر . فهم الذين توفروا على إثارة الجماهير بالدين منذ فترة طويلة ، ولابد لهم الآن من دخول صريح إلى قلب المعمعة .. لكن هنا التصور لم يرد من الأخبار ما يؤكده أو يثبت وقوعه ، وقصارى الأخبار التى كانت تبلغه فى هذا الجانب لم تكن تعدو سوى أن الإخوان قد صدرت لهم التعليمات لقراءة الفاتحة أو بصلاة الغائب على أرواح الشهداء !!

كان يستمع إلى تلك الأخبار ويزداد أله ، لا لأن صلاة الغائب فرض كفـاية ، والجهـاد فى مثل تلك الظروف فـرض عين فحسب . وإنما لأن الفرصة مواتية والإخوان قادرون على اقتناصها والالتحام مباشرة بقوات الاحتلال فلماذا لا

يفعلون ؟ اليس الموت فى سبيل الله اسمى امانينا ذ وإذا كان هناك اعتراف بأن الذين يموتون فى المظاهرات شهداء فلماذا التقاعس عن الاستشهاد وخوض المعارك المؤدية إليه ؟

وأهتم بالأمر فكتب رسالة هربها إلى خارج السجن ، يرجو فيها تفسير هذا الموقف الذى لم يعد مفهوما لديه .. ولكنه قبل أن يتلقى الردّ تقرر الإفراج عنه .

١٣ ـ مباهــج الأفــراج :

بعد أربعة أيام فقط من من دخول السجن أفرجت المحكمة عن نصف المقبوض عليهم من الطلاب ، وبعد أربعة أيام أخرى تم الإفراج عن الباقين لسقوط وزارة النقراشى باشا ، وتشكيل وزارة جديدة برياسة اسماعيل صدقى باشا .

وفى الفوج الأخير من المفرج عنهم كان الطالب الشاب ، وقد هاله عند الإفراج عنه قدوم زملائه عليه بكل الفرح والترحيب .. وهاله أكثر وأكثر انهم اصروا على أن يذهبوا معه إلى قريته فورا لأن والديه يرغبان فى الاطمئنان عليه . وهناك وصلوا بعد أن خيم الليل بسكونه .. وما إن علم أهل القرية بالخبر حتى عمت الفرحة ، وانطلقت الزغاريد والأغانى . وانقلب سكون الليل إلى حركة صاخبة لم تهدأ إلا بعد وقت طويل .

وتعبيرا عن الفرحة الغامرة تفنن الأهل فى تقديم وجبات الطعام ، وحاولوا أن يؤنسوا ضيوف عزيزهم بكل ما يقدرون عليه ، واستمرت مباهج الفرحة والسمر حتى مطلع الفجر .

كيف لا وقد عاد للقرية عزيزها الذى غاب عنها ، وراجت الإشاعات الكثيرة حول أسباب سجنه ؟ أولم يقل البعض إنه كان يشتم الملك فقبضوا عليه ؟ .. أولم يزعم البعض انه كون عصابة لتفجير القنابل فاعتقلوه وعصابته ؟ الخ أولم يؤكد لهم قادم من الاسكندرية انه شاهده بعينيه وهو يخرج مقبوضا عليه من مسجد كان يريد أن يحرقه .. ؟ وهكذا ظهرت الآن حقيقة الموقف .. فليس هو إلا واحدا من الشبان الوطنيين الذين يريدون لمصر حريتها واستقلالها .. تذكر به بعض كبار السن ما كان يحدث فى ثورة سنة ١٩١٩ واقبل عليه يحتضنه وهو يبكى ويقول أهلا بالبطل . وعندما رأت وسمعت الأم قائل هذه العبارة كادت تشْتبك معه لأنه يحرض ابنها على الهلاك !!

ومهما يكن من شىء فإنه قد استشعر من تلك التجربة أن الشعب يحب ابناءه المجاهدين ويعرف أقدارهم .. لمس ذلك منذ فر هربا من الأعيرة النارية بميدان المحطة إلى أن قبض عليه وحقق معه ودخل السجن .. ولمس ذلك ايضا فى أعماق السجن ، وبعد أن خرج منه واستقبلته حرارة الشوق والاعزاز من زملائه وأهل قريته . وطاف بذهنه سؤال لم يستطع النطق به ؟ كيف يكون الحال لو نلت شرف الاستشهاد كغيرى ممن سقطوا فى مظاهرات الأيام الماضية ؟ واحس بأن دماء هؤلاء الشهداء تسيل من حوله وتصرخ فيه . وفى كل الأحياء من بعدهم لكى تستحثهم على الثأر ، والوفاء لذكراهم .. ورن فى أذنه بعض الأنين الذى كان ينطلق من صدورهم فى خفوت وهم يهتفون بحياة مصر .. وهنا وجد نفسه يتحدث بصوت عال إلى من كانوا فى وداعه إلى خارج القرية ويقول : إن أيام أو سنوات السجن لا تساوى قطرة واحدة من دم شهيد باع نفسه فى سبيل الوطن .. ومن هنا فإنه من الواجب على كل المصريين من أهل القرى والمدن أن يثأروا لهؤلاء الضحايا الذين استشهدوا فى معركة التحرير . ودعا شباب الفلاحين إلى تكوين اللجان الوطنية والقيام السريع بالمؤازرة الفعاله لما يحدث فى المدن !!

ولشد ما أسعده قول أحد أقربائه من الشباب .. سترى !! فنحن وإن كنا لم نتعلم مثلكم ، إلا أن لنا إحساسا ، وعندنا قدرة لا تقل عن قدرتكم . فقط نريد من يدلنا على ما يجب فعله .. عندئذٍ صافحه الطالب الشاب

ووعده بأن يكون هو هذا الدليل وطلب منه تهيئة عدد من شباب القرية للاجتماع بهم في أقرب وقت ممكن - وكانت السيارة القادمة إلى الاتجاه الذى سوف ينجه إليه مع زملائه قد وصلت - فاستقلها الجميع وانصرفوا

□ □

الفصل التاسع :
معمعة الالتحام

١ ـ تداعيات الأحداث :

عاد زملاءه[1] إلى الاسكندرية ، وكانت الأحداث تتداعى تداعياتها المبشرة بقرب التحام ثورة الشعب مع الأعداء . فها هى ذى مظاهرات الشعب الوطنية تستأنف سيرها بنفس الاندفاع الذى بدأت به وأكثر !! وها هى ذى أقاليم مصر المختلفة تشترك فى تلك المظاهرات اشتراكها المؤثر والخطير !! وها هى ذى مدينة القاهرة يخرج طلابها وعمالها وكل أبناء شعبها إلى الشوارع تجاوبا مع نداء اللجنة الوطنية لعمال والطلبة فى يوم ٢١ فبراير سنة ١٩٤٦ .. ذلك اليوم الذى عرف فيما بعد بيوم « الجلاء » !! وأخيرا ها هى ذى تلك المظاهرات القاهرية تصطدم بالسلطات البريطانية مباشرة فى ميدان قصر النيل ، ويتساقط الشهداء إثر الشهداء ، وتصطبغ الأرض الطيبة بالدماء !!

وكان يوم الجلاء فى الإسكندرية صورة من يوم الجلاء فى القاهرة . ولكنه لم ترق فيه الدماء . وكان الطالب الشاب فى هذا اليوم مجرد فرد من الجماهير التى اكتظت بها شوارع المدينة ، وسارت تهتف للجلاء ووحدة وادى النيل . وكانت الوحدة الوطنية تتجلية فى هذا الموكب المهيب . فالعمال ، والفلاحون ، والمثقفون والشيوخ ، والقسس ، .. الكل يسيرون فى تكاتف مطلق ـ ويرددون فى إصرار عميق شعارات اليوم الرائعة ـ لم يكن أحد يستطيع أن يقول إن هناك حزبا أو جماعة لم يجرفها التيار ...

وفجأة انطلقت صيحة الإخوان من مكبر للصوت تحمله سيارة « الله اكبر ولله الحمد » ، ودهش لهذا الصنيع الذى لم يظهر طيلة الأيام الماضية !! وكان يعرف طبعا أن الحكومة قد سمحت بالمظاهرات فى هذا اليوم انحناء للمد الثورى الذى يجتاح البلاد . وهنا تملكه الخوف من أن يتفرق المتظاهرون خلف شعارات حزبية أو طائفية . فشق الصفوف وغالب الزحام حتى بلغ مقعد القيادة فى تلك السيارة . وكان الجالس إلى جوار هذا المقعد الأخ المحامى المعروف « مختار عبد العليم » ، ولم يكن قد رآه منذ ٢ نوفمبر سنة ١٩٤٥ وما إن التقت أعينهما حتى تصافحا بحرارة .. وطلب من الأستاذ مختار الاقتصار على شعارات الجلاء ووحدة وادى النيل . حتى لا يختلف معه أحد !! وتعجب المحامى الشاب من هذا المطلب بزعم أن شعار « الله اكب ولله الحمد » لا يمكن الاختلاف عليه ـ لكن الطالب الشاب قال هذا شعار الإخوان المسلمين ، وليس كل المتظاهرين من الإخوان المسلمين .. ومن الممكن ان ينطلق الآن شعار « الله اكبر والمجد لمصر » ، وهو شعار خاص بمصر الفتاة .وهكذا تنقلب صورة الوحدة الوطنية إلى صورة من الفرقة والخلاف .. عندئذ قبل الأخ المحامى تلك الحجة واقتصرت الشعارات المنطلقة من مكبر الصوت فى معظمها على ما يردده الجميع منذ بدأ اليوم ـ الجلاء بالدماء عاشت وحدة وادى النيل ..

٢ - اخبار خطيرة :

ومع القادمين فى مساء اليوم من القاهرة ، تناثرت الأخبار فى الاسكندرية مشيرة إلى أعداد كبيرة من الضحايا .. وقالت تلك الأخبار إن مظاهرات القاهرة كانت عامة وشاملة لجميع الأحياء . وقد تساندت معها مظاهرات أخرى بإقليم المنصورة وغيره من الاقاليم .. وأن صداما مروعا وقع عند وزارة الخارجية حيث تقوم ثكنات الإنجليز .. وأن .. وأن.. الخ

وفى صباح اليوم التالى اصدرت اللجنة الوطنية للعمال والطلبة بيانا عن الأحداث التى وقعت ودعت كل المصريين إلى يوم آخر للحداد على أرواح الشهداء !!

وظهر للجميع أن وجه مصر سوف يتغير تغيرا ثوريا عميق الأبعاد .. فالكثيرون من الشباب قد اتجهوا بالفعل إلى محاولات تسليح أنفسهم .. لأنه من غير المعقول أن يقدم الشعب الأعزل كل يوم ضحاياه بينما خصومه وأعداؤه يطلقون عليه الرصاص . ثم يظل هو على نفس الحال .

كما ظهر للجميع أن هذه اللجنة الوطنية للعمال والطلبة قد تأكدت قيادتها باستجابة الشعب لها فى يوم ٢١ فبراير .. وأنها إذا استجاب الشعب لندائها الأخير فلسوف يفلت الزمام من أيدى كل الأحزاب .

وعندئذ تكونت لجنة أخرى باسم اللجنة القومية ، ودعت إلى نفس الغرض السابق الذى هو يوم الحداد على أرواح الشهداء . وكانت اللجنة الأخيرة مكونة من صالح حرب باشا عن الشبان المسلمين ، والشيخ حسن البنا عن الإخوان المسلمين ، والأستاذ احمد حسين عن حزب مصر الفتاة وآخرين .

ووقع خبر تكوين تلك اللجنة الأخيرة وقع الصاعقة على الكثيرين من الشبان الوطنيين . ذلك لأنهم لم يروا فيه إلا بداية للانقسام الذى سوف يهدد الحركة الوطنية قبل أن تبلغ قوتها . وبدأ الهمس حول لعبة جديدة يتم إعداد المسرح لها . ولكن احدالم يكن يجرؤ على اتهام أحد بالتواطؤ والخيانة ، وقال العقلاء ما دامت اللجنة القومية تدعو إلى ما تدعو إليه اللجنة الوطنية فلسوف يتوحد الجميع فى حقل العمل .

٣ - يوم الحداد الوطنى :

وكان اليوم المحدد لإعلان الحداد الوطنى هو يوم ٤ مارس سنة ١٩٤٦ - وقبل حلوله شغلت لجنة شباب الأزهر بالاسكندرية نفسها بمحاولة مواساة أسر الشهداء . فانطلق عدد من أعضائها يحملون الصناديق المغطاة بقماش أسود ، والمكتوب عليها عبارة « تبرعوا من اجل اسر الشهداء » انطلق هؤلاء إلى الشوارع والحوانيت وكان السخاء المصرى أكبر وأعظم من كل التصورات التى يتسع لها الخيال ..

لم يكن المقصود هو جمع المال . وإنما كان المقصود هو أشراك الجماهير الواسعة فى الارتباط الإيجابى بالحركة الوطنية .

وتم جمع قدر كبير من المبالغ التى أرسل معظمها إلى الجهات التى كانت تتلقى التبرعات من جميع أنحاء الوطن . وما بقى من هذه المبالغ تم دفعه لشراء أسلحة سوف يتحتم استخدامها فى المسيرة الطويلة للعمل الوطنى المقبل .

ومن جانب آخر فقد نشط صدقى باشا رئيس الوزراء ، وتعددت تصريحاته التى تقول للوطنيين انه معهم . بل ويسبقهم إلى المطالبة بالجلاء ووحدة وادى النيل . وعن طريق هذا النشاط وتلك التصريحات أمكنه استقطاب بعض الناس لسياسته . وأخذوا يروجون مقولتهم الخادعة او المخدوعة . ومؤداها أن هذا الرجل قد تاب ، وأنه يريد أن يكتب له فى نهاية حياته موقف وطنى شريف !! وكان مجموع الوطنيين يستقبلون تلك المقولة بالرفض أو التحفظ .. ذلك لأن ماضى الرجل مع الحركة الوطنية معروف ومشهور وأكبر من أن تغيره تلك الكلمات الخادعة .

وجاء يوم الحداد الوطنى العام ـ وكان الطالب الشاب فى ضيافة صديقه الاثير إلى نفسه بمنزله الذى سبق استخدامه مخزنا للمنشورات .. وكانت أسرة هذا الصديق قد تداعى أفرادها من قريتهم بمركز كفر الدوار لكى يقوموا بحصارهما ومنعهما من المشاركة فى هذا اليوم !! ولجأت هذه الأسرة إلى حيلة مكشوفة . فقد جلس أفرادها يحيطون بالشاب وصديقه ، ويسمرون معهما انتظارا لأكواب الشاى الذى أوصوا بأن تتم تسويته فوق موقد « سبرتو » هادىء !!

ونظر الصديقان كل إلى الآخر ، وقررا الإفلات من هذا الحصار .. فكان لهما ما أرادا . حيث غافلا الجميع . وقفزا من شباك خلفى .. وبعد وقت قصير كانا فى قلب معمعة الصدام مع قوات الاحتلال التى كانت مرابطة فى عدد من العمائر بميدان محطة الرمل فى الاسكندرية .

٤ ـ لحظات لا تنسى :

كان الميدان الفسيح غاصا بالجموع الهادرة من الشباب القادمين من المنشية ، والقادمين من الاتجاه المضاد ، وكانت الحناجر تتعالى شعاراتها الوطنية كأنها هزيم الرعود . الكل يهتفون للجلاء . وسقوط الاستعمار .. والكل يتعاهدون على مواصلة الجهاد حتى تتحقق آمال الشهداء .

وفجأة انطلق الرصاص من نوافذ العمائر التى يقيم فيها الجنود الإنجليز ، ولم ينتبه المتظاهرون إلا وقتلاهم يسقطون صرعى بالعشرات .

لم يكن المتظاهرون يحملون أسلحة لكى يردوا بها ، لكن إيمانهم بعدالة قضيتهم كان أقوى من كل سلاح .. وبسبب هذا الإيمان فإنهم اتجهوا بكل قوتهم الزاحفة صوب تلك العمائر التى ينطلق منها الرصاص .. وهناك وجدوا محطة بنزين قريبة منها فاندفعوا نحوها ، وحطموها ، وأخذوا يخلعون ملابسهم ويغمسونها فى سائل البنزين ثم يشعلونها ويقذفونها على نوافذ تلك العمارات وهم يصيحون نموت نموت وتحيا مصر .. وفى لحظات قليلة اشتعلت النيران فى تلك العمائر بينما قلت طلقات الرصاص وتباطأت ..

لكن كشكا خشبيا كان قابعا فى قلب الميدان أخذ ينطلق منه الرصاص .. وتنبه المتظاهرون فاندفعوا إليه غير مبالين بضحايا الرصاص الذين يسقطون منهم .. واستمروا يندفعون حتى بلغوه وحطموه وقتلوا كل من كان فيه ..

لقد كان فى هذا الكشك الخشبى ستة من الجنود الانجليز ، وكانوا مسلحين بالرشاشات ويبدو أنهم

وجدوا الفرصة مواتية للثأر من حريق العمائر الذى لا بد أنهم رأوه فأطلقوا الاعيرة السريعة وبكم كبير ويبدو أن نفاذ ذخيرتهم قد عاقهم عن استمرارية الضرب فانقض عليهم المتظاهرون وأخرجوهم من الكشك قتلى ، بينما استولوا على أسلحتهم التى لم تكن بها ذخيرة .

وشعر المتظاهرون بنشوة غامرة . فأحضروا علم مصر الاخضر ذا الهلال الابيض والنجوم الثلاثة المتلألئة ، وألقوا هذا العلم على جسد هزيل لعامل مصرى كان له فضل اقتحام هذا الكشك بعد تحطيمه .. وحملوا هذا الجسد المغطى بالعلم فوق أعناقهم .. يسيل دمه فوق جبينه وهو يصيح .. « نموت نموت وتحيا مصر »

واشتعل الحماس فى المتظاهرين فأخذوا يرددون ما يصيح به هذا العامل وهم يشقون شوارع المدينة بينما حضرت سيارات الإسعاف لنقل المصابين ، وقوات الشرطة والجيش لإعادة الأمن إلى هذا الميدان بعد ما تخضبت أرضه بالدماء . !!

٥ ـ نجاة الجبان :

أثناء هذه المعمعة الحامية كان الطالب الشاب يندفع مع المندفعين صوب كشك الرشاشات . غير عابىء بالموت الذى يحصد الكثيرين ممن حوله .. وفجأة رأى نفسه وقد تمكنت منه عافية صديقه الذى كان يتفوق عليه بدنيا ، فإذا به يقيد حركته بعقد يديه من حوله ، ويبدأ يدفعه إلى الخلف بظهره .. بينما هو يصرخ فيه ، ويكيل له الشتائم ، وينعته بالجبن والنذالة .. لكن كل ذلك لم يفلح ووجد نفسه وصديقه قد خرجا من المعمعة وأصبحا فى مؤخرة الصفوف . !! هنالك أعلن الطالب الشاب غضبه على هذا التصرف الجبان ، غير أن صديقه لم يبال بهذا الغضب ، وقال له : فى هدوء . لقد كان المتظاهرون يتساقطون كما رايت .. وأنا لم أكن استطيع أن أراك تسقط أمامى فاحتضنتك لكى يتم سقوطى من قبلك !!

وعلى الرغم مما ينطوى عليه هذا القول من صدق المحبة ونبل الوفاء . إلا أنه لم يقتنع به . وقال لصديقه ساخرا : هنيئا لنا نجاة الجبالن !!

كان الميدان لم يزل مضطربا بالجنود والضباط المصريين ، وكانت على مقربة من كشك الرشاشات كتيبة من جنود الجيش معها ضابط شاب من معارفه .. رآه فاتجه إليه مصافحا ولفت نظره بعد المصافحة قوله لأحد جنوده : يا بنى آدم اجعل الميل ناحية الشارع !!

لم يفهم شيئا ولم يحاول أن يفهم لكن الضابط الشاب قد تطوع بتوضيح الامر فقال سوف يحضر الآن المحققون ليعاينوا مكان الاحداث ، ولو ترك ميل الثقوب التى أحدثها إطلاق الرصاص فى خشب الكشك على حاله ، فربما ترجح لدى المحققين أن القتلى الانجليز « لم يكونوا هم المعتدين على المتظاهرين أولا » ..

عندئذ اهتاجت مشاعره ، وأخذ يصف الموقعة كما رآها ، ويبدى استعداده للادلاء بأقواله إذا ما حدث التحقيق .. فنصح له الضابط ، ورجاه الا يفعل حتى لا يتهم بالشغب !!

وهنا تذكر الفرق بين ضابط وطنى يستشعر الخوف على الوطنيين ، وبين ضابط آخر كاد أن يقضى على

مستقبله بتلفيق الوقائع وتزويرهـا يوم ٩ فبـراير .. ثم وجـد بعد ذلك نفسـه يشد ذراع صـديقه الحميم ويبصرفار

٦ ـ بداية الجلاء :

يالروعة ما حدث فى هذا اليوم !! لقد ظلت المظاهرات تجوب أنحاء المدينة المختلفة حتى جاء الليل ! وكان المتظاهرون يتنادون بالثار ، ويطالبون بالقصاص من المجرمين ، بينما كانت صرخات المحزونين والثكالى تملأ الآفاق ، فالشهداء والجرحى المصابون تكتظ بهم عنابر المستشفيات وأفنيتها ، وأمام كل مستشفى عشرات بل مئات الأسر التى تندب قتلاها . وكان المتظاهرون كلما مروا بهؤلاء وأولئك . يزداد اشتعال الألم ، فكأن التظاهر يلفح وجوه الحزانى فيزداد نحيبهم ، وكـأن النواح والبكـاء وقود يضـاعف نار الغضب فى قلوب المتظاهرين ..

وهكذا لم تستطع كل قوات الشرطة والجيش أن تفعل شيئا نحو تسكين الغضب الذى انفجر كالبركان الهائل الذى لا يمكن التنبؤ يتوقفه مهما طال الزمن !!

هنا لك اجتمع المسئولون على مختلف المستويات فى الدولة ، وانعقدت لقاءات سـريعة مـع المسئولين البريطانيين فى مصر .. كما تمت اتصالات عاجلة بلندن .. ولم يكن هناك أدنى أمل فى إعادة الحال إلى ما كان عليه قبل هذا اليوم الدامى . بل توقع الكثيرون أن يزداد الموقف انفجارا لو تم أى تدخل بالقوة لمنع المظاهرات أو تحديها .. وهكذا وجدت سلطات الإحتلال نفسها أمام اختيار واحد لا بديل له . فأصدرت إعلانها بإجلاء قواتها عن القاهرة والإسكندرية !!

وقع هذا القرار من نفوس الوطنيين موقع الفرح والبهجة رغم الجراح . وتأكد لديهم أن هذا الجلاء الجزئى لم يأت إلا ثمرة للجهاد والدماء التى أريقت فى سبيله .. وتطلعت الأعين إلى اليوم الذى ستجلو فيه قوات الاحتلال عن كل شبر من أرض الوطن .

وبمنطق الأحداث كان لابد أن يتوالى البذل والجهاد حتى يرحل كل المحتلين إلى غير رجعة ـ لكن ما حدث بعد ذلك كان على عكس هذا المنطق على طول الخط .

٧ ـ الكيد والتآمر :

بعد يومين اثنين حضر إلى الاسكندرية صدقى باشا رئيس الوزراء ، بينما المظاهرات كـانت لا تزال مشتعلة بها .. وفوجىء المتظاهرون بدولته ينزل من سيارة صغيرة بميدان محطة الرمل دونما أية حراسة أو موكب رسمى .. وكأنه كان لا يريد أن يتعرف عليه أحد من المتظاهرين .. لكن المتظاهرين عرفوه . وسرعان ما اجتمعوا من حوله ، فدخل إلى صالون للحلاقة بشارع جانبى من شوارع الميدان . وكان معه ضابط واحد من ضباط البوليس السياسى بالاسكندرية . وتبعه عدد من المتظاهرين .. فقال لهم إننى حضرت لكى أعاين بنفسى آثار الأحداث التى وقعت هنا أول أمس . وكان الشاب من بين الذين تبعوه ، فأخـذ يصف الوقائـع والأحداث ، وشرح له كيف كان المتظاهرون من اجل مصر يقبلون على الميدان من اتجاهات مختلفة ، وليس مع

اى منهم أى نوع من أنوع السلاح وبينما هم يهتفون للجلاء ووحدة وادى النيل فوجئوا بالرصاص ينطلق عليهم من تلك العمارات التى نقف تحتها الآن . وقد تساقط المئات ـ ما بين شهيد وجريح . الأمر الذى أثار المتظاهرين فأشعلوا النار فى هذه العمارات ـ وأراد أن يستمر فقاطعه « دولة الباشا » وقال : عموما أنا واحد من هذا الشعب المصرى ، وأحب أن أبشركم بأنه لن يكون هناك جندى بريطانى واحد فى مدينتكم بعد اليوم . بل ولن يكون هناك جنود بريطانيون فى أية مدينة أخرى ـ فقط أنا أطلب مهلة للحكومة التى أرأسها لكى نستطيع معكم تحقيق الجلاء عن كل الأراضى المصرية فى وقت قريب بإذن الله .

وكان المتظاهرون خارج صالون الحلاقة يزحمون الشوارع ويهتفون : الجلاء بالدماء .. لا إمهال بعد اليوم .. الثار الثار . الثار الثار .

سمع دولة الباشا هدير هذه الأصوات فامتقع لونه ، وأنهى حديثه مع الذين كانوا معه ، وانصرف مسرعا فى سيارة كانت تنتظره وبها بعض ضباط القلم المخصوص .

ويرد الفعل خرج الطالب الشاب من ذلك اللقاء منفعلا ، فارتقى قاعدة تمثال اسماعيل باشا ، ونقل صورة أمينة للحديث الذى دار مع دولة الباشا ، وعندما وصل إلى الإشارة الخاصة بطلب المهلة انفعل وصاح محذرا من الانخداع . وقال إن رئيس الحكومة يطلب الإمهال .. والجلاء الذى تم فعلا عن المدن إنما تم بغير إمهال . نظرا للمعارك الساخنة التى وقعت وراح ضحيتها عدد كبير من الشهداء الأبطال .. ثم قال : إن التراخى والإمهال سوف يؤدى إلى التسويف والمماطلة . بينما استمرار الجهاد والمثابرة عليه هى الكفيلة بتحقيق الجلاء عن كل تراب مصر .. وعند هذه النقطة حمله المتظاهرون على أكتافهم .. وظل يهتف للجلاء حتى بح صوته ولم يعد يسمعه أحد فأنزلوه .

٨ ـ قرن الفتنة :

وظل الوطنيون من الشباب يتواصون بضرورة الاستمرار على نهج الثورة . حتى نحقق الاستقلال الكامل . ولكن قرن الفتنة أخذ يظهر بينهم ـ فإذا انعقد اجتماع ظهر بينهم من يدعو إلى إعطاء فرصة للحكومة لكى تعالج الموقف وتحقق الجلاء . وإذا قامت مظاهرة سمع المتظاهرون من يستشهد بالآيات القرآنية الكريمة لتزكية موقف « اسماعيل صدقى » فيقول « واذكر فى الكتاب إسماعيل إنه كان صادق الوعد وكان عند ربه مرضيا »

وكان من الواضح أن صدقى باشا قد نجح فى اصطناع بعض المؤيدين الذين يروجون لمقولة الإمهال ، رغبة فى العودة إلى سياسة التسويف والمماطلة . وإحباط الدعوات الشابة لتعميق الجهاد وتوسيع نطاقه .. ومن هنا انقسمت الصفوف ، ونجحت السياسة التقليدية للاستعمار الانجليزى .. فرق تسد . واصبح الشباب يتضاربون بالعصى والكرابيج وانشغل كل بخصم سياسته من المصريين بدلا من أن ينشغل الكل بضرب نفوذ المستعمرين .. وهكذا أخذت الحركة الوطنية تتراجع فى مواجهة المنقسمين عليها والمدعومين بنفوذ الحكومة التى لم يكن لديها أى استعداد للثبات إلى جانب سياسة التحرير الشعبية

صحيح أن طلبة جامعة الاسكندرية قد ظلوا فى خنادق المرابطة مضربين حتى اقتربت امتحانات نهاية العام ، وأجريت امتحاناتهم بعد اجازة الصيف لكن ذلك لم يأت نتيجة تذكر .

ومضت حكومة صدقى فى مفاوضاتها مع الإنجليز ، وأعلن أثناء ذلك عن مشروع صدقى بيفن . وكان ينص على ارتباط مصر بانجلترا فى حلف دفاعى مشترك . رفضته مصر كلها .

٩ ـ فكر جديد :

وفى غمرة الانقسامات والمشاحنات التى ولدها تآلف البعض مع الحكومة ، وبخاصة هؤلاء الذين كانوا يعبرون عن وجهة نظر اللجنة القومية . أخذت تبزغ الأفكار اليسارية التى تقدم التحليل للمواقف والأحداث استنادا إلى النظرية الماركسية التى لم يكن معظم الشباب على علم بشىء منها .

وعبرت هذه الأفكار عن نفسها من خلال المناقشات التى كانت تتم فى اجتماعات اللجان الطلابية ، ومن خلال المنشورات ، والمطبوعات الدورية ، وبدأت هذه الأفكار تجد من يصغى إليها ويهتم بفهم أعماقها .. ويحاول توظيفها فى حركة النضال ضد الاستعمار وأعوانه .

وعندئذٍ فزعت الدوائر الحكومية ، وبسرعة خاطفة أصدر صدقى باشا فى شهر يوليو سنة ١٩٤٦ قانونا بتجريم الفكر الماركسى . إذا تم تحبيذه أو ترويجه أو حيازته . وبالاستناد إلى هذا القانون قبضت الحكومة على أعداد غفيرة من الشباب الوطنى . وتخلصت منهم إما بتقديمهم للمحاكمة أو بإلقائهم فى غياهب المعتقلات . وكان الهدف الواضح هو تصفية الحركة الوطنية وتخليصها من عناصر المعارضة التى تقف ضد سياسته المتواطئة مع الإنجليز .

ومنذ تلك اللحظة أصبح سهلا على السلطات أن تتهم أى معارض لسياستها بتهمة الشيوعية التى لم تكن تعنى أكثر من الوقوف خارج مظلة الحكومة . والدعوة إلى إحباط سياستها الرامية إلى تثبيت أقدام الإنجليز فى مصر .

١٠ ـ وطأة الإحباط :

وكان من أثر ذلك كله تفتيت الجهود الوطنية ، ووقوف الشباب فى معسكرين متعاديتين تقتتلان وشعر الطالب الشاب بالإحباط وخيبة الأمل ، فهو لم يكن يتصور أبدا أن يكون هناك مصرى واحد يقبل المهادنة أو التفريط فى حقوق بلاده ، وكانت سذاجته السياسية تؤكد له أن الانتفاضة الوطنية التى شارك فيها كل الشعب سوف لا تتوقف حتى تنتصر وتكتسح كل أعدائها !! والآن هو يرى بعينيه كيف تحول الصراع ضد الاحتلال إلى صراع بين المصريين والمصريين !!

وأسوأ ما رآه من هذا الصراع كان الدور غير المفهوم الذى لعبه الإخوان المسلمون تأييدا لحكومة صدقى !! وكثيرا ما سأل نفسه ترى ما هى الأسباب الحقيقية لهذا الموقف الغامض عليه ؟ ولماذا لم يكن موقف الإخوان يعكس هذا الموقف ؟ أليس الجهاد ضد الانجليز ومهادنيهم جهادا فى سبيل الله ؟ ولماذا

الدفاع عن صدقى صاحب المواقف المشهورة ضد الشعب ؟ تـرى ؟ وترى ؟ وتـرى؟ أسئلة كثيرة أضنتـه وأشقته ولم يجد لها اية إجابة !!

وكان إلى هذا الوقت عضوا فى جماعة الإخوان المسلمين .. لكنه عضو غير منسجم مع السلوك العام لهذه الجماعة منذ ٢ نوفمبر سنة ١٩٤٥ ـ ومن أجل ذلك فإنه بدأ يصغى إلى التساؤلات المماثلة عند الكثيرين من شباب الطلبة وكان فى البداية لا يكاد يطيق الاستماع إلى اية عبارة فيها شبهة النيل من سمعة الإخوان .. بل إنه كثيرا ما لجأ إلى الدفاع العنيف عن طهر ونقاء هذه الجماعة !!

كان هذا دأبه فى الماضى . فما باله الآن يصغى إلى ما يقال من تجـريح أو تشهـير ، ثم لا يغضب أو يمتعض لقد سمح لنفسه أن يصغى إلى إشاعة تقول : إن المرشد العام قد تقاضى مبلغا كبيرا من حكومة صدقى لكى تصدر الجماعة صحيفة يوميه .. يا للهول !! إن مجرد الاستماع إلى هذه الشائعة كان من وجهة نظره يعتبر إثما عظيما !!

١١ ـ الرحيل إلى القاهرة :

واخذت الأمور تختلط عليه ، ولم يعد يقوى على مواجهة الهزيمة النفسية التى حلت به ، فقرر الهروب من الإسكندرية ، والارتحال إلى القاهرة . وقالت له نفسه إن الاسكندرية التى شهدت ذروة نشاطك لا ينبغى لها أن تشهد جزنك على الفشل الذى منيتَ به . وعليك أن تذهب إلى القاهرة الواسعة حيث لا يعرفك أحد هناك ، وإياك ان يُحدثك شيطانك مرة أخرى بالإنخراط فى العمل السياسى أو الاقتراب منه .

إن عليك ان تتفرغ لتحصيل العلم الذى اشتهرت بالتفوق فيه . ولتحدد مستقبلك فى هذا الإطار الذى من خلاله تستطيع خدمة وطنك أعظم الخدمات .

واستجابة لما أوحت إليه نفسه عمد إلى اتخاذ الإجراءات التى كفلت تحويل أوراقه إلى المعهد الدينى بالقاهرة .. وما إن استقر فى معهده الجديد حتى تعرف إلى بعض زملائه القدامى ممن سبقوه فى تحويـل أوراقهم منذ سنوات ، كما تعرف عليه بعض الذين سبق أن التقى معهم ايام معركة "الأزهر" ضد حكومة الوفد ..

وكان واضحا انه شديد الحرص على الابتعاد عن خوض معارك السياسة ، والاندماج بكليته فى تحصيل العلم لكن هؤلاء الذين يعرفونه .. رغم قلتهم ـ أخذوا يتهمون هدوءه فى مجالسهم الخاصة ، وينعتونه بمختلف النعوت . وترامت إلى سمعه تلك الاتهامات التى بدات تتناقلها الالسنة من حوله .. لكنه لم يهتم ـ وكأنه يريد أن يقول للمتقولين عليه قولوا ما تشاءون فإننى سوف لا أبرح الموقع الذى لجأت إليه هربا من لجاجات العمل السياسى الملىء بالمؤامرات والمهاترات !!

وظل على تلك الحال اسبوعين تقريبا . ظهرت عليه مظاهر الجدية العلمية أثناء الدروس ، وتعرف عليه عدد من أساتذته من خلال المناقشات والمحاورات التى كان يتعمدها مع كل منهم .. لم يكن يلقى بالا لغير الاستذكار والدأب على الدروس التى بدأت تتملك شغاف قلبه . وتستوعب كل وقته .. وكان كل من يعرفونه يتعجبون من هذا التحول الجديد !!

كان إذ ذاك يسكن غرفة فى بدروم معهد القاهرة الأزهرى ، وكان محافظا على علاقته الحميمة بأستاذه الذى استضافه ذات يوم فى حلوان ، وكثيرا ما كان يروح عن نفسه بزيارة بعض الأصدقاء .. وكان سمته الجاد لا يسمح لأحد بأن يقترب به من منطقة الهزر المعتاد عند الشباب .. ومن أجل ذلك فإنه كان يقضى معظم الوقت وحيدا .. وحيدا إذا ذهب للصلاة أو إذا عاد منها . وحيدا إذا جلس للإستذكار أو فرغ منه . وحيدا إذا انطلق إلى الدرس أو خرج من أدائه .

وبعد اسبوعين اثنين انتقل من مسكنه فى « البدروم » إلى منزل فى شارع احمد عمر بالحلمية الجديدة . وكان ذلك بواسطة مدير الأزهر والمعاهد الدينية ـ وفى هذا المسكن الجديد كان بعض من الطلبة الأكراد العراقيين ، وبعض من الطلبة الفلسطينين ، ولم يكن هناك أحد من المصريين سواه .

أسعدته تلك الفرصة بالتعرف على أنماط أخرى من الناس .. كلهم يحمل هم وطنه فى رأسه .. ولا يحلوله التحدث إلا فيه .. ورأى فيهم صورة من عدم التجانس فى الآراء شأنهم شأن ابناء مصر .. لكنه من خلال الحديث إليهم استطاع أن يتعلم شيئا عن قضاياهم الوطنية والأبطال الذين يقودون النضالات الوطنية فى بعض الأقطار العربية والإسلامية .. وكان على رأس هؤلاء فى منطقة كردستان بالعراق . « ملا مصطفى البرزانى » . وفى أرض فلسطين العربية الحاج امين الحسينى ..

ومن خلال هؤلاء الطلاب نفذ إلى التعرف على بعض أبناء البلاد الاسلامية الأخرى .. صينيين ، واتراك ، ومغاربة الخ .

وكان يقوم على راس هذا الشارع من ناحية ميدان الحلمية المركز العام للإخوان المسلمين من ناحية ، ودار جريدة « الإخوان المسلمون » من ناحية أخرى .

وبالرغم من ذلك فإنه أصر على الاستمرار فى منطقة الظل وقرر عدم العودة إلى الانغماس فى السياسة .

□ □

الفصل العاشر

التحول الكبير

١ ـ من التقهقر إلى الهجوم

تحول طريقه إلى مسكنه من الهبوط من قاعة الدرس للبدروم ، إلى النزول والخروج من مبنى المعهد الأزهرى إلى الشارع فميدان الأزهر ـ فالطريق الممتد إلى الحلمية الجديدة .. وكان كعادته مؤخرا لا شأن له إلا بمواصلة خطته التقهقرية التى ارتضاها والتزم بها . وإنه لماض إلى منزله كما تعود بعد دروس يوم الخميس ، وإذا به يشهد فى ميدان الأزهر حشودا أزهرية كبيرة العدد . ودفعه الفضول إلى السؤال عن سبب هذا الاحتشاد ، فجاءته الإجابة هكذا : رئيس الحكومة عند شيخ الأزهر للاعتذار !! سأل مرة أخرى : للاعتذار عن أى شىء ؟ وكانت الاجابة : عن ضرب الازهريين بالرصاص فى أسيوط بالأمس !!

كان خالى الذهن تماما ، ولم يكن يعرف أن الأزهريين المحتشدين قد جاءوا لاستقبال النقراشى باشا رئيس الحكومة . ووقف مشدوها للحظة .. ثم تمتم وكيف يتقبل الناس اعتذارا عن قتلاهم ؟ أهذا معقول ؟

وقبل أن يسترسل فى شروده حانت منه التفاتة إلى المحطة التى يريد الركوب منها إلى منزله . فأبصر طلابا أزهريين صغار السن على هامش هذا الحشد الأزهرى الكبير ، وتسمرت عيناه على هؤلاء الصغار فقد كانوا يبكون !!

ظن فى أول الأمر أنهم فقدوا شيئا . أو اعتدى عليهم أحد ، فانجذب إليهم لكى يطيب خواطرهم ويشد من أزرهم .. وهو فى هذا منطقى مع تكوينه العاطفى الذى كان يجعل قلبه يذوب ذوبانا لمرأى الدموع فى أعين البشر !!

وما إن تحدث إليهم حتى عرف أنهم مفصولون من المعهد الدينى منذ أكثر من شهرين بسبب تظاهرهم مطالبين بالجلاء ووحدة وادى النيل !! كما عرف أن عدد المفصولين ثلاثة وستون طالبا وهؤلاء هم أصغرهم سنا .

سألهم من الذى فصلهم ؟ فأشاروا إلى شيخ أسمر فارع الطول كان يقف على عتبات الإدارة العامة للأزهر وقالوا هذا الشيخ الذى يعمل مراقبا فى المعهد الأزهرى .

عندئذ قال لهم : عموما الذين يفصلون فى سبيل الوطن أبطال ، ولا يجوز للأبطال أن يضعفوا إلى حد البكاء !! ووعدهم بأنه سوف يعمل على عودتهم فى أقرب فرصة .. ولما تشككوا فى وعده أكد لهم أنه غير كل من وعدوهم المساعدة فى الماضى .

ثم انصرف عنهم راضية نفسه بما فعل ، وأصر فى سريرته على أن يكون صادق الوعد مع هؤلاء الطلاب ، لأن العدول عن الوفاء بالوعد خلق ذميم .

وظل مشغولا بتدبير أمر الوفاء بهذا الوعد بعد أن بلغ مسكنه ، وتردد بين اللجوء إلى المسئولين وطلب الحل منهم ، وبين البعد عن هذا المسلك الذى قد يوقعه فى الحرج . ولا يجدى نفعا فى حل تلك المشكلة !!

وظل على هذا التردد فترة طويلة ترجح لديه فيها أن يبتعد عن رجاء المسئولين مهما يكن شأنهم ، ذلك لأن

خبرته تؤكد له أن حل المشكلات لا يكون بغير ضغط قوى من جموع الناس .. وهو إن ذهب إلى المسئولين فلن يكون فى نظرهم غير فرد واحد ، ومهما تكن علاقاته بأى منهم فإنه لن يستطيع الضغط اللازم لحل مثل هذه المشكلة الكبيرة .. ثم ماذا يكون هو فى نظر هؤلاء المسئولين ؟. إنه مجرد طالب عليه أن يتعلم منهم ، وليس من المقبول أن يقترح عليهم ما يفعلونه فى أى شأن من الشئون .

وهكذا بالحوار الذاتى مع النفس توصل إلى ضرورة الضغط بالرأى العام لجموع الطلاب الذين يجب أن ينتصروا لزملائهم المهددين بضياع مستقبلهم . ولكن كيف ؟ إنه لا يزال جديدا على طلاب هذا المعهد الكبير ، وليس من السهل أن ينقادوا إليه لكى يضغطوا على المسئولين من أجل تحقيق هذا الغرض .. إنه لو كان فى الاسكندرية لأمكنه تحقيق ما يريد بضغط الجموع !! أما الآن فإنه فى مأزق حقيقى أوقع فيه نفسه .. لقد تورط ووعد .. ومن السهل على غيره التحلل من أى وعد خصوصاً إذا كان مع أشخاص لا يعرفهم ولا يعرفونه ـ لكنه ليس من السهل عليه أن يحقر نفسه بإخلاف وعده مهما تكن الظروف .. وما زالت به نفسه تحدثه وتصور له أن عبور هذا المأزق سوف يوقعه من جديد فى ميدان العمل السياسى الذى قرر أن يهجره إلى الأبد .

٢ ـ التحدى العاصف :

وانتهى به الأخذ والرد مع نفسه إلى قرار لم يقبل الحيرة عنه . قرار اتخذه بعد يومين من الإقدام ، والإحجام ، قرار يتحدى به ضعف نفسه أولا ، والسلطات الفاشمة ثانيا .. قرار لا يوقف تنفيذه أنه فرد واحد ، وليس له عصابة تظاهره .. قرار يعتمد على الثقة المطلقة فى جموع الطلاب ووطنيتهم . وليكن بعد ذلك ما يكون .

وفى صباح يوم السبت بعد الدرسين الأولين ، وأثناء انطلاق الطلاب إلى فناء معهدهم الواسع بل وإلى خارج هذا الفناء من أجل الحصول على ما يطعمون أو يشربون ، فوجىء الجميع به وقد ارتقى سور سلم العمارة الوسطى من عمارات المعهد .. وأخذ يصيح بأعلى صوته : هلموا .. هلموا إلى أيها الإخوة الأحباب .. أقبلوا . سارعوا .. لا تضيعوا الوقت ..

وأقبلوا عليه مسرعين .. وملئوا ساحة الفناء الواسع شاخصة أبصارهم إليه . وهنا امتلأ قلبه بالحماس . وتدفقت العبارات الحارة من فمه ، فقص عليهم فى عجالة سريعة أمر ما رأى وما سمع فى ميدان الأزهر أول أمس ، وساق إليهم أنه قد وعد الطلاب الصغار بالعمل على إعادتهم هم وجميع المفصولين خلال الأسبوع الذى يبدأ اليوم . اقتناعا منه بأن الهتاف للجلاء ووحدة وادى النيل ليس جريمة يستحق مرتكبها الفصل والتشريد ، وإيمانا منه بأن ما فعله هؤلاء الطلاب المفصولون هو نفس ما قتل من أجله طلاب معهد أسيوط الذين قدم رئيس الحكومة لكى يعتذر عن قتلهم أول أمس !!

وارتفعت نبرات صوته وهو يقول : إننا نحن الشباب لا نقبل الاستمرار مع تلك السياسات المعادية للوطن ؛ فالطلاب الذين هم أمل أهلهم ـ ومناط الرجاء لأمتهم يجب أن يصانوا عن القتل والتشريد والفصل .. وإذا كانت إدارة الحكومة قد سلكت مسلك الاعتذار عن قتل المقتولين ، فإن إدارة المعهد يجب أن تكون أكثر رفقا بأبنائها ، وأن تتكرم فورا بإعادة المفصولين وإلا فنحن مضربون احتجاجا على سياسة الفصل والتشريد وسوف لا نعود إلا إذا عاد زملاؤنا المفصولون ـ والمجد والخلود لشبابك يا مصر .

صفق الجميع استحسانا لقرار الإضراب تضامنا مع المفصولين .

لكن واحد من الطلاب صعد إلى المنبر ودعا إلى الهدوء لأن إدارة المعهد قد وعدت خيرا من قبل !! وعندئذ عاد هو إلى التعقيب على دعوة الهدوء فقال : نحن لا نقنع بالوعود ـ فالانجليز يعدوننا بالخروج من مصر منذ نحو السبعين عاما

ولكنهم لم يخرجوا .. وأغلب الظن أنهم لن يخرجوا طالما نحن - بسذاجتنا نصدق تلك الوعود - إن إدارة المعهد تستطيع أن تتخذ قرار عودة المفصولين فى هذه اللحظة - ولسوف تلزم جانب الهدوء فورا لو قدم إلينا الآن من يعلن هذا القرار !!

وهنا صفقت الجموع استحسانا لهذا الرد الذى اعتبروه مفحما ، وانتهت الدراسة عند هذا الحد . ومضى كل إلى حال سبيله . بينما انسحب الطالب الشاب إلى الإدارة العامة للأزهر . لكى يلتقى بمدير الأزهر ويناقشه فى أمر الطلبة المفصولين .. ولكن هيهات !!

٣ - التحدى الفاشل :

ولقد لحق به عند بلوغه مكتب المدير من جاء باسم سلطة المعهد ليشكوه ، وما إن وقعت عليه عينه حتى سارع إلى القول بأنه يعجب كل العجب من أمر هذا الطالب الذى أشعل النار فى نفوس الطلاب ثم جاء إلى مكتب المدير وجلس فيه ! وكان من الواضح أنه يريد الإحراج لا أكثر ولا أقل :

وقبل أن يسترسل أبطل المدير غرضه ، وقال له لا تكمل .. وعليك أن تقترح ما تراه فى شأن هذا الطالب أو غيره ونحن سوف نوافق فورا على ما تريد .. وعندئذٍ كتب الأستاذ المتحدى طلبا لفصل الطالب الشاب بدعوى أنه هو الذى أثار الشغب اليوم ، فصدق المدير بالموافقة على هذا الطلب وفصل الطالب !!

كل ذلك والطالب الشاب فى مجلسه صامت لا ينطق ، ولا يحاول الدفاع بكلمة واحدة . وقبل أن يجف مداد التوقيع على فصله خرج من مكتب المدير . وقد أضمر فى نفسه ضرورة الإصرار على إفشال هذا التحدى بتحدٍ أشد منه واحدٍ . ولمعت فى ذهنه فكرة الاعتماد على زملائه الطلاب . والتخطيط معهم وبهم لكى يتحقق الانتصار على الإدارة مهما تكن قوتها . وقادته تلك الفكرة إلى إطالة البحث مع نفسه فى كيفية العمل .

وبعد أن عاد إلى منزله وبقى فيه بضع ساعات ، انطلق إلى بيت زميل له يعرفه منذ كان معه فى الاسكندرية قبل سنوات . وهناك أخبره خبر فصله نتيجة لما حدث اليوم .. ثم طلب منه أن يقوم هو فى الغد مقامه ، وفى نفس المكان الذى أعلن منه قرار التضامن مع المفصولين لكى يقول للطلاب جملة واحدة . فقال له زميله وما تلك الجملة ؟ قال : زميلكم الذى خطب فيكم أمس تم فصله . هو الآخر . والأمر لكم أيها الرجال !!

قال زميله : وما النتيجة ؟ فقال له ضاحكا : ستفصل أنت أيضا لأن الطلاب فور سماعهم لخطابك البليغ السالف الذكر سيقررون الاستمرار فى الإضراب !!

قال الزميل : وماذا بعد ذلك ؟ فقال له : سوف نقدم لهم واحدا آخر فى اليوم التالى ، وهكذا إلى أن يصبح الفصل سلاحا مفلولا لا يستطيعون استعماله !! وعندئذٍ سوف نرى من الذى سينتصر ؟

وبدا على الزميل أنه اقتنع بتلك الخطة الغريبة ووعد بالتنفيذ !! وعندئذٍ قام منصرفا إلى بيته . ولكنه لقى من لا يحب أن يلقاه فى هذا الوقت بالذات .. لقى مدير الأزهر الذى أبلغه استياءه من تصرفاته ، ودعاه إلى الاختفاء عن الأعين قبل أن يقبض عليه .

٤ - صعايدة وبحاروة :

قام زميله بتنفيذ الاتفاق المبرم بينهما . وأعلن الطلاب فورا تأييدهم للإضراب حتى يعود المفصولون .. وحينئذٍ انقلب فناء المعهد الدينى الأزهرى إلى ساحة معركة رهيبة بين الصعايدة والبحاروة . وتم الاشتباك بالعصى ، والكرابيج ، والكراسى . وانسحب الخطيب البليغ هاربا من هذا الذى فاجأه .. وفى ميدان الأزهر وجد الطالب الشاب

جالسا بمقهى العجمى فاندفع إليه ممتقع اللون وفى شبه ذهول .. وما زال به حتى سكنت نفسه ، وأفضى بحقيقة هذا الذى حدث .

هنا انتفض الطالب الشاب ف خفة الغزال ، ومرق من الأزقة الخلفية فى حى الباطنية الواقع خلف سور المعهد الأزهرى . ومن هناك تسلق السور الخشبى وألقى بنفسه فى الشجار . وفوجىء الجميع به وهو يصرخ بدعوة الهدوء ونبذ العصبية ، وطرح الكراسى والعصى والكرابيج ، والاستماع إلى صوت العقل والضمير . ومن عجب أن الجميع لم يلبثوا أن استجابوا له . فطلب منهم التسلل من بين صفوف الشرطة إلى مبنى لجامع الأزهر لكى يعقدوا مؤتمرا واسعا يناقشون فيه أمورهم ويتخذون المناسب من القرارات .. وكانت الساعة تشير إلى التاسعة والنصف ـ فحدد موعد بدء المؤتمر بالحادية عشرة .. ثم انسحب من خلف السور خوفا من وقوعه فى قبضة الشرطة التى كانت ترابط عند الأبواب والمنافذ المؤدية إليها .

وفى مقهى من مقاهى حى الحسين جلس مع زميله الذى عاونه صباح اليوم ـ وكتب مذكرة ضافية شرح فيها ما حدث ، وكيف أنه مظهر من مظاهر التخلف الفكرى والحضارى . وعودة إلى ما قبل عهد مينا موحد الوجهين القبلى والبحرى .. وألح على المطالبة بعودة المفصولين الذين لا ذنب لهم سوى الهتاف من أجل مصر .. وحمل المسئولين فى تلك المذكرة مسئولية التطورات المؤسفة التى سوف تنجم عن التمادى فى سياسة الفصل والتشريد .

ثم انطلق مع زميله إلى ساحة الأزهر الشريف حيث انعقد المؤتمر الذى دعا إليه . وطرح هو المذكرة المكتوبة فى عدد من النسخ . وطالب المؤتمرين بالتوقيع عليها لكى يتم تقديمها للمسئولين مع إبلاغ صور منها لدور الصحف المختلفة .

ولشد ما أسعده أن الجميع وقعوا تلك المذكرة سعداء بكل ما جاء فيها .

٥ ـ مهرجان العودة :

حمل المذكرة الموقعة ومضى إلى مكتب الدكتور الشيخ مصطفى عبد الرازق شيخ الجامع الأزهر آنذاك . ولم يلبث أن خرج من مكتبه والسعادة بادية على محياه . فقد وعده الشيخ بعودة الطلاب . ووقع أمامه قرارا بعودتهم ، وطمأنه إلى أنهم سيبلغون بهذا القرار منذ الساعة ..

وكانت هذه الساعة الواحدة بعد ظهر يوم الأحد ، ومعنى ذلك أن مضمون القرار سيصل للطلاب غدا الإثنين ، وسوف يعودون إلى معهدهم صباح الثلاثاء .

بشر بكل ذلك زملاءه الذين كانوا مرابطين فى الجامع الأزهر ينتظرون حضوره .. وحينئذ قرروا الاستمساك بموقفهم الإضرابى إلى صباح اليوم الموعود .

وجاء يوم الثلاثاء فذهب إلى المعهد مجازفة لكى يتأكد من صدور القرار وتنفيذه ، وهناك رأى الغبطة بادية على الوجوه ، ورأى الطلاب فيما يسمونه بمهرجان العودة ـ فخطباء المفصولين يشكرون التضامن الذى أعادهم بعد غيبتهم الطويلة . وخطباء المضربين يهنئون الأبطال العائدين بالعودة . والكل يتعاهدون على الاستمرار فى الاضراب حتى يعود الثلاثة الذين لم يشملهم قرار العودة ـ ووقف طالب يتلو قسم التضامن لكى يردده وراء الجميع .

أرهف السمع وهو مغتبط فعرف أنه واحد من هؤلاء الثلاثة الذين لم تتم الموافقة على عودتهم .. لكن ذلك لم يغضبه . فحسبه أن واحدا وستين عادوا بهذه السرعة الكبيرة .

وبجراة المقتحم شق الصفوف وصعد إلى المنصة التى كان يتعاقب عليها الخطباء ، وما إن رآه حشد الطلاب حتى استقبلوه بعاصفة من التصفيق الحاد . وأشار إليهم طالبا الهدوء ثم تحدث فيهم ، فهنأ العائدين بالعودة ،

وهنأ المتضامنين بنجاحهم فى تحقيق مطالبهم .. ثم تسلل من هذا المدخل إلى عقولهم ليقنعهم بالعدول عن الاستمرار فى إضرابهم . فقال لهم إنكم تدرسون المنطق . وبالمنطق أيها الإخوة ـ فان آخر مفصول يجب أن يكون آخر عائد .. واغلب الظن انكم موافقون على أن عودة الجميع إلا ثلاثة منهم تستحق أن نتجاوب معها تجاوب الرجال الجادين . لا الصبية العابثين . وناشدهم الا يعطوا المغرضين فرصة تشويه الحركة الطلابية . وأن يتوجهوا فورا إلى قاعات الدرس والتحصيل .. فإن لم ينجح الثلاثة المخلفون فى العودة فسوف يستنجدون بكم .

ومن أعجب العجب أن جميع الطلاب انصرفوا الى دراستهم دون إبطاء . وتبع ذلك الموقف أن فكرت الإدارة فورا فى اتخاذ الاجراءات لعودة الآخرين .

٦ ـ المأزق الخطير :

كانت هذه المعركة الصغيرة أول معركة ظاهرة يخوضها فى مدينة القاهرة ، ولم يكن فى حسبانه أنها سوف تفتح أبواب اللقاءات والمناقشات التى انتهت به إلى الانغماس فى العمل السياسى مرة أخرى . وبدا له أن العمل السياسى هو القدر الذى لا مفر منه فى أى مكان يذهب إليه ..

وعاد من جديد إلى الاهتمامات السابقة ، فصار يغش النوادى السياسية . ويتعرف على الشباب المهتمين بمصير بلادهم .. وتسلل به بعض من تعرف عليهم إلى الاجتماعات السرية التى كانت ظروف مصر قد فرضتها . والتى فى مناخها ولد التنظيم السرى للضباط الاحرار . وغيره من التشكيلات الأخرى . ذلك لأن الارهاب الذى فرضته حكومة صدقى لم يمكنها من عقد صفقة الدفاع المشترك مع الإنجليز فتركت موقعها لحكومة النقراشى باشا الذى حاول الحصول الحقوق المصرية من خلال عرض القضية على مجلس الأمن فى أغسطس سنة ١٩٤٧ ولكنه لم ينجح وعاد ليواجه فترة عصيبة من تاريخ البلاد ؛ فقد بدأ الوطنيون يشعرون بالإحباط الناجم عن الفشل فى التوصل إلى حل للمشكلة الوطنية ، كما بدءوا يضيقون ذرعا بتلك الاعتداءات اليهودية المدعومة من بريطانيا على الوطنيين الفلسطنيين . وجاء قرار تقسيم فلسطين الذى صدر فى نوفمبر سنة ١٩٤٧ بمثابة صفعة قوية لكل الآمال الوطنية فى المنطقة العربية .

ثم جاء انهاء الانتداب البريطانى على فلسطين فى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ لكى تستدرج الدول العربية إلى حرب فيها يتم إغراق كل شعارات الجلاء ووحدة وادى النيل . ومن خلال كل ذلك تزايد الشعور بالإحباطولم يعد هناك من منفس للوطنين إلا من خلال الاجتماعات السرية . وفى هذه الاجتماعات تعرف الطالب الشاب على المطبوعات والكتب المحظورة وكان بركان الوطنية لم يخمد فى صدر الطالب الشاب ، فاتقدح فى ذهنه أن العمل السرى ليس إلا دليلا على أن قضية النضال من أجل الوطن ما تزال متأججة ، وأن عليه أن يكون واحدا من هؤلاء الذين أتخذوا من السرية ستارا لتنظيم انفسهم بعيدا عن الأنظار من زبانية السلطة .

وتكونت له صداقات جديدة مع هذا النفر من الشباب الذين حرصوا على الالتصاق به كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلا .. كانوا يمدونه بالكتب المحظورة ، ثم يعقدون معه الجلسات لمناقشة المقروء منها . وكان للمناقشات من وجهة نظره جانبها السياسى الملىء بالطموح المشروع إلى تحقيق أهداف الوطن فى التحرر والتقدم . لكن هناك جانبا آخر لهذه المناقشات لم يكن من وجهة نظره وثيق الصلة بالقضايا العملية المطروحة . وتمثل هذا الجانب الاخير فيما كانوا يطلقون عليه الجانب الفكرى الذى يقدم نفسه بديلا لكل فكر آخر فى المجتمع .. فى الفلسفة .. والاخلاق ، والعلم ، والفن الخ . ومن بداية الأمر كانت كل الجوانب الفكرية تقع من نفسه موقع القبول إلا الذى كان منها خاصا بالدين . ولقد عللوا له ذلك بانه قد نشأ وتربى على الدين . ومن ثم فإن له حساسية خاصة فى هذا الجانب بالذات .

وأراد أن يقطع صلته بهؤلاء الشباب ولكنه لم يستطع .. فهم على الأقل يشكلون بعض الأمل لنصرة مصر .. ومن ثم فإنه استمر معهم وحاول كثيرا إقناعهم بخطأ أفكارهم عن الدين . فلاذ يكتب فلاسفة الإسلام والمسيحية وغيرهم ، وأصبح قارئا مستديما فى دار الكتب بالقاهرة .. كما استعان بما كان لدى أساتذته من كتب وعلم . وظل يحاور ويداور بالذى تعلمه من علماء الكلام والفقه والتفسير والحديث ، إلى جانب ما اكتسبه من خلال الاطلاعات الحرة فى كتب الغزالى ، والفارابى ، وابن سيناء ، وابن رشد . وأضرابهم . وكانت خصوبة المحاورات فائقة الحد فى نظره ، ولكنه فى كل مرة كان يفشل فى اقناع هؤلاء الشياطين كما كان يحلو له أن يسميهم ، وهكذا وجد نفسه فى مأزق لا يعرف الخلاص منه .. فهؤلاء الشباب صاروا جزءا من حياته ولم يستطع البعد عنهم .. ولكنهم فى نفس الوقت منحرفو التفكير فيما يتعلق بالدين ..

وحاول الاستنجاد ببعض أساتذته ومنهم المرشد العام للإخوان المسلمين ، عرض عليهم الزلزال المروع الذى تتعرض له عقيدته بسبب بعض القراءات والمناقشات .. وطلب من كل منهم إسعافه بما يقدر عليه ـ لكن المحصلة التى وصل إليها كان مخيبة للآمال .. فكل من تم الاستنجاد بهم لم يقدموا له شيئا فوق ما كان يعرفه ..

لقد كان يريد حججا تقوى على المواجهة مع استخدام مفردات ومصطلحات العلم الحديث ولكنه لم يجد .. وفى نهاية الأمر قرر القرار من تلك المناقشات المؤرقة لانها غير ذات طائل . فأعلن فى إحدى الليالى ، وبعد مناقشة حامية مع هؤلاء الشباب انه متفق معهم فى جوانب الاقتصاد والسياسة التى يمكن أن يتفق معهم فيها أى إنسان . أما الجانب الدينى فإنه لا يستطيع الاتفاق معهم فيه . ومن ثم فانهم مطالبون بالكف عن إثارة هذا الجانب الأخير ، وإلا فإنهم سيفشلون فشلا مروعا مهما تكن عدالة القضايا التى يدافعون عنها . ذلك لان السمة الأساسية فى الإنسان المصرى منذ عهد الفراعنة حتى اليوم هى إخضاع الحياة الدنيا لمنظور الدين .

قال هذا القول وهو منفعل به غاية الانفعال فسكت سامعوه ، وأعلنوا امتثالهم لرغبته ، وعاهدوه على الا يتعرضوا لهذا الجانب بعد اليوم .

٧ ـ مخاصمات إخوانية :

حدث كل ذلك بينما هو لا يزال عضوا فى جماعة الإخوان المسلمين . لم يقو قلبه رغم ما وقع له مع إخوان الإسكندرية على الانفكاك عنهم ، ذلك لانه كان يثق ثقة خاصة فى الأستاذ المرشد ، ومن أجل ذلك فإنه كان حريصا على اللقاءات المستمرة معه منذ قدم على القاهرة .. أو بالأحرى منذ عاد للعمل السياسى بعد الأسابيع الأولى من قدومه على القاهرة . فلقد كان يرجو أن يجد عنده ما يمكنه من تجاوز كل المواقف السابقة وآثارها . وفى كثير من الأحيان كان يتلمس الاعذار لبعض الأخطاء التى زخرت بها فترة العمل فى الاسكندرية . وزاد تعلقه بهويته الاسلامية هجوم عدد من التيارات السياسية الأخرى على قيادات ومواقف الإخوان المسلمين ، وظل يتشبث بموقفه حيث بدأ نشاطه السياسى ، رافضا الانتقال إلى أى معسكر آخر .

لكن وطأة الهجمات السياسية على جماعة الإخوان من خارجها قد استطاعت أن تجد لها صدى فى صفوف كل من القيادات والقواعد الإخوانية على حد سواء : فالأخ الأستاذ احمد السكرى وكيل الجماعة يقف مندداً ومخاصما لموقف الأخ الأستاذ المرشد . وبالطبع يقف إلى جوار كل منهما عدد من الإخوان يظاهره ، ويؤيده عن اقتناع برأيه . ولا تفلح كل المساعى التى بذلت من أجل التوفيق وإصلاح ذات البين . فتكون النتيجة أن تزداد مسافة الخلف وتتسع الفجوة بين الفريقين . الأول الذى كانت خلاصة رأيه ضرورة الكف عن تحويل الجماعة إلى حزب سياسى يتطلع إلى ما تتطلع إليه سائر الاحزاب الأخرى من بريق السلطة ، وشهوة الحكم : فجماعة الإخوان فى أصلها جماعة رسالتها

تربية الفرد المسلم وإذا كتب لها النجاح فسوف ينصلح حال المجتمع كله بما فيه حكامه وقادة ا

وظلت الفجوة تتسع بين هذا الفريق ، والفريق الآخر الذى كانت خلاصة تفكيره أن تحويل سياسية ليس ينطلق من فراغ ، فالإسلام كما تنادى به الجماعة دائما دين ودولة ، والله يزع بالـ بالقرآن . وامتلاك الإخوان للسلطة فى المجتمع ، يعنى امتلاك قدرات أكبر وأخطر فى عملية التر الفريق الأول .

وإلى جانب الاتساع فى الفجوة بين الفريقين كانت التيارات السياسية الأخرى تزيد من تصرفات الإخوان وسياستهم . وشاعت فى أساليب الكتابة ضد الإخوان نغمة الاتهامات الخلقـ المتعففة ، وشبه البعض فضيلة الشيخ حسن البنا براسبوتين .. وعقدت المقارنات غير المو الإخوان وقادة الفاشية والنازيين .

كل ذلك والطالب الشاب لا يزال فى موقعه .. لكن نفسه أرهقتها البلبلة . ولم يعد يدرى أي هل يكون مصيره مع اليسار المستخفى والدءوب على العمل السياسى السرى ؟ أو يتجه وجهة جماعة الإخوان فى صحف الوفد ؟ أم يبقى كما هو بين الطرفين المتنازعين من جماعته ، أم يبعا منهما ؟

وإنه لفى تلك الدوامة التى تزحم عليه عقله وإذا به يفاجأ ذات ليلة عند مدخل المركز الـ بصراع صاخب ، تتحدث فيه الكراسى المتطايرة فى الهواء . وتبين له أن أبطال هذا الصراع لكى يساعد على فض الشجار ، وبعد لأى تمكن مع نفر من الإخوان من ذلك . لكن وقع الصدمـ وفوق الاحتمال .

لقد كان المتشاحنون يتبادلون أقذع الشتائم ، وهو لم يكن يتصور حدوث ذلك بين ا الإسلام . وانخرطوا فى سلك دعاته !! وطافت برأسه صورة الرعيل الأول من المسلمين عندما تـ لقد كانوا على أعلى وأجل صور الاتحاد والاعتصام بالله . وكانت بينهم أروع علاقات الأخوة ذلك كله لما استطاعوا أن يحرزوا أى تقدم أو انتصار !! وسأل نفسه : أليس التمزيق أو التفر قامت جماعة الإخوان من أجل استئصاله والقضاء عليه ؟ وهل يمكن للممزقين أن يقوموا بـ

نهشت قلبه هذه المشاعر الرهيبة وهو يطالع ذلك المشهد المأساوى المفزع !! ولم يـ إلا على أساس أنه من تدبير الشياطين .

٨ ـ البحث عن الأسباب :

وانطلق بعيدا عن مسرح المصارعة بعد أن هدأت ، وذهب إلى منزل صديق أزهرى قريبا من المركز العام . ولحسن حظه فإنه وجد هذا الصديق ومعه شلة من الإخوان المسلـ

كانوا لم يبلغهم نبأ ما حدث فأنهاه إليهم ، وذكر لهم بعض أسماء المتشاجـرين الأسباب التى أدت إلى هذا الوضع المشين !!

وكانت جملة القول أن المنقسمين على المرشد منشقون على مبدأ كمال الطاعة الذى الجماعة ومن معه لا تجوز لهم معارضة رأى المرشد بأى حال من الأحوال .

ولم يعجبه هذا القول ، فتساءل : هل معنى ذلك أن رأى المرشد معصوم من الخطـ ولم ينتظر الرد عليه وإنما أكمل وجهة نظره بما يؤكد أن المرشد تمكن معارضته . بل وجـ

ذلك أى خطأ أو خطر يهدد الجماعة !! ثم عقب بأن امرأة من عامة الناس عارضت الخليفة عمر بن الخطاب : وهنا انبرى له أكثر من واحد ليقنعوه بأن أحدا لم يزعم العصمة للمرشد العام ، ولكن طبيعة الأمور تقتضى أن نطيع من وليناه أمورنا . وإلا تفرقنا وتبددت جهودنا من كل اتجاه . وضرب المتحدثون المثل بمواقف الصحابة من رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما انصاعوا لأمره فتركوا أموالهم وديارهم وهاجروا مرتين . الأولى إلى الحبشة والثانية إلى المدينة !!، فلما حاول أن يوضح أن المرشدليس فى مقام المصطفى ، ولا حتى فى مقام الصحابة تحولت المناقشة إلى مشادة ، وخشى أن يحدث معه ما حدث مع غيره فى المركز العام منذ قليل . فلاذ بالصمت . بينما استمر مناقشوه يتعاقبون الحديث لكى يجهزوا على وجهة نظره ويسنأ صلوها من الجذور فقال أحدهم : نحن أقسمنا على الطاعة ، والعمل على الكتمان ، ومن يخالف القسم فهو آثم فى حق الجماعة .. وقال ثان : إن القيادة دائما أعرف وأدرى ممن تقودهم ، وإذن فإن حقها عليهم أن يطيعوها دونما مناقشة أو شبهة تردد!! وقال ثالث : وإذا جاز الاختلاف فى الرأى بين كبار القادة فلا ينبغى إشراك غيرهم فى هذا الخلاف وإلا وقعت الفتنة والعياذ بالله !! وقال رابع : إن الطاعة العمياء للقائد المسلم هى ضمان الانتصار .

واستمرت المناقشات إلى ما بعد منتصف الليل ، بينما الطالب الشاب غارق فى صمته يتأمل تلك الأحاديث ولا يستغرب شيئا فيها . فهو نفسه كان يعتقد صحة تلك المقولات كلها ، ولم يتردد يوما فى قبول أى منها ـ لكنها الليلة ، وفى هذا الجو المشحون بالتوتر تبدو سخيفة ومخيفة إلى أبعد حد ممكن ، فالطاعة العمياء فى المسائل الايمانية واجبة ولا شك فى ذلك . أما فى مواقف الحياة العملية فإنها يمكن أن تقود إلى أفدح الكوارث !! بل إن أخطر الخطر أن تسلم قيادك إلى إنسان لو اختلفت معه لوجد من أنصاره من يستبيح دمك !!

أخيرا انفضت المناقشة وانسحب إلى منزله حيث لم يغمض له جفن إلى أن طلع النهار . فكر كثيرا فيما حدث وفيما سيحدث ، وتساءل كثيرا عن الفرق بين جماعة تقوم من أجل نصرة المثل العليا للدين ، وبين جماعة أخرى تقوم من أجل نصرة العرق ، أو القبيلة أو ما أشبه ذلك !! وقال لنفسه : إن نصرة المثل العليا للدين مبناها احترام كيان الإنسان المسلم . فالمسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يحقره ولا يسلمه ، والناس سواسية كأسنان المشط ، وليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى . أين كل هذه المعانى من مناقشة الليلة وما تضمنته من تعصب ممقوت ؟ بل أين كل هذه المعانى من الشباب ، ، واللعن والضرب الذى يقع بين الإخوان ؟

٩ ـ مع الأستاذ المرشد :

وما إن طلع الصباح حتى قرر الالتقاء بالمرشد ، وقدم ورقة بطلب المقابلة فتحدد له موعد بعد صلاة العشاء .. وعندما التقيا كان الطالب الشاب محزونا ومملوءا قلبه بالآلم . ولم يتركه أستاذه ليبدأ الحديث وإنما سأله : خير إن شاء الله ؟ عندئذ انطلق الطالب الشاب يحكى كل ما وقع فى أسه المسهد . ويبدى التخوف مما عساه أن يحدث فيما بعد .. واستمع المرشد إلى كل ما قاله بصبر وفطنه ، ثم بين له وجهة نظره فى تلك الخلافات . وطمأنه إلى أنها من نزغات الشيطان الذى لا ينزغ إلا بين الأخوة كما هو معروف فى قصة يوسف عليه السلام ، ودعاه إلى المساهمة فى محاولات رأب الصدع بقدر ما يستطيع ، ودعا الله أن تقينا شر الفتن ، ما ظهر منها وما بطن .

ولما أراد الطالب الشاب أن يربط بين ما هو واقع فى صفوف الاخوان ، وبين ذلك الهجوم المستعرضدهم ، قال له المرشد : إن هجوم الخصوم أمر متوقع ، والإخوان لا يخافون من هجمات المهاجمين لأن الله معهم . ولن يتركهم أبدا .. وعلى العكس فإنه كلما ازدادت حدة الهجمات دل ذلك على خوف الأعداء من قوة الإخوان المسلمين .

وعندما استوضحه أمر الشائعات الخاصة بحصول الإخوان المسلمين على مبالغ طائلة من حكومة صدقى باشا ثمنا لتأييده فى مواقفه السياسية ضد معارضيه قال له المرشد : نحن لا نؤيد رغبة فى مال أو أى عرض من أعراض الدنيا الفانية ، وإذا حصلنا على بعض ما فى خزانة الدولة فهذا حقنا الذى نسعى إليه .. إن الإخوان يسعون لأن تكون كل خزانة الدولة تحت أيديهم يدبرون بها أمور المسلمين .

وهكذا انتهى مجلس الأستاذ المرشد بدخول آخرين كانوا على موعد معه ـ ولم يكن قد ظفر بتوضيح شاف لحدود الطاعة المطلوبة من عضو الجماعة لقادته ـ سوى أن العاصم من التسلط هو الشورى . المبدأ الأعلى هو أنه لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق .. على أن الطاعة العمياء عند الاختلاف ضرورة من ضرورات وحدة الجماعة المسلمة .

١٠ ـ أحداث وأحداث :

وفى هذه الفترة المتوترة بالغضب ، تفاقمت الخلافات داخل الإخوان المسلمين ، وبدأ البعض يؤكدون وجهة نظرهم إما بالقاء المتفجرات ، ووضع القنابل الموقوته فى بعض الأماكن . أو بإعلان آرائهم من خلال صحف الوفد معارضين بذلك ما ينشره فى صحافة الإخوان المسلمين الرسمية وبدأ الطالب الشاب يشعر بفقدان الأمل فى قدرة الإخوان على التوحد من جديد ، وناء كاهله بعبء التفكير فى حل تلك المفضلة الرهيبة ، كيف أن دين الله الذى وحد القبائل المتنافرة فى أرض العرب لم يستطع توحيد دعاته ، ومجددى أمره فى عالم اليوم ؟ الا يعيد ذلك إلى الأذهان ما حدث فى عهد الفتنة الكبرى التى حاقت بجماعة المسلمين بعد صدر الإسلام ؟ الم يكن كل المتحاربين يرفعون نفس راية الإسلام ، وهم يمزقون أوصال الامة .

وظل يتجرع كأس التعاصة مع كل تصاعد جديد للخلافات الإخوانية ، إلى أن وجد نفسه ذات يوم فى قلب معمعة الصراع .. وكان ذلك إثر مقال تحت عنوان « **حديث الجمعة** » تعرض فيه صاحبه إلى الأزهر والأزهريين بما لا يعجبه فهاجت نفسه . وكتب مقالا للرد على هذا المقال كان عنوانه « **آية البدعة فى حديث الجمعة** » ، ونشر هذا المقال فى جريدة **صوت الأمة** وأحدث صداه ـ الأمر الذى جعل المرشد يرد عليه ويؤكد أن موقف الإخوان من الأزهر ، هوموقف الجنود من ضباطهم الرسميين !!

وشاء قدر الطالب الشاب أن تقع احداث أخرى تنغص حياته ، فهو عندما غادر الاسكندرية فى العام الماضى كان قد ترك فى حوزة بعض الأصدقاء بعض الأسلحة التى كانت معدة لكى تستخدم ضد الإنجليز ، ولأمر ما فإنه عرف من مدير الأزهر أن هذه الأسلحة قد استخدمت حول معهد الاسكندرية ، وسقط من جرائها بعض الضحايا ، وأن سلطات الأمن تحاصر المعهد لكى تقوم بواجبها . وخشى هو على أصدقائه الذين يعتقد أن العين عليهم ، فصارح الشيخ بما يخشاه وحدد أسماءهم ..

وكان هذا الشيخ غاية فى النبل والإنسانية والوطنية ، فدبر خطته لكيلا يقع هؤلاء فى الكمين وتم لهم الهرب من الاسكندرية إلى القاهرة .. وفى حجرة بشارع أحمد عمر ، وعلى مقربة من مواطن الصراع الإخوانى الحاد أقام هؤلاء الأصدقاء إقامتهم القلقة المهددة عددا من الشهور . إلى أن تم تحويل أوراقهم إلى معاهد دينية أخرى . أتموا فيها امتحان الثانوية الأزهرية بينما هم مطلوبون للقبض عليهم ، وتقديمهم للمحاكمة .

١١ - مقتل النقراشي رئيس الحكومة

وتداعت الأحداث بعد ذلك تداعيا مفزعا - فقد فشل رئيس الحكومة في إيجاد حل للقضية الوطنية كما فشل في إيجاد أي أمل للانفراج في الأوضاع الداخلية المتأزمة ، وكانت المعتقلات غاصة بالوطنيين ، ولا شيء هناك إلا الحديث عن الخسائر التي تحيق بالجيوش العربية التي حاربت من أجل منع تقسيم فلسطين ، وكان المتطوعون في حرب المقاومة غير الرسمية يعودون فيتحدثون عما شهدوه أو عرفوه .. وفي هذا الجو المشحون بالألم ، وعلى التحديد في يوم ٢٨ ديسمبر ١٩٤٨ قتل عبد المجيد حسن رئيس الحكومة في مدخل مبنى مجلس الوزراء .. واتضح أن القاتل واحد من جماعة الإخوان المسلمين .. عندئذ قامت الدنيا ولم تقعد . فالقاتل بصفته السابقة يعتقد أنه قد تقرب إلى الله تعالى بإزهاق روح المقتول ، ومعنى ذلك أن هذه مجرد بداية .. فكل من لهم صفة النقراشي سوف يقتلهم آخرون من نفس الجماعة وبنفس الاعتقاد !!

وتبلورت خطة الانتقام في رأس ابراهيم عبد الهادي رئيس الحكومة الجديد ، فأكد القرار بحل جمعية الإخوان المسلمين ، ثم لم يكتف بذلك ، بل أخذ يلاحقهم بالاعتقال والقبض التشريد ، وأخيرا بلغت المأساة قمتها باغتيال المرشد العام للإخوان المسلمين .

١٢ - ظلمات الإرهاب :

كان الطالب الشاب انذاك في كلية دار العلوم .. وكان الإرهاب الأسود قد خيم على كل مصر .. وكان الأساتذة والطلاب قد أحنوا رءوسهم لتلك العاصفة . فلم يعد هناك ذلك القلب المفتوح لمناقشة قضايا المصير الوطني مثلما كان يحدث في الماضي ، بل كان هناك توجس وخوف من أن تطول أيدي الإرهاب فتمتد لتخطف آخرين .

وفي ظل هذا الجو الكئيب كانت الأحاديث تدور همسا ، عن أخبار الجبهة العسكرية وما تم فيها من تواطؤ ضد الجيش ، إلى جانب ما يحدث في الجبهة الداخلية من توالي حملات القبض والاعتقال ، والمحاكمات والأحكام القاسية التي تصدر ضد المواطنين .. أما أخبار التعذيب والتنكيل بالمقبوض عليهم فكانت تثير في النفوس كل ألوان التقزز والاشمئزاز !!

وشعر الطالب الشاب بأنه في غربة عن كل شيء حوله ، فكل من كان يعرفهم من الشباب تقريبا مغيبون في السجون والمعتقلات ، وحتى من بقي منهم خارج الأسوار لم يعد من السهل أن يتم اللقاء معه . فتلك مغامرة سيئة العاقبة في أغلب الأحيان .

وانعكست ظلال الإرهاب الأسود على نفسية الطالب الشاب ، وبدأت مرحلة من التفكير القاتل تحاصره ، لقد راح يتصور أن طموحاته إلى التحرر الوطني لم تكن إلا مجرد أوهام وخيالات أملاها الحماس الذاتي ، وكثيرا ما كان يستعيد المواقف والأشخاص والأحداث ، يصل به الأمر إلى حافة اليأس المرير .. هؤلاء هم الإخوان المسلمون يتذمرون باغتيال قائدهم ، ومن المؤكد أن لأخطائهم السياسية دخلا في الذي حل بهم !!

وهؤلاء هم الطلاب والعمال الوطنيون قد بطشت بهم قوانين الدولة وإرهابها ولم تعد لهم القدرة على استئناف الجهاد من جديد !!

وهؤلاء هم اليساريون تبتلعهم السجون والمعتقلات ، ولا يبقى منهم سوى بقايا مشلولة وغير قادرة !!

وأخيرا هؤلاء هم الذين يحاربون في الجبهة تعقد الدولة هدنة لتنسحب بهم غير مبالية بعار الهزيمة التي ألحقتها بهم وبأمتهم .

فلا نحن حررنا مصر من الاستعمار الانجليزى ، ولا نحن ومعنا كل الجيوش العربية امكننا التغلب فى ساحة القتال مع عصابات المابام والهاجاناة وغيرها من عصابات اسرائيل الوليدة !!

والباقى على الساحة حكومة وقصر يكرههما كل الناس .. ولا يذكرون لهما إلا انهما ساهما فى ضياع فلسطين منذ اوقفوا القتال فى ٧ يناير ١٩٤٩ تمهيدا لتوقيع هدنة فى ٢٤ فبراير من نفس السنة .

كان التفكير فى كل هذه الجوانب يشقيه ، ويستحثه على البحث عن مخرج لنفسه ووطنه .. وعندما كان يلتقى عرضا ببعض من لهم مثل همومه فإنه كان يبوح بمكنونات تفكيره ، ويتمنى لو اسعفه محدثه بما يخلق عنده بعض الأمل فى أى شىء .

ولشد ما كانت تفيض به السعادة عندما يرى بعض المنشورات السرية التى كانت تصل إليه حاملة رأى الضباط الاحرار ، أو غيرهم من بقايا تنظيمات اليسار . ذلك لأن مثل هذه المنشورات تعنى أن مصر لم تركع ، ولن تستكين .

وفى ظل هذا الجو النفسى لم يكن يقرأ ما يصل إليه ببصيرة المنتقد ، فحسبه أن هناك من يقول على المخاطرة بالتفكير الحر ، والكتابة والنشر فى ظل هذه الظروف الرهيبة التى تعيشها البلاد .

وعندما كان يطالع على الجدران شعارات المقاومة للحكم الملكى ، والاستعمار الانجليزى ، والباشوات الخونة ، فإن نفسه كانت تمتلىء بالفرح الغامر .

ومن خلال هذه الظروف تجدد فيه الأمل رغم الإرهاب ، وسعى سعيه إلى الوصول إلى بعض الوطنيين المتحصنين بالسرية ، وقرر التعاون معهم ، وبالبذل مثلهم .. وكان اللقاء الذى تحول به مجرى حياته إلى مسار جديد .

وواكبت تلك اللحظة الفاصلة فى حياة الطالب الشاب ، استشعار الجميع بأن النظام الملكى الاستعمارى قد اضحى معزولا عن الشعب ، وأن ابراهيم عبد الهادى لم يعد هو أو غيره من أحزاب الأقلية فى مستوى الموقف . وبخاصة بعد أن انكشفت لعبة الحرب الفلسطينية ، وما وقع فيها بسبب صفقات الأسلحة الفاسدة التى عقدها كبار رجال القصر .. لكى يسهلوا مهمة اسرائيل فى إلحاق الهزيمة بالجيش .

كما واكبت تلك اللحظة الفاصلة فى حياة المواطن الشاب ، زيادة التحركات السرية لفضح وكشف النظام وممارساته الوحشية ضد الوطنيين فى المنافى والسجون .

وكان كل ذلك فى إطار حالة اقتصادية سيئة يتراجع فيها دخل الفرد العادى إلى مستويات ضعيفة ، بينما تتكدس الثروات الفاحشة فى جيوب الأقلية القليلة من السكان .

□ □

الفصل الحادى عشر :

الكفاح السرى

١ ـ الموازنة :

كانت ظروف الإرهاب الأسود فى مصر ، قد فرضت الطريق الوحيد للكفاح السرى القاسى ، ولم يكن قرار الطالب الشاب بالانضمام إلى سلوك هذا الطريق بالأمر السهل .. ذلك لأنه بحكم خبرته السابقة كلها لم يكن يعرف إلا الكفاح العلنى المنفعل بحرارة الجموع الجماهيرية الصاخبة ، كما أنه بحكم تلك الخبرة أيضا قد اصطدم مع أصحاب هذا الطريق فى بعض الاجتماعات التى أتيحت له بسبب إثارتهم الغبار حول « الدين »

وإلى جانب ذلك ـ وهو الأهم ـ فإن النظام كان شديد الوطأة فى تعقبه للمكافحين . سرا إلى حد البشاعة .

ومن هنا فإنه كان من المفروض على الطالب الشاب أن يتروى ، وأن يقوم بنوع من الموازنة يستطيع من خلاله أن يطمئن إلى صحة القرار الذى سوف يتخذه . وبالفعل تمت له هذه الموازنة بين الذى كان ، والذى سوف يكون .. بين طريق الكفاح السرى وبين الخمود والسكون . بين الجنوح إلى اليسار أو الركون إلى نظر اليمين غير الميمون .

ومن عجيب أنه بعد تلك الموازنة ، لم يجد نفسه منجذبا إلا إلى طريق هؤلاء الذين آثروا الكفاح تحت رايات اليسار وكان عليه أن يتغلب على الحواجز النفسية التى تباعد بينه وبين هذا الطريق .. وأن يكوّن له معبرا يصل ما بين مفاهيمه التى تربى عليها . ومفاهيم هؤلاء اليساريين الغريبة عليه .. ومن خلال التفكير الدائب ، تبينت له بعض الخيوط التى لم يلبث أن تشبث بها . وجعل منها نسيجا متكاملا ارتضاه ، واستراح إليه .

وكانت لحمة هذا النسيج وسداه هى أن الوجه الأساسى للماركسية هو الدفاع عن حقوق المظلومين والمضطهدين فى الأرض ، وتعبيد الطريق أمامهم لكى يقضوا نهائيا ولأول مرة فى التاريخ على جميع النظم الطبقية التى تولد الظلم والقهر والاستعباد . وفى هذا الوجه الأساسى فإن أى دين لا يسعه إلى أن يبارك ، ويدعو له بالانتصار ، ذلك لأن جوهر كل الأديان هو إقامة العدل بين الناس بالقضاء على شرور الأنانية والإستعلاء على البشر . وحتى شعار التوحيد فى دين الإسلام ليس إلا دعوة للتحرر المطلق من قيود الاستعباد والعبادة لغير الله .

وتدعيما لتلك الفكرة فإنه نظر إلى الدفاع عن الجور باعتباره انحرافا عن جادة العدل الذى يريده الله .. ومن ثم حكم على أصحابه بأنهم لا يلتزمون بجوهر الدين وأصله .. وعندئذٍ رن فى أذنه صوت الإمام محمد عبده حينما زار أوربا ولمس ما لدى أهلها من مكارم الأخلاق ، وسمعه يقول : **لقد وجدت فى أوربا إسلاما وإن لم أجد مسلمين !!** .. كما رنت فى أذنه تلك الكلمات المضيئة التى نقلها شيخ الإسلام ابن تيمية عن بعض السلف الذى يقول : « **إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة ، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة . فالدنيا تدوم مع العدل والكفر ، ولا تدوم مع الظلم والإسلام !!**

ثم جلجلت تلك الكلمات الحاسمة لابن تيمية العظيم « إن العدل نظام كل شيء .. فإذا اقيم امر الدنيا بعدل قامت . وإن لم يكن لصاحبها في الآخرة من خلاق .. ومتى لم تقم بعدل لم تقم وإن كان لصاحبها من الإيمان ما يجزى به في الآخرة » .

وهكذا استقام بعد هذه الموازنة على طريق الكفاح السرى . واخذ يلتقى مع بعض هؤلاء اليساريين لقاءات محكومة بظروف الإرهاب الشاقة التى كانت عليها البلاد في عامى ٤٨ ، ٤٩ . وكان هؤلاء اليساريون الذين يلقاهم خليطا من الطلاب والموظفين المثقفين . وبحكم علاقاته الحميمة مع بعض طلبة البعوث الإسلامية فإنه قد تعرف على انماط من الماركسيين الأكراد والفلسطينيين والسودانيين وغيرهم .. والجميع كانـوا يعزفـون لحن التحرير الكامل لأوطانهم المستعمرة أو شبه المستعمرة .

٣ ـ التجارب المثيرة :

واستأثرت به في تلك الأثناء تجارب الآخرين من أحزاب اليسار في شتى أقطار الأرض . وعلى الأخص تلك التجارب التى تتشابه ظروفها مع الظروف التى كانت عليها بلادنا في ذلك الوقت .

وفي مقدمة تلك التجارب الثورية التى استأثرت به كانت تجربة الحزب الشيوعى الصينى . ذلك لأنها بدأت معاصرة لثورة مصر الوطنية بعد نهاية الحرب العالمية الأولى . وانطلقت تناضل من أجل تغيير المجتمع شبه الإقطاعى شبه المستعمر . وكانت بداية انطلاقها على أيدى نفر قليل من الرجال المؤمنين بـأهداف التحـرر الوطنى والعدل الاجتماعى . ولم يلبث هذا النفر القليل أن ألقى ظلال تأثيره على كل الحياة الاجتماعية والسياسية في بلد كان سكانه آنذاك فوق الستمائة مليون إنسان . يعيشون في رقعة بالغة الاتساع . ويكتنفهم التخلف والإحباط والفساد من جميع الجوانب .

وكان أروع ما شد انتباهه في تلك التجربة هذا الصمود الأسطورى الذى لم يعرف المستحيل مطلقا . فعلى امتداد ثلاثين عاما حافلة بالأحزان والمواجهة ، وممتلئة بشتى الوان الفواجع ، لم تهتز ثقة هذا النفـر القليل في النصر . وكانوا كلما إدركهم الفشل يرفعون راية الإصرار والتشبث قائلين : إنه مجرد الفشل الرابع أو السابع أو العاشر أو ما شئت من أرقام .

وكان يثير دهشته ذلك التحدى الجسور لكل القوى الرجعية الصينية المدعومة بخبرات وعناد الامبرياليـة العالمية ، والتصدى الطليعى لشتى المفاهيم المغلوطة والأفكار المضللة ، والوقوف الحازم في مواجهة الغزاة اليابانيين بالدعوة إلى التحالف الوطنى الواسع .

كما كان يثير إعجابه البالغ ما حدث أثناء الرحلة الطويلة بعد خيانة « الكومنتانج » للحلف الوطنى الصينى . فهؤلاء هم قادة الثورة يرتحلون آلاف الأميال بثورتهم وأنصارهم إلى أقصى الأطراف في الصين خلال أسوأ الظروف وأقساها . حيث مات أكثر من بدءوا الارتحال قبل الوصول إلى نهايته . ومع ذلك فان الباقين لم ينثنوا ولم يلينوا ، ولم يتطرق اليأس لحظة إلى نفوسهم .

وفي غمار متابعته لتلك التجربة الفريدة استوقفته مسيرة الثورة بعد انتهاء تلك الرحلة العجيبة . لقد رأى قادة الحزب وأعضاءه وأنصاره يزحفون من حيث إنتهوا في الاتجاه المعاكس . إنهم الآن يحررون المناطق الفلاحية منطقة إثر منطقة . ويقيمون في كل جزء يتم تحريره حكومته الثورية التى تحاكم المجرمين والخونة محاكمة شعبية عادلة . وتقوم بتوزيع الأراضى على الفلاحين المعدمين . وتبنى على أرضها مراكز السلطة الديمقراطية الشعبية .

كما استوقفته أساليب المعارك التى أخذت تخوضها الثورة على جميع مستويات الرأى والفكر ، والسياسة ،

والتنظيم ، والحرب . واستولى على مشاعره ذلك التطبيق الخلاق لشعار « الانتصار بالشعب على جميع اعداء الشعب » . فالشعب عن طريق أوسع المشاركات الايجابية ، كان هو الركن الركين فى كل انتصار يتم . وكان كل انتصار جزئى ينضاف إلى كل الانتصارات السابقة ، ويكوّن معها الرصيد الأكبر وهكذا !! ولكى يتعاظم هذا الرصيد فإن قادة الثورة لم يكونوا يتهاونون مع أى لون من ألوان الانحراف فهم مشغوفون دائما بإعمال مبدأ التطهير الثورى . والنقد الدائم للأساليب المنحرفة . ومن خلال ذلك كانوا يعيدون صياغة الأخلاق فى مجتمع عشش فيه الفساد وباض وأفرخ من عشرات القرون . إن التطهر الثورى والنقد الذاتى هو خبزهم اليومى كما كانوا يقولون .

ولقد بهر عقله انهم كانوا يُحرِّمون إقتراف الانتقام الغوغائى ضد أعدائهم . لدرجة أنهم كانوا يحكمون على بعض كوادرهم بالموت إذا ما ارتكبوا مثل هذه الحماقات .

كما خلب لبه ذلك التفانى وضرب المثل الذى كان يقوم به أعضاء الحزب أيام المجاعة . فقد كان الواحد منهم رغم شدة الوهن يعمل ضعف الفرد العادى فى زراعة الخضروات السريعة النمو . ويتقاضى عند الحصاد نصفه .. وحتى بعد اجتياز المجاعة وانتصار الثورة ، وفى أيام الحرب الكورية فإن أعضاء الحزب لم يتخلوا عن هذا التفانى المذهل . ففى مرحلة محددة من مسيرة الحرب بين الصينين والأمريكان على الارض الكورية تفتق ذهن قائد الجبهة الاميركى عن إقامة خط دفاعى من الأسلاك الشائكة المكهربة لكى يمنع الصينيين من هواية الاقتحام المتلاحق لمواقعه . وبعد إقامة هذا الحائل المكهرب لم يجد قائد الجبهة الصينية مفرا من إذاعة إعلان يطلب فيه ألف متطوع من « الكوماندوز » لكى يجعلوا من أجسادهم جسرا عازلا لتيار الكهرباء السارى على تلك الاسلاك حتى يمكن الاقتحام .. وحدد فترة مدتها يومان فقط لكى يتلقى أسماء المتطوعين .. لكنه قبل أن تمر ساعات قليلة بعد هذا الإعلان كانت لديه قائمة بأسماء عشرة آلاف متطوع !!

أية مثالية ثورية تلك التى تجعل حياة الفرد هينة عليه إلى هذا الحد ؟ كيف بالله ثم إعداد هذا الفرد لكى يجعل من نفسه قربانا للصعق الكهربائى حتى يتمكن الجيش من المرور فوق جثته ؟ ما هو الثمن الذى سوف يحصل عليه لقاء تلك التضحية ؟

دارت هذه الأسئلة وعشرات غيرها مئات المرات فى مخيلته وهو يتابع التجارب الثورية المثيرة للآخرين . وبرزت امامه صور الأبطال من قادة الحركات الثورية فى مختلف القارات والاقطار . ورأى فى الأعداء الذين يحاربهم هؤلاء الأبطال صورة الأعداء الذين تحاربهم ثورة مصر . فالكل يحاربون الاستعمار الذى نشر نفوذه وقهره على شتى الأجناس ، وأتباع الديانات المختلفة . لا فرق لديه بين المسيحى والمسلم ، ولا تمييز عنده بين الهندوكى والبوذى .. الجميع من جميع القارات والبلدان يجب أن يكونوا فى خدمة مصالحه وأن يصدروا له المواد الخام .. فهذا هو القانون الطبيعى للتطور الراسمالى . الذى لا يحيا بغير الاستغلال . وهذا هو القانون الطبيعى للاستعمار الذى هو أعلى مراحل الراسمالية .

ولقد استهوته فى تلك الفترة بعض السير الشخصية لعظماء القادة الذين كانوا يضطلعون بأعباء العمل الثورى من اجل شعوبهم . وفطن إلى أن السمة المشتركة بين الجميع هى التجرد الكامل للرسالة التى آمنوا بها .. فكلهم مشبوب الاهتمام بالغير وليس بذاته .. يرى البسطاء والفقراء والمسحوقين اناسا جديرين بالتضحية من أجلهم واهميتهم تفوق كل الأهميات . فهم الصناع الحقيقيون للحياة . وبسواعدهم وعرقهم تدور عجلات المصانع بالانتاج ، وتجود الأراضى الشاسعة بالطيبات والثمار .

ومن أجل ذلك كان هؤلاء القادة شديدى الصرامة فى الالتزام بقواعد الأمانة والأخلاق ، لا مكان عندهم للكذابين والمستهترين ، والخادعين والمخدوعين . يحرصون على صقل انفسهم وأنصارهم وتنقيتها من شوائب الطموحات الفردية والأنانية الضيقة . يكرهون الجبن والنذالة والتعالى والغرور ويرون فيها أخلاق المجتمع الذى

يسعون لتقويضه يمجدون المتواضعين الذين يسعون إلى التعلم من كل الشعب ويستلهمون المعارف من كل التراث الإنسانى فى تاريخه البعيد والقريب لا يصدهم عن ذلك أى لون من ألوان التعصب للوطن أو للعرق أو غيرهما . ركل الشعوب فى منظورهم تستحق الحياة الحرة الكريمة ، وينبغى لها ان تتطور إلى أعلى المراتب الحضارية الممكنة .. يحرضون على تقويض العوائق المصطنعة التى تقف فى طريق الشعوب ، ويؤكدون أن هذه العوائق إنما تفرضها المصالح الأنانية للطبقات التى تعيش على عرق الآخرين .

وهكذا اتسعت دائرة فهمه للتجارب الثورية المعاصرة ، وأدرك معنى التعاطف والتآخى الأممى بين كل المناضلين من أجل الحرية والتقدم ، ولم يعد غريبا عليه أن يتغنى المناضلون المصريون بنضالات جوموكنياتا فى كينيا ، أو جاجان فى غينيا ، أو ماوتس تونج فى الصين ، أو مصطفى البرزانى فى شمال العراق ، أو كيم إيل سونج وهوشى منه فى جنوب شرقى آسيا .. فجميع هؤلاء وغيرهم إنما يعزفون لحن الثورة المؤذنة بالفجر الجديد . وهم من أجل ذلك أصدقاء حميمون رغم بعد المسافات وتعدد الجنسيات والمعتقدات . ورغم أنهم ربما لم يلتق أى منهم بالآخرين إلا عبر الاذاعات والصحف التى تهتم بنشر أخبار النضال ..

لكن النتيجة الأهم كانت هى الاستهانة الشديدة بالصعوبات التى كانت تمر بها حركة النضال فى مصر . فقادة النضال المصرى فى رايه بعد كل تلك الاطلاعات على تجارب الآخرين ينبغى أن يكونوا فى نفس مستوى هؤلاء الأبطال . ذلك لأن المهام الكبار لا يحققها إلا الأبطال الكبار القادرون على حشد أوسع الجماهير

٢ ـ الحدث الجديد

ومن خلال هذه الاطلاعات على تجارب الآخرين المميزة ، وبالرغم من تعدد اللقاءات السابقة فإنها لم تكن تشفى غليل نفس الطالب الشاب ، وذلك لأنها كانت مقصورة على تبادل المعلومات ، والأفكار ، والأخبار ، التى لا تفضى إلى خطوات عملية نحو التغيير ، وبدأ يضيق ذرعا بتلك الضبابية التى لا يستبين من خلالها الهدف .. وأخذ ينعى على زملائه ذلك الاستسلام إلى مجرد إصدار صحيفة سرية ، أو منشور شديد الفقر فى شكله ومحتواه . كما أخذ يسألهم عن القيمة الحقيقية لتبادل تلك الكتيبات التى تحمل الخطط العامة للماركسية اللينينية إن لم تجد صداها فى أرض الواقع

وبينما هو غارق فى ضيقه الذى أحدق به ، نزل عليه فى بيته من سلمه تقريرا عنوانه « **تطور الراسمالية وصراع الطبقات فى مصر** » ، وما إن تمت له دراسة هذا التقرير حتى أيقن أنه حدث جديد فى حياة الماركسيين المصريين : ذلك لأنه كان تعبيرا عن وجهة نظر متكاملة لخريطة الواقع المصرى طبقيا ونضاليا منذ ما قبل عصر محمد على وحتى اللحظة الراهنة [أوائل يناير ١٩٥٠] .

ثم تبعت هذا التقرير دراسة أخرى عن « **الثورة المصرية المقبلة** » ، وكانت هذه الدراسة الثانية تفصيلا لمواقف الطبقات المختلفة على أرضية الصراع الوطنى ، وتحديدا لمهام الطبقة العاملة حيال هذه الطبقات كل على حدة . مع تأصيل نظرى لهذا التحديد ، مستوحى من نظرية « **ستالين** » عن الثورة الوطنية فى البلاد المستعمرة ! ونظرية ماوتس تونج التى على أساسها نجحت الثورة فى الصين

وقد واكب التقريرين صدور برنامج يحمل اسم « **الحزب الشيوعى المصرى** » وكان هذا البرنامج يدعو إلى القضاء على النظام الملكى الاستبدادى ، وإقامة الجمهورية الشعبية ، ومصادرة الملكيات الزراعية الكبيرة بما يزيد عن خمسين فدانا ، وتأميم الاحتكارات والبنوك والمرافق العامة والمؤسسات الاستعمارية وادارتها بواسطة العمال ، وإطلاق الحريات السياسية ، وبناء جيش شعبى ديموقراطى ، وإلغاء الجيش الأرستوقراطى ، وتحسين مستوى معيشة الطبقات الكادحة ، وفرض الضرائب التصاعدية على الدخل والأرباح غير العادية ، والتركات ، ونشر التعليم

المجانى ، وتحرير المرأة من قيود الحريم ، وحرية الشعب السودانى فى تقرير مصيره ، وحرية الشعب الفلسطينى ، وحقه فى تقرير مصيره بنفسه ، وتأييد كفاحه من أجل التحرير الكامل . الخ .

وعلى أساس من هذه الوثائق الثلاث انضم الطالب الشاب للحزب الشيوعى المصرى ، وصار يتمنى لو تعاون كل المصريين فى النضال الصادق من أجل تحقيق أهدافه ، وراح يستعيد النتائج التى توصل إليها من خلال الموازنة السابقة ، فتأكد له أن المناضلين قديسون يتعبدون فى محاريب التضحية والإخلاص والتفانى فى سبيل تحقيق العدل والخير والحرية للجميع ..

وبالقياس المنطقى شغفه حب المناضلين فى سبيل شعوبهم المظلومة ، فراح يتسمع أخبارهم ويطرب للانتصارات التى يحرزونها فى آسيا ، أو إفريقيا أو أمريكا اللاتينية . وبات يتسع قلبه لكل الجماعات الإنسانية التى تهب نفسها لتحرير أوطانها . وصار يكره الخصومات التى تقوم بين المناضلين مهما كانت عقائدهم التى يعتقدونها ، فكلهم يجمعهم الوقوف ضد العدو الذى يفرض ظلمه واضطهاده على الآخرين .

٤ - الشهيد والمظاهرة

وبينما هو مشغوف بالأمل فى استئناف النضال المؤثر على أساس من الوثائق السابقة ، وأثناء انهماكه فى مناقشة بعض الطلاب السودانيين فى مبنى دار العلوم بالمنيرة . قدِمَ من همس بين السودانيين « صلاح بشرى » مات فى السجن !!

انفعل وانفعل معه بالخبر جميع من تلقوه من الطلاب ، وقال واحد لقد عثرنا منذ يومين على ورقة بخط يده ألقاها من نافذة سيارة السجن التى كانت تحمله الى المستشفى . وكان مكتوبا فى هذه الورقة المرجو ممن يعثر على تلك الرسالة أن يوصلها إلى الطلبة السودانيين .. وكان مضمون الرسالة أنه مريض ويتعمد المسئولون إهمال علاجه رغبة فى قتله .. وطلب إبلاغ أهله بذلك !

بعد سماع هذا الخبر وقف الجميع واجمين للحظات قليلة ، ثم بدأ الجميع يتحركون فى اتجاه الاستنجاد بالدكتور طه حسين وزير المعارف فى حكومة الوفد التى تم تشكيلها منذ أيام قليلة .. واستجاب الدكتور الوزير مشكورا لرجاء الطلاب أن يساعدهم على ترحيل جثمانه إلى السودان الشقيق . وكانت إجراءات وإجراءات ، تم خلال القيام بها الاستعداد لوداع الشهيد ، وما إن حانت ساعة توديعه حتى اجتمع الآلاف فى مظاهرة تقول : **لن ننساك يا صلاح .. سوف نثأر يا صلاح .. حسين طنطاوى قاتل صلاح** ..الخ .. وسارت المظاهرة إلى مسجد عمر مكرم تحمل شعارات الثورة التى من أجلها سقط الشهيد .. وبعد الصلاة عليه ، وعند خروج جثمانه من المسجد تناثرت المنشورات الشيوعية فى الميدان ، وذعر كبار رجال الأمن المكلفين بحماية الجنازة ، وظهر عليهم الحرج البالغ تحسبا لما سوف يقع عليهم من المسئولين فى الحكومة

وتمتم الطالب الشاب فى أسى

أعد السجن للأحرار ظلما ... وصير أرضنا سجنا مشاعا
هما سجنان يتفقان معنى ... ويختلفان ضيقا واتساعا

٥ - المناقشات الخصبة

باشتراك الطالب الشاب فى جنازة الشهيد « صلاح بشرى » وضح لونه السياسى للقريبين منه وبخاصة هؤلاء الذين كان له فضل تجنيدهم لجماعة الإخوان المسلمين ومن ثم بدءوا تحت تأثير إخوانيتهم يزعمون الحلوه ويدأ هو تحت تأثير وطنيته يزعم تخلفهم عن إدراك الحقائق . وحمى وطيس المناقشة بينه وبينهم ، ولم يكن له بد من الترحيب بتلك المناقشات أشد الترحيب ذلك لأن ثقافته الأصلية هى ثقافتهم ، ومن ثم فإنه كان يتصور قدرته على إقناعهم بذات الثقافة التى يؤمنون بها

وكثيرا ما كانوا يزعمون أنه انفصل عن كل ما تعلمه ، بينما كان الواجب أن يظل فى موقعه أبـد الدهر .. وحينئذٍ فإنهم كانوا يدهشون عندما يرد عليهم بأنه ليس هناك أدنى انفصال إلا فى خيالاتهم هم

فإذا سأل سائلهم عن مقولة ماركس المشهورة « الدين افيون الشعوب » أسعفته خواطره بأن هذه المقولة المثيرة للجدل . ليست كل نظرية ماركس ، فهناك غير هذه المقولة بنيان هائل من المقولات الاقتصادية والسياسية والأخلاقية والعلمية والأدبية لماركس ، وعلى من يريد إبطال نظرية ماركس أن يتصدى لكل مقولاتها . ثم يعلن الطالب الشاب أن هذه المقولة بذاتها مقولة خاطئة من زاوية أنها عممت حكمها على جميع الأديان فى كل زمان ومكان ، ولم تقصر نفسها على الحكم على رجال الكنيسة الأوربيين الذين اشتهر عنهم الوقوف الكامل فى معسكر الظالمين والطغاة علما بأن الدين أى دين لعب دورا مثيرا فى حياة الأمم والشعوب . وهناك رجال دين كان لهم فضل القيادة والسيادة فى معارك التحرير ولو عاش ماركس لرأى بعينيه أن الدين الإسلامى قد ألهم أبناءه قيادة المعارك النضالية ضد الاستعمار فى العصر الحديث

ومع ذلك فإن الماركسية ليست هى الوحيدة التى هاجمت الأديان ، فهناك فلسفات كثيرة وبخاصة الوضعية منها صنعت نفس الصنيع .. ومن عجب أن هذه الفلسفات كلها تتم دراستها فى الكليات الرسمية للدولة ولا تهاجم إلا الماركسية فقط .. أليس ذلك يوحى بأن الماركسية لا تهاجم بسبب موقفها من الأديان ، وإنما تهاجم بسبب موقفها من إلغاء الامتيازات الطبقيـة ، ومصادرة الملكيـات المستغلة لوسائـل الانتاج . وجعـل السيادة الاجتمـاعية للطبقـات الكادحـة من العمال والفلاحين ؟؟

بمثل هذا المنطق كان الطالب الشاب يناقش القريبين منه ، وكثيرا ما كان يقوله لهم من هو المجنون الذى يسمح لنفسه بتحقيق ما تتصورونه من المعاداة لقيم الدين ؟ ما هى الفوائد التى تعود على أى إنسان من محاربـة المصلى فى صلاته ، أو الصائم فى صيامه أو الحاج فى حجه ؟

ثم كيف يجول فى خواطركم أن محاربة الظلم تعنى الخروج على الدين ؟ أو يرضى الله على ظلم الإنســان لأخيه الإنسان ؟ أليس جوهر الأديان كلها هو تحقيق الخير للإنسان بدرء الشر ودفع أضراره ؟ وهل اتفاق الماركسية أو غيرها مع جوهر الأديان فى هذا الاتجاه العام نحو الخير يجعلنا نكفر بالأديان أم نزداد إيمانا بها ؟

لكن المناقشات كانت تنتهى لتبدأ من جديد ، وكـانت مهمته فى كـل مرة هى أن يـوضح لخصـومه أن الالتـزام الايديولوجى لا يعنى بالضرورة الاتفاق الكامل مع كل التفصيلات التى تتضمنها هذه الايـديولوجيـة أو تلك . بيد أن المناقشين كانوا يصرون على أن كل ماركسٌ لابد أن يكون غير مؤمن بالأديان . وبخاصة الدين الاسلامى الحنيف

وحتى عندما كان يذكرهم بأبين الاختلافات الواضحة فى داخل أصحاب الايديولوجية الواحدة ولو كانت دينا من الأديان إنما تعكس درجات مختلفة من عدم الالتزام ببعض التفاصيل ' فإنهم كانوا يرمونه بالمرون عن الايديولوجية الماركسية ، ويقولون إن هذه الايديولوجية لا تسمح بالاختلاف "

وعند هذا الحد كان يحيلهم إلى واقع الاختلافات الايديولوجية المتعددة بين الماركسيين فى العالم . ثم يقول : إن الأجدر بالمناقشة هو تلك المواقف العملية التى يقضها الايديولوجيون من قضايا الحياة اليومية . فالمواقف العملية دائما هى البرهان الحقيقى الدال ليس على مدى الالتزام فحسب ، وإنما على صلاح أو فساد تلك الايديولوجية ذاتها . ومن هنا فإن الأهم من كل تلك المناقشات أن ننظر إلى البرامج التى يقدمها الايديولوجيون للناس . فالناس فى مجموعهم ليسوا فلاسفة يفهمون فى الايديولوجيات ؛ ويستولى عليهم بريق النظريات ، وإنما هم أناس بسطاء ، ولهم مطالب وأهداف يرغبون فى تحقيقها .

٦ ـ الحقائق المهمة :

وأفضت تلك المناقشات الخصبة إلى مجموعة من الحقائق المهمة ، فهو عندما اتضح له أن الحساسية البالغة ضد الماركسية ليس سببها الأساسى موقف ماركس من الدين ، وإنما سببها الأساسى هو موقف الماركسية من ملكية المال ووسائل الإنتاج . كان لابد له من العكوف على التأمل الهادىء لاستخلاص الحقائق المتعلقة بهذا الأمر فى دين الإسلام وطرح على نفسه كل الذى تعلمه من القرآن والسنة ومواقف الطلائع الأولى للدعوة المحمدية .

وبدأ بالقرآن الكريم فانكشف له ان آياته تتحدث صراحة عن ملكيته فتنسبها لله تعالى على سبيل الحقيقة ، بينما تنسبها للإنسان الحائز لها على سبيل المجاز . وكان النص القاطع فى هذه المسألة قول الله تعالى « **وآتوهم من مال الله الذى آتاكم** » فالمال بمقتضى هذا النص مال الله . هو الذى يعطيه للأفراد لكى ينتفعوا به وينفعوا غيرهم . وإذن فإن ملكية الأفراد ليست حقيقية وإنما هى مجازية .. خولها الله لهم لكى يستبقوا منها ما يكفيهم وأولادهم ، ثم ينفقوا الباقى فى حاجات المجتمع .. وعلى ذلك فإن استئثار الأفـراد بالمـال ، وحجب نفقته عن الآخـرين . بل وتسخيره فى استغلال الآخرين وظلمهم من أجل البذخ والمتع الخاصة ، ليس أمرا ينسجم بقاؤه مع الفهم الصحيح لآيات القرآن الكريم .

وتأكد لديه هذا الفهم بما يعرفه الجميع من سيرة الرسول (ﷺ) ومواقفه تجاه ملكية المال : فالرسول صلى الله عليه وسلم لم يهتم باقتناء الذهب والفضة ، ولا أثر عنه انـه تملك العقارات والضيـاع ، أو حث على التملك والحيازة وإن جاع الناس . كيف وهو القائل : **ليس منا من بات شبعان وجاره جائع**كيف **وهو الذى لا يريد تمليك ذريته أو زوجاته عن طريق الارث منه فيقول : نحن معاشر الانبياء لا نورث وما تركناه صدقه** !

كيف وهو الذى نزل عليه قول ربه .. والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم ؟ كيف . وكيف . مما لا تحصى من الأحاديث والمواقف !

اما مواقف الراشدين من أصحابه فكانت غاية فى الإهتداء به (ﷺ) لم يكونوا طلاب مال ، ولم يؤثر عنهم غير التعفف ، والبذل ، والإيثار .. فالهم الحقيقى لأى منهم كان رعاية المصالح العامة للمسلمين ، والتخلى المطلق عن حب التملك والمال . بل إنهم اذا امتلكوا شيئا منه سارعوا إلى الجود به لكى يتم تسخيره فى خدمة الجماعة المسلمة من غير ضن أو من .

هذا أبو بكر الصديق فى بدء خلافته يأبى إلا أن يتكسب رزقه بمشقة التجارة . ولولا اعتراض الفاروق وبقية الصحابة لفعل . لقد اقنعوه بالعدول عن ذلك وطلبوا فرض ما يكفيه من بيت مال المسلمين ، فلم يقبل سوى ثلاثة دراهم يعيش منها ويعول أهله !!

وهذا عمر بن الخطاب الذى يقول : **إن الفقر والغنى مطيتان لا ابالى ايهما اركب** ؟ وسيرته كما يعـرف

الجميع حافلة بصور العزوف عن الدنيا ، وتحرى البعد عن المال اليس هو القائل « والذى نفسى بيده ما من احد إلا وله فى هذا المال حق . وما من احد احق به من احد . وما انا فيه إلا كاحدهم » .

وهذا عثمان بن عفان الذى جهز بماله جيش العسرة وقال هذا مال الله فلينفق فى سبيل الله

وهذا هو الإمام على بن أبى طالب الذى يقول « إن بطنة الغنى هى انتقام الله للفقير . وقد فرض الله فى اموال الاغنياء ، اموال الفقراء ، فما جاع فقير إلا من صنع غنى » تماما كما تعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى يقول « إن الله فرض على الاغنياء فى اموالهم بالقدر الذى يسع فقراءهم ولن يجهد الفقراء إذا جاعوا وعروا إلا بما صنع اغنياؤهم ، الا وإن الله يحاسبهم حسابا شديدا ، ويعذبهم عذابا اليما .. » !

بهذه الروح المتجردة عن أبهة الدنيا كان رسول الله وصحابته جميعا يتعاملون مع المال ، وبهذه الروح العزوف عن تملك المال أملوا على المفسرين والمتصوفين وشراح الحديث من بعدهم أن يقولوا : إن ملكية المال استخلاف منوط به صلاح المجتمع ، فإذا أساء المالك التصرف فى هذا المال الذى استخلفه الله فيه ، وحوله إلى اداة ظلم واستغلال فإنه يجب تجريده منه ، ويصبح هذا إجراء إسلاميا عادلا يرعى مصلحة المجموع .. ذلك لان الاموال اموال الله ، والخلق عيال الله ، وليس من العدل أن يسمح الله لمن أعطاه المال أن يظل متحكما فى رقاب العباد ظالما لهم

وهذا الإمام الغزالى صاحب الإحياء يقول « إن المال مثل الماء ، والماء لا يشرب منه اكثر من الحاجة » .

وهذا الإمام محمد عبده يتتبع إسناد المال فى القرآن الكريم فيجده فى الاغلب مسندا إلى ضمير الجمع وفى الاقل مسند إلى ضمير الفرد فيستنتج من ذلك « أن الله ينبه بذلك على التكافل فكانه يقول مال كل واحد منكم هو مال امتكم

أفبعد هذا كله يسوغ لعاقل مسلم أن يكفر أخاه لانه يدعو إلى تأميم المال المستغل لعرق الشغيلة والكادحين الفقراء ؟

أفبعد هذا كله يكون احتكار الأرض والمصنع وحبس إنتاجهما على سادة الإقطاع والمال هو الأمر الجدير بالدفاع عنه ؟

الا يدعو الإسلام صراحة لمحاربة الظالمين وعدم الركون إليهم ؟ ألم يقل الله تعالى « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » ؟

الا يكون آثما قلبه كل من تقاعس عن القتال فى سبيل الله والمستضعفين ؟ ! أو لم يقل الله تعالى « ومالكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا » ؟

٧ ـ المناخ الجديد :

جاء الوفد إلى الحكم فى بداية عام ١٩٥٠ ، وكانت مشاعر الشعب كلها معه بدليل أنه حصل فى الانتخابات آنذاك على ٢٢٨ مقعدا من ٣١٩ . وبناء على هذا الفوز الساحق فى الانتخابات تطلعت الجماهير الشعبية إلى نيل حقوقها الوطنية ، والديموقراطية والمطالب الاجتماعية . ولم تنتظر الجماهير إذنا من أحد بل هبت جموعها تعلن الإضرابات ، وتقوم بالمظاهرات ، وفى عام ٥٧ وحده وهو العام الذى حكم فيه الوفد وقع ٤٩ اضرابا عماليا ، ثم أخذت الفئات الأخرى تقوم بنفس العمل ، وكانت الصورة العامة للمجتمع تنبىء بأن الثورة المصرية قد استأنفت مسيرتها من جديد

وفى ظل المناخ الجديد تحرك الفلاحون فى مزارع الاقطاعيين ، كما حدث فى كفر نجم حيث أحرقوا المحاصيل وماكينات

الرى والسواقى ، وكما حدث فى بهوت حيث تجمهروا ضد البدراوى وحاصروا قصره ، وأحرقوا محاصيله ، وقذفوه بالحجارة ، وكما حدث فى قرية ميت نقباله حيث أضربوا عن جنى محصول القطن .. وفى كل واحدة من هذه الإقطاعيات كانت الحكومة الوفدية تصطدم بالفلاحين اصطداما داميا ، تماما كما كانت تصطدم بالإضرابات والمظاهرات العمالية فى المدن .

ومن خلال كل هذه الأحداث بدأت تهتز كل أركان النظام ، وكان اليسار المصرى فى مواقع تلك الأحداث التى وفرها نسبيا ذلك المناخ الجديد الذى أعقب فترة الحكم الإرهابى لأحزاب الأقلية .

وأثناء هذه الفترة تحددت المواقف المختلفة للطبقات والهيئات والأفراد فالطبقة العاملة ، والفلاحون ، والطلاب ، والمثقفون كلهم يتحركون فى اتجاه الحصول على حقوقهم ، والباشوات كبار ملاك الأرض ، والحكام وعلى رأسهم الملك ، والانجليز من خلفهم يحاولون إخماد تلك التحركات بكل الأساليب والوسائل .

أما رجال الدين فقد انقسموا إلى فريقين .. فريق يؤيد الملك ويناصره ويخلع عليه ألقاب الملك الصالح ، وأمير المؤمنين الخ . وفريق يعارض النظام ، ويؤمن بالذى يؤمن به الشعب ويدعو إليه .

يقف الفريق الأول بالاقتناع أو بالنفاق موقف بعض رجال الكنيسة فى أوربا قبل نهضتها . هؤلاء الذين كانوا يساندون الطغيان والظلم دفاعا عن مصالحهم الخاصة ، وقد أساء هذا الفريق لنفسه أبلغ الإساءة عند الجماهير . كما أساء هذا الفريق أيضا إلى الدين الذى ينتسب إليه .

بينما كان الفريق الثانى يقف إلى جوار حركة الشعب يسندها بالقلم أو باللسان ، ومن هذا الفريق الشيخ محمد سعاد جلال ، والشيخ خالد محمد خالد وغيرهما . ولقد كان موقفهم شبيها بموقف الشرفاء من رجال الدين المسيحى الذين فهموا مقولات المسيحية فهما حقيقيا مخالفا لفهم هيئات الكهنوت التى كانت تبيع صكوك الغفران .

ونتيجة للمد الوطنى شاعت فى لغة الناس مفهومات الدين الحقيقية من مثل قول أبى ذر الغفارى « عجبت لمن لا يجد القوت فى بيته كيف لا يخرج على الناس شاهرا سيفه » ومن مثل قول بعض الباحثين المستنيرين : إذا كانت الماركسية تشيد بالعمل وتعتبره أساس كل قيمة ، فقرآننا الكريم يقول « قل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » ونبينا يمجد العمل فيقول عن السيدة التى أصابتها الخشونة من كثرة الكدح : هذه يد يحبها الله ورسوله .

٨ ـ الحركة المقيدة :

ومهما يكن من شىء فقد انخرط الطالب الشاب فى سلك النضال من أجل مصر تحت راية الحزب الشيوعى المصرى ، وكان هذا النضال محكوما بقواعد السرية المطلقة . ذلك لأن الضمان الوحيد لاستمرارية النضال كان هو التخفى عن أعين الدولة وأجهزتها .. ومن ثم فإنه ألف تلك الاجتماعات السرية التى يتم من خلالها تبادل التعليمات ، والنشرات ، والأخبار .. كما ألف الالتزام بترك الفضول عند المناقشات وأثناء الاجتماعات . ذلك لأن معنى السرية يفترض الا تكشف إلا ما ينكشف لك . من خلال مسئول لا تعرف اسمه ، ولا عمله ، ولا مسكنه ، ولا أى جانب يدل عليه . وإذا حمل إليك بعض التعليمات من قيادة التنظيم فإنه يحملها من مجهولين له ، وإذا رفع تقريرا منك إلى المستوى الأعلى فإنه يرفع تقريرا من مجهول هو « س » مثلا إلى مجهول هو « ل » وهكذا تكون الحركة داخل التنظيم السرى حركة محكومة بشتى القيود ، وعليك أن تكون فى غاية التحفظ والحذر ، عندما تفعل أو تقول إذ أن أى خطأ قد يلحق أضرارا فادحة بأعضاء التنظيم .. هؤلاء الذين يعتبرون عملة نادرة لا يسهل تعويضها عند فقدها ..

إنهم يكافحون بالمخاطرة البطولية فى كل لحظة من لحظات حياتهم . يقرءون بالمخاطرة ، ويكتبون بالمخاطرة ، ويناقشون بالمخاطرة ، ويعقدون الاجتماعات ويقومون بالاتصالات بالمخاطرة .. لا يهابون ولا يترددون فى أداء ما يطلب

منهم مهما تكن الاحتمالات وإذا وقع واحد منهم فى قبضة الدولة فإنه لا يبوح بشىء اؤتمن عليه ولو وقع عليه شر ألوان التعذيب

وهكذا صار الطالب الشاب مرتبطا بقيود السرية التى حدت من انطلاقه . ولكنه بالرغم من تلك القيود كان يتلمس الفرص المواتية للحركة بين الجماهير الساخطة والغاضبة .. وكانت أخبار حركة الجماهير تنعكس عليه من مصدرين اثنين هما المطبوعات السرية ، والصحف العلنية .. ففى المطبوعات السرية كانت حركة الجماهير تنعكس بصور مختلفة نتيجة لتعدد التنظيمات التى تصدر تلك المطبوعات .. وفى الصحف العلنية كانت هناك دائما وجهة نظر الحكومة وكتابها حيال تلك الحركة والقائمين بها . وبقانون التأثير المتبادل بين كل من الحكومة والجماهير كانت المطبوعات السرية تعكس الأسباب والوقائع الخفية للمواقف الحكومية بهدف فضحها وتحريض الجماهير عليها . كما كانت الحكومة تحاول إخفاء صورتها المهتزة فى أعين الجماهير .. والقصر على حد سواء .

دعى الطالب الشاب من قبل زملائه المغاربة للمشاركة فى مؤتمر وطنى يتم انعقاده بمبنى الجامع الأزهر للتنديد بجرام الإستعمار الفرنسى . وكان موعد المؤتمر بعد صلاة الجمعة .. وأسر إليه من دعاه أن يكون ممثلا للحزب الشيوعى المصرى الذى يجب أن يعرف رأيه بالنسبة للقضية المغربية . وتلبية لهذه الدعوة ذهب إلى المؤتمر قبل انعقاده بوقت معقول ، ثم اندفع إلى المنبر بعد الصلاة ، وألقى من فوقه خطبة إثارية مختصرة دعا فيها لانعقاد المؤتمر .. وتعاقب بعده المتحدثون ، وفى أثناء ذلك ألقى مجهول من الحاضرين كماً كبيراً من المنشورات الموقعة باسم الحزب الشيوعى المصرى .. ولم يكن فى تلك المنشورات ما يثير غضب السلطة سوى التوقيع .. فكل ما كان فيها أيده الحاضرون بما فيهم رجال الدين أنفسهم ..

وارتفع مستوى الحماس بعد توزيع هذه المنشورات ، وتصاعدت الهتافات بحياة الشعوب العربية والإسلامية وبسقوط الاستعمار العدو اللدود لهذه الشعوب . ثم انتهى الأمر بإصدار قرارات المؤتمر التى تم إبلاغها إلى شتى الجهات

وقبل أن يغادر المؤتمرون مكان المؤتمر قبض البوليس على عدد من الطلاب اعتباطا لمجرد التدليل على النشاط القوى فى تعقب الأحداث .

وفى اليوم التالى : نشرت الصحف وقائع المؤتمر ، وركزت جدا على منشور الحزب الشيوعى المصرى الذى تم توزيعه فى مبنى الجامع الأزهر !!

عندئذ توترت الأعصاب فى القصر الملكى ، ودعى فؤاد سراج الدين وزير الداخلية للقاء المسئولين هناك . ولم يجد بدا من تكذيب ما نشر فى الصحف ، وإنكار أن هناك حزبا شيوعيا فى مصر !! لكن راية الشعب جريدة الحزب الشيوعى المصرى ردت عليه فى نفس الأسبوع وأكدت أن الحزب الشيوعى المصرى حقيقة واقعة رغم أنف سراج الدين وسادة سراج الدين .

هذا مثل واحد من أمثلة التحركات الجماهيرية وطريقة تناولها فى الصحف الحكومية والمطبوعات السرية . ومنه يتضح أن حكومة الوفد التى جاءت بها الجماهير لكى تحقق أهدافها وتصون حركتها ، قد باتت تخشى هذه الجماهير ، وتعمل على تعميتها عن الحقائق إرضاء للقصر ، وصيانة لمصالحها فى الحكم والتحكم .. ولو لم يكن الطالب الشاب أسير القيود التى تفرضها السرية لكان له ولأمثاله موقف أبعد من مجرد نشر خبر أو مقال فى جريدة سرية محدودة التوزيع .

٩ ـ مساوىء الانقسام :

وكان للحزب الشيوعى المصرى إلى جوار جريدته السياسية « راية الشعب » نشرة داخلية اسمها « الحقيقة » وفى هذه النشرة الداخلية كانت تتم المناقشات والدراسات النظرية العميقة ، وكان الهدف من إصدارها هو تربية الكادر القادر على القيادة

ومن خلال هذه النشرة الداخلية تعرف الطالب الشاب على حقائق الانقسامات الحادة فى صفوف الحركة الشيوعية المصرية ، فهناك تنظيم « مدتو » أى الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى ، وهناك التيار الثورى (ث ث) والنجم الأحمر الشيوعى ، وطليعة الشيوعيين المصريين (ط ش م) . ونواة الحزب الشيوعى المصرى . والحزب الشيوعى المصرى . وطليعة العمال .. وما إلى ذلك .

وكان لكل واحد من هذه التنظيمات مطبوعاته التى دأبت « الحقيقة » على مناقشة كل منها . وكانت المناقشات جادة وحادة ، تحاول إبراز الأخطاء على أنها خيانات صارخة . إما للنظرية الماركسية اللينينية ، وإما للقضية الوطنية ، أولهما معا ، وكان للكتاب الذين يحررون هذه النشرة قدرات فائقة يستطيعون عن طريقها إثبات ما يرمون به خصومهم من اتهامات .

وعندما تبين له عمق مأساة الانقسام ساوره الشك فى أن تكون هناك بعض الأصابع الاستعمارية التى تجيد خلق وتغذية التفتيت فى داخل الحركات الوطنية بشكل عام ، وحاول التعرف على هذه الحقيقة بإثارتها أثناء أحد الاجتماعات الحزبية .. فأكد له زملاؤه أن ذلك حقيقى فعلا ، وذكروا له أسماء بعض الأجانب الذين ينتسبون إلى المنظمات الشيوعية المصرية .. أو الذين يسيطرون على بعض هذه المنظمات !!

ولقد لعب هذا الانقسام دورا خطيرا فى حياة الشيوعيين المصريين . شغلهم بمحاربة أنفسهم عن محاربة الخصوم . وأتاح الفرص للجواسيس والمخربين أن يندسوا بينهم . وبلبل الجماهير والوطنيين القريبين منهم . وصورهم بصورة العابثين فى نظر أصدقائهم والعاطفين عليهم .

ولقد انتقلت صورة هذا الانقسام عن طريق الكتابات فى الصحف الأجنبية إلى خارج الحدود ، وادعى كل على الآخر ما يشتهيه من الإدعاءات .

وكان الطالب الشاب يشعر بالأسى عندما يفاجئه بعض المثقفين بما قرءوه من ادعاءات ماركسية ضد ماركسيين آخرين .. لكنه مع ذلك ظل على حزبيته وكأنه كان ينتظر تحقيق التوقعات التى يتوقعها الحزب من تصفية كل هذه المنظمات ، واجتذب المخلصين منها إلى صفوفه ، وكانت التسللات التى تحدث من بعض أعضاء المنظمات الأخرى ترجح هذه التوقعات ، فكثير من أعضاء هذه المنظمات كانوا يقتنعون بوجهة نظر الحزب بعد الإطلاع على وثائقه ويطلبون الانضمام إليه . لكن ذلك لم يقض على مساوىء الانقسام ، ولم يجعل الشيوعيين قادرين على فرض أنفسهم كتيار قوى متجانس .

١٠ ـ ملخص الوثائق :

وكان الملخص المختصر لتلك الوثائق التى اعتمد عليها الحزب لتصفية الإنقسام فى مصر يدور حول التطور الطبقى فيها منذ أيام المماليك ، مرورا بعصر محمد على واستيلائه على الأرض الزراعية . ثم عصر اسماعيل الذى اراد أن يجعل من مصر قطعة من اوربا ، ثم ثورة عرابى التى تمت هزيمتها بفضل خيانة الإقطاعيين وأحزابهم . إلى أن استأنفت مسيرتها بقيادة مصطفى كامل ومحمد فريد اللذين قعدت بهما الظروف عن بلوغ أهدافهما ـ ثم جاءت سنوات الحرب العالمية الأولى ١٤ ـ ١٩ وما تمخضت عنه ثورة سنة ١٩١٩ بقيادة سعد زغلول .. وكيف أن هذه الثورة لم تحقق انتصارها إلا فى حدود ما انتزعته البرجوازية المصرية من مكاسب . ديموقراطية نسبية . إلى أن كانت معاهدة سنة ١٩٣٦ تلك التى كرست تجميد الثورة عند حدودها التى بلغتها وبخاصة بعد بروز الفاشية على النطاق العالمى . إلى أن جاءت الحرب العالمية الثانية فانتعشت الراسمالية المصرية التى نشأت فى حضن الإستعمار وحققت لنفسها بعض المكاسب . وبرز إلى جوارها دور الطبقة العاملة المصرية التى أصبح لها بحكم

دورها التاريخى على نطاق العالم المعاصر دور القيادة للصراع الاجتماعى والوطنى بقيادة حزبها الذى يعبر عن مصالحها ومصالح كل الطبقات ذات المصلحة فى الثورة وما هذه الطبقات الأخيرة إلا العمال والفلاحون والرأسمالية الوطنية (الصغيرة والمتوسطة) إلى جانب المثقفين الثوريين والجنود أما الإستعمار والاقطاع والاحتكار (الرأسمالية الكبيرة) فإنهم معسكر الاعداء الذى يجب القضاء عليه إتماما لمهام الثورة الوطنية التى بدأت منذ عهد عرابى ولم تستكمل حتى الآن

كانت الحقائق مبسوطة فى تلك الوثائق .. وكان مجرد تقديمها للاعضاء فى غير الحزب يتكفل بجذب العديدين منهم . ذلك لأنهم ربما لم يكن لديهم دراسات شبيهة . وكان الطالب الشاب يسعد جدا كلما تم له كسب عضو جديد

١١ ـ ١٣ يناير سنة ١٩٥١ :

من خلال تلك الوثائق التى تم تلخيصها منذ قليل ، تبين الطالب الشاب أن الثورة حدث اجتماعى له شروطه ، وظروفه ، وقواته الرئيسية والحليفة ، كما تبين له أن الثورة الوطنية إنما تعبر عن مصالح الطبقات الوطنية الراغبة فى التخلص من الاستعمار وحلفائه ، ومن هنا اندفع يخوض غمار النشاط العارم من أجل تهيئة ظروف النصر لتلك الثورة الأمل . فهو يبدأ يومه بالذهاب إلى كليته لكى يمضى ساعات المحاضرات والدرس مع الأساتذة والزملاء ، مشغولا بفهم ما يدور داخل القاعات والمدرجات ، فإذا حان وقت الانصراف نظر فى « اجندة » مواعيده لكى يعرف اين وجهته . ويظل بعد ذلك ملكا للاجتماعات والمناقشات أحيانا إلى ما بعد منتصف الليل .

وهكذا تمضى به الايام والليالى حتى جاء يوم ١٣ يناير ١٩٥١ . خرج الطلاب فى هذا اليوم إلى مبنى وزارة الخارجية المصرية محتجين على سياسة المفاوضات مع الانجليز التى كانت تمارسها حكومة الوفد من أجل تعديل معاهدة ١٩٣٦ . وكان المتظاهرون قادمين من مبنى جامعة فؤاد الأول [القاهرة حاليا] ومن بعض الكليات والمدارس الاخرى . واستعاد الطالب الشاب ذكرياته القديمة عن تلقائية الكفاح الطلابى من أجل الوطن ؛

تصاعدت الشعارات الوطنية بسقوط الاستعمار .. وحياة مصر المستقلة ، وبسقوط معاهدة الذل والعار ولا مساومة ولا مفاوضة الخ وسمع صلاح الدين باشا وزير الخارجية هدير الهتافات فخرج إلى الشرفة المواجهة للطلاب .. وبدأ الطلاب يناقشونه وهو يحاول الرد عليهم لمدة ساعتين اثنتين .. كانوا إذا سألوا لماذا لا تلغون المعاهدة وتقطعون المفاوضات ؟ رد عليهم بأن الحكومة إذ تفاوض فإنها لا تفرط .. والمعاهدة الموقعة من طرفين ليس من السهل إلغاؤها من طرف واحد !! وإذا قالوا إن مصلحة الوطن فوق الشكليات رد عليهم وإذا أمكن تحقيق مصلحة الوطن مع الحفاظ على الشكليات فما المانع ؟ وهكذا طالت المناقشات . وتخللتها شعارات عدائية ضد الوزير الأمر الذى ضيق صدره فحسم المناقشة بأن قال للطلاب لا تتكلموا باسم الشعب فأنتم لستم كل الشعب .

وانصرف الطلاب حانقين . ولم يحدث معهم أى صدام .

١٢ ـ بطاقة التسول :

وعاد الطالب الشاب إلى منزله مهموما بتلك الكلمة التى أنهى بها الوزير مناقشته ؛ وقال لنفسه : لو كان الوزير مواجها بزحف شعبى حقيقى لما جرؤ أن يقول تلك الكلمة . وإن علينا بالفعل أن نحشد كل جماهير الشعب من أجل بلوغ أهدافها

وفى مساء نفس اليوم ذهب إلى مسجد الحسين حيث الاحتفال بمولده . وهناك شاهد الآلاف المؤلفة من الناس فتذكر قولة الوزير من جديد ، ودلف إلى المسجد وهو يفكر فى الكيفية التى يمكن معها حشد الشعب والتحدث باسمه مع أية سلطة مهما كانت وظل هذا التفكير متسلطا عليه حتى غادر المسجد وركب الترام عائدا من حيث أتى ، وبينما هو جالس إلى جوار صديقه القديم الواعظ جاءه صبى صغير الجسم والسن كان منهمكا فى توزيع بطاقات على الركاب وأعطاه واحدة منها .

تخيل للحظة أنها منشور سياسى شبيه بذلك الذى وزعه الطلاب اليوم فى مظاهرة الصباح . فلما وصلت ليده وجد فيها ما يلى :

« سادتى : انا تلميذ وابن مجاهد فقد صحته وبصره ومستقبله فى سبيل الوطن ، ولعجزه فإننى اعوله والعائلة بتجارة الحكم والآيات القرآنية المزخرفة وإنى جدير بتعضيدكم »

التلميذ

عادل البيومى

حينئذ شعر بدوار حقيقى يجتاح كل كيانه ، وغامت عيناه بالدموع ، ومد يده تلقائيا إلى قروش قليلة ناولها لهذا التلميذ . وقال له لن أشترى منك شيئا بهذه القروش ، وأرجو أن تترك لى فقط تلك « **البطاقة** » التى تحمل مشكلتك ..

فرح التلميذ وانصرف تاركا « **البطاقة** » بينما ظل هو فى مكانه مزلزل النفس يرتجف بدنه .. الأمر الذى دفع صديقه الواعظ إلى التهوين عليه ببعض الكلمات المعتادة فى مثل هذه الظروف ، ورن فى أذنيه من هذه الكلمات قوله : **البلد فيها من البائسين ما لا يحصى ولا يعد** !! وعند مفترق للطرق ترك صديقه وانصرف إلى منزله غير سعيد .

وهناك أوقد المصباح وجلس إلى مكتبه المتواضع ، ووضع أمامه تلك « **البطاقة** » وأخذ يتأمل كلماتها التى صارت أمامه كأنها الخناجر المسمومة . تروع قلبه ، وتنهش وجدانه ، وتبعث فيه من الضيق والألم ما لا يقوى على احتماله !!

إن هذا الذى يتسول تلميذ عجز ابوه عن الكسب بسبب جهاده فى سبيل الوطن ، ولعله كان واحدا من مشوهى حرب فلسطين . !! ولقد كان من حقه على الدولة أن ترعاه وترعى صغاره وزوجه – ولا تتركه لكى يتسول ابنه على هذا النحو الذى رآه . ترى أين المسئولون فى هذا البلد ، وماذا يعملون ؟ وكيف يستطيع تلميذ تقسو عليه الظروف على هذه الصورة أن ينجح فى دراسته ؟ وأية جراح نفسية تمزقه وهو يتأمل الذى حدث له ولأسرته ؟

واسترسل الحوار الصامت المؤلم بينه وبين سطور تلك البطاقة حتى مطلع الفجر !! وسرح بفكره المؤرق إلى ما حدث أمس مع معالى وزير الخارجية الهمام .. وربط بين سياسة الدولة والنظام الذى تقوم عليه ، وبين حدث البطاقة هذا .. وقالت له نفسه لو أن وزير الخارجية قد فقد صحته وبصره ومستقبله فى سبيل الوطن هل يجوز على أولاده ما جاز على ذلك التلميذ من فقر وعوز ألجأه إلى التسول ؟ وبالطبع كانت الإجابة معروفة وواضحة وضوح الشمس التى اخذت اشعتها تقتحم عليه المكان . عندئذ تهيأ وخرج من منزله إلى كليته مبكرا ..

١٣ – العمل المثير :

وفى طريقه إلى الكلية خطرت له فكرة اتخاذ تلك « **البطاقة** » وسيلة للإثارة الوطنية بين الطلاب !! ولكن كيف ؟ إن الذين شاركوا فى مظاهرة الأمس من أبناء كليته نفر محدود ، أما أغلبية الطلاب فإنهم منصرفون عن السياسة والوطنية ، ولا يهمهم سوى الدرس والنجاح فى نهاية العام

ترى هل ينجح فى إثارتهم وحفز هممهم عن طريق « البطاقة » التى أثارته وأرقت كل ليله حتى مطلع الشمس ؟ ولم لا ؟ أليسوا بشرا مثله لهم نفس الإحساسات والوجدانات الإنسانية ؟ على كل حال فإنه لن يخسر شيئا إذا ما جرب وحاول

وهكذا وصل إلى فناء الكلية فلم يجد أحدا فيها على الإطلاق . واتجه من فوره إلى سبورة العرض القائمة فى هذا الفناء ، وبخط جميل واضح كتب هذا العنوان « منشور سياسى » وتحت هذا العنوان كتب السطور التالية

ما رايك أيها الزميل لو دعيت لحفل شائق تحبه ؟ وما رايك لو كان داعيك لهذا الحفل واحدا من زملائك ؟ وما رايك لو كان هذا الحفل من اجل تكريمك انت ؟ وما رايك لو كان سبب تكريمك هو نجاحك فى تحقيق حلم لك ؟ وما رايك لو كان هذا الحلم لا يقتصر اثره عليك و إنما يمتد إلى كل ابناء وطنك ؟ وما رايك لو لم يقتصر تكريمك على هدية تهدى إليك . بل صار منشورا سياسيا يتداوله كل الناس ؟

اعتقد انك لن تتوانى فى تلبية تلك الدعوة ، وسوف تتجه فورا إلى المدرج الكبير لكى تطلع على هذا المنشور الذى ينطوى على اخطر المعلومات بالنسبة لحياة الوطن ومستقبله

وفى ركن من أركان « المدرج الكبير » المواجه للفناء وقف يرقب ما الذى سوف يحدث ؟ !! وكان سعيدا جدا عندما أقبلت الطلائع الأولى من الطلاب والتفوا حول سبورة العرض قبل أن ينتبه الحرس الجامعى للأمر . وتكاثر الطلاب بعد ذلك حتى غص بهم الفناء إنهم مترددون ولم يقبلوا على المدرج الكبير ربما لأن الدعوة غير موقعة باسم صاحبها . وربما لأن كلمة « منشور سياسى » تثير فيهم نوعا من الخوف

لكن واحدا منهم بشىء من الفطنة عرف من الداعى ، وتسلل إليه . وتفاهما على التعاون فى جذب الطلاب إلى المدرج : فصعد هذا الواحد فوق سور الممر القائم أمام المدرج وقال بصوته الأجش : أيها الزملاء : فتقاطروا إليه ، وافتعل مشكلة خاصة بطلبة الفرقة الأولى عرضها سريعا ثم نزل من فوق السور ليرتقى الطالب الشاب ويتوجه بالعتب الرقيق إلى مجموع الزملاء . ثم يدعوهم إلى دخول المدرج

وبدأ حديثه عن قصة المظاهرة التى وقعت أمس ، وصفها ، ووصف المشاعر الحارة التى تضمنتها ، والشعارات الوطنية التى هتفت بها ، والمناقشات الحامية التى دارت من خلالها مع معالى وزير الخارجية على النحو المنشور فى صحف صباح اليوم ـ ثم عرج بعد ذلك على مواقف الطلاب التى كانت أكثر من رائعة . إلى أن بلغ قول الوزير للطلاب بعد أن ضيقوا عليه الخناق إنكم لستم شعب مصر

عندئذٍ انفعل وأخذ يندد بالوزير وبالحكومة ، وبكبار المسئولين فى القصر الملكى الذين يتواطئون على المفاوضات والمساومات من أجل خيانة شعب مصر .. وهتف الطلاب فى تلك اللحظة بسقوط الخونة .

ورجع هو إلى الحديث عما أعقب المظاهرة من تفكير فى ضرورة حشد الشعب من أجل مواجهة كل المسئولين به ـ إلى أن تلقى منشورا سياسيا خطرا انار له الطريق ..

وفى هذه اللحظة استخرج البطاقة وقرأها ، ثم علق عليها مبينا أن محتواها أكثر من خطير . وبدأ يتحدث عن مفهوم السيادة التى حملته كلمة سادتى فى بداية البطاقة . ثم انتقل إلى مفهوم التلمذة والجهاد .. الخ .. وكأنه كان يريد أن يحمل كل من يسمعه مسئولية عدم الوقوف فى وجه الحكومة التى لا يهم أعضاءها غير البقاء فى كراس الحكم ..

وفى نهاية الحديث الذى استمر أكثر من ساعتين تم له اقتراح تكوين لجنة وطنية تكون مهمتها التحضير لمؤتمر شعبى عام يحضره ممثلون عن كل التكتلات الطلابية والعمالية وغيرها .. وبالفعل تم تكوين تلك اللجنة ، وحددت المهام المطلوبة من كل واحد من أعضائها

وهكذا لعبت بطاقة التسول دورا إشاريا لتسع نطاقه . واستمرت المحاولات من أجل انجاحه شهورا طويلة ، وبذلك انطلق الطالب الشاب مثلما كان ينطلق فى أيامه الخوالى بمدينة الاسكندرية . لولا حواجز للسرية التى حدت كثيرا من خطواته

١٤ - إلغاء المعاهدة

انتهى العام الدراسى بتصاعد سريع لمستويات الكفاح الوطنى فى جميع مجالاته السياسية والإجتماعية . تفجرت الإضرابات الواسعة للعمال فى شتى المراكز الصناعية بالمدن المصرية . ووقعت الصدامات الدامية بين الفلاحين والإقطاعيين فى أكثر من إقليم ، ووقف المعلمون وغيرهم من طوائف الموظفين بصلابة يطلبون حقوقهم من الحكومة ، وتظاهر الطلاب فى الجامعات والمدارس . وتزايدت النشرات والصحف السرية المنددة بموقف الحكومة من القضايا السياسية والاجتماعية وارتفع مستوى حماس الصحف الحزبية الوطنية وعلى الأخص بعد انكشاف جروح النظام من خلال فضائح المتاجرة بالأسلحة الفاسدة ، والمضاربات فى بورصة القطن .

وحاولت الحكومة الوفدية ملاحقة تلك الأحداث ، والعمل على محاصرتها . ولكنها لم تستطع .. وربطت الجماهير بين نضالها ضد الاستعمار ونضالها من أجل التغير الاجتماعى .. وكانت المعزوفة التى تتردد فى مكاتب المسئولين بالقصر أو بالحكومة أو بالسفارة البريطانية تتحدث عن الخطر الشيوعى الزاحف !! وعن ضرورة التصدى بموقف يحد من هذا الخطر !!

وبعد الكثير من المشاورات والمداولات وفى شهر اكتوبر ١٩٥١ أعلن « النحاس باشا » إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وتلقفت الجماهير هذا الحدث الكبير وانطلقت مظاهراتها لتأييده ، بينما تأهب الشباب لخوض المعركة المسلحة من أجل إجلاء الإنجليز عن مصر .

وكان الطالب الشاب قد أنهى دراسته توا فى كلية دار العلوم ، والتحق بمعهد التربية العالى للمعلمين بالقاهرة عندما وقع إلغاء المعاهدة .. وفى غمرة التعليقات على هذا الحدث أبدى أحد الأساتذة تشككه فى جدية الهدف المتوخى من وراء هذا الاقرار ، وقال لابد من قرار آخر بحمل السلاح وتنظيم استخدامه ضد الانجليز .. ولقد كنت انتظر هذا القرار الآخر ولكنه لم يصدر "

رن فى أذنيه هذا القول رنينه الخاص ذلك لأن رأى الحزب الشيوعى المصرى كان قريبا من هذا الرأى .. فحكومة الوفد الخائنة بحكم موقعها الطبقى لا يمكن أن تتخذ هذا القرار الوطنى إلا مضطرة ، ومن ثم فإنها تبت نية الغدر والنكوص عن تنفيذه إلى آخر مداه ..

وكان على رأس وزارة المعارف الدكتور طه حسين صاحب الدعوة إلى مجانية التعليم .. وكانت أحاديثه وتصريحاته تشبه الجهل بالحريق ، وتدعو إلى إطفائه بأى نوع من أنواع الماء .. ومن ثم فإنه كان ضد رفاهية البيداجوجيا على النحو الذى كانت عليه بمعاهد التربية فى ذلك الحين ..

استغل الطالب الشاب هذه الفرصة ، واتجه إلى العمل لكى يجد موردا يعيش منه ، ويستطيع معه مواصلة النضال الذى احتدم أواره .

ومن هنا فكر فى عقد مؤتمر لطلاب المعهد .. وعرض فكرته عن العمل قبل الحصول على دبلوم المعهد الذى تلزمه سنتان طويلتان منذ الآن . ونجح فى اقناع المؤتمرين بالفكرة ، وتوجه مع وفد من الطلاب إلى مكتب الوزير وهناك عرض مطلب الطلاب الذى استقروا عليه . وطلب الاستغناء عن معاهد التربية فى الفترة الحالية على الأقل ..

وكان رد الوزير هو الترحيب بتعيين الطلاب مع رفض فكرة الاستغناء عن معاهد التربية . وقال إن تعيينك أمر ممكن ، وتعويضك عن الدراسات التربوية نستطيع تدبيره لك بدراسات أخرى صيفية : أو أية صورة أخرى .

والمهم أن الطالب الشاب قد أثمر نضاله ، وتم تعيينه مدرسا للغة العربية بمدينة الاسكندرية . وتغير نظام الدراسة بالمعهد العالى للتربية من عامين كاملين إلى عام واحد .

١٥ - العود على البدء

ما أبعد الفرق بين الأمس واليوم ، لقد حضر إلى الاسكندرية أول ما حضر صبيا ساذجا خالى الذهن إلا من سور القرآن الكريم ، وبعض قواعد الحساب والإملاء وهو اليوم يحضر إليها أستاذا للغة العربية والدين ، وملء رأسه ذكريات ، وخبرات ، وأفكار ، وآراء . وهموم !!

ولقد غادر الإسكندرية عندما غادرها زاهدا فى العمل السياسى ، وهاربا من مساوئه التى ألمت به ، وهو اليوم يعود إليها شديد الشوق إلى استئناف رحلة النضال من أجل الوطن ولو بلغ الموت !!

تسلم عمله بمدرسة الجمعية الخيرية الإسلامية بمحرم بك ، والتحق فى نفس الوقت بمعهد التربية العالى للمعلمين بالاسكندرية ، وكانت الأحداث السياسية تتفاقم ، والكفاح المسلح يتحول من شعار إلى عمل يمارسه الفدائيون المصريون ضد معسكرات الإنجليز الرابضة فى قواعدهم بشرق البلاد

وانغمس إلى أذنيه فى هذا الأتون ، يساهم فى جمع المال وشراء السلاح ، ويلتقى بالقيادات العمالية من أجل تجنيد العناصر الفدائية القادرة على الاستمرار فى المعارك حتى تحقيق النصر . ويجتمع مع بعض الشباب الذاهبين إلى القتال أو العائدين من القتال ، وقد شهد فى تلك الفترة من النماذج الشجاعة الباسلة ما لا يمكن أن ينسى ، شباب متطوع جسور يمضى إلى الشرقية قريبا من معسكرات الأعداء .. وشباب متطوع جسور يتخفى عن الأعين وعن كشافات الأعداء لكى يهاجم وينسف - ويدمر ، ويقتل . ويموت ! وشباب متطوع جسور يمد بالإسلحة والتدريب عليها !!

وهكذا تحرك الشعب المصرى فى ذلك الوقت إلى صانع ملحمة رائعة .. فقد كان المتطوعون يتقاطرون من جميع المدن المصرية إلى منطقة العمل الفدائى فى كل يوم . وكانت كل أساليب التحصين والدفاع والحذر تفشل أمام الاقتحامات المتحدية .. ووقف العالم كله يتطلع ويحسب الحسابات المترتبة على تلك التحولات التى طرأت على الكفاح المصرى .. وبدا واضحا للعيان أن هناك من يديرون الخطط لاحتواء الموقف قبل فوات الأوان .

واستمرت مصر تغلى غليان المرجل لمدة ثلاثة شهور .. نوفمبر وديسمبر ١٩٥١ ، ويناير ١٩٥٢ .. إلى أن جاء يوم ٢٥ يناير المشهور . ذهبت القوات الانجليزية المدججة بالسلاح إلى مبنى محافظة الاسماعيلية ، ووجهت انذارا بإخلاء المبنى وتسليمه إليها .. وكان مبنى المحافظة مشغولا بموظفى المكاتب ، وبعض جنود الحراسة من رجال الشرطة . ولم يقبل المحافظ هذا الانذار واستبسلت الشرطة فى المقاومة .. وسقط الضحايا بالعشرات فى أشرف معركة ضد القوة الغشوم !!

وكان من نتيجة ذلك أن اهتاجت مشاعر السخط والغضب فى نفوس الوطنيين فى كل مصر ، واندلعت المظاهرات الصاخبة فى مدينة القاهرة التى تآمر عليها الخونة وأشعلوا فيها الحريق .

وقع هذا الحريق فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ . وبادرت حكومة الوفد فى مساء نفس اليوم إلى إعلان الأحكام العرفية وفرض حظر التجول . ومطالبة الشعب بالهدوء .

وكان الواضح من تلاحق الأحداث على هذا النحو المأساوى ، أن الهدف هو ضرب حركة الشعب وتصفيتها ووضع حد لهذا التصاعد فى الكفاح المسلح الذى أقضَّ مضاجع القصر والانجليز وقبلهم الحكومة .

وما إن باءت حكومة الوفد بوزر إعلانها للأحكام العرفية حتى سقطت . وجاءت بعدها حكومة الهلالى باشا

التى استغلت قوانين الطوارىء فانقضت على الآلاف تقبض عليهم ، وتقدمهم للمحاكمات العسكرية السريعة بتهمة الاشتراك فى إشعال الحريق

ووجد رجال الأمن فرصتهم للقبض على بعض الوطنيين وإسناد تهمة التحريض على الحريق إليهم . وكان فى مقدمة هؤلاء الأستاذ احمد حسين رئيس الحزب الاشتراكى ..

بينما وقف اليسار موقف الإدانة للحكومة الوفدية . وللنظام الملكى الإستعمارى ، وكتبت « راية الشعب » فى ذلك الوقت مقالا تحت عنوان « نحن نتهم » ادانت فيه سراج الدين وزير الداخلية وكبار رجال القصر ، وأكدت انهم تركوا البلد تحترق ولم يصدروا الأوامر اللازمة للقوات النظامية فى الوقت المناسب . كما دافعت عن الأستاذ احمد حسين . ومجموع الوطنيين الذين تلفق لهم تهمة الحريق من اجل أن يحاكموا ، ويخلص النظام من شرهم .

وكانت المفارقات المؤلمة : أن الإنجليز نعموا بالأمن فى قواعدهم وزال عنهم القلق : بينما الوطنيون يتجرعون كئوس الارهاب سجنا ، واعتقالا ، ومحاكمات ، ومطاردات .. وكانت أنظار الدولة مركزة على اليسار الذى لعب دورا كبيرا فى تفجير المواقف الطبقية والوطنية السابقة على إلغاء المعاهدة .. وراحت دوائر الأمن تعكف على التخطيط من أجل توجيه اعنف الضربات إلى اليسار وبخاصة بعد تزايد تنديده بالنظام المأزوم .

١٦ مقاومة الإحباط :

أصاب حرق القاهرة . وما نجم عنه من شيوع الإرهاب ، جميع المناضلين بالإحباط ، لم يبق إلا اليسار المتحصن بالسرية يرفع راية المقاومة ، وكانت صور المقاومة تتلخص فى التنديد بالمؤامرات والتواطؤ والخيانة من خلال المطبوعات السرية وشعارات الحائط .. وكان الهدف من تلك المقاومة هو التوعية بالشرح والتوضيح لابعاد تلك المخططات الرامية إلى اجهاض ثورة الشعب ، والقضاء على كل آماله ، وكانت المقاومة ترمى إلى محاولة الاستئناف الفعال للنضالات المسلحة من جديد ..

وكان المدرس الشاب واحدا من أفراد تلك المقاومة .. لم تمنعه وظيفته ، ولا انتسابه للمعهد العالى للمعلمين من أن يقوم بواجبه الوطنى لحظة واحدة ، فهو لا يعطى نفسه أى قسط من الراحة ، ولا يجنح إلى التسويف فى أى عمل تستوجبه مهنته أو دراسته أو نضاله .. وهكذا كان يفعل رفاقه الأبطال الذين كانوا يخوضون معركة المقاومة ضد أشرس القوى ، وفى ظل أسوأ الظروف .

وكثيرا ما كانوا يتناصحون فى داخل الاجتماعات السرية بضرورة ضرب المثل فى الصلابة ، والمقدرة على الاستمرار مهما تكن التضحيات .. وكانوا يستلهمون تراث المقاومة فى ظل ابشع ظروف الإرهاب ضد النازية أو الفاشية . وكان اليقين الأول عندهم أن حكم الإرهاب لن يبقى لأنه ضد أرادة الجماهير التى لا تقهر .

وفى فترة المقاومة هذه تم له اللقاء مع السكرتير العام للحزب الشيوعى المصرى ، ورأى فيه صورة عظيمة للجدية والإصرار ، والحزم ، والتفاؤل .. وازداد بعد هذا اللقاء أمله فى نجاح المقاومة ، ودحْر سلطات الإرهاب .

فهو فى حياته الطويلة السابقة قد تعلم أن المقاومة تبدأ بمجموعة قليلة من المخلصين . ثم يتسع مداها باتساع إلتزامها بقضايا الجماهير . وقدرتها على التعبير عن مطالبها الحقيقية الملحة .. وليس هناك اليوم ما هو أشد إلحاحا على الجماهير من طلب الحرية بأوسع معانيها ..

وهكذا تضاعف نشاطه . وازداد حرصه على الالتحام بالجماهير . يخوض إلى طلائعها الأوحال فى جوف الليل ، ويعقد الاجتماعات فى بعض الأماكن المهجورة ، ولا يبالى بصحته ولا بنوع طعامه أوشرابه . ثم يعود فى كل ليلة خائر القوى لكى ينام نومة المقتول

١٧ إلى السجن من جديد

وظل على هذا الحال حتى تم القبض عليه فى ليلة ١٥ / ٣ / ١٩٥١ .. وكان معه زميلان أحدهما من القاهرة والآخر من الإسكندرية . وعندما اقتاده البوليس السياسى إلى منزله كان متأكدا من أنهم لن يجدوا فى منزله شيئا يدينه .. ومن أجل ذلك فإنه كان حريصا على عدم التفريط فى كرامته . وكلما حاول أحد إهانته سارع بالرد .. وبالفعل لم يعثر لديه على شىء .. وعاد ليحقق معه ثم صدر قرار بإيداعه وزميليه سجن الحضرة بالإسكندرية .

لم يكن السجن شيئا جديدا عليه فقد سبق له النزول ضيفا عليه فى فبراير ١٩٤٦ . لكن الجديد فى هذه المرة هو تلك الأعداد الكبيرة من ضحايا المحاكمات العشوائية التى كان يضطلع بها قاض همام هو « حسين طنطاوى » .

كان هؤلاء الضحايا مسلسلين فى سلاسل الحديد ، ومعظمهم من جنود بلوكات النظام . وكانوا فى انتظار ترحيلهم إلى الليمانات الكبرى لكى يمضوا فترة العقوبة المحكوم بها على كل منهم . وكان القاضى كريما فلم يحكم بأقل من خمس سنوات أشغالا شاقة ، وزاد فى كرمه مع البعض فحكم بالأشغال الشاقة لمدة خمسة عشر عاما ..

التقى بهؤلاء الجنود وتحدث إليهم مستوثقا من اشتراكهم فى حريق القاهرة ـ وعجب عندما بكى البعض منهم وهو يقسم أنه برىء .. بل وأنه كان فى موقع خدمته بعيدا جدا عن منطقة الحريق !!

وأخيرا عزى نفسه بأن هذه الأحكام وليدة الظروف الاستثنائية ، ولسوف تزول مع زوال تلك الظروف !!

كانت نظرة إدارة السجن إلى اليساريين مستقاة من نظرة البوليس السياسى إليهم .. ومن هنا تم أيداع كل منهم فى زنزانة انفرادية . ولم يسمح لهم بالالتقاء إلا وقت الفسحة المقررة لهم ... وعند أول لقاء اكتشف أن هناك آخرين سبقوه وزميليه إلى هذا السجن الرهيب . ولشد ما كانت دهشته عندما حاول التعرف على هؤلاء فلم يردوا عليه إلا واحدا منهم .. كانوا ينتمون إلى تنظيمات أخرى غير التنظيم الذى ينتمى هو إليه ، وكان بعض هذه التنظيمات يفرض الصوم عن الكلام مع غير أعضائه اقتناعا بأن الجميع خونة !!

عجب جدا لهذا المسلك الشاذ .. وحاول التحدث مع أى منهم عشرات من المرات ولكنه لم يوفق !! ووضع ذلك الموقف فى رأسه علامة استفهام كبرى حول هذا اللوغارتم الذى لا يمكن حله . إنسان مثقف عاقل . ضحى بنفسه دفاعا عن وطنه ويؤمن بأن الصوم عن الكلام وسيلة لإقناع الآخرين بضلال موقفهم !! أية قوة شريرة أقنعته بهذا الاعتقاد !! ؟ وظلت علامة الاستفهام معلقة إلى أن أجابت عنها التطورات فيما بعد .

كان الأفق مظلما بالنسبة للجميع .. فالإجراءات القضائية العادية مستحيلة فى ظل الأحكام العرفية والأمل فى الإفراج فى حكم العدم .. وكان على الجميع أن يحاربوا اليأس بالقراءات والمناقشات . والمتابعات الجادة للأحداث الجارية فى البلاد .

أما هو فقد كانت له ظروفه الخاصة . إنه طالب بمعهد التربية ، وعليه أن يستعد للإمتحان الذى اقترب موعده .. ووفرت له إدارة السجن ظروف الاتصال بالمعهد من أجل عمل الإجراءات الكفيلة بدخول الامتحان ـ وطلب المعهد بحثين علميين قام بتقديمهما ، ومن ثم سمح له بدخول الامتحان .

كان يذهب مخفورا بحراسة مضاعفة ، ويجلس فى داخل لجنة الامتحان محاطا بتلك الحراسة . ولا يفك الحديد من يديه إلا لحظة الكتابة !!

لم يكن الأمر مألوفا لدى الطلاب والطالبات فى اليوم الأول ، ولكنهم ألفوه واعتادوه بعد ذلك . وكانوا فى كل يوم من أيام الامتحان يغمرونه بالهدايا . ثم يسلمونه المذكرات والكتب اللازمة لامتحان اليوم التالى . ولحسن حظه فإن الامتحانات كانت على نظام الأيام غير المتوالية ، الأمر الذى كان يسمح له بالمذاكرة والاطلاع .

وهكذا مضى الامتحان الذى كان بمثابة استرواح من حياة السجن الكئيبة ، وعاد إلى الزنزانة التى تعود عليها

وتعودت عليه . واخذ يتذكر المشاعر الطيبة التى غمره بها زملاؤه وزميلاته وأساتذته . بل وحتى الضباط الذين كانوا يتولون حراسته وكان كلما أمعن فى التذكر استراحت نفسه إلى أن أحدا لا يعاديه غير السلطات ، أما أبناء الشعب الطيبون فإنهم يكنون له كل ألوان الاحترام وقد وفروا له كل ألوان المساعدة فى حب وحنان ..

والمهم أنه بعد بضعة أسابيع قليلة ظهرت نتيجة الامتحان ، وأبلغه مدير السجن بنجاحه فى الدبلوم وتهانيه وتهانى مدير المعهد وكان من أثر ذلك أنه اصطنع لنفسه شيئا من البهجة التى شاركه فيها زملاؤه السجناء .

وكان آنذاك مرتبطا بعروس تنتظره خلف الأسوار ، فاتصل بوالدها الذى هو عمه وطلب إليه أن يزف خبر النجاح لعروسه .

وتكيف بعد ذلك مع جدران الزنزانة الخرساء .. إنها تحتويه ، وتحتوى سريرا ، وكرسيا ، ومنضدة ومرآة . وإلى جوار ذلك « جردل » مغطى للاستعمال عند اللزوم . وكان فى بابها خصاص ينظر منه الحارس كلما أراد الاطمئنان على السجين ، وكثيرا ما كان يضجر بالوحدة فيفزع إلى هذا الخصاص ينظر منه إلى السجناء غير السياسيين ، وكان من بين هؤلاء السجناء « سعد اسكندر » المعروف بسفاح كرموز لقد كان فى ملابس المحكوم عليهم بالإعدام ومقيما فى زنزانة مكشوفة ، ويتمتع بحق الفسحة بعد أو قبل جميع المسجونين ..

رآه مرة وهو بباب زنزانته فاستوقفه ، وطلب منه إحضار سيجارة له فأحضرها .. وطلب سعد من الحارس أن يسمح له بالحديث إليه ثم سأله عن اسمه وعمله وتهمته فلما عرف « السفاح » أن التهمة هى الشيوعية أفضى إليه بظروفه التى أودت به إلى حبا المشنقة واستدر عطفه فى وداعة وهدوء لكى يكرر الحديث معه كلما استطاع ذلك .. وبالفعل دار الحديث مع هذا السفاح أكثر من مرة وكان يصر على أنه برىء وأن محكمة النقض سوف تحكم ببراءته ، فكل ما نسب إليه من جرائم لم يقترفها ، وانما لفقها له الفاشلون فى العثور على المجرم الحقيقى ، ومحاميه قد عثر على أدلة البراءة ورفعها إلى المقامات العليا !! وكان متأكدا من أنه سيفرج عنه حتى ولو دخل غرفة الإعدام !!

وخلال تلك الفترة كان المدرس الشاب يوفر من طعامه الذى كان يستورد من أحسن مطاعم المدينة لكى يقدمه لهذا السفاح الذى ينتظر تنفيذ الاعدام . وكان فيما بينه وبين نفسه يقول إن جلاديه أنفسهم يعطفون عليه ، ويقدمون له كل ما يريد فهل أكون أنا أقل إنسانية منهم ؟

١٨ - إرهاصات الانتصار

وعلى الرغم من رتابة الحياة الراكدة فى الزنازين ، فقد كانت زلازل الثورات التى اشتعلت فى المستعمرات التقليدية منذ عام ١٩٤٥ تعكس نفسها على الأحداث التى تصورها الصحف المصرية ، وعلى الرغم من فداحة الإرهاب المفروض فى مصر آنذاك فقد كانت الكتابات الداعية إلى التحرر تجد سبيلها إلى أنهار الجرائد الحزبية والحكومية

والتفت هو يوما إلى هذه الحقيقة فتشبث بها . وجعل منها موضوعا لمحاضرة ألقاها على زملائه خلال فرصة تحايلوا على إتاحتها لهم . وكان أهم ما جاء فيها هو أنه بعد نهاية الحرب العالمية الثانية توجه العالم الذى أنهكته تلك الحرب إلى بناء السلام . ومن الواضح أن السلام الدائم المستتب لا يمكن تحقيقه والناس فى كل مكان لم يتمتعوا بالمساواة فى الحرية .. ولعله ليس صدفة أن يقول ميثاق الأمم المتحدة الذى أعلن فى نفس العام الذى انتهت فيه تلك الحرب أن من أغراض الأمم المتحدة « **تطوير العلاقات الودية بين الأمم على أساس احترام المبدأ الذى يقضى بالمساواة فى الحقوق ، وتقرير المصير للشعوب** » .

وجاء فى المحاضرة انه يذكر أن نصف عدد سكان العالم فى عام ١٩٤٥ كان يعيش فى أقاليم لم تصبح دولا مستقلة ذات سيادة الأمر الذى انعكس على ميثاق الأمم المتحدة الذى خصص ثلاثة من فصوله للحديث عن الأقاليم المستعمرة

وبالنظر إلى هذه الحقيقة فإن النضال ضد الاستعمار وقد بدأ استئناف معاركه منذ نهاية الحرب لن يخمد حتى تتم تصفية الاستعمار تصفية نهائية . وعرج بعد ذلك على وطأة الإرهاب التى يعانى منها المصريون فذكر أنها دليل ضعف الإستعمار والنظام المستند إليه . واشار إلى أن هذه الوطأة رغم ثقلها لم تفلح فى تثبيت دعائم النظام المتزعزعة ، ومن أجل ذلك تتعاقب الحكومات المختلفة فى وقت قصير . كما أنها لم تفلح فى القضاء على الصوت الحر بدليل أن المقاومة مُشْتعرة اللهيب .. وكل ذلك يعتبر من إرهاصات الانتصار . ليس فى مصر وحدها . وإنما فى كل البلاد والأقاليم المستعمرة .

قدم المدرس الشاب تلك المحاضرة فى فناء السجن حيث كان وزملاؤه يستمتعون بضوء الشمس جالسين على الأرض ... ولم تتم مناقشتها إلا فى ايام تالية كانوا ينجحون فيها فى تحقيق تهيئة للجلوس معا .

والمهم أن جميع زملائه قد ايدوا الفكرة ، ودعموها بما كان يتيسر لهم من معلومات ، ورأوا أن تلخيصا وافيا لتلك المناقشات ينبغى نقله إلى الزملاء فى « خارج السجن » .. وعكف هو على محاولة التلخيص .. ولكن كيف ؟ إن عمليات التفتيش اليومية فى الصباح والمساء لا تتيح فرصة الاحتفاظ بالقلم والورقة !! فإذا أمكن الحصـول على الورقة والقلم بالمغافلة .. فكيف يمكن تأمينهما لحين الانتهاء من تلك المهمة الصعبة !!

أخيرا : وجد حلا تمثل فى الاحتفاظ برصاصة القلم دون غلافها . وباستخدام دفاتر « البافرة » الخاصة بالسجاير .. أما الرصاصة فكان يلقيها على الأسفلت الأسود فى أرضية الزنزانة . وأما ورق « البافرة » فكان يضعه فى علبة « الدخان » ولم يتنبه أحد لتلك الحيلة .. وكان كلما فرغ من صفحات كتبها غلفها بغلاف من السلوفان النظيف . ودسها فى قلب الأطعمة التى كانت تتراكم لديه ..

وهكذا تهيأت له فرصة كتابة هذا التلخيص . وعرضه على الزمـلاء لإقراره . ثم بـدأت المتاعب فى كيفيـة الحصول على طريق مأمون لتوصيله ـ وأخيرا عثروا على هذا الطريق . ولكن قبل أن يتم استخدامه جاءت الأخبار التى اهتزت لها كل أسلاك البرق فى شتى أنحاء العالم .

الفصل الثانى عشر

انفجار الثـــورة

١ - الخبر المثير :

اصبـح الصباح ، وانفتحت الزنـازين كالمعتـاد فذهب النـزلاء إلى دورة المياه ، ثم عـادوا يتسلمون اغـذيتهم ، ويتناولونها .. وبعد ذلك نزل الشيوعيون السبعة إلى فناء السجن لقضاء فسحتهم وفى هذه الاثناء طلب من الضابط المختص عرضه على مدير إدارة السجن ، وكان فى يده طلب مكتوب تناوله الضابط وقرأه فإذا هو موجه إلى مدير معهد التربية العالى للمعلمين بالاسكندرية ، يرجوه فيه أن يوافق على إتاحة فرصة مع بدء الدراسة فى المدارس لكى يتم امتحانه فى التربية العملية استكمالا لنجاحه فى الدبلوم ، وخوفا من أن يضيع عليه عام دراسى كامل بسبب عدم تمكينه من هذا الامتحان !!

اقتنع الضابط وأمر بعرضه على سعادة مدير إدارة السجن . وعندما دخل عليه بادره قائلا : أرجو الموافقة على إرسال طلبى هذا إلى المعهد .. وقدم الطلب .

لم يرد عليه المدير ولكنه ابتسم ، وزالت جهامة وجهه التى تفرضـها طبيعة مهنته ، ثم قال : يحسن أن تنتظر فربما تذهب إلى المعهد بنفسك !!

تعجب من هذا الكلام وخطر فى باله أن قرار بالإفراج عنه وعن زميليه قد اصدرته النيابة ، ولكن كيف ؟ ولحظ المدير أنه غير مصدق فقال : لقد زحف الجيش بقيادة اللواء محمد نجيب ، وحاصر الإذاعة ، وصدرت بيانات تشير إلى تغيير النظام والحكم فى مصر ..

لم يصدق السجين أذنيه من شدة الفرح .. وقال للمدير فى امتنان : ربنا يبشرك بالخير - ثم عاد إلى زملائه فأخبرهم بما سمع ، وتملكهم العجب للحظة . وسألوا بعض الحراس فأكدوا لهم الخبر . وغمرهم الشوق إلى الإطلاع على تفاصيل ما حدث ، فأرسلوا فى طلب شراء إحدى الجرائد ..

وسمع المدرس الشاب فى هذا اليوم ما ادهشه - فحراس السجن الفقراء جرى على ألسنة بعضهم أنه لابد من إصلاح حالهم فى هذا العهد الجديد . !! والسجناء قال أكثرهم .. « ربنا ينصر العهد الجديد علشان ينصفونا » وحتى السفاح سعد اسكندر قال لابد من محاكمته من جديد لكى تتم براءته .. وزميلاه اللذان جاءا معه إلى السجن داعبهما الأمل فى الافراج عنهما .. وهكذا الحدث الكبير الذى يتعلق به أمل الملايين بدأ يفرض نفسه حتى من قبل أن تتضح صورته ..

ولما حصلوا على جريدة ، وطالعوا الأخبار فيها تملكتهم الفرحة الغامرة ، ثم أخذوا يتداولون الآراء فيما بينهم عن الموقف الذى يجب أن يتخذوه . وبعد قليل من المناقشة اجمعوا على أن تأييد الجيش فى موقفه هو الواجب المفروض عليهم الآن . ذلك لأن الجيش هو أحد قطاعات الشعب ، وتحركه فى اتجاه ضرب النظام الملكى يعنى حاجته إلى التفاف كل الشعب من حوله ..

وسارع المدرس الشاب إلى كتابة برقية تأييد أرسلها باسم اللواء محمد نجيب قائد حركة الجيش ، كتبها استنادا إلى هذا التحليل السريع السابق دون أن يعرف رأى الحزب الذى هو عضو فيه .

وفى صباح اليوم التالى جاءت الجرائد وقد انعكست على صفحاتها فرحة الجماهير العريضة ، وتطلعاتها الآملة فى المستقبل الذى طالما تحرقت شوقا إليه . ودارت المناقشات الجادة حول المغزى العميق لهذه الحركة التى تحفظت على عمد النظام الملكى ، والتى تتجه إلى خلع الملك . وظلت المناقشات تتجدد بين هذا العدد القليل من اليساريين حتى جاء يـوم ٢٦ يوليو ١٩٥٢ وتنازل الملك عن العرش لولى عهده لحمد فؤاد . واندلعت مظاهرات التأييد الشعبى الكـاسح لهـذا الإجراء .. فتأكد صدق التحليل الذى استند إليه التأييد المبرق به من السجن .. ثم جاء قرار إلغاء الألقاب مع قرار نيابة الإسكندرية الإفراج عن الثلاثى الذى قبض عليه فى مارس ، بعد دفع كفالة عشرة جنيهات عن كل منهم .

٢ ـ تلاطم الأحداث :

خرج من السجن إلى رحاب القرية التى ولد فيها ، حيث دفء الأهل ، ومتعة اللقاء بالأحباب ، وهناك رأى مستقبليه يهنئونه على أنه واحد ممن صنعوا هذه الثورة العظيمة ، ويظهرون من الشماتة بالعهد الملكى ما لا تخفى أسبابه .. فالقرى المجاورة كانت فى معظمها مملوكة للملك والأمراء والباشوات الإقطاعيين ، وكانت كل المظالم يتم إرتكابها وليس هناك من شفيع !!

عاد بعد ذلك إلى الاسكندرية وفى رأسه أن قادة حركة الجيش هم بالضرورة بين هؤلاء الضباط الذين كانت لهم جهود رائعة فى حركة الفدائيين قبل حريق القاهرة . ومن غير المعقول أن يكون تصاعد التذمر فى صفوف الجيش منذ نهاية ١٩٥١ بعيدا عن تأثرهم . لقد قرأ منشورات الضباط الاحرار التى رحب بها وأيدها الحزب الشيوعى المصرى منـذ شهور بعيدة .. وهو الآن يشعر بأنهم من زملاء الكفاح الذى اشترك هو فيه مع الآلاف المؤلفة من أبناء الشعب .. إنه لا ينسى المواقف المشرفة للكثيرين منهم حينما وقعت انتخابات نادى الضباط . بل إنه لا ينسى التعاطف الذى أبداه الجيش نحو الشعب فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ حيث رفض إطلاق الرصاص على المتظاهرين ، وتعرض الكثير من ابنائه للمحاكمات .

وفى اليوم التالى لوصوله إلى الاسكندرية . علم أن الموقف الرسمى للحزب هو التنديد بحركة الجيش على أنها انقلاب فاشىٌ دبره المستعمرون من أجل تصفية حركة الشعب ، وإعداد البلاد للمشاريع الحربية التى يريدها العدوانيون . وعندما استفسر عن أسباب خلع الملك الذى كان فى استطاعته أن يقوم بنفس المهمة أجيب بأن الملك أصبح ورقة مكشوفة . ومن أجل ذلك تمت التضحية به لكى يلعب الدور غير المكشوفين .

وكانت وجهة النظر هذه يسندها عدد من القرائن .. فالانقلابات العسكرية فى البلدان المستعمرة كانت لعبة أمريكية مشهورة . والانقلاب العسكرى المصرى صاحبه نشاط أمريكى ملحوظ قام به السفير الأمريكى « جيفرسون كافرى » وبخاصة عند وداع الملك يوم ٢٦ يوليو . بالإضافة إلى الترحيبات الرسمية والصحفية فى الولايات المتحدة الأمريكية بما كانوا يسمونه « العهد الجديد » .

على أن بعض الأحداث التى وقعت فى مصر كانت من جملة القرائن المرجحة لهذه النظرة . فالمحاكمات الباطشة التى راح ضحيتها مصطفى خميس ومحمد حسن البقرى وآخرون من عمال كفر الدوار . والعفو السياسى الذى أصدرته قيادة الانقلاب لكل الناس إلا الشيوعيين ، والاستمرار على نهج المفاوضات والمباحثات مع الإنجليز . كل ذلك كان يلقى بظلاله اثناء المناقشات الأولى لموقف الحزب من « العهد الجديد » .

أما ما عدا ذلك من إجراءات ثورية كمحاكمة عدلى لملوم فى قضية الثورة الاقطاعية المضادة ، وإصدار قوانين الإصلاح الزراعى وتحديد الملكية الزراعية بمائتى فدان الخ فإنها كانت تفسر على أنها من إجراءات الحماية للنظام ، والتنفيس عن صدور الفلاحين الضائعة !!

وحتى عندما تفاهم الأمريكان والانجليز على ما كان يسمى « منظمة الدفاع للشرق الأوسط » ورفضه مجلس قيادة

الثورة فى ديسمبر ١٩٥٢ فإن ذلك لم يفسر إلا بأنه موقف من مواقف التضليل الفاشى !!

وتحت تأثير هذه النظرة التى اطلع على تفصيلاتها من خلال التحليلات والبيانات والمنشورات التى صدرت عن الحزب ، واقتناعا بأن استثناء الشيوعين من العفو يعكس رغبة استعمارية أمريكية . ورغبة فى الانتصار لكل من وقع عليهم القمع الذى لم يميز بين عدو الثورة وصديقها ؛ فإنه أخذ يستأنف نشاطه مع حزبه ، معاديا لتلك القيادة الجديدة ، وساعيا لإسقاطها بمختلف الوسائل .

واحتدمت المواقف المتضادة بين الشيوعيين والحكومة . فكشرت الحكومة عن أنيابها . ووجهت عددا من الضربات القاسية للشيوعيين الذين تعاظم نشاطهم من أجل مقاومة الإرهاب . وكان تزايد الإرهاب من قبل الحكومة تأكيدا لنظرة الحزب الذى سبق الجميع إلى نعتها بأنها حكومة إرهاب وتضليل . من أجل ذلك كانت الضربات لا توقف نشاط الحزب أو نموه .. وانتشر للحزب نفوذ قوى فى بعض التكتلات العمالية . وبين أعداد كبيرة من الطلاب والمثقفين . وكان ذلك فى حد ذاته يضاعف من سعار السلطة إلى مزيد من الإرهاب والضربات .

وفى سنة ١٩٥٣ قدمت لمحكمة عسكرية عرفت بمحكمة « الدجوى » أول قضية من قضايا الحزب الشيوعى المصرى . وقد حضر للشهادة فى هذه القضية فضيلة المفتى الذى كان قد سبق له الإفتاء فى حرمة البيبسى كولا فاستقبله الشيوعيون الماثلون أمام المحكمة بعاصفة من السخرية التى نشرتها الصحف آنذاك . والمهم أن رئيس المحكمة أمر بالقبض على المتهمين الذين لم يمثلوا بين يدى المحكمة .. وكان المدرس الشاب واحدا منهم . ومن حسن حظه أنه لم يكن بالإسكندرية فى هذا الوقت ، الأمر الذى لم يمكن الشرطة من القبض عليه تنفيذا لأمر المحكمة .

٢ ـ سنوات الهرب :

علم بقرار محكمة « الدجوى » من الصحف ، وكان قد حضر إليه فى قريته من أبلغه بأن رجال الأمن قد داهموا منزله بالإسكندرية . فقام من فوره وودع والديه ، ثم مضى إلى المجهول !! ركب إلى حاضرة إقليم البحيرة . وقرر أن يذهب إلى بيت صديق قديم لا علاقة له بالنشاط السياسى . وبينما هو فى طريقه إلى هذا الصديق لقيه أحد أقربائه الراغبين فى السفر إلى حج بيت الله الحرام .. وأصر هذا الحاج خالى الذهن عما هو فيه على أن يذهب معه غدا إلى مبنى وزارة الداخلية من أجل تعديل مواعيد سفر بعض السيدات بحيث يصبحن من مسئوليته فى رحلة الحج .

وحاول الهارب من أمر القبض عليه أن يتملص من هذه المأمورية الخطرة ، ولكن القريب الحاج لم يمكنه من ذلك . ومضى معه من غير أن يشعره بأن هناك أمراً بالقبض عليه ، وغشى معه فى اليوم التالى عددا من المكاتب فى قلب وزارة الداخلية ، وكان أثناء تجواله بين الممرات والمكاتب ممتلىء القلب بالسخرية من هذا النظام الذى يتعقبه ولا يستطيع أن يراه وهو ماثل بين يديه ، وفى عقر داره .

وأمضى مع قريبه ليلة سعيدة فى رحاب حى « الحسين » ، حتى إذا أصبح الصباح قفلا راجعين إلى أهليهما فى أعماق إحدى قرى البحيرة ـ وكان له فى تلك القرية منزل خطيبته فعرج عليه . وبين مظاهر الحفاوة والترحيب به كان شارد الذهن مع تلك المغامرة التى وقعت له مع الحاج .. فلقد نجحت المغامرة ونجا من الوقوع فى قبضة المسئولين عن الأمن .. وهكذا تصور أنه من الممكن أن يعيش الهاربون فى مأمن ما لم يرشد عليهم أحد .

ومن مأمنه فى منزل أهل خطيبته تم له التحرك والالتقاء ببعض المسئولين فى الحزب ، وبعد أيام قليلة تلقى موعدا للانتقال إلى منطقة حزبية تؤمنه : ومنذ ذلك اليوم أصبح هاربا يعيش فى حماية الرفاق والأصدقاء !

وقد وقعت له بعض المفارقات فى اليوم الأول لهربه . فقد تلقاه عند وصوله للقاهرة زميل مجهول له ، وانتقل به هذا الزميل إلى منزل كان مقررا أن يأوى إليه ريثما يتم تدبير أمره .. وكان ذلك المنزل أيضا مجهولا له ، وعندما بلغ به الزميل

المجهول هذا البيت المجهول تقدم إلى الباب وطرقه ففتح الباب صديق معروف له منذ سنوات طوال . وفوجىء الزميل المجهول بأنهما يتعانقان في شوق ولهفة .. فضحك وتوارى عن اعينهما لكيلا يسمع من حوارهما شيئا يهدد « الأمان » !!

وبقى في هذا المنزل عددا من الايام ثم تلقى تكليفا بان ينتقل إلى مجال نضاله في قلب الريف من أعماق الصعيد ، وهناك في تلك المنطقة النائية نزل ضيفا على أسرة مسيحية يوما أو يومين ، ثم دبر له بعض الزملاء مكانا يعيش فيه ..

كان ذلك في شهر يوليو ١٩٥٣ .. وكان عليه أن يبنى تنظيما في هذه المنطقة حيث توجد نواة من بعض العناصر التى تعرف القراءة والكتابة في الريف .. إلى جانب بعض الطلاب والموظفين . وبعد جولة أو جولتين تبين له من هو الأفضل من هؤلاء فشكل معهم هيئة قيادة محلية .. وبدأ يدرس معهم ويدعوهم إلى تجنيد من يستطيعون ممن تتوفر فيهم شروط الثورية والاخلاص والشرف .. ونظرا لأن الإرهاب هو المحرض الحقيقى على المقاومة ، فإنه وهيئة القيادة المحلية أخذوا يوسعون من دوائر نشاطهم ، ولم يجدوا صُعُوبة في دعوة الناس للمقاومة .

وخلال شهور معدودة كان هناك عدد كبير من الملتزمين بخط الحزب والعاملين فيه . وواكب هذه الصورة الجديدة للعمل السرى في الريف صدور جريدة خاصة تحمل اسم « الفلاح » وكانت هذه الجريدة في البداية يُحررها أبناء تلك المنطقة من قلب الريف ، ثم بدأ يشترك في تحريرها ابناء بعض المناطق الأخرى في الوجه البحرى .

ورأت قيادة الحزب أن توكل إليه أمر المناطق الريفية في مصر ، فاتسع النطاق الخاص بنشاطه ، وأصبح عليه أن يمارس العمل الحزبى في أكثر من منطقة ريفية ..

وبالرغم من الصعوبات الكبيرة التى لقيها وهو هارب فإنه لم تفتر همته ، ولم تلن عزيمته ، وساعده شبابه على توسيع قواعد النضال الحزبى في الريف ، فتكونت اللجان العديدة في المناطق العديدة ، وراحت المنشورات والنشرات والصحف الحزبية تغمر وجه المساحات الواسعة من أرض الريف .. وانتاب الذعر دوائر الأمن التى اتضح أنها فاشلة في محاصرة هذا النشاط الكبير .. فالحزب الشيوعي المصرى لم يبق محصورا في القاهرة والاسكندرية ، وإنما امتد نشاطه إلى الاقاليم المختلفة .. الأمر الذى فرض على قمة السلطة أن تعترف بوجود المنظمات الشيوعية . وقوتها التنظيمية الجيدة . واضطرتها الظروف الجديدة إلى مناقشة الآراء والافكار التى ترد في مطبوعات الحزب .. فإذا قال الحزب عن الجلاء الذى زعمت السلطة تحقيقه إنه جلاء مزيف سارعت الدولة إلى كتابة اللافتات الضخمة التى تقول : إن الجلاء الذى حققناه جلاء حقيقى . وبلغ الامر بالدولة حد طبع « راية الشعب » بنفس صورتها المألوفة لقرائها ، وقام أتباع الحكومة بتوزيعها على الجماهير حاملة شعار المطرقة والمنجل ، ومفرغة من مضمونها الثورى المعروف ، لكى توهم الجماهير بأن الحزب الشيوعى المصرى قد انقلب على سياسته ، وأضحى يؤيد الحكومة . الأمر الذى جعل الحزب يحذر الجماهير من الانخداع بتلك الأساليب المزيفة . ويدعو إلى مضاعفة النضال في سبيل دحرها .

وهكذا صار المناضل الهارب ورفاقه الأبطال يشكلون قـوة ينتشر تأثيـرها عـلى الرغم من قلة عددهم ، وضعف إمكاناتهم ، ومطاردة السلطات لهم وانقلبت مطبوعاتهم السرية إلى « مطبوعات علنية » مزورة تعترف السلطة بأنها أكثر رواجا عند الجماهير من كل صحف الحكومة ووسائل إعلامها !!

لكن المناضل الهارب ـ وبالرغم من كل ذلك ـ لم يكن راضيا عن نفسه ولا عن الأساليب التى يمارس بها النضال .. ذلك لانه كان يحيا حياة الهارب الذى لا يستقر به المقام في أى مكان إلا ريثما يجتمع مع لجنة أو مجموعة ، يتدارسون القرارات والنشرات ، ويناقشون الظروف والملابسات ، ويتخذون في ضوء ذلك ما يشاءون من التوجيهات ـ ثم بعد ذلك ينطلق إلى مكان آخر بينه وبين المكان الأول سفر يوم أو بعض يوم "

وهكذا كانت حياته مستغرقة في وسائل المواصلات ترافقه حقيبة يضع فيها بعض ملابسه وأوراقه ، وكثيرا ما كان ينام في الحقول ، أو في الأماكن المهجورة حتى يكون بعيدا عن أيدى السلطات " وكثيرا ما كان يشعر بالمطاردة ، فيغير

مساره ، أو مركبته ، أو ملابسه ، حتى يطمئن إلى انقطاع المطاردة !! وفي عديد من الأحايين كان يحتمي برصيد الأصدقاء الذين اكتسب مودتهم منذ أيام الدراسة . وكانوا دائما يقدرون ظروفه ويمنحونه من كل ما يملكون لكي يحموه ، ويحافظوا عليه . وبعض هؤلاء كانوا من الإخوان المسلمين أو بعض الجماعات السياسية الأخرى .... وكل ذلك كان يضفي على حياته لونا من الضيق . فالناس كل الناس لهم أماكن استقرارهم وراحتهم إلا هو .. والناس كل الناس يتمتعون بالأمن النسبي بينما هو محروم منه .. ولقد دفعته هذه المعاناة دفعا إلى التحلل من خطبيته السابقة على أيام الهرب .. وكان يعزي نفسه بأن الزواج سوف يأتي في يوم من الأيام . أما الآن فإن عليه أن يظل مشغولا بهموم الكفاح وحدها .

وكانت هموم الكفاح الملحة في نظره تتلخص في أمرين : تحريك أوسع الجماهير في الريف ، ووقف الضربات المتلاحقة للحزب . ذلك لأن جريدة « الفلاح » الناجحة في مخاطبة عقول الفلاحين عن طريق قصر ابوابها على مشكلاتهم ، وآلامهم ، وأمانيهم سوف تظل مجرد ورقة ما لم تلتف حولها تنظيمات جماهيرية واسعة ، والتنظيمات الجماهيرية في الريف تتطلب الإقامة الدائمة لعدد من المناضلين في جزء منه على الأقل ، كما تتطلب التحرك العملي مع الجماهير إلى مواقع السلطات ، لكي تصبح هذه المواجهة قدوة ومثلا يحتذى به الآخرون

أما الضربات المتلاحقة للحزب فإنها كانت تحرمه من الكثيرين من أعضائه وقادته الأكفاء ، وتبعا لذلك فإن أعباء النضال تتضاعف ويثقل حملها على من لم يتم ضربهم بعد.

وكان المناضل الهارب يسعى جهده لكي يقيم للحزب قواعده الثابتة في قلب الريف ، كما كان يسعى جهده إلى تأمين نفسه ومن يعمل معهم . وتحصينهم ضد الضربات .. ومع هذا فإنه قد انشغل عن هذين المهمين الكبيرين بمحاولات ملء الفراغ الذي كان يتركه ضحايا الضربات . فإثر كل ضربة كانت تقع على الحزب كانت دوائر الأمن تتصور أنها هي الضربة القاضية ، ثم تفاجأ باستئناف النشاط ، ومضاعفته بأقوى مما كان .

٣ ـ مفارقات عجيبة :

وحفلت حياة المناضل الهارب في تلك الفترة بالعديد من المفارقات العجيبة . فعلى الرغم من أنه كان مطلوبا القبض عليه . وشتى أجهزة الدولة تتعقبه ، وعلى الرغم من أنه كان يستخدم العديد من الأسماء التنكرية في عمله السري الذي كان منقطعا له . وعلى الرغم من خطورة الالتقاء ـ ولو بالصدفة ـ مع أي من الأهل أو الأصدقاء أو المعارف القدامى . إلا أنه وهو الدائم التنقل بين أرجاء الأقاليم والحواضر المصرية المختلفة . كان لابد أن يجد نفسه في مواجهات مفاجئة مع بعض هؤلاء في كثير من الأحيان

وكانت تلك المواجهات المفاجئة تنطوي على صور من المآزق التي لا يسهل نسيانها . فكثير من عارفيه لم تكن لهم دراية بهربه . وكانوا حينما يرونه يتذكرون أيام الدراسة ، وعلاقات الزمالة القديمة ؛ فيقبلون عليه في شوق ولهفة . وينادونه باسمه الحقيقي الذي يعرفونه وفي مثل هذه الحالات كان ينكر انه صاحب هذا الاسم ويسارع إلى الفكاك من ذلك اللقاء قبل أن ينتبه أحد إليه . هذا إذا كان معه من يعرفه باسم آخر . أما إذا كان وحده فإنه كان يلوذ بمن يلقاه ، ويتقبل منه كل المجاملات المصرية الأصلية ، ويخترع له من الأسباب والعلل ما يبرر له وجوده في هذا المكان الذي التقيا فيه ، وغالبا ما كان يخفي تطورات حياته فيزعم أنه يعمل بوظيفة كذا في مكان كذا ويظل يراوغ ويمكر حتى يمر هذا الموقف بسلام .

لكن هناك من كانوا يعرفون أنه مطارد وهارب ومطلوب القبض عليه ، وهؤلاء كانت تختلف بهم المواقف في لحظة الالتقاء المفاجيء به . فبعضهم كان يرتبك ، ويضطرب وتبدو عليه آمارات الذعر الشديد . ذلك لأن المناضل الهارب في نظر هذا البعض كان من الشياطين المردة القادرين على الاختفاء ، وتخطي الحدود . ولم يكن خيال هذا

البعض يتسع إلى رؤيته فى الشكل المألوف للناس !! وعندئذٍ فإنه كان يضحك مستخفا بهذا الذعر الذى ليس له أى مبرر . وكان يقبل على هؤلاء المرتبكين فيطمئنهم ، ويطمئن منهم على الأهل والأصدقاء والمعارف . وقد يميل معهم إلى مقهى فيجلس وإياهم عليه لبعض الوقت . وقد يمضى إلى منزل أحدهم ليحظى بأكلةٍ شهية أو نومةٍ مريحة .

أما بعضهم الآخر فكان حينما يراه بالمفاجأة لا يذعر ولا يرتبك ولا يبدو عليه أى اضطراب . وإنما يتلطف بالقدوم عليه فى حذر ويقظة ، ثم يتحدث إليه بالهمس كأنما يخشى عليه ان ينكشف أمره ، أو تلحظه اعين الرقباء .

ومن هذا الصنف الأخير أحد أقربائه المستنيرين . رآه فى مركبة عامة وانتبه إليه فلم يقبل عليه إلا بعد أن خلا مقعد ملاصق لمقعده . وعندئذٍ سار هذا القريب المستنير إلى هذا المقعد واستقر فيه بهدوء .. ثم مالت رأسه ميلا خفيفا وهمس فى أذن المناضل الهارب : حمد الله على السلامة . قالها وهو يتعمد ألا يسمعها أحد غيره . ثم ظلا يتهامسان حتى بلغت المركبة منتهى مسيرتها فنزلا معا .. وبعد ان تأكد القريب المستنير من أنه ليس مشغولا ولا متبوعا من أجهزة الأمن أصر على استضافته ..

وكان المناضل الهارب فى تلك الليلة محتاجا إلى مكان يأوى إليه بعد أن طرق اكثر من باب ولم يجد أحدا يستقبله .. من أجل ذلك فإنه لم يمانع فى تلك الاستضافة بشرط ألا يعلم أهل البيت من هو الضيف

وهناك فى منزل المضيف ، وجد غرفة مخصصة لنومه ، وخوانا عليه من أصناف الطعام ماهو محروم منه منذ زمن طويل . وبعد أن تعشيا وجلسا يتحدثان فاجاه المضيف بما ليس فى الحسبان :

زعم له أن إحدى القيادات الهامة فى مجلس قيادة الثورة أبدت استعدادها لإلغاء محاكمته فى القضية التى كانت السبب المباشر فى هربه ، بشرط أن يعدل عن الاستمرار فى صفوف اليسار .. وأضاف المضيف بعد ذلك : أن تلك القيادة تعهدت بمنحه مركزا سياسيا ممتازا .. ثم أردف قائلا : ترى هل توافق ؟

عندئذٍ تفحصه المناضل الهارب بعينيه ثم أمطره بالتساؤلات العديدة عن تلك القيادة من هى ؟ وعن العلاقة التى جمعت المضيف عليها . وعن تناول هذا الموضوع مع تلك القيادة وكيفيته ، وعن نوعية العبارات التى أثير بها ذكر المناضل الهارب الخ . وبعد تلك التساؤلات ونحوها تأكد له أن الأمر جد لا هزل فيه ، وأنه من الممكن تحديد موعد للقاء تلك القيادة عن طريق الهاتف الآن !!

وهنا سرت القشعريرة فى كل بدنه . وأحس بأن الأرض تدور به وبالمكان الذى يجلسان فيه . وابتلعه الصمت لفترة غير قصيرة تصور فيها مضيفه أن يكون قد أصابه مكروه ، فنادى عليه بطلب إيقاظه .. وما إن أفاق من تلك الغاشية التى نزلت به حتى قال لمضيفه متلطفا : أرجو أن تعفينى حتى من مجرد الرد على هذا العرض المهين . فأنت تعرف أننى مقتنع تماما بما أنا عليه . وهيهات أن يصرفنى طلب الراحة عن شيء اقتنعت به !! ناهيك عن أننى لا أستطيع أن أخون ولو كان الثمن هو أعلى المناصب !!

قال ذلك وسكت . ومع سكوته بهت المضيف ولاذ لسانه بالصمت !! وظلا صامتين فترة غير قصيرة ثم أخيرا افترقا . ومضى المناضل الهارب إلى مكان نومه . لكنه لم ينم !! هذا الفراش الوثير كأنه الشوك . ورأسه تطن بعشرات الاحتمالات ، والخوف من المجهول يطارد خياله . إنه الآن فى حاجة إلى مكان آخر غير هذا المكان لكى ينسى ما حدث من مضيفه !!

نظر إلى ساعته فرآها تقترب من الثانية عشرة عند منتصف الليل .. وتذكر أن على مقربة من هذا المنزل الذى ينزل فيه كوخا صغيرا فى عزبة مجاورة كان يقصد إليه قبل أن يلقى بالمفاجأة مضيفه . وحدثته نفسه أن يذهب الآن إلى صديقه الفلاح الشاب الذى يسكن هذا الكوخ لكى يقضى الليل عنده . وما إن خطر هذا الخاطر فى نفسه حتى قفز من فراشه ، وكتب ورقة يعتذر فيها عن الخروج مبكرا لأمر هام لم يشأ معه إزعاج النائمين . وترك الورقة فى مكانه .

وتسلل إلى الباب الخارجى وانصرف بين نباح الكلاب وصياح الديكة .

وهناك فى الكوخ وجد صديقه الفلاح الشاب يخلى له سرير زوجيته الحديثة ، ويحتفى بمقدمه كأروع ما يكون الاحتفاء . ويصر على النوم إلى جواره لكى يكون فى خدمته إذا احتاج أى شىء .

وهدأت نفس المناضل الهارب ، فنام نوما عميقا لم يستيقظ منه إلا وشمس الضحا تضع يدها فوق رأسه المتعب المكدود من خلف شباك الكوخ .

استيقظ فألفى أمه قد أحنت ظهرها ومالت برأسها على وجهه وهى جالسة إلى جواره فوق السرير .

لم يصدق عينيه !! كيف أتت إلى هنا من قريتها البعيدة ياترى ؟ ومن الذى أعلمها بأمر وجودى فى هذا المكان ؟.. واكتشف بعد ذلك أن صديقه الفلاح الشاب هو الذى انفلت إليها بعد أن اطمأن إلى استغراقه فى النوم لكى يمكنها من أن تراه !!

وكان أعظم ما تحدثت به إليه الأم فى هذا اليوم : اياك أن تخون !! قالتها وهو يفترق عنها بينما الدموع تنهمر من عينيها غزيرة ساخنة .

٩ ـ مطاردات المتخبطين

وكانت تلك المواجهات المفاجئة تترك خلفها العديد من الهمس الخائف الحذر ؛ فكل واحد رآه فى مكان ما . كان يوشوش الآخرين عن رؤيته فى هذا المكان ، وكانت هذه الوشوشاة تسرى بين الناس مصحوبة بشتى المبالغات الشاذة عن الأوصاف والصور التى رئى عليها ، وكان فى بعض هذه المبالغات ما يثير الشوق أو الفزع . وقد ترد تلك المبالغات مثقلة ببعض الأقوال والأحاديث التى لم ينطق بها لسانه .

ومهما يكن من شىء فقد كانت تلك الوشوشات تنتشر وتسرى إلى أن تبلغ المسامع الحادة للسلطات ، وعند ذلك فإنها كانت تجد فى طلبه حيث حانت رؤيته لأى إنسان . همس بأنه رآه . ذلك لأن السلطات كانت تتوهم دائما أن كل مكان يراه الناس فيه لابد أن يكون محتويا على فروع للتنظيم السرى الذى يتبعه .. ومن ثم فإنها كانت ترصد الأرصاد فى عشرات الأماكن المتباعدة من غير طائل .

وأحيانا كانت السلطات التى تطارده تستدعى من يتحدثون عن الالتقاء به . فتستجوبهم وتطيل استجوابهم . وكثيرا ما كانت تهددهم بمختلف التهديدات ، وتطلب منهم الإبلاغ عنه فور رؤيته لكن المهم أنها لم تكن تصل إلى شىء يفيدها على الإطلاق .

وكانت السلطات تعتقد آنذاك أنه يتردد على أهله وأفراد عائلته . ومن ثم كانت تشن المداهمات على قريته التى ولد فيها بشكل دورى . وكانت أخبار تلك المداهمات الدورية تترامى إلى سمع المناضل الهارب فيطرب لها .. ذلك لأنها إن دلت على شىء فإنما تدل على أن المطاردات تتخبط ولا تعرف الطريق إليه .

على أن تلك المداهمات كانت تضفى جوا أسطوريا ليس على سكان قريته فحسب ، ولكن على جميع القرى المجاورة لها . فما إن تنتهى المداهمة حتى يأخذ الناس فى الحديث عن هذا المناضل الطائر الذى لا يمكن اصطياده . وكثيرا ما كانت تنعقد الجلسات الليلية للقرويين فتنساق على ألسنتهم عبارات الإعجاب بتلك القدرة الخارقة التى يتمتع بها ، وهذه الحيل الشيطانية التى تمكنه من الإفلات من أيدى الحكومة . لكن بعض الحاقدين على أقربائه لم يكونوا يطربون لهذا الإعجاب بل يتضايقون منه . وبعضهم كان يتجاسر فيبشر بأنه لابد من وقوعه فى قبضة السلطات إن عاجلا أو آجلا .. وعندئذ كان ينشب الخصام واللداد ، وتثور المعارك الظاهرة والخفية ، وتظل عقول الناس مشغولة بكل هذا الوقت طويلا .

ومن هنا كانت السلطات تتصل بخصوم أقربائه وتحرضهم على مساعدتها فى القبض عليه . غير أن ذلك لم يحدث أبدا .. ربما لأن أهل الريف يتخاصمون فى وضوح وينفرون بطبعتهم من أساليب الوشاية والغدر . أو لأن المناضل الهارب كان قد أكتسب من طول الممارسة خبرة جعلته يلتزم الحذر الدقيق فى كل تحركاته . فهو لا ينام فى مكان واحد ليلتين متواليتين . وهو عند الاجتماع مع زملائه لا يستقر فى مجلسه قبل أن يتأكد من وجود منفذ يستطيع اللجوء إليه لو داهمت السلطات مكان الاجتماع . وهو فى ليالى الصيف يفضل المبيت فى الحقول على المبيت فى المنازل .. وكثيرا ما كان يتخذ قرارا بتغير أمكنة الاجتماعات فور انعقادها . وكان لا يعلم أحدا عن ساعة قدومه من هنا أو من هناك . كما كان يختار من المواصلات أبعدها عن ظنون المطاردين ومألوفهم فقد يركب النيل رغم وجود القطار . وقد يفضل استخدام الدواب فى المسافات القصيرة على السيارات ، وقد يختار المواصلات الذاهبة فى عكس الاتجاه الذى يريده إلى أن يطمئن فيمضى إلى حيث يريد .

ومهما يكن من شيء فإنه نجح فى جعل المطاردين يتخبطون بشأنه أشد أنواع التخبط . فبينما هم متأكدون من وجوده فى مصر عن طريق بعض المشاهدات التى تصل إليهم أخبارها . فإنهم لا يكادون يتلقون خبرا عن رؤيته هنا حتى يأتيهم خبر ثان برؤيته هناك . وما إن يحكموا خطتهم للقبض عليه حتى يفاجئوا بأنه غير موجود حيث تحروا ضبطه .

تأكد يوما من أنه مراقب ، وكان ذلك فى مكان عام بمدينة القاهرة . نصح من كان معه بالخروج من هذا المكان . وبقى بعض الوقت متشاغلا بقراءة بعض الصحف وعينه على من كان يراقبه . وبعد قليل قام إلى دورة المياه تاركا فى مكان جلوسه صحفه ، وعلبه سجايره ، وجراب منظاره وحقيبة أوراقه الصغيرة . وكوب الشاى الذى لم يشرب منه شرفة واحدة .. ومن باب جانبى عند دورة المياه خرج إلى الشارع . وتذكر أن له صديقا منصوفا يذهب للدرس عن شيخه فى مثل هذا اليوم . فيمم شطر هذا الشيخ .. وجلس فى حلقة الدرس مع المريدين حتى ما بعد منتصف الليل . وبعد انتهاء الدرس مضى مع صديقه إلى منزله . وفى مخيلته هؤلاء المراقبون الذين لا يزالون فى مركز المراقبة اطمئنانا إلى أنه قد ترك أغراضه وذهب إلى دورة المياه ، ولابد من أنه سوف يعود !!

٣ ـ محاولة اغتيال عبد الناصر :

وفى ٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤ تم الإتفاق بين الحكومتين المصرية والإنجليزية على مبادىء اتفاقية طالت المفاوضات من أجل الوصول إليها منذ أوائل مايو سنة ١٩٥٣ ـ كانت مصر طيلة الفترة السابقة تطالب بالجلاء غير المشروط . أما الآن فقد قبلت بالتزام بريطانيا تجاه تركيا .. وأصبح من حقها الرجوع إلى قواعد فى مصر لو حدث عدوان على تركيا .

هذا البند وبنود أخرى فى الاتفاقية أثارت اعتراضات واسعة من جموع الوطنيين فى مصر وكان على رأس المعترضين جماعة الإخوان المسلمين ، والتنظيمات الماركسية . أما القوى السياسية القديمة فإنها لم يظهر لها نشاط معارض يذكر .. ذلك لأن قرار حل الأحزاب الذى باشرته الثورة ضدها قد قضى على قدرتها . وأقعدها عن العمل السياسى الملحوظ .

وكان هدف المعترضين إسقاط هذه الاتفاقية قبل أن يتم التوقيع النهائى عليها ومن أجل ذلك أصدر الحزب الشيوعى المصرى كتيبا بعنوان « الجلاء المزيف » ناقش فيه بنود الاتفاقية وبين المخاطر التى تنطوى عليها سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، ودعا الشعب إلى إسقاطها . ووقف الإخوان المسلمون من جانبهم يندون بهذه الاتفاقية ، ويسعون إلى اسقاطها كذلك .. وحاول الطرفان إقامة جبهة بينهما لتحقيق الهدف المشترك .

لكن الإتفاقية لم تلبث أن حظيت بالتوقيع النهائى عليها فى أكتوبر سنة ١٩٥٤ . وبهذا التوقيع النهائى بدأ التحدى يفرض نفسه . فوقعت محاولة اغتيال جمال عبد الناصر بميدان المنشية فى الاسكندرية يوم ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٥٤

وبوقوع هذه المحاولة صدر قرار بتصفية الإخوان المسلمين الذين كانوا قد تم حل جماعتهم بقرار سابق فى ١٣ يناير سنة ١٩٥٤

وأدى القرار الصادر بتصفية الإخوان المسلمين إلى تداعيات مؤسفة وأليمة . فلقد هجم انصار الحكومة وأجهزتها هجمة شرسة مدفوعة بتأثير ما حدث فى المنشية ، ومستفيدة من غوغائية الإحباط لهبة مارس ١٩٥٤ تلك التى كانت تهتف بسقوط الحرية والديموقراطية .. وخلال أسابيع قليلة كان الاخوان المسلمون قد تم الزج بهم فى أعماق السجون بالآلاف ، وكان معظمهم قد دفع بهم إلى السجن الحربى لكى يمارس عليهم شر أنواع التعذيب .. ولقد شهد المناضل الهارب بعينه بعض عمليات التصفية فى شوارع المدن . وكان قد سبق تلك الأحداث الدامية تسديد ضربة قوية إلى الحزب الشيوعى المصرى . فأصبح عبء الدفاع عن ضحايا الإرهاب ثقيلا ، وبات تنظيم اللجان الخاصة بالدفاع عن المسجونين والمعتقلين فى أول الواجبات التى يدعو إليها الحزب .

وفى غمرة تلك الأحداث الرهيبة ، وعلى التحديد فى يوم ١٤ نوفمبر سنة ١٩٥٤ تمت تنحية اللواء محمد نجيب عن منصب الرياسة . وانفرد عبد الناصر بكل السلطة فى يده . وفى ظل تلك السلطة المطلقة بدأت محاكمات الإخوان المسلمين ، وشهدت محكمة الشعب التى كانت تقوم بالمحاكمات أعجب المناقشات . وتكشفت عشرات الحقائق . وانتهت تلك المحاكمات إلى اكبر مجموعة من أحكام الادانة فى تاريخ البلاد .

وعانى المناضل الهارب فى تلك الفترة من أثر الإرهاب فى كل مكان . فى المدن أو فى القرى . بين العمال أو المثقفين . حتى فى المركبات العامة كان هنالك نوع من الوجوم والخوف المرتسم على الوجوه .

وعادت إلى الأذهان صور الإرهاب الأسود . الذى كانت تمارسه حكومة إبراهيم عبد الهادى فى عهد الملك . وشاع الشك وعدم الثقة فى نفوس المصريين فكان الحديث عن أخبار التنكيل والتعذيب لا يدور إلا بالهمس !! ودأب الكثيرون من الوطنيين على التفكير فى الهرب إلى خارج الوطن .. وتمكن بعضهم بالفعل من تحقيق ذلك .

لكن صوت المعارضة الشجاعة ظل يرتفع من خلال المطبوعات السرية التى كان يصدرها الحزب الشيوعى المصرى ووقف الحزب بصلابة إلى جانب الدفاع الصادق عن قضايا الحرية . فندد بالأساليب البربرية التى كان يمارسها الجلادون فى السجن الحربى وغيره من السجون . ونظم العائلات والأسر للمطالبة بالإفراج عن أبنائها وعائليها . وساعد على إطلاع الرأى العام العالمى على حقائق الوضع فى مصر .

وظل الحزب ملتزما بخط المعاداة للسلطة الحاكمة باعتبارها سلطة عصابة فاشية مسخرة فى خدمة الاستعمار العالمى . وهدفها هو جر مصر إلى أتون الحرب العالمية الثالثة ، حتى بعد أن ذهب عبد الناصر إلى باندونج فى ابريل سنة ١٩٥٥ وأعلن عداءه للاستعمار وارتباطه بسياسة عدم الانحياز واعترافه بالصين الشعبية ، ومعارضته لحلف بغداد . وحتى بعد شراء السلاح من تشيكوسلوفاكيا ، والاتجاه إلى التفاوض للحصول على معونات اقتصادية سوفيتية ، فإن الحزب لم تلن قناته وظل على عدائه المطلق لتلك السلطة التى سلمت السودان للإنجليز ، وربطت مصر مع بريطانيا وتركيا فى حلف عسكرى معاد للاتحاد السوفييتى بتوقيع معاهدة سنة ١٩٥٤ .

٤ ـ ضربة فبراير سنة ١٩٥٦ :

كان الحزب قد ضرب فى مايو سنة ١٩٥٥ ـ وما إن استعاد قوته حتى لحقته ضربة أخرى فى ٦ فبراير ١٩٥٦ ـ وفى هذه الضربة الأخيرة قبض على المناضل الهارب بعد قرابة ثلاث سنوات من بداية الهرب . وكان ذلك فى مدينة الاسكندرية ، وفى حوالى الثانية عشرة مساء . وكان وراء تمكن البوليس من القبض عليه فى هذه المرة فرط التعب

والإرهاق . فقد خرج من مدينة بنها فى صباح اليوم السابق متجها إلى الزقازيق ـ وبعد اداء عمل حزبى فيها ، ركب منها عند الظهر فى اتجاه المنزلة . وهناك ايضـ قام بعمل حزبى ثانٍ ، ثم عاد إلى المنصورة فادى عملا حزبيا ثالثا ، وركب القطار إلى طنطا لكى يتجه منها إلى الاسكندرية فيصلها مع الصباح ، ثم يستمر فى دوامة اجتماعات ، وتدابير ، حتى الحادية عشرة مساء فيتجه إلى بيت صديق من أصدقاء الدراسة مع انه كان قد قرر المبيت خارج الاسكندرية . لكن الإنهاك والإرهاق قعدا به عن المضى إلى وجهته التى قررها ... وهكذا وجد نفسه بعد ساعة واحدة من بلوغ بيت هذا الصديق فى قبضة رجال الأمن .. هو وضيف كان معه والشقيقان صاحبا المسكن الذى التجأ إليه .

وبتفتيشه عثرا على خطاب كان مرسلا إليه على هذا المنزل الذى قبض عليه فيه ، وكان الخطاب من خطيبته التى كانت تعمل مدرسة للغة الإنجليزية فى إحدى مدارس الزقازيق . ولم يكن الخطاب فيه ما يرشد إلى كاتبته بشخصها من قريب أو بعيد . كما لم يكن فيه ما يقطع بأن الخطاب موجه إليه ..

ولم يهتم للأمر فإنه منذ زمن بعيد قد سلح نفسه ضد الاعتراف بأية معلومات تفيد البوليس فى تعقب الآخرين .

وبعد عدد من الإجراءات ركب رجال الأمن المعتزون به إلى القاهرة عبر الطريق الصحراوى . وكانت برودة الجو بالغة القسوة عندما حاول بعض الضباط أن ينالوا من معنوياته بالتحدث عن ضحاياهم ومغانمهم التى غنموها من وراء حملتهم الليلة ، ولم يقبل الصمت بل راح يرد عليهم إلى أن نصحهم كبيرهم بالكف عن الكلام .

وبعد الاستدفاء فى استراحة الطريق ببعض المشروبات مضت القافلة إلى إدارة المباحث العامة بالقاهرة ـ وكان ذلك فى حوالى الثالثة صباحا .. وهناك لفت نظره ذلك التهلل البادى على وجوه الضباط . والذى عبر عنه بعضهم بالقبل والعناق الحار !!

وبعد دقائق قليلة ادخلوه على رئيس المباحث العامة الذى كان ينتظره . وأدار معه بعض المناقشـات الهادفة إلى معرفة بعض المعلومات ، وحاول التلطف إليه لكنه لم يفلح .. فهدد ، وتوعد ، ثم أمر بإخراجه من مكتبه

خرج مخفورا بعدد من الحراس المسكين به ، وقادوه إلى غرفة بها مكاتب ، وموظفون ، وأثناء ذهابه إليها شهد للقبوض عليهم وكانوا بضع عشرات ، يفترشون البلاط ، لم يكونوا كلهم من ذوى النشاط السياسى وإنما العدد الأكبر منهم كان من الأصدقاء والعاطفين . وكان اشد ما أزعجه هو رؤية خطيبته بين هؤلاء الجالسين فى الطرقات المجـاورة لمكاتب الضباط .

تبادل التحية مع بعض المقبوض عليهم ، ثم شعر بالرغبة الشديدة فى النوم ، ولكنه رأى خطيبته تسند ظهرها إلى الحائط غافية من شدة الإرهاق فخلع معطفه والقاه عليها ، ثم ارتقى فوق أحد المكاتب وتمدد ونام .. ولم ينس أن يحذر حراسه فى الغرفة من فتح النوافذ لأنه كثيرا ما يرى نفسه يحلم بالطيران . ولم يشعر بعد ذلك بشىء على الإطلاق .

وفى حوالى الثامنة صباحا ايقظوه وذهبوا به إلى غرفة وجد فيها عددا من كبار الضباط فى وزارة الداخلية . ويالها من لحظات تملأ النفس بالألم والحسرة عندما تعاون هؤلاء على استجوابه لمعرفة أسراره التى لا يمكن الافصاح عنها !! لقد هددوه وتوعدوه ، وطلبوا منه أن يرد على أسئلتهم الفضولية ولكنه لم يأبه لهم !!

زعم كبيرهم أن كل شىء معروف لديهم ، ولكنهم فقط يريدون تفسير تلك الرموز التى عثروا عليها فى أجندته . ما هذه العصا ؟ وما تلك اليمامة ؟ ماذا تقصد بالمفتاح ؟ وكان الرد على كل تلك الأسئلة وأمثالها ـ لا تهتموا فتلك مجرد حركات عابثة قام بها القلم فى لحظات الملل !!

أخيرا يئسوا منه ، وعزلوه عن كل المقبوض عليهم فى غرفة مملوءة بالموظفين والضباط . واستمر خمسة أيام كاملة فى مبنى مباحث امن الدولة ينتظر دوره فى التحقيق الذى كانت تجريه النيابة فى نفس المبنى .. فلما جاء عليه الدور أحسَّ بحركة غير عادية يقوم بها بعض الضباط قبل دخوله إلى غرفة التحقيق . وتوقع الشر المعروف عند محاولة انتزاع الاعترافات

بالقوة ، فقرر الصمود مهما تكن درجات التعذيب المحتملة ، ثم دخل إلى غرفة التحقيق حيث وجد بها عددا من ضباط الأمن ـ وقبل أن يوجه له أى سؤال طلب من وكيل النيابة ألا يسمح لغير المحقق بالبقاء فى الغرفة . وفهم وكيل النيابة ما يعنيه فأشار إشارة مفهومة بعدها خرج الضباط من الغرفة .

وبدأ الاستجواب على النحو المألوف ، وأستمر وقتا طويلا لم يعترف خلاله أى اعتراف ، وأنكر كل ما أسند إليه من اتهامات .. ثم خرج من غرفة التحقيق ليرى نفسه هو المتهم الوحيد الباقى فى مبنى المباحث العامة .

أعادوه إلى الغرفة التى تعود عليها ، وعلى الموظفين العاملين فيها . وكانت الساعة تشير إلى العاشرة صباحا .. وسأل عن المقبوض عليهم فأجيب بأنهم تم ترحيلهم !! وسأل إلى أين ؟ فلم يجبه أحد .

وساورته الوساوس حول مصيره . فهؤلاء الضباط ينظرون إليه على أنه متهم شديد الخطورة ، ومن أجل ذلك استبقوه بعيدا عن كل المتهمين .. وها هم أولاء نقلوهم إلى بعض السجون . ولا بد أنهم يدخرون له سجنا يليق بخطورته . واتجه ذهنه إلى السجن الحربى ذى السمعة السيئة ، وفكر فى الذى ينتظره هناك وقرر الصمود أيضا .. وبرزت أمام عينيه صور العديدين من المناضلين الأبطال فى المواقف المشابهة ، وصمم على ألا يكون أقل من أى منهم .

وبينما هو مستغرق فى تلك الوساوس ، كانت الاتصالات التليفونية لا تنقطع ، وكانت الحركات بين المكاتب على قدم وساق ، وصور له خياله أن لكل ذلك صلة وثيقة بمصيره الذى لابد أنه يتقرر الآن .

ولمح عنوانا فى إحدى الصحف على بعض المكاتب يشير إلى صفقة للأسلحة تعاقدت عليها الحكومة مع تشيكوسلوفاكيا !! وتسمرت عيناه على هذا العنوان ، وراح يجرى بتفكيره وراء هذا التغير السياسى المثير !! وتردد فى رأسه أكثر من سؤال عن صحة المواقف التى كان يقفها الحزب من الحكومة . ولم يستبعد أن يكون الخبر مجرد مناورة قصد بها حث الدول الغربية عليتسليح مصر !!

وظل غارقا فى دوامة التساؤلات والوساوس ، يحاول حل هذا اللغز المحير . كيف تتجه الحكومة إلى الاستعانة بالدول الاشتراكية وهى تقبض على الاشتراكيين وتعذبهم فى نفس الوقت ؟؟ !!

□ □

الفصل الثالث عشر :

رحلة السجون والمعتقلات

١ - سجن الاستئناف :

وعندما أشارت الساعة إلى الرابعة مساء انقطع حبل التساؤلات والوساوس بقدوم عدد من رجال الأمن أمسكوا به . واقتادوه إلى سيارة فارهة تحرسها سيارتان فارهتان أيضا إحداهما من الخلف والأخرى من الأمام .. وفى كل واحدة من هذه السيارات كان عدد من كبار الضباط يرقبون الموقف .

لم يكن يعرف إلى أين يتجه ركب السيارات الثلاث .. إلى أن بلغت سجن الاستئناف فتوقفت ، وانفتح باب السجن لكى يتم تسليمه .. وعمدت إدارة السجن فورا إلى اتخاذ الإجراءات المعمول بها ، وهى ليست غريبة عليه ، فقد سبق أن أجريت معه عددا من المرات . لكن الغريب كان هو رفض المعاملة الخاصة للمسجونين السياسيين ! تلك المعاملة التى كانت مقررة فى لوائح السجون المصرية ، وبمقتضاها لم يكن ينظر إلى المسجون السياسى على أنه مجرم بعادية المجتمع ، وإنما كان ينظر إليه على أنه صاحب رأى يجب أن يحترم شخصه مهما كان الاختلاف مع رأيه . ومن ثم كان يأكل ويشرب ويلبس وينام بشكل مميز طيلة البقاء فى السجن . أما الآن فإ المسجون السياسى ينام على « البرش » ويأكل « اليمك » ويشرب من « الجردل » ولا يلبس إلا ملابس السجن الكالحة !! وعليه فوق ذلك أن يعانى من وطأة التعذيب النفسى والبدنى لسحق معنوياته ، وإذلال كرامته .

وكانت أولى الإجراءات التى نفذت إجراء حلق الشعر ، وخلع الملابس المدنية والدخول فى ملابس السجن ، ثم قاده الحراس إلى داخل العنبر حيث فتحوا له باب زنزانة ودفعوه إلى داخلها ثم صفقوا الباب . وفى داخل تلك الزنزانة كان هناك خمسة من زملائه الذين سبقوه ، ما إن رأوه حتى تعلقوا به وعانقوه سعداء بقدومه عليهم - فقد كانوا يظنونه إنما تخلف عنهم لكى يستضاف فى السجن الحربى ، وأكد لهم أن نفس الظن طاف برأسه ولا يزال يطوف ، ويعتقد أنه هنا « نزيل مؤقت » .

وعلم منهم أنهم وصلوا منذ الصباح . وأنهم لم يقع عليهم أى اعتداء ، وأن كل المقبوض عليهم هنا ما عدا البنات وكن ثلاثا تم ترحيلهم إلى سجن مصر . وبدأ الكرم المصرى يعبر عن نفسه ، فقدموا مائدة الطعام الذى يتكون من الخبز و « اليمك » الذى تعفف عنه البعض لسوء طهيه ، فما كان منه إلا أن مد يده وأخذ يأكل قائلا : لا تتأففوا ولا تتعففوا ، فهذا هو الطعام الذى سوف تأكلونه لعدد طويل من السنين !! وتشجع الجميع فأكلوا . ثم جلسوا يدخنون ويتذاكرون ما وقع لكل منهم منذ قبض عليه إلى أن حضر إلى السجن ..

وبعد لك ناموا كما تنام الأسماك فى علبة السردين . وبدأت تساورهم أفكار المقاومة منذ الصباح التالى ، فطلبوا مقابلة مدير السجن وسمح لهم . ووقفوا أمامه يناقشونه ويطلبون منه حق الإنسان وكان من بينهم المحامى دارس القانون ، وأستاذ الجامعة . والصحفى ، والمهندس ، وكلهم طبعا من المشتغلين بالسياسة .. فاستغلوا كل معلوماتهم وهم يتحدثون

إليه مؤكدين أنهم يعاملون معاملة غير إنسانية وغير قانونية وكان المدير واسع الصدر فلم يضيق بالمناقشة ، فإذا احتكموا إلى نصوص لائحة السجون قال لهم إن الذى يقوم على تنفيذ اللائحة هو الذى أصدر التعليمات بالمعاملة التى تنكرونها ، وهكذا امتدت المناقشة من غير طائل وطلب منهم كتابة مذكرة ووعد برفعها فورا إلى المسئولين

٢ ـ موقف سياسى جديد

كان سجن القناطر الخيرية غاصا بأعداد كبيرة من الشيوعيين الذين قبض عليهم سنوات ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٥ . وكانت حياتهم نوعا من المتاعب المتعمدة التى لا ترحم ، وكانوا يناضلون ببسالة ضد تلك المتاعب ، وكثيرا ما كان الجلد والتأديب الانفرادى يستخدم ضدهم ، وكان ضباط السجن يتفننون فى ابتكار وسائل الاستفزاز والتعذيب تنفيذا لأوامر وتوجيهات المباحث العامة

علم « النـزيل المـؤقت » بكل ذلك فـور وصوله من سجن الاستئنـاف ، فلم يدهش . واستعـد نفسيا لجميـع الاحتمالات ، وطبقا لتوصيات المباحث العامة أنزلته إدارة السجن فى زنزانة انفرادية ولم يلبث غير يوم أو يومين حتى جرب التأديب والعيش فقط على الخبز والماء مدة أسبوع كامل

عاد بعد ذلك إلى زملائه وكانوا لا يكفون عن مصارعة الظروف والإدارة فى كل وقت وحين لكن صراعهم الأكبر كان ضد أنفسهم . فالانقسامات القائمة بينهم كانت أشد ضراوة عليهم من عنت السلطة أو إرهابها

وكان عليه أن يخوض كل تلك الصراعات مثلهم ، صراعهم ضد الحراس المدربين . وصراعهم ضد الجوع والمرض من أجل الطعام والدواء ، وصراعهم من أجل البحث عن المتاعب فى سراديب التأويلات الفكرية والسياسية المصحوبة بشتى ألوان التجريح .

وفى بوتقة الصراع هذه . وردت لرفاق الحزب صورة من تقرير جديد قدمه سكرتيره العام . وكان هذا التقرير يحمل نقضا كاملا لكل المقولات السابقة عن الحكم الفاشى ، وعمالته للاستعمار ، ومعاداته لطبقات الشعب . وانتهى التقرير إلى الدعوة إلى تأييد الحكومة باعتبارها حكومة وطنية تناضل من أجل الاستقلال الوطنى ، وتقود الشعب فى صراعه العادل ضد الإمبريالية العالمية !!

وفجر هذا التقرير صراعا ضاريا بين رفاق الحزب أنفسهم . هؤلاء الذين ألفوا المقولات والمفاهيم التى كافحوا فى ظلها ، وضحوا من أجلها .. وكانت بالنسبة لأى منهم فى أعلى درجات اليقين

وانتهز يساريو التنظيمات الأخرى هذه الفرصة فنزلوا بكل قوتهم إلى حلبة الصراع لكى يؤكدوا أن أصحاب المواقف والنظريات الخاطئة لابد لهم من نقد أنفسهم نقدا يتناول الأسس الفكرية التى أوقعتهم فى الخطأ .

وكان هذا الصراع المحتدم ـ رغم التضييق والإرهاب ، والجلد ـ تتم إدارته عن طريق الورق والأقلام : فكانت تحرر المقالات والتقارير الضافية ، وكانت المناقشات الطويلة بين المتصارعين تجرى كلما سنحت فرص اللقاء

٣ ـ العدوان الثلاثى :

كل ذلك بينما المواقف السياسية للحكومة تتجه بخطوات سريعة نحو الاصطدام بكل الدوائر الاستعمارية فى العالم ، فلقد نجحت مصر فى الحصول على قرار سوفيتى بتسليح جيشها ، وشكل ذلك الحدث عنصرا جديدا فى السياسة الدولية فالدول الغربية تصورته إخلالا بالتوازن الذى كانت حريصة عليه فى منطقة الشرق الأوسط ، وبخاصة بعد جلاء الإنجليز فى ١٨ / ٦ / ١٩٥٦ ـ ومن أجل ذلك فقد كان على الدول الغربية أن تدبر أمورها مع إسرائيل لكى تدمر القوات

المصرية قبل أن يكتمل إعدادها ، وتسقط النظام المصرى قبل أن يستفحل خطره ..

ووجدت الدوائر الغربية فرصتها إلى استدراج القيادة المصرية للحرب من مدخل السد العالى .. ففى ١٩ يوليو سنة ١٩٥٦ ابلغت الولايات المتحدة سفير مصر بواشنطن قرارها بسحب عرضها المشاركة فى تمويل مشروع السد العالى .. وبعد أيام قليلة حذت انجلترا حذو الولايات المتحدة ، وبذلك سقط التزام البنك الدولى المبنى على أساس موافقة الدولتين .

وجاء هذا الموقف من الغرب بمثابة اشعال الفتيل فى برميل البارود . فانتهز عبد الناصر فرصة الاحتفال السنوى بذكرى ثورة يوليو واعلن تاميم قناة السويس .

وانفتح الباب على مصراعيه لأحداث كثيرة متوالية ، وتحركات عسكرية كبيرة ، انتهت بصدام مسلح مع بريطانيا وفرنسا بمعاونة اسرائيل من اجل السيطرة على قناة السويس . كان ذلك فى ٣٠ اكتوبر ١٩٥٦ ، وفى صباح أول نوفمبر ذهب عبد الناصر إلى الأزهر وألقى بعد صلاة الجمعة خطابا شعبيا شرح فيه أهداف العدوان ، وقرار الانسحاب من سيناء ثم أطلق شعاره الذى تبنته الجماهير « سنقاتل » وبدأ الاستعداد لحرب شعبية ، فتم تجنيد المتطوعين ووزعت الآلاف من قطع الأسلحة .. وكان الأمل إطالة أمد المعركة .

كل ذلك كان يحدث فى مصر ، وعلى أرضها ، بينما شيوعيو الحزبْ مودعون فى سجون مصر ينتظرون تصديق الحاكم العسكرى على الأحكام التى صدرت ضدهم منذ أسابيع قليلة !! أية مرارة كانوا يشعرون بها وطائرات العدو فوق رؤوسهم فى سماء القاهرة بينما هم محرومون من شرف الدفاع والعمل الذى عاشوا يحلمون به عددا طويلا من السنين ؟

ومع ذلك فقد أعلن اليساريون مواقفهم داخل وخارج السجون المصرية ، وكانت كلها تمتلىء بالتّأييد الحار والمؤازرة الصادقة ضد الاستعمار ، وظلوا على هذه المواقف رغم المحاكمات والأحكام . ولعبت دورها المشرف بعض القيادات الشيوعية فى مدينة « بورسعيد » إثر سقوطها فى يد الأعداء ـ وكان أروع ما حدث فى تلك الفترة هو التحام الجماهير مع قيادتها والوقوف صفا واحدا رغم كل الجراح !!

ولقى العدوان الثلاثى من المجتمع الدولى ما يستحق من الإدانة والتنديد . وتوجه السوفييت بإنذارهم التاريخى الذى تسبب فى وقف اطلاق النار على مصر .

٤ ـ الثقة المفقودة :

ولقد أسهم هذا الموقف فى دفع العلاقات المصرية السوفيتية نحو مستوى جديد فتوثقت العلاقات العسكرية والإقتصادية ليس مع السوفيت وحدهم ، وإنما مع كل بلدان العالم الاشتراكى . إلا أن ذلك لم يغير من فكر عبد الناصر المعادى لليسار الماركسى فى مصر ـ فلم يستجب أبدا ليدهم الممدودة إليه . ومضى إلى التصديق على الأحكام التى كانت قد صدرت ضدهم ثم قامت الأجهزة المختصة بترحيلهم إلى ليمان طرة . ومنه تم ترحيلهم إلى الواحات الخارجية لكى يمضوا أعواما طوالا ما بين « جناح » و « المحاريق » فى قلب الصحراء الغربية .

وكانت الطريقة التى ترحيلهم بها هى سلسلتهم كل مجموعة فى سلسلة واحدة . ثم وضعهم داخل السيارات المغلقة إلى القطارات ذات العربات المغلقة .. وفى صباح بارد قارس البرودة بلغوا محطة قطار الواحات . فركبوه وانطلق بهم حوالى ثمانى ساعات ثم توقف عن المسير . ونزلوا من القطار محاولين إصلاحه بأنفسهم ولكن هيهات !!

كان الخط الحديدى خطا مفردا . وكانت إلى جوار هذا الخط المفرد أعمدة تليفونية موازية له ، تحمل سلكين من « نجع حمادى » إلى الخارجة . وكان القطار مكونا من عربتين اثنتين صغيرتين .. وعندما نزل الركاب حاول السائق الاتصال تليفونيا عن طريق تركيب سماعة على السلكين الممتدين عبر الصحراء ولكنه فشل .. وارتبك الضباط المسئولون عن

توصيل السجناء بعد أن خيم الليل على الصحراء الواسعة ، وصار واضحا أنه لا مفر من المبيت حتى يتم إصلاح القطار فى صباح الغد .

وشاعت برودة الصحراء فى الأجساد ، فاحتطب السجناء وقودا من خشب « الطرفة » وأوقدوا النيران طلبا للاستدفاء . عندئذٍ شاركهم الضباط والجنود بهجة الدفء ، وتسلى الجميع بصناعة الشاى وتناوله . وكان من بين السجناء طالب طب مغرم بإشاعة الايناس فى النفوس المستوحشة ؛ فاطلق حنجرته مع الاغنيات الوطنية التى كانت ذائعة فى ذلك الحين .. يا سايق الغليون عدِّى الكنال عدِّى .. ويرد عليه زملاءه ، عِدِّى .. الخ .. وفى ظل ذلك الجو المفعم بعشرات بل مئات المشاعر المختلفة ، كانت هناك فكرة واحدة تلح على النزيل المؤقت، ماذا تريده السلطة من الاستمرار فى تلك المعاداة لليسار ؟ لماذا هذا النفى إلى الصحارى بينما العالم كله يعرف تأييدهم لتلك السلطة ؟ وهل من المعقول أن تكون السلطة غير واثقة فيمن اقتحموا بورسعيد المحتلة ، ونظموا لجان المقاومة الشعبية بها ؟ .

وظل بين اليقظة ، والنوم ، والتفكير ، والتلهى بأغنيات الدكتور إلى أن أصبح الصباح . ما أروع أن تشرق الشمس بدفئها إثر ليل باردٍ طويل ، وما أبهى انعكاس الضوء على الرمال التى تتخللها بعض النباتات البرية الظامئة ! وما أحب انطلاق البصر والاقدام فى تلك الرحاب الواسعة ! إن الشعور السائد الآن بين المسجونين أنهم منطلقون . خصوصا بعد أن فك ضباطهم السلاسل اطمئنانا إلى أن أحدا منهم لن يستطيع الهرب .

فى حوالى التاسعة صباحا تم إصلاح القطار وأطلق صفارته إيذانا باستئناف الرحلة ، وسارت القافلة بين مناظر الصحراء المتنوعة من صخور بركانية ، وغرود ، وتلال ، وجبال حتى بلغت الخارجة .. ومن هناك تم حشر السجناء فى سيارات مغلقة إلى أن بلغوا معسكرا مسورا بالأسلاك الشائكة ، وتقوم فى داخله مئات الخيام !!

هذا إذن هو سجن « جناح » وها هم أولاء القائمون على إدارته ، وبعد إجراءات قليلة استقبلهم زملاؤهم الذين سبقوهم إلى هذا المكان السحيق .. وتعرفوا على خيامهم التى أعدت لإقامتهم .

وعندئذٍ ارتمى كل افراد الرحلة الشاقة على فُرُشهم طلبا للراحة من عناء السفر الطويل !! وبدأ لون من الحياة جديد ..

٥ - السجن المفتوح :

كان هذا السجن فى تلك البقعة النائية يشبه معسكرا من معسكرات الجيش . مساحة واسعة من أرض الصحراء محدودة بسور من الأسلاك الشائكة . وفيه قامت ثلاث مجموعات من الخيام ، لثلاث مجموعات من السجناء الشيوعيون .. والإخوان المسلمون ، وتفصل بين هؤلاء وأولئك خيام المسجونين فى الجرائم العادية . وكان النزلاء فى هذا المعسكر يخدمون أنفسهم ، فهم الذين يعجنون ويخبزون وهم الذين يطبخون ويطهون ما يأكلون .. وكان يشرف عليهم مجموعة من الضباط والجنود ، ولم تكن هناك زنازين ، أو عنابر ، ولا أبواب .. اللهم إلا بوابة شبيهة ببوابات المزلقانات فى المدن .

وفى هذه العزلة الرهيبة قام مجتمع خاص ، يتعامل فيه الجميع تعاملا خاصا ، فالكل كانوا شركاء فى عذاب البعد عن الحياة التى يحياها الناس . لم يكن هناك ما يؤنسهم كل ليلة سوى عواء الذئاب الجائعة فى الصحراء ، ولم يكونوا يستطيعون الحصول على طعامهم إلا بشق الأنفس . بينهم وبين العمران الذى يرد منه غذاؤهم أكثر من ٢٥٠ كيلو مترا . وكثيرا ما كانت السيارات تتعطل فى الطريق فتحدث الأزمات الحادة ويتعرض النزلاء للجوع .. وفوق ذلك فإن الخضروات واللحوم كان يعتريها التلف فى بعض الأحيان ، ولا يبقى للنزلاء إلا البقول الجافة المحشوة بالسوس .

ومع ذلك كله فإن هذا المجتمع المعزول كانت تغمره البهجة عندما يأتى الزوار عبر مئات الأميال ، أو عندما ترد

الخطابات الدافئة بحرارة الشوق الذى يرسله الأهل والأحباب .

كان الجميع يتساوون فى الشعور بالعزلة ، ولا فرق بين نزيل وحارس ؛ ومن أجل ذلك فإن روح المعاونة كانت هى السائدة ، وكانت مساندة الكل للكل أمرا مفروغا منه عند الأزمات .

لم يكن هناك طب يمكن الفزع إليه فى لحظات الخطر إلا الأطباء من النزلاء ، ولم تكن هناك أدوية يمكن تناولها إلا فى صيدلية النزلاء ، ولم يكن هناك ماء إلا من استخراج النزلاء ، ولم هنالك خبز إلا من صنع النزلاء !!

صحيح أن بعض الجنود والضباط كانوا يستحضرون بعض الطيور والبيض من « أم عمر » وهى تاجرة كفيفة البصر تقيم معها ابنتها فى خباء على مقربة من هذا السجن المفتوح .. لكن ذلك كان مقصورا عليهم وحدهم عندما ينتوون القيام بالأجازات . أما النزلاء فهيهات أن يظفروا بشىء من ذلك .

جلس « النزيل الوقت » مع نفسه لكى يكتب خطابات لبعض أهله وخطيبته نزيلة سجن النساء بالقناطر الخيرية عندما قام عليه صديق عزيز لم يره منذ سنوات طوال .. وكان هذا الصديق واحدا من الإخوان المسلمين النزلاء .. قام إليه ، ورحب به ، ثم أجلسه ، إلى جواره ، وحياه .. وأخذا يتبادلان الحديث حول المسائل الخاصة والعامة إلى ما شاء الله من الوقت .. وبعد أن انصرف هذا الصديق تقدم منه أحد زملائه وسأله عن عمق العلاقة الحميمة مع هذا الأخ « المعارض » فأخبره بأنه صديق قديم يعتز به ثم أردف : وما حكاية « المعارض » هذه ؟ ماذا تعنى بها ؟ فقال زميله : هنا فى المعسكر نوعان من الإخوان المسلمين : مؤيدون للحكومة وهؤلاء أصدقاؤنا ، ومعارضون للحكومة وهؤلاء ليسوا بأصدقائنا . الأولون تجاوبوا مع الموقف الوطنى ضد العدوان الثلاثى ، والأخيرون لم يتجاوبوا وكان شعارهم الذى يرددونه « لا عدوان إلا على الظالمين » !!

قال النزيل « المؤقت » : إننا نقيم كلنا فى مكان واحد ، ونحن وأمثالنا من نزلاء الليمانات والسجون والمنافى . كلنا ضحايا لنظام واحد وإن اختلفت المناهج والإيديولوجيات .. كلنا اتحدت مواقفنا من السلطة عند ابرام معاهدة سنة ١٩٥٤ !ثم ماهو الفرق العملى عند السلطة بين من يؤيد أو يعارض ؟ أو لسنا نحن الشيوعيين من غلاة المؤيدين ؟ ماهو وقع هذا التأييد على صاحب القرار فى مصر ؟

وقبل أن ينبرى له زميله بالرد طلب منه أن يسمح له بكتابة الخطابات التى يجب أن تسلم فى الصباح إلى إدارة السجن ..

وبعد الفراغ من كتابة الخطابات جلس النزيل « المؤقت » مع نفسه يتأمل عمق المأساة التى تردَّت إليها الأحوال فى مصر .. هؤلاء النزلاء السياسيون من الشيوعين والإخوان المسلمين هم من خلاصة الوطنيين المهمومين بأمر بلادهم . وأى منهم لا يقل حماسه لوطنه عن حماس عبد الناصر ، والكثير من منهم ناضلوا فى وقت مبكر وصمدوا على خط النضال حتى هذه اللحظات .. وهم فى معظمهم اليوم مؤيدون للحكومة ، ومن المؤكد أنهم لو كانوا غير مخلصين فى هذا التأييد لما أعلنوه . فكلهم وقفوا فى مواجهة الخطر من غير خوف . وكلهم يستطيع أن يصمد على معارضته لو كان مقتنعا بها .. لكنهم ومن خلال الاقتناع الكامل يؤيدون المواقف العظيمة للحكومة ضد إسرائيل وكل الدول التى تساندها اية مأساة تلك التى تفرض على عبد الناصر التنكيل بأصدقائه ومؤيديه ؟ وما الفائدة التى سوف يجنيها من وراء الاستمرار على هذه السياسة ؟ إن السياسى الحق يدرك ببعد النظره فداحة المخاطر التى تحيق بوطنه من جراء تمزيق الصفوف ، ومن أجل ذلك فإنه يتألف القلوب النافرة عنه فكيف بالمقبلة عليه ؟

ولم يزل النزيل « المؤقت » مع هذه التأويلات والتأملات حتى غلبه النوم فنام .

٦ ـ التنظيم الجديد للحياة

وفرضت الحياة على نزلاء هذا السجن المفتوح من الشيوعيين تنظيما خاصا لحياتهم . وكان الأساس الذى ارتضوه لهذا التنظيم هو تحقيق مبدأ المساواة فى كل شىء . فالكل يجب أن يعمل فى جميع أنواع العمل حسب دوره . من إعداد للعجين إلى تسويته فى الفرن . إلى ملء الخزانات بالماء إلى تنظيف الأوانى والخيام الخ

والكل يجب أن تصادر الواردات التى ترد إليه لحساب المجموع . نقود . أطعمه . ملابس أدوية الخ . فالذى يرد إليه ما يساوى مائة جنيه ، والذى يرد إليه ما يساوى جنيها واحدا ، والذى لا يرد إليه شىء بالمرة . كلهم عند التوزيع متساوون .. الكل يتحمل والكل يأخذ نصيبه العادل مما يرد

ولكى تمضى الحياة محتملة فإنهم كانوا يشغلون أوقاتهم بما يفيد . فهذا يقوم بالتدريس لمحو أمية الجنود أو النزلاء العاديين . وهذا يترجم كتابا فى الاقتصاد أو فى السياسية أو فى الفن ، وذاك يلتقط من الأثير كل أخبار العالم الخ الكل يعمل ، والكل يقرأ ، والكل يكتب ، والكل يناقش ، والكل يتلهى عن مأساة العزلة بزراعة الخضروات والزهور .

وكان انقسام النزلاء إخوان وشيوعين . ثم إلى إخوان مؤيدين ، وإخوان معارضين . ثم إلى شيوعين فى تنظيم وآخرين فى تنظيم آخر . كان كل ذلك دافعا إلى الصراع السياسى والفكرى ، ومن أجل ذلك كان الجميع يتبارون فى الحوار الجاد . وكل يريد حمل الآخرين على الاقتناع برأيه

وفى بعض الأحيان لم يكن الصراع محكوما بالعقل ، ومن أجل ذلك تتدخل الأيدى ، وتحدث الاشتباكات الحامية والدامية ، وبخاصة بين المؤيدين والمعارضين من الإخوان المسلمين

وفى قلب هذا الصراع المتعدد الجوانب ، والذى لم تخمد جذوته بين الشيوعين حتى بعد إعلانهم الوحدة . كان لابد للنزيل المؤقت أن يضطرب كالآخرين فى قلب المعمعة ، موليا برأيه حينا ، ومدافعا عن وجهة نظره حينا آخر ، ومنتصرا لمن ترقى حججه إلى مستوى الاقتناع فى كثير من الأحايين

وكأى إنسان فى هذه الدنيا كان له بعض الأصفياء المقربين إلى قلبه وكان فى مقدمتهم ابن النوبه البطل محمد مختار جمعة .. هذا الذى قبض عليه ، وموررست معه أسوأ صور التعذيب البدنى بالكى بالنار شهرا كاملا فلم يضعف . إلى أن بلغ أمره المشير عبد الحكيم عامر فذهب إليه فى السجن الحربى ورآه فى أسوأ حالاته فسأله . إن كان له أولاد يريد تربيتهم فأجابه لا أريد تربية أولادى على أشلاء الآخرين !! حينئذ أمر المشير بالكف عن تعذيبه ولما حوكم عسكريا وصدر عليه الحكم بعشر سنوات قدر المشير بطولته وخفف الحكم إلى عامين اثنين .

كما كان فى مقدمتهم كذلك الدكتور محجوب الذى كان يتفنن فى إدخال السعادة على قلوب الآخرين . وكلا هذين الصديقين تعرض فى هذا السجن المفتوح لمحنة تهزه ولم يهتز . أما الأول فقد فقد ولده فى بور سعيد عند احتلالها . وأما الآخر فقد فقد شقيقه الضابط الشاب

وكثيرا ما كان هؤلاء الثلاثة يقضون الليل بطوله ساهرين ساخطين على تلك الألوان السقيمة من الصراع ، ومستعينين على الاستمرار فى السهر بالبحث عن لقمة هنا ، وكوب شاى هناك وكثيرا ما كانوا ينتهون إلى أن الذى يحدث فى هذا المعسكر سوف يؤدى إلى التصفية الكاملة للشيوعيين المصريين . فالذى عجزت الدولة عن تحقيقه فيهم .. سوف يحققونه بأنفسهم فى أنفسهم ، وإلا فما معنى أن تكون لكل هذا الصراع تلك الضراوة والرغبة فى الانتقام ؟؟ أليس واضحا لهؤلاء المتصارعين أنهم جميعا بين فكى السلطة ، وأن تأثير الصحيح والخاطىء من الآراء لحن يتجاوز تلك البقعة الجرداء التى يعيشون فيها ؟

٧ ـ درء تهمة الإلحاد :

هذا الاتهام ـ ومن هنا كان يعمد إلى لقاء الشيوخ ويسألهم لماذا لا تعظوننا نحن أيضا ؟ فكانوا يصارحونه بإن الشيوعين ملحدون لا يؤمنون بالاديان السماوية عامة ، ولا بالدين الإسلامى شكل خاص ، وهنا كان يقول لهم : إن الهداة لا يتضح أثرهم إلا من خلال مطاردة الإلحاد بالراى والمناقشة .. فعليهم أن يستمعوا الآراء المغلوطة ثم بعد ذلك يدحرونها ، ويضعون مكانها الآراء الصائبة . اليس كذلك ؟ فإذا قالوا بلى : بدأ فى عرض رايه فى تلك المسألة الشائكة ، وكان يقيم أركان رايه على أساس : أن جوهر الاديان السماوية جميعا هو تحقيق الخير للإنسان وهذا أمر لا يمكن الاختلاف عليه . ثم إن الله تعالى لم يجعلها دينا واحدا من أول الأمر وإنما عددها علـى تعاقب الأزمنـة ومقتضيات الأحوال . مراعاة لسنن التطور المحكوم بنواميسه الاجتماعية التى تجعل من المجتمع السابق نطاقا أضيق من المجتمع اللاحق .. ومن أجل ذلك تفاوتت نسب الخير المقررة فى كل دين ، واصبحت أقل أو أكثر حسب درجات التطور فى المجتمعات المختلفة .. ومن ثم اختلفت الشرائع الحاكمة لأحوال الناس طبقا لما انقضـاه تغير أحوالهم . وهذا أمر ثان لا يمكن الاختلاف عليه .

فلما جاء الإسلام وهو دين الله الخاتم رأينا هذا المفهوم فى التدرج الواضح عند تشريع بعض الاحكام كتحريم الخمر مثلا .. فهو لم يصدر قرارا بتحريم الخمر مرة واحدة وإنما تدرج إلى التحريم عبر مراحل : أولها ولا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون .. فإذا ما انتهوا عن الدخول إلى الصلاة وهم سكارى ، واستقروا على هذا الانتهاء رغم إباحة الخمر فى غير أوقات الصلاة جاءت المرحلة الثانية « **يسالونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس ، وإثمهما اكبر من نفعهما** » فإذا ما وعوا هذه الحقيقة . واصبحوا أقل إقبالا على الخمر بحكم أن فيها إثما كبيرا أكبر من نفعها ، واستقروا بعد ذلك على هذا المعنى فهما وسلوكا اصبح الجو مهيأ لإصدار حكم التحريم القاطع .. « **إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه** » .

بل إن بعض الأحكام التشريعية ثم نسخها بعد تقريرها مراعاة لتغير مقتضيات الأحوال ـ وذلك من غير شك أمر ثالث لا يمكن الاختلاف عليه

ثم يضرب الإسلام مثله الأعلى فى مراعاة سنن التطور والارتقاء . عندما نراه يقرر بعض الأحكام وهو يعمل على إلغائها . والمثل الواضح هنا هو « الرق » لقد أقر الإسلام نظام الرق والاسترقاق ولم ترد آية من آيات القرآن بتحريم « الرق » ولا بالنهى عن الاسترقاق . كما لم يرد حديث شريف أيضا بهذا التحريم .. ومع ذلك فإنه فتح المنافذ المؤدية إلى إلغائه وتحرير الرقيق ، فالذى يظاهر من زوجه يعتق رقبة ، والذى يقع فى جريمة قتل خطأ يعتق رقبة ، والذى يفطر عامدا فى نهار رمضان يعتق رقبة .. الخ وإذن فإن روح الإسلام مع الغاء الرق وتحريمه رغم عدم وجود النص القاطع فى ذلك ، ولعل الاستئناس بهذه الروح هو الذى فتح باب التحرير بسبب الاستيلاد والمكاتبة على ماهو مبسوط فى كتب الفقهاء

ومن هنا فإننا نستطيع أن نقول دون خوف : إن إباحة الرق فى الإسلام كانت إباحة مؤقته مراعى فيها نوعية الظروف الاجتماعية والاقتصادية التى تقررت فيها تلك الإباحة فإذا ما تلاحقت التطورات الاجتماعية ، وارتفعت افهام البشر إلى حد اعتبار الرق سبة فى جبين الإنسانية ، ثم انعقد مؤتمر دولى لتحرير الرقيق ، فإنه من المؤكد أن المسلم المستنير سوف تكون يده أول يد تمتد للتوقيع على وثيقة التحريم المطلق للرقيق ، وهذا أمر رابع لا يمكن الاختلاف عليه

هذه المسلمات عينها يجب أن تحكم تفكيرنا إذا أردنا تحقيق الخير الاقتصادى للناس . ولا يجوز لأحد أن يتهم أحدا بالإلحاد لمجرد تحكيمه لهذه المسلمات فى هذا الجانب . فالإسلام قد فرض فى أموال الأغنياء زكاة سماها

« الحق المعلوم » لكفالة الفقراء ، وتحقيق المصالح العامه للمجتمع . ومقادير الزكاة مقننة تقنينا فقهيا بعلوم الشريعة .. ومع ذلك فإن الضرورات الاجتماعية قد تجبرنا على تغيير هذه المقادير المقررة ، وقد يمتد هذا التغيير إلى حد المصادرة الكاملة لهذا المال إذا عرفنا ان ملكيته كانت غصبا ، أو إختلاسا ، أو اقترن بها الاستغلال والظلم الفادح . أو توقف على مصادرتها صلاح حال الامة .. وعندئذٍ فإننا نكون مع روح الإسلام الصحيح التى عبر عنها ابن الخطاب قائلا : « إذا جاع المسلمون فلا مال لاحد » !!

وعلى ذلك فأن التحصُّن بإباحة الملكية الخاصة مطلقا ، كالتحصن بإباحة الاسترقاق مطلقا أمر بين الخطأ ، ولا يدل إلا على التحيز لجانب الاغنياء ولو مات الفقراء من شدة الجوع ، وهذا هو السر فى اتهام الشيوعيين بالإلحاد .. أو يكون المرء ملحدا لانه يطلب حق المستضعفين من الاقوياء ؟ وكيف يكون الحال لو استمرت الأمور على ماهى عليه من تركيز الثروات فى أيدى القلة بينما الاغلبية الساحقة لاتجد القوت ؟ أيقود ذلك إلى السلم والسلام فى المجتمع ؟ إنكم بهذا المقياس يجب أن تقولوا بإلحاد عبد الناصر الذى صادر أملاك الأسرة التى كانت مالكة فى مصر ؟ فهل تقولون ؟

وفى كل مرة كان النزيل « المؤقت » يدلى بهذا المنطق أو شبهه كان الشيوخ يعلنون موافقتهم على تلك الأساسيات من فهمه لجوهر الأديان لكن بعضهم كان يسأل عن قضية الاعتقاد فى الغيب ، وموقف الماركسية منها . وعندئذٍ فإنه كان يجب بأن قضية الغيب وما وراء الغيب قضيه لا يؤمن بها الفلاسفة الوضعيون والماديون على اختلاف مدارسهم . وهى قضية صراع أزلى دائم بين الفلاسفة والمفكرين من أقدم العصور ويتصدى لمناقشة هذه القضية مع هؤلاء المفكرين للغيب معسكر بأكمله من المثاليين .. ومن المؤكد أن الله تعالى يريد لهذه القضية أن تظل هكذا موضع خلاف فكرى إلى أن تقوم الساعة . ذلك لأن الغيب يُصدّق بالإيمان ولا يحقق بالبحث .. ولسوف يظل للإيمان أهله وللبحث طرقه وعلله .. ولكن الذى يمكن حسمه هو هذا الجانب العملى الذى يمكن تحديده بالإجابة عن هذا السؤال إلى جانب من يجب أن يقف المسلم الغنى الجائر أم الفقير الحائر : من هو الذى يقف مع روح وجوهر الأسلام والأديان السماوية كلها ذاك الذى يحارب الظالمين ، أم ذاك الذى يحارب المستذلين ؟ وغالبا ما كان الحرج يعقد الألسنة فلا تجيب عن تلك التساؤلات .

٨ ـ صراع ما بعد الوحدة

ولما أسفر الصراع فى داخل اليسار المصرى عن توحيد كل فصائله الرئيسية فى مصر بإعلان حزب ٨ يناير سنة ١٩٥٨ ، تفاءل أصحاب النوايا الطيبة ، وتصوروا أن عهدا جديدا قد بدأت تظهر شمسه على أفق النضال المصرى من أجل استكمال الاستقلال ، والتفرغ التام لتحقيق كل أهداف الكفاح الوطنى . وبخاصة بعد أن تحررت البلاد سياسيا باسقاط معاهدة الجلاء منذ أول يناير سنة ١٩٥٧ ، وبتحصير البنوك والشركات الاستعمارية التقليدية . لكن عُقد الانقسامات الطويلة ، والعداوات القديمة بين الفصائل الماركسية والوطنية ظلت هى المناخ المسيطر على المواقف المختلفة ؛ فعبد الناصر وحكومته لم يحيدوا عن خط تصفية اليسار بكافة أشكاله ، وعمروا بعد الوحدة الى استباق القرارات التى سوف يصدرها الحزب الشيوعى ببعض المطالب الجماهيرية والإعلان عن اتجاه الحكومة إلى اتخاذ الإجراءات الكفيلة بتحقيقها قبل أن تنزل مطبوعات الحزب المطالبة بها . كما عمدوا إلى إجراء بعض أنواع الحوار مع قادة الحزب من أجل إنهاء وجوده ..

أما اليساريون أنفسهم فإنهم ـ رغم وحدتهم ـ ظلوا على ما كانوا عليه . من روح التربص والانقسام ، فكل فصيلة لا ترضى بغير السيادة على بقية الفصائل الأخرى ، ومن ثم كان السائد بينهم ليس الاتجاه إلى تدعيم الوحدة ، وإنما الاتجاه إلى هدمها !! وبلغ الصراع ذروته وبخاصة فى السجن المفتوح بحناح . وانتهى الأمر إلى الانقسام من جديد

وهكذا استمر تمزيق الصفوف هو القانون السائد الذى يحكم سلوك السلطة تجاه اليسار ، وسلوك اليساريين تجاه بعضهم البعض .

ولم يكد النزيل « المؤقت » يتنفس الصعداء بإعلان الوحدة ، حتى دخل معمعة الصراع الضارى ، ولم يعد احد يراه إلا منحازا إلى رأى دون آخر ، وكان عليه أن يكرر كل ما كان يمارسه فى القديم . مع زيادة أن الصراع الانقسامى قد تدعمت مراكزه فى داخل كل من التنظميين اللذين آل إليهما الانقسام .

وكان إذا اختلى إلى نفسه تملكه السأم والملل ، والألم . ولم يكن يخفف عنه سوى تلك الخطابات التى كانت تصل إليه من خطيبته نزيله سجن النساء . لقد كانت هى الأخرى تخوض معركة الصراع مع زميلاتها هناك . لكنها - وبالرغم من ذلك - كانت تشد قلبه بعيدا عن لهيب السياسة ، وجفاف الصحراء المجدبة ، وتجنح به إلى الترطيب العاطفى ، والحنان المخلص . فيهرب من لأواء الصراع إلى واحة الشعر الوارفة الظلال ؛ فقد كانت خطيبته خصبة القلب والروح . مملوءة بالحب والإنسانية والإلهام ، وكان يرى من خلال خطاباتها إليه كل ألوان البهجة والأمل السعيد .

كتب إليها ذات مرة يقول : القمر فى الصحراء غير القمر فى المدينة ، وكلمة الحب الندية التى تبعثين بها فى كل خطاب اقرؤه لها مذاق خاص تحت ضوء هذا القمر الذى اجلس إليه وحدى الآن بعيدا عن ضوضاء المتصارعين والمتطاحنين من عشاق طواحين الهواء .. إننى الآن اسمع صوتك العذب الرقيق رغم آلاف الكيلومترات التى تفصل بيننا ، ولا أكاد أرى غير نور وجهك الذى تحجبه جدران السجن الصماء . إن صوتك يرن فى أذنى رنين صوت هذا الكروان الصحراوى الذى يغرد الآن . كما أن صورة وجهك تتألق أمامى فى قرص هذا القمر الذى يطيل النظر إلىّ وأطيل النظر إليه .

اتمنى أن تكونى الآن مثلى فى نشوة لقاء حقيقى بين حبيبين تعاهدا على على ألا يفترقا ولو حتى بالموت .

٩ - فى سجن المحاريق

بعد قرابة العامين فى سجن « جناح » المفتوح ، ثم نقل كل المسجونين السياسيين إلى سجن آخر فى الصحراء ، وكان هذا السجن يتميز عن سابقه بأنه مسور بسور عال تعلوه الأسلاك الشائكة المشدودة على دعائم الحديد ، وكان يضم ثلاثة عنابر ، ومبنى للإدارة ، وآخر للمرافق والمخازن ، وقد بنته الدولة خصيصا لهؤلاء السجناء الخطريين ، وكيف لا تفعل ذلك وقد اتخذ الانجليز من المحاريق منفى لخصومهم من الوطنيين المصريين فى الماضى ؟

أصبح المسجونون فى هذا السجن الجديد محكومين بالجدران ، والأبواب ذات القضبان ، وصار سهلا على إدارة السجن فرض أساليب القهر عليهم أكثر من السابق . وهكذا بدأت مرحلة جديدة من المعاناة ، التى لم تستطع أن تقتل روح المقاومة عند الشيوعيين ؛ فعلى الرغم من الأبواب والأسوار والحراس المدججين بالسلاح . كانت هناك الاجتماعات السياسية الواسعة والمحدودة والمناقشات المستفيضة والمختصرة ، والصحف والمؤلفات المحلية والعالمية ، إلى جانب الفصول الخاصة بتعليم اللغات ، والتوفر على ممارسة الفنون الجميلة من رسم ونحت وتمثيل . نعم . فقد كانت كل نتاجات الفكر والثقافة فى شتى أرجاء المعمورة ترد مهربة بمختلف الوسائل إلى داخل الزنازين التى يحبس فيها الشيوعيون فى سجن المحاريق . وفى هذه الظروف الجديدة بهذا السجن الجديد تلقى السجناء أخبار « ثورة العراق » التى قادها عبد الكريم قاسم واضطلع فى نجاحها الشيوعيون العراقيون بدور بالغ الأهمية ، كما تلقوا أخبار وحدة مصر وسوريا . ونجاح ثورة الجزائر ، واليمن ، وغيرها من الانتصارات الرافعة التى أحرزتها الثورة العربية . كما تلقوا أخبار الانتكاسات والإحباطات التى وقعت بعد ذلك متمثلة فى الإنقسامات ضد ثورة العراق ، والحرب الصليبية التى شنها عبد الناصر ضد الشيوعيين ، والانتفاض على الوحدة المصرية السورية . الخ

وكانوا على عهدهم مع جميع تلك التطورات فى غاية الإيجابية . يدلون برأيهم عبر القنوات الرسمية مع كل حدث ويحاولون إقناع عبد الناصر بوجهة نظرهم فى تحليل الأحداث الواقعة ، كما كانوا يقومون بتهريب آرائهم إلى الصحف والمجلات العالمية . كل ذلك من أجل التأثير بقدر ما يستطيعون فى مجرى الأحداث

ومن العجيب أنهم عند رصد الأحداث من أجل تحليلها كانوا يرجعون الانتصارات دائما إلى الجهود الموحدة التى حققتها ، كما كانوا يرجعون الانتكاسات والإحباطات دائما إلى التمزقات والاختلافات . ومع ذلك فإنهم لم يكونوا قادرين على توحيد أنفسهم !!

ولقد كان النزيل « المؤقت » فى أعماق نفسه يشعر بهذا التناقض الغريب عند تحليل كل حدث من هذه الأحداث الكبار . فهو كما تعلم لا يستطيع أن يقتنع بأن فاقد الشيء يمكنه أن يعطيه ، ومن هنا فإنه كان يقول : لو توحدنا نحن لأمكننا صنع التوحيد فى كل مصر .

١٠ ـ عملية الإجهاض

ومع نهاية عام ١٩٥٨ ، وبداية عام ١٩٥٩ أطل قرن « الشيطان » على أمة العرب ، فاكتسحتها موجة غلابة من التشنج ، وعلى الأخص فى مصر . وكان المرتكز الذى ارتكز عليه المتشنجون هو الدور الواضح للشيوعيين فى ثورة العراق

لم يرض هذا الدور كل أعداء الشيوعية فى العالم ، فاتخذوا منه وسيلة لإثارة الخوف عند بعض فصائل الحركة الوطنية العربية ، وأغرت هذه الفصائل بالإلتحام مع الشيوعيين فى معركة يكون هدفها تمزيق وحدة الوطنيين العرب ، واستجابت بالفعل تلك الفصائل لهذا الاغراء فاندفعت الأحداث الدامية تسيطر أخبارها على وسائل الإعلام فى مصر ، ونزل رئيس الجمهورية بنفسه إلى الساحة المشتعلة باللهيب ، فأخذ يضرب بكل قوته فى الشيوعية والشيوعيين . واندفعت وراءه كل القوى المعادية للشيوعية فى كل من مصر وسوريا والعراق ، وانطلقت أبواق الدعاية المشبوهة كالكلاب المسعورة ، وتعرض الشيوعيون فى ذلك الوقت لعمليات التصفية الجسدية فى أكثر من مكان . واحتفلت حكومة مصر فى ليلة عيد الميلاد بتجريد حملة شديدة للقبض على الوطنيين والاشتراكيين وأنصار السلام الشرفاء .

ولم يقتصر أثر ذلك على المحيطين الداخلى والعربى ، وإنما امتد الى المحيط العالمى ، فساءت العلاقات مع المعسكر الاشتراكى ، وتعرضت إذاعاتها وقادتها للشتائم والافتراءات .

وظلت عمليات التعذيب الوحشية فى كل من معتقل الفيوم ، وابو زعبل ، والوحات الخارجة مستمرة عدة شهور طويلة ، تعرض فيها الشيوعيون لألوان من التنكيل لا يشبهها إلا عمليات الحزب النازى فى عهد هتلر !! كانوا يتلقون الضرب بالعصى الغليظة من لحظة دخولهم إلى المعتقل إلى ساعت النوم كل يوم .. وكانت الأسباب اللازمة لتبرير الضرب تحت الطلب دائما فإذا سئل المعتقل عن إسمه كان ذلك مبررا للضرب . وإذا نطق باسمه بصوت منخفض قيل له ارفع صوتك بالضرب ، وإذا رفع صوته قيل له كيف تعلى صوتك ؟ بالضرب ، وإذا سكت قيل له انطق بالضرب وإذا مشى بطيئا ضرب ليسرع ، وإذا أسرع ضرب ليبطيء وهكذا .. مما لا يستطاع سرده اشفاقا على أعصاب القراء

واستمر الحال هكذا إلى أن قتل المناضل المعروف شهدى عطيه الشافعى الذى سبقه الكثيرون من القتلى وضحايا التعذيب !!!

ولقد شهد النزيل « المؤقت » صورا من العنف الارهابى فى سجن المحاريق كان يقودها ويشرف على تنفيذها جنرالات كبار يحضرون من القاهرة خصيصا لممارسة هوايتهم فى تنظيم الضرب الجماعى والتكدير بالجملة . كما شهد تنفيذ السياسة المرسومة لإذلال والإرهاق المعنوى والبدنى . وكانت العناصر الفعالة فى تلك السياسة تتمثل فى تجريد النزلاء من ممتلكاتهم الهزيلة ، وإضرام النار فيها إلى جانب تجويعهم ومنع الدواء عن مرضاهم أو المصابين منهم بجراح ورضوض

التعذيب بالإضافة إلى تكليفهم أعمال السخرة الانتقامية وهم حفاة .

كما شهد النزيل « المؤقت » مهزلة استعراض البطولة فى لحظات التعذيب ، فهذا الجنرال الكبير الذى يتخذ موقعه على كرسى مريح خارج بوابة السجن . ويأمر ضباطه بصف الجنود صفين متوازيين من نقطة تبدأ عن الجنرال ، وتنتهى بباب عنبر المعتقلين بطول مائتى متر ، وفى يد كل جندى « شومه » وبين الجندى والجندى مسافة لا تزيد عن مترين اثنين ثم فى عسكرية معتزة بقوتها يأمر الجنرال بصوت عال : هاتوهم واحد واحد !! وفى عسكرية منضبطة يتم تنفيذ الخطة على النحو التالى :

يخرج المعتقل بعد المناداة عليه ليجد نفسه محاطا بصفين من الجنود « البواسل » كلهم يهوى عليه بشومته وهو يجرى إلى أن يصل إلى مركز « القيادة » فيؤمر بخلع ملابسه لكى يضرب عاريا أمام « الجنرال » ثم يؤمر بخطف قطعتين من ملابس السجن المكومة فى كومتين إلى جوار مركز الجنرالية .. كومة للسراويل وأخرى للسترات وبعد اختطاف الملابس يؤمر بالجرى راجعا وهو عريان لكى يتم اكمال تعذيبه حتى يصل عنبره وقد ظفر بأكبر حظ من الضربات . وسالت دماؤه من اكثر من مكان فى جسده .. وهكذا ينادى على غيره ثم غيره ولساعات طويلة وكأنما هذا الجنرال يتلذذ برؤية التعذيب . أو يتصور انه يقود معركة حربية سوف يخلدها التاريخ !!

ولقد رأى النزيل « المؤقت » اثناء حملات التعذيب البربرية من صور البطولة مالا يمكن أن ينسى .. فهؤلاء الذين لا يطأطئون رءوسهم أمام الجنرال ويهتفون بسقوطه وهم يضربون . وأولئك الذين يفتدون الضعفاء منهم فيقومون بالعمل عنهم لكى يتحملوا هم الضرب وهؤلاء الذين يوفرون طعامهم القليل لإخوانهم الممنوعين عن الطعام . والأبطال الذين رفضوا الانصياع للجلادين فلم يستنكروا مبادئهم رغم قسوة المحنة .. كل هذه النماذج المصرية المشرفة كانت موضع إعجاب الجلادين انفسهم ، ولقد ظهر هذا الاعجاب فى أكثر من موقف . بل إن هذا الإعجاب قد عبر عن نفسه بانسياب الدموع فى بعض اللحظات من عيون كبار الضباط . الموكول إليهم أمر التعذيب .

ومن عجب ان هذه الصور النادرة من البطولة . تلك التى كانت تنال تقدير الجلادين وإعجابهم كان أصحابها يهدرون قيمتها عمليا عندما تطغى عليهم نزعات الإنقسام والإمعان فى حماقات العداوة الفكرية أو السياسية لنفس رفاق الطريق الاقوياء

١١ ـ الاستمرار فى خطة التصفية ..

وبفضل الجهود الدبلوماسية التى بذلت بكل الإصرار والدأب تبصيرا بعواقب الأمور .. طرأ نوع من الهدوء النسبى على الموقف فى مصر . وبخاصة بعد استشهاد شهدى عطيه الشافعى بليمان ابى زعبل . لكن سياسة تصفية الشيوعيين لم تتوقف ، وإنما اتخذت صورة جديدة ، هى الإغراء بالإفراج عن العناصر الضعيفة ، وتشديد النكير على العناصر الصامدة ، وكانت العناصر الصامدة فى « المحاريق » قد عزمت على صمودها ، ورتبت نفسها على الاستمرار فى الاعتقال مهما طال أمده . ومن ثم أنشأت مزرعة كبير على مقربة من مبنى السجن ، ودبرت أمر الحصول على الخضروات الطازجة منها بشكل دائم ، ولم تشأ أن ترفع راية التسليم بالذى كانت تريده السلطات منها . وعولت على عمليات الفضح والمقاومة لكل المعاملات غير القانونية التى تتعرض لها .

وكان لا يزال للحزب الشيوعى المصرى بقاؤه خارج الأسوار ، فكان يلعب دوره فى عملية الدفاع عن الواقعين تحت ضغوط التصفية خلف جدران السجون

وأثناء تلك المقاومة البطولية لأخطار التصفية تعددت وجهات النظر من جديد فى تحديد هوية السلطة . فالذين نظروا إلى عدوانية وشراسة السياسة المتبعة ضد الشيوعية والشيوعيين رأوا فيها سلطة لكبار الرأسماليين والاحتكاريين فى مصر !! ورأوا فى تصديها لمحاربة الشيوعية على النطاق العربى رغبة فى أن تكون الاحتكارية المصرية هى المسيطرة على السوق العربى . أما الذين نظروا إلى المواقف الوطنية المتوالية ضد الاستعمار فإنهم لم يغلبوا جانب العدوانية على الشيوعيين . وقالوا إنها سلطة البرجوازية الوطنية ذات الطبيعة المزدوجة . الخ وشحن الجميع قرائحهم كل بدافع عن وجهة نظره محاولا تسويدها وجعلها ملزمة للآخرين .. ولكن هيهات !! فطول البعد عن أرض الواقع لا يعطى فرصة التصور الصحيح .

واستمرت التصفية على طريقة الإغراء للمستنكرين بالإفراج عنهم . وتشديد النكير على الصامدين بالإبقاء عليهم خلف جدران السجون . إلى أن حان موعد الإفراج عن النزيل « المؤقت » وكان ذلك فى يوم ٦ فبراير سنة ١٩٦١ . إنه اليوم انهى عقوبة الأشغال الشاقة لمدة خمس سنوات .. ومن حقه الإفراج عنه طبقا لأحكام القانون . لكن الذى حدث هو ترحيله إلى مبنى المباحث العامة . وهناك تمت محاصرته ومحاولة الإجهاز على معنوياته بطلب دفع مقابل للإفراج عنه . وكان المقابل المطلوب هو التعهد بعدم الاشتغال بالسياسة مستقبلا ، وإلا فإنه سوف يعود من حيث أتى . قال لهم إن ذلك ليس من حقكم . وقرر أن الاشتغال بالسياسة حق كل مواطن بالطبيعة ، وذكر لهم أن بعض المفكرين عرفوا الإنسان بأنه حيوان سياسى . وأنه هو شخصيا اشتغل بالسياسة منذ كان فتى يافعا حديث السن والخبرة بالحياة . ومن غير الممكن أن يقلع عما تعوده كل هذا العمر الطويل .

عندئذٍ أصروا على استخدام الضغط عليه أولا بالتشفى فيه فأبلغوه أن خطيبته قد تزوجت من شخص آخر بعد الافراج عنها . فلما ظهر لهم عدم اهتمامه بهذا الأمر لجئوا إلى التلويح له بحاجة والديه المرهقين صحيا إليه . وبدا عليه أيضا عدم الاهتمام ؛ فأحالوه إلى قسم السيدة زينب وتركوه هناك ريثما يتم استخدام كل أساليب الضغط معه . وفى قسم السيدة زينب جاءوه بوالديه يبكيان ويطلبان منه كتابة التعهد ليخرج . فأفهمهما أن المسألة ليس مسألة تعهد . وإنما هى محاولة لإجباره على الخيانة .. خيانة الضمير ، والزملاء ، وكل القيم الفاضلة . عندئذٍ انصرفا عنه وقالت له أمه لا تفعل ذلك ياولدى ولك الله .

ودامت المساومة أياما طويلة ، فلما تأكد لهم انه لن يخضع أعادوه ثانية إلى « الحاريق » وكانت هناك محطة يتم الترحيل منها هى سجن القلعة بالقاهرة . وفى هذه المحطة التقى بزميل آخر كان له نفس الموقف كما التقى بأبو سيف يوسف الذى قبض عليه حديثا ، والذى كان يقوم بقيادة الحزب فى الخارج

وبعد أيام قليلة فى سجن القلعة عاد إلى « المحاريق » من جديد ، عاد لينهى إلى زملائه كل ما حدث معه . وليؤكد لهم أن سياسة الدولة هى الإصرار على التصفية ، وأن كل المقاومات التى لجأنا اليها لن تفيد ، ولابد من البحث عن طرق أخرى للمقاومة .

وفى تصوير موقفه من المساومة والضغط الذى رفض الخضوع إليه أنشدهم زجليته التى كتبها من واقع انفعاله بهذا السلوك اللا إنسانى الذى اتبعه معه رجال الأمن « الأعزاء » .

يانسمة عصر ماشيه فى مصر من غير قيده بتتمخطر مع قلوب المراكبية
ما بين شطين وزرع اخضر ، وزهر جميل زاهى منور وناس رايحة وناس جاية
أنا زيك هنا نسمة لكن محبوس بقى لى سنين ورا قضبان مصدية
ونفسى أعيش هناك عندك ، وأتمخطر كده زيك واشوف الدنيا بعنيه

لكين ازاى ؟ قولى لى ازاى يانسمة عصر ؟
قولى لى ازاى ؟ وزنزانتى لها بواب بالفين ناب وعين صفرة مابتنمشى
قولى لى ازاى وفيه خطاف فى باب السجن متسمم ومتصدر كداف وشى ؟
عايز يخطف سواد عينى عايز يخطف بياض قلبى عايز حاجات مابتهونشى
عايز شر فى كمان راخر عايزنى ادوس بدون إحساس على عشى
ويفضل إيه من الدنيا لو انا خدت كنوز عمرى وفين اقعد وفين امشى ـ ؟
واعيش ازاى ، قولى لى ازاى يا نسمة عصر ؟
يا نسمة عصر أنا قلبى صحيح محروم ومجروح ومكوى بنار
عشان أمى اللى ولدتنى وعايزه تشوفنى موشى قادره وليلها نهار
عشان والدى اللى موشى قادر ولا بعكازه يتمشى ولا بيشوف ولا بيسمع وعقله طار
لكن برضه الشرف غالى مابيهونش ومر المر طعم العار
ولازم برضه أستحمل . وح أستحمل يانسمة عصر ..

١٢ ـ الإضراب عن الطعام

وفى أوائل يوليو سنة ١٩٦١ وبعد ترتيب خاص بمقتضاه تحدث أكبر إثارة ممكنة على جميع المستويات المحلية والعالمية ، تقرر الدخول فى معركة إضراب عن الطعام ، وبدأ المعركة بأربعة فقط من النزلاء كان من بينهم النزيل « المؤقت » وتم عزله فى غرفة خاصة بهم ، وحاولت إدارة السجن اقناعهم بالعدول عن الإضراب ولكنهم رفضوا بعد أن قدموا قائمة بمطالبهم . وبعد يومين انضم إلى المضربين عدد آخر . وبعد يومين آخرين انضم إلى المضربين عدد ثالث .. وهكذا حتى بلغ عدد المضربين أكثر من مائة . وتلاقت مع هذا الاضراب عن الطعام موجة من الإثارة قام بها الأهالى والكثيرون من المدافعين عن الحريات .. فإنعكس أثر ذلك على جو سجن المحاريق أرسلت الدولة من القاهرة تعزيزات كبيرة للقوات المكلفة بالحراسة ، وضاعفت من تسليح هذه القوات ، ووزعتها فى كل شبر من الأفنية ، وفوق الأسوار .. وكان يخيل للرائى أن هناك معركة حربية وشيكة .

واستمر الإضراب سبعة عشر يوما سقط فيها أكثر من واحد من شدة الإعياء ونقلوا إلى مستشفى الخارجة وفى اليوم السابع عشر وفى حوالى السادسة مساء تم إبلاغ المضربين أن مندوبين من أعلى مستويات الدولة يريدون أن يحققوا أسباب الإضراب والمطالب الذى يطلبها المضربون ..

وحملت النزيل « المؤقت » قدماه على إعياء إلى مدخل العنبر ـ وشهد العشرات من الضباط والرتب الكبيرة ، وبعضا من أعضاء نيابة أمن الدولة يجلسون فى صدر المدخل ، وقد تسلطت على الجميع أضواء إضافية غير معتاده . بينما جلس عدد من المضربين حفاة الأقدام ، هزيلى الأجسام ، غائرى الأعين . مرسلى اللحى والشوارب فى ملابس السجن الرثة . وبدأ أعجب حوار تتجلى فيه قوة الإنسان عندما يتحول إلى إرادة مجردة من أى غرض حتى ولو كان هذا الغرض لقمة من العيش . وكان المحاورون من المضربين يستعملون لغة القوة فيقولون ، نحن نرفض التدخل الفظ فى عقائد الناس ، ونرفض الوسائل غير الإنسانية التى تستعملها السلطات مع خصومها السياسيين . نحن ندين كل صور الخروج على القانون فى معاملة السياسيين بعامة والشيوعين بشكل خاص .. نحن .. نحن الخ وفى نهاية الحوار كتبت المطالب فى المحضر الرسمى الذى باشرته النيابة ، وقيل إنها ستحملها إلى رياسة الجمهورية .. وستلقى كل العطف والتقدير ..

١٣ ـ الاجراءات الاشتراكية

وانتهى الإضراب عند هذا الحد وفى صبيحة اليوم الذى تلا إنهاء الاضراب أعلن عبد الناصر عددا من الإجراءات « الاشتراكية » بواسطتها تم تأميم البنوك والشركات الراسمالية فى مصر . وعندئذ بدا لنزلاء سجن المحاريق من الشيوعيين أن أبعادا جديدة للعمل الوطنى قد أخذت تتضح .. وكما هى العادة بدأت المناقشات تكشف عن انقسام فى الرأى .. فالبعض رأى فى هذه الإجراءات أنها نوع من رأسمالية الدولة « الاحتكارية » والبعض رأى أنها تعبير عن جناح اشتراكى فى السلطة .. والبعض رأى أنها إجراءات متقدمة تقوم بها البورجوازية الوطنية ذات الطبيعة المزدوجة .

واقترن باتخاذ هذه الإجراءات عدد من المواقف الوطنية الهامة . فلقد ألقت مصر بثقلها إلى جانب القوى الوطنية فى الكونغو دفاعا عن وحدة أراضيه .. وفعلت وتفعل نفس الشيء مع ثورة الجزائر فى صراعها ضد فرنسا . ومن أجل ذلك عادت إلى الأذهان أيام ما قبل سنة ١٩٥٩ وأصبحت هناك إمكانية للتراجع عن سياسة التصفية فى نظر البعض على الأقل ، ذلك لأن رفع راية الاشتراكية باجراءات يوليو تقتضى التعاون مع الاشتراكيين الحقيقيين الذين رفعوا شعارات الاشتراكية قبل كل الناس فى مصر . لكن عبد الناصر لم يتراجع عن سياسة التصفية !!

وانكفأ الشيوعيون يتصارعون فيما بينهم حول دلالة الإجراءات الأخيرة ، والنتائج السياسية التى سوف تترتب عليها

وكان من الواضح أن هذه الاجراءات قد أضافت إلى أعداء الثورة عديدا من الفئات ، فأخذوا يتربصون بها ، ويتحينون الفرص للانقضاض عليها ، وبالفعل قام بعض تلك الفئات ممثلين فى قادة دمشق العسكريين بانقلاب ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ . وانهارت دولة الوحدة . وانهارت بانهيارها مكانة عبد الناصر فى نظر الكثيرين من أعدائه وأصدقائه على السواء .. فبادرت اسرائيل بالتهديد العسكرى لقطع الطريق على أى تراجع إلى دولة الوحدة من جديد ، وكثفت تركيا حشودها على الحدود السورية ، وتدفقت الأموال لشراء ولاء القبائل السورية . الخ .

مرة أخرى كان من المفروض أن يعى الرئيس الدرس وأن يعيد حساباته بحيث يعرف من هم الأعداء ومن هم الأصدقاء ولكن هيهات ، فلقد انعقد عزمه على الجمود حيث هو منذ سنوات طوال . البلد بلده ، والأمر أمره ، وهو لا يثق إلا فى حوارييه وأتباعه

صحيح أنه حاول فيما بعد أن تكون له جبهة واسعة ، من خلال المؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى العربى ، وصحيح أنه قدم فى هذا المؤتمر نظريته المعروفة فى صورة الميثاق الوطنى الذى اجتهد فيه لكى يكون معبرا عن المصالح المستقبلية للشعب المصرى .. بيد أن هذه المحاولة لم تثمر ولم يكن لها أى حصاد على الإطلاق ، فالمتسلقون والمنتفعون بالسلطة قد تظاهروا بالالتفاف حول الميثاق . بينما هم فى الحقيقة كانوا يقومون بعمليات تخريب منظمة ضد الثورة .

وهكذا استمر نزلاء المحاريق يعانون بينما استمر عبد الناصر ضاغطا عليهم ، ومنصرفا إلى تحقيق طموحاته حتى جاء يوم ٢٧ سبتمبر سنة ١٩٦٢ وأذاع راديو صنعاء إعلان مجلس قيادة الثورة برياسة عبد الله السلال قيام الجمهورية العربية اليمنية . وخلال ساعات اعترفت مصر بالنظام الجديد ، وحذرت القوى الأجنبية من التدخل ضد ثورة اليمن . ولم تلبث هذه الجبهة الجديدة للعمل الناصرى أن استحوذت على الاهتمام البالغ من كل الدول ذات المصالح فى المنطقة ولمدة خمس سنوات كاملة ، وكانت من قبل أحداث ثورة الجزائر التى اختارت الجزائر بمقتضاها طريق الاستقلال منذ يوليو سنة ١٩٦٢ . قد ردت بعض الاعتبار لعبد الناصر بعد انهيار دولة الوحدة .

كان التصور الناصرى أن مساندة ثورة اليمن سوف ينتهى إلى ما انتهت إليه مساندة ثورة الجزائر ، بمعنى أن تقتصر تلك المساندة على الدعم السياسى لها إلى أن يتولى رجالها تأمينها ، وإخضاع كل البلاد لنفوذها .. لكن الجيش اليمنى قد انهار ، وفر « البدر » من صنعاء ، ولم تعد الثورة اليمينية قادرة على حكم اليمن دون سند من القوات المسلحة المصرية .. ومن ثم تورط عبد الناصر وأرسل قوات إلى اليمن أعلن عنها فى ١٥ ديسمبر سنة ١٩٦٢ بالاستناد إلى معاهدة دفاع مشترك كان قد تم توقيعها بين مصر واليمن قبل شهرين من هذا الإعلان . وبردود الفعل لتطورات القتال كان يتم دعم القوات العسكرية بقوات جديدة دائما ، كما كان يتم إمدادها بالمال والسلاح . وظلت الحرب دائرة ولم تستطع الثورة اليمينية استئصال شأفة الملكين الذين كانوا يخضعون لهم نصف البلاد حتى جاء عام ١٩٦٥ الذى اجتمع فيه عبد الناصر وفيصل ووقعا اتفاقية « جدة » وحدد الحل فى الرجوع إلى شعب اليمن لتقرير ما يرضيه فى استفتاء يجرى فى ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٦٦ .

ولحظ النزيل « المؤقت » فيما بعد من متابعة الأحداث فى اليمن انه فى نهاية مارس سنة ١٩٦٤ ضربت بريطانيا منطقة « حريب » فى شرق اليمن . واعتبرت مصر أن هذه العملية موجهة لها ، فرد عبد الناصر على هذا الحدث الخطير بقراره مساعدة الشعب العربى فى الجنوب المحتل .. وحينئذٍ سأل نفسه من أين لعبد الناصر كل هذه الأموال والأسلحة التى يشهرها فى وجه الاستعمار فى كل مكان ؟ وكان من المؤكد أن لتعاونه مع بلدان الاشتراكية أثره الواضح فى إقداره على دوره الذى يقوم به فى جميع الأرجاء

١٤ ـ افراج بالجملة :

وفى الرابع من ابريل سنة ١٩٦٤ تم الافراج عن جميع المعتقلين والمسجونين الشيوعيين فى مصر ، وكان ذلك لمناسبة قدوم خروشوف الذى حضر لافتتاح المرحلة الأولى من السد العالى .

وخرج النزيل « المؤقت » فى هذا اليوم ، ضمن من خرجوا وعاد إلى أهله بعد غياب دام أحد عشر عاما بالكمال والتمام عاد سعيدا مغتبطا لأنه لم يحن رأسه ، ولم يرضخ لكل محاولات الضغط عليه ، واجتمع إليه الناس ليهنئوه ، وبكل الشوق إليهم أخذ يحدثهم ويحدثهم ، ويحدثهم وهم مبهورون بأحاديثه . واستمرت تلك التهانى الغامرة أكثر من أسبوع الأمر الذى أزعج دوائر الأمن فاستدعته وطلبت منه الامتناع عن مقابلة الناس والتحدث إليهم . وكان رده أن طلب منهم إقامة نقاط مسلحة فى مدخل القرية من جميع الجهات لكى تقوم هى بمنع القادمين كما تشاء ، وبين لهم أنه ليس فى قدرته مصادرة المشاعر التى تغمره بالحب والأمل .. ثم نعى عليهم هذا التخلف الفكرى فى فهم معنى « الأمن » الذى يجب أن يكون مواكبا للتطورات السياسية الراهنة .. وقال لهم إن معنى الأمن اليوم مرتبط بمعنى الفرحة التى تغمر القلوب الظامئة إلى أحبابها الذين كانوا غائبين عنها فى غياهب السجون .. وهذا هو الأمن المستنير الواعى بحقائق الأمور . اما أمن التربص والترصد ، والخوف من التقدميين فذاك أمن الأمس الذى نرجو الا يعود .. أمن المعتقلات والسجون .. وليس أمن الافراج والانفراج والإقبال على إطلاق الحريات .

وتظاهرة القيادات الأمنية بالاقتناع بهذا المنطق ، ولم تستطع المماراة فى صحته ، فمصر اليوم فى مهرجان الاستقبالات الشعبية الصاخبة لزعيم الشيوعية العالمية ، « الرفيق خروشوف » الشيوعيون الغائبون عن الساحة قد عادوا من المنافى والمعتقلات وكل ذلك من إجراءات السياسة العليا للبلاد ..

ولما رجع إلى قريته فكر فى الأمر .. وقال لنفسه إن المتاعب لا تزال تتعقبنا ، ولعل أهونها تلك المتاعب الأمنية التى لم تستوعب مصادرها تلك الظروف الجديدة التى تمر بها البلاد . وأوهم نفسه بأن القيادة السياسية سوف تتكفل بتبديد تلك المتاعب إذا أرادت أن تجعل لهذا الافراج مضمونا سياسيا ذا بال ..

١٥ ـ زراعة الألغام

لكنه اكتشف بعد ذلك ، أن سلطات الأمن ، وقادة الاتحاد الاشتراكى العربى فى الإقليم يسيرون فى خط واحد هو خط زرع الألغام فى طريق العائدين من المنافى ، فكلهم كانوا يتظاهرون بالقبول لمبدأ التعاون معهم ، ولكنهم كانوا ينطوون على الحقد الدفين ، والرغبات الشريرة ضدهم . وظن فى أول الأمر أن مرجع ذلك هو القصور المحلى فى فهم الاتجاه العام للدولة ، فالتقى بالعديدين من زملاء رحلته الشاقة ، ورأى أنهم يعانون من نفس الذى يعانى منه .. وألقى ذلك الضوء على أن من بيدهم الأمر لا يضمرون للاشتراكية إلا كل ألوان العداء ، ومن أجل ذلك فإنهم يخشون لو تمكن الاشتراكيون الحقيقيون من العمل السياسى المؤثر . ويحرصون على بث الألغام أمام كل منهم حتى يقطعوا عليه الطريق .

وكان من المفهوم أن سياسة زرع الألغام ليست بعيدة عن إرادة القيادة المطلقة للرئيس عبد الناصر .. ومن ثم كان على الشيوعيين أن يختاروا بين العمل السياسى المستقل فى مواجهة الإتحاد الاشتراكى وبالرغم منه ، وبين أن ينضموا إلى الاتحاد الاشتراكى ليعملوا من داخله .. وكان الاختيار الذى آثروه هو إعلان حل منابرهم المستقلة ، ورغبتهم الانضمام إلى الاتحاد الاشتراكى العربى للكفاح من خلاله . وكان ذلك فى حد ذاته قبولا لمبدأ التصفية التى دفعوا أغلى سنوات أعمارهم فى سبيل هزيمته

وبعد قرار الحل وقف كل الشيوعيين على باب الاتحاد الإشتراكى يطرقونه فلم يستمع إليهم أحد ، ولم يتم قبول بعضهم إلا من خلال بعض الشروط والمواصفات .. وهذا هو حق أى تنظيم فى قبول أعضائه ..أما الأغلبية الساحقة ممن لم تنطبق عليهم الشروط فإنهم تم اقصاؤهم بمختلف الطرق والوسائل .

وشعر المناضل القديم بالأسى ، ولم يقبل الاستسلام بسهولة . فأخذ يكتب التقارير الضافية إلى عبد الناصر وكان فى تلك التقارير يضع رؤيته للموقف السياسى فى تطوراته المقبلة ، فيقدم من خلال واقعه الذى بدأ يستوعبه صور الفراغ السياسى المتمثل فى عدم الارتباط بين من بيدهم أمانة العمل السياسى وجماهير الشعب ، وقال فى تقاريره إن الجماهير فى وداى المعاناة . ورجال الاتحاد الإشتراكى والحكم المحلى فى وادى الترف والمباهاة .. الأولون محرومون ، والأخيرون منهومون ، ومن هنا فإن الأغلبية الساحقة من الشعب فى حالة من الغيظ والحنق على هؤلاء « الاشتراكيين » المهفهفين والملمعين ، واستنتج مرة فى أحد تقاريره أن البلد مفتوحة أمام المؤامرات ودسائس الغدر ، وأن أى هجوم عليها سوف لا تحمد عقباه ، ورتب على ذلك المطالبة بالتحام القيادة بالشعب متخطية أعناق تلك الحواجز القائمة بينها وبينه ، ومطهرة للأرض من تلك الألغام التى يبثها المغرضون فى طريق المخلصين .

والتقى فكر بعض القيادات فى قمة الاتحاد الإشتراكى العربى مع روح تلك التقارير وغيرها ، ونشطت أمانة الدعوة والفكر بقيادة السيد / كمال رفعت . وبدلا من أن يثمر ذلك تغييره إلى الأحسن ، فإنه دفع البعض إلى التآمر المفضوح ، وكأنما كان الغرض الأهم لهؤلاء المتآمرين هو قطع الطريق على أى اتصال بين القيادة والشعب .

إلى أن حدث مقتل « صلاح حسين » فى قرية « كمشيش » وبأيدى عناصر الثورة المضادة . عندئذ أحس عبد الناصر بالخطر ، ودخل بكل ثقله فى معركة تصفية الإقطاع ، وانتعشت الآمال التقدمية فى تدارك الموقف المتدهور داخليا . ونشطت العناصر اليسارية فى التوعية بمخاطر الاحتمالات المقبلة ، حيث لم ينس الاستعمار ثأره فى هزيمة سنة ١٩٥٦ ، وحيث كان يعانى من جراء ما حدث فى الجزائر واليمن وغيرها من بلاد أفريقيا السوداء . وحيث مصر اليوم مجهدة اقتصاديا ومفككة أوصالها .

لكن الأمور لم يتعدل مسارها ، ولم تستطع كل القوى التقدمية وعلى رأسها الزعيم جمال عبد الناصر أن تفعل شيئا قابل .. الأمر الذى مهد الطريق لنجاح المباغتة الإسرائيلية التى ألحقت الهزيمة المفجعة بالجيش المصرى فى حرب يونيو سنة ١٩٦٧

١٦ - مرارة الهزيمة

كانت الهزيمة صدمة مروعة لكل المشاعر الوطنية ، وترتب عليها من الإحباط والشعور بخيبة الأمل ما جعل عبد الناصر يتنحى عن مركزه فى السلطة . لولا وقوف الشعب ضد رغبته ، ولأن وطأة الهزيمة كانت ثقيلة فإنها حطمت جهاز القيادات العسكرية وفى مقدمتها المشير عبد الحكيم عامر ..

وكان لابد من إعادة الحسابات السياسية والعسكرية ، حيث كان الهدف البعيد لتلك الهزيمة هو تحويل مجرى التاريخ المصرى والعربى إلى طريق الاحتواء فى احضان الامبريالية من جديد ، بحيث تنتكس كل المكاسب التى تحققت ، وتصبح مصر دولة تابعة للنفوذ الراسمالى العالمى مثلما كانت فى الماضى . ومن خلال هذه التبعية تتم تصفية القضية الفلسطينية ، وتخمد نيران الصراع ضد الاستعمار فى المناطق المحيطة .

ولم يكن هناك ظرف يتطلب حشد كل الفصائل الوطنية أفضل من هذا الظرف ولا أشد ضرورة منه ، وبدأ اليساريون يحاولون العمل على لملمة الشتات الممزق لكى تستأنف المسيرة الوطنية من جديد . وتطوع بعضهم للعيش فى المناطق المحتلة من العريش أو غزة لكى ينظم المقاومة ضد الاحتلال . ولكن الذين مهدوا للهزيمة كانوا مصرين على استمرارها . فلم يمدوا أيديهم إلى هؤلاء اليساريين ، بل بدءوا يدسون لهم ، وبخاصة بعد المظاهرات الاحتجاجية للطلبة فى بداية سنة ١٩٦٨ . حيث صدرت أحكام هزيلة ضد بعض العسكريين لمسئوليتهم عن الهزيمة .

وفى ٣٠ مارس سنة ١٩٦٨ أصدر عبد الناصر بيانا حاول فيه الرد على جميع التساؤلات المثارة ، وقدم به دليلا جديدا للعمل الوطنى فى مرحلة ما بعد الهزيمة ، لكنه لم يقترب من حل عقدة التمزق بين القوى الوطنية . المبعثرة الجهود ..

وبدا للجميع أن عبد الناصر - وبالرغم من كل ما حدث - لا يستطيع التخلى عن الحكم الفردى المعتمد فقط على أجهزة الأمن ، وتقارير المخابرات ، علما بأنه كان معلوما للجميع أن تلك السياسة بعينها هى التى جلبت الهزيمة ..

وحاول المناضل القديم أن يعيد التذكير بتقاريره السابقة فقال: إن كل أجهزة الدولة ينبغى أن تخضع لرقابة الشعب عليها ، وذلك بفتح كل الطرق المؤدية الى النقد الصريح ، والتبصير بالعواقب الوخيمة لسلوك بعض القيادات التى تحولت بمواقعها التى تعمل فيها الى إقطاعيات ومراكز نفوذ ، تعيد إلى الذهن عهد امراء المماليك .. قال ذلك مكتوبا وارسله إلى عبد الناصر إبراء للزمة ، وكان يقوله أمام بعض المسئولين إبراء للذمة ايضا . ورخص لنفسه بعد ذلك أن يعلن رأيه للناس الذين يثقون فيه ، وكان يزعم أن مزيدا من الهزائم فى انتظارنا ما دمنا لم نغير منهج الحكم القائم على الخوف من الالتقاء بأعرض الجماهير . ومهما كانت النتائج التى سوف تسفر عنها حرب الاستنزاف فإننا لن ننجو من تلك الهزائم .

ويبدو أن الاستعمار قد استغل الاستمرار فى تلك السياسة ، وتوجه بضربته هذه المرة عن طريق تدبير مذبحة ايلول الأسود ضد الفلسطينيين فى عمان . فقد كان معروفا أن عبد الناصر هو الزعيم الحريص على حماية المنظمات الفلسطينية ، رغم تصاعد هجماتها ضد مصر بسبب قبول مبادرة « روجرز » التى بمقتضاها تم وقف إطلاق النار . ومن ثم استثارت المخابرات المركزية الأمريكية صدامات « ايلول » الأسود بين الملك حسين والمنظمات الفلسطينية . وبدأت الصدامات من محاولة إخضاع المنظمات للأوامر العسكرية للقيادة الاردنية . تلك القيادة التى خشيت من تصاعد ثورة المقاومة الفلسطينية على النظام الاردنى بعد وقوع محاولة لاغتيال الملك حسين فى يونيو سنة ١٩٧٠ أعقبتها محاولة أخرى فى أول سبتمبر من نفس العام .

وفى ١٦ سبتمبر راس الملك حكومة عسكرية شكلها ، وقام الجيش الأردنى بتطويق العاصمة ، ولم يلبث أن بدأ الصدام مع المنظمات بهدف إجلائها عن عمان ، ومعظم المدن الأردنية . وكان واضحا أن هذا الصدام تتعاطف معه التهديدات السافرة من الولايات المتحدة الامريكية بالتدخل المباشر لو تدخلت سوريا او العراق ، والتحركات السريعة لحاملات الطائرات فى شرق البحر الابيض ، والمسارعة إلى تسلبيم طائرات الفانتوم لإسرائيل ، واستمر الصدام يتصاعد إلى أن انعقد فى يومى ٢٢ ، ٢٣ سبتمبر اجتماع الملوك والرؤساء العرب الذى دعا إليه عبد الناصر .. وفى ٢٧ سبتمبر تم توقيع اتفاق وقف إطلاق النار بين الملك حسين وياسر عرفات . وبعد وداعه للأمير الكويت فى يوم ٢٨ سبتمبر سقط عبد الناصر صريعا لإعياء مفاجىء انهى شعلة حياته .

كان المناضل القديم إذ ذاك نزيلا مرة أخرى بليمان طرة ، فقد تم القبض عليه وعلى مجموعة من الأدباء فى ليلة ٩ سبتمبر سنة ١٩٧٠ لسبب لا يعرفه ، وقد اتضح له فيما بعد أن بعض مزتزقة النظام كتب تقريرا إلى المخابرات العامة وأوهمها شدة حرصه على النظام ، فقامت بالتحفظ على هؤلاء الأدباء الذين كانوا يطلقون على أنفسهم « أدباء الرصيف » ومعهم ذلك المناضل القديم ، الذى فوجىء بالأمر . وقد بقى بعد ذلك بضعة أسابيع كانت أقسى على نفسه من كل سنوات السجن والاعتقال فى الماضى ، إلى أن خرج فى أوائل نوفمبر سنة ١٩٧٠ .

المهم أن وفاة عبد الناصر كانت إيذانا بأن كل شىء سوف يتغير ، ومن أجل ذلك خرجت مصر كلها تودع جثمانه وتصرخ من أعماقها لفقده ، وتبكى فيه مصيرها من بعده ، فكأن كل أهل مصر كانوا يتوقعون ما سوف يحدث من بعده لهم ، وللأمة العربية كلها .

وبالانتهاء من تشييع جنازته ، وتولى نائبه أنور السادات أسدل الستار على مرحلة من مراحل العمل الوطنى فى مصر ، وبدأت مرحلة أخرى .

□ □

الفصل الرابع عشر

مرحلة الســـادات

براعة الاستهـلال :

خرج المناضل القديم من « ليمان طره » وكان الآن قد صار فوق الخامسة والاربعين من عمره ، وأصبح زوجا وأبـا لطفلين صغيرين . خـرج ومعه « أدبـاء الرصيف » بعد أن اقتنعت سلطات الامن انهم لا يشكلون خـطرا عـلى الدولة بالمعنى المفهوم . وكان قد ترك هناك في « الليمان » بعض المعتقلين اليساريين الذين لا يعرفون أيضا لماذا تم اعتقالهم !! وعزم على توضيح وجهة نظره في سياسة الاعتقال بعامة ، وسياسة اعتقال اليساريين بشكل خاص .. ومن ثم كتب تقريرا أرسله إلى السادات الذى كان قد اعلن أنه جاء إلى الشعب على طريق عبد الناصر . طريق الميثاق الوطني ، وبيان ٣٠ مارس . والعمل على « إزالة آثار العدوان » وفي هذا التقرير شرح أن السبب الاساسى في وقوع هزيمة سنة ١٩٦٧ هو عدم الثقة في الشعب ، وإقصاؤه بعوازل المنتفعين والمرتزقة عن الالتحام بقيادته الثورية المتمثلة في الزعيم الراحل جمال عبد الناصر ، كما أوضح أن اللعب على التخويف من اليساريين كان ولا يزال هو الورقة التى يعمل بها أعداء النظام المتظاهرون له بالولاء .. واستخلص من كل ما عرضه في هذا التقرير ضرورة وقف هذه السياسة ، والإفراج عن المعتقلين السياسيين ، وبناء أعرض جبهة تقف خلف القيادة السياسية من غير حواجز لكى تنجح في إزالة آثار العدوان .

وكان عبد الناصر قبل رحيله قد وافق على وقف إطلاق النار لأجل ينتهى في ٥ نوفمبر سنة ١٩٧٠ ، لكن الرئيس السادات بعد مداولات ومناقشات لم يشأ التمسك بهذا الوعد السابق ، وإنما أعلن مد وقف إطلاق النار لثلاثة اشهر اخرى تنتهى في يوم ٤ فبراير سنة ١٩٧١ !!

وانتظرت الجماهير المتململة ما سوف يحدث بعد هذا التاريخ ، فالرئيس السادات قـد تم الاستفتاء عـلى رياسته ، وامتلك كل أدوات السلطة بين يديه ، ولابد أنه يريد أن يمسح عار الهزيمة عن جبين مصر !!

لكن يوم ٤ فبراير لم يكن نهاية لوقف إطلاق النار ، وإنما بدءا لمبادرة جديدة مد فيها السادات وقف إطلاق النار ثلاثين يوما اخرى على أن يتم خلالها سحب جزئى لقوات إسرائيل شرق القناة ، وفي مقابل ذلك يتم تطهير القناة وإعادة فتحها للملاحة الدولية .. وكانت هذه المبادرة تشبه اقتراحا لموشى ديان عرضه عـلى الحكومـة الاسرائيلية في اواخر سنة ١٩٧٠ ، ومضمونه ان تنسحب القوات الاسرائيلية عشرين ميلا شرقي القناة في إتجاه الممرات ، وان تعيد مصر فتح قناة السويس للملاحة الدولية [عرف ذلك فيما بعد] .

ودخلت مصر بعد ذلك في حوار ممتد حول مشروع « يارنج » الذى رفضته إسرائيل .. واتضح من خلال تلك المناورات السياسية للشعب صحة الشعار الذى أطلقه عبد الناصر إثر الهزيمة في ١٩٦٧ .. « ما اخذ بالقـوة لا يسترد بغير القوة » .

وأطلق السادات بالونته المعروفة بعام « الحسم » بينما استدار للعاملين معه فى قمة السلطة فصفاهم فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ وأصبح وحده المضطلع بالمسئولية الكاملة عن إدارة العمل الوطنى فى البلاد ، ولكى يوهم الجماهير بصدق نواياه فإنه لجأ إلى تمثيلية إحراق الأشرطة التى كان يستخدمها النظام فى تسجيل كل شىء عن ضحاياه . !!

وكجزء من برعة الاستهلال للعهد الساداتى راح يتغنى بالديموقراطية السليمة التى كانت شعارا معطلا طوال الفترة السابقة ، كما تغنى بصداقة السوفييت وقال فى مدحهم ما لم يقله المتنبى فى كافور الإخشيدى ، فهم الذين حضروا ومعهم الصينية يوم وفاة عبد الناصر . وهم الأصدقاء الذين يقفون معنا فى كل الأزمات ، وهم الذين يمدوننا بالسلاح الذى سوف نحرر به الأرض المغتصبة .. وهم وهم الخ .

وتتويجا لهذا المديح وبعد أحداث ١٥ مايو سنة ١٩٧١ بعشرة أيام فقط . وقع السادات مع بودجورنى رئيس مجلس السوفيت الأعلى معاهدة « الصداقة والتعاون » بين البلدين ، وقد نصت هذه المعاهدة على قيام صداقة راسخة لا تنفصم عراها بين البلدين والشعبين ، وأكدت بذل جهودهما للتوصل إلى سلام دائم وعادل فى الشرق الأوسط ، ودعت البلدين إلى التشاور على مختلف المستويات وبانتظام حول جميع المسائل الهامة التى تخص مصالحهما .

٢ - لعبة الخديعة :

لم يكن السادات مخلصا لسياسة سلفه من أولها إلى آخرها .. وقد كان يكيل المديح لعبد الناصر فى حياته . كما كان يكيل المديح للسوفييت بعد مماته .. لكنه كان يخفى نواياه وأهدافه الخاصة فى كلتا الحالتين . فهو مع عبد الناصر قد نقض كل البنيان الذى بناه ، أعوانه أقصاهم وصفاهم ، ووثائقه التاريخية ألغاها ونجاها ، وحتى تنظيم الاتحاد الاشتراكى حله واستعاض عنه بحزب مصر ، الذى تحول إلى الحزب الوطنى . وهو مع السوفيت الذين وقع معهم معاهدة « الصداقة والتعاون » كان يلقاهم بوجه ، ويلقى الأمريكان بوجه آخر .

كانت عينه على هدف الارتماء فى أحضان أمريكا وهو يفاوض السوفيت ، ففى الوقت الذى يرسل فيه الوفود تلو الوفود إلى موسكو ، كان يعد عدته للانتقاض على كل شىء تم الاتفاق عليه .

تماما مثلما فعل مع برنامج العمل الوطنى الذى قدمه إلى المؤتمر القومى فى يوليو سنة ١٩٧١ باعتباره تطبيقا اشتراكيا . بينما كان يعد العدة للتحلل من كل بند فيه . ولقد بالغ السادات فى سياسة الخديعة فجعل فى وزارته وزيرين ماركسيين . وهو لم يكن يضمر للماركسيين إلا شر الوان العداء .

كان المناضل القديم فى تلك الفترة ، بين الترقب والارتياب ، وكانت حركة الشارع المصرى يسودها التذمر من الوقوف موقف « اللا حرب واللا سلم » ، وقد عبرت الجماهير الطلابية عن هذه الحركة باعلان رفضها للاستمرار فى تلك السياسة ، وأظهرت احتجاجها العنيف أكثر من مرة .. وأصبح على السادات أن يقدم لتلك الحركة ما يشغلها ريثما يستجمع قوته .

ومن أجل ذلك فإنه قام بزيارة الاتحاد السوفيتى فى شهرى فبراير وابريل سنة ١٩٧٢ ، وعاد من كل زيارة ليدلى بتصريحات راضية عن النتائج التى توصل إليها . وفى شهر مايو زار الماريشال جريشكو وزير الدفاع القاهرة . وكذلك فى يونيو زار الفريق صادق موسكو وعاد أيضا مطمئنا إلى نتائج زيارته .

وبينما الانطباع العام عند الجماهير من تعدد تلك الزيارات هو تدعيم الصداقة والتحالف خدمة لهدف إزالة آثار العدوان أصدر السادات قراره فى يوليو سنة ١٩٧٢ بطرد الخبراء السوفيت من مصر ..

وهنا انزعج المناضل القديم ، وعبر عن انزعاجه بطريقته التى تعود عليها منذ أصبح فردا لا ينتمى لتنظيم .. فكتب مرة أخرى إلى السادات لكى يوضح رأيه فى هذا القرار الذى اعتبره منافيا للحكمة السياسية إن كنا لم نزل بعد على الولاء لإزالة آثار العدوان ، وللصداقة التى جعلنا لها معاهدة لم يمض على توقيعها أكثر من عام .

كان يعلم أن هذه الكتابة لن يكون لها أى أثر ، ولكنه كان يعزى نفسه بأنه أراحها وعبَّر عما بداخله ، وكان يمنى قلبه بأن يكون هناك آخرون يصنعون نفس الصنيع فيشعر السادات بنوع من الإعتراض على هذا الاتجاه .

واكتشف أن هناك من شاركه رأيه وكتب حول هذا المعنى معترضا على الإساءة إلى علاقاتنا مع الأصدقاء .. واستبان للجميع أن السادات فى الظروف الحالية يدير وجهه عن الاتحاد السوفيتى إلى الولايات المتحدة الأمريكية من خلال التحليلات والتعليقات التى انسابت فى صحافة الغرب .

وساد القلق كل الأوساط الوطنية خوفا من تجميد الوضع على شاطىء قناة السويس إلى أجل غير مسمى . وانفتح الباب للمساومات الأمريكية بغية توفير الحل السلمى طبقا لشروط من هنا ، وشروط من هناك .

٣ ـ الانتظار الممل :

وهكذا بقيت مصر فى وضع المنتظر منذ انتهى عام الحسم بدون حسم ، وعبَر عام آخر ملىء بالمفاجآت والتردد . وأعقب القرار المصرى بإنهاء مهمة الخبراء السوفيت مبادرة أمريكية أجراها الدكتور كيسنجر دعا فيها إلى محادثات سرية . ذلك لأنه قد ظفر أخيرا بما كان قد لوح به سنة ١٩٧٠ من ضرورة طرد السوفيت من مصر . وجاءت مبادرته تلك فى ٢٦ يوليو ١٩٧٢ ، ووافق عليها السادات من فوره لأنه كان ينتظرها . ولأن السياسة الأمريكية قد أحرزت النجاح فى دق إسفين بين مصر والإتحاد السوفييتى ، ولأنها مدركة تماما لضعف الموقف المصرى الذى تحتل أرضه اسرائيل منذ سنوات طوال . فإنها بدأت تحاول إملاء وجهة نظرها على الموقف . وأرسل الدكتور كيسنجر فى ٢٩ سبتمبر من نفس العام رسالة إلى السادات .. وكان الإصرار فيها على بعض الشروط دليلا على الاستخفاف بوزن مصر . فبينما كان السادات يطلب انسحابا جزئيا من شرق القناة . جاءت رسالة كيسنجر لتؤكد أن بدء المباحثات يجب ألا تسبقه أية شروط !! وأن هدف الخطوة الأولى للمباحثات هو تحديد ما يمكن تحقيقه « عمليا » وأن التقدم فى المباحثات يجب أن يكون محكوما بالقرار رقم ٢٤٢ الصادر عن مجلس الأمن !!

فى هذه الأثناء كان المناضل القديم لم يفقد حماسه ، على الرغم من اقترابه من سن الخمسين . لكنه كان مشدودا إلى عمله الوظيفى فى التربية والتعليم ، ويحاول انفاق كل طاقته فى مهنته التى يحبها ، ولم يكن ذلك يمنعه من متابعة الأحداث السياسية والانفعال بها .. وكثيرا ما كان يقول : السياسة دائى وبلائى . ولا التمس من غيرها شفائى .

قرأ مضمون الرسالة فى بعض الصحف الأجنبية . ورأى فيها صورة من رسالة بيفن للنقراشى فى سنة ١٩٤٥ . واشتد حنقه وضيقه مثلما حدث فى الماضى ، لكن هذا الحنق وهذا الضيق . لم يستطع أن ينقله إلى موقع التفكير الإيجابى فى خطة للخلاص ، أو لبدء الخلاص على الأقل . كما حدث إذ ذاك !! فهو فى الماضى كان شابا مندفعا قادرا على التحرك وتحريك الشباب إلى ما يريد .. أما الآن فإنه شيخ ولو أراد الحركة فإن من حوله ليسوا سوى موظفين مجهدين مثقلين بالأعباء !!

وهكذا لم يجد بدا من الكتابة إلى بعض الأصدقاء القدامى يطلب إليهم إبداء الرأى فى مخاطر الطريق المزرى الذى وصلنا إليه .. طريق الخضوع للاتجاهات الأمريكية الممالئة لإسرائيل .

وفي بداية سنة ١٩٧٣ حدثت اتصالات بالجانب السوفيتي كان هدفها التخلص من آثار القرار الخاص بإعفاء الخبراء عن العمل في مصر ، وانتعشت الآمال مرة أخرى في دعم الموقف العسكري المصري ، بحيث نستطيع أن نضع حدا لمأساة التلاعب الامريكي بمصير الحل السلمي الذي تريد الولايات المتحدة من ورائه تحقيق المغانم لإسرائيل . وكان من الواضح أن الصدام لابد منه فالشعب لم يعد قادرا على الاستمرار في وقف إطلاق النار . وأن المسألة مسألة وقت لاغير . لاغير .

صحيح أن السادات وحكومته كانوا متهمين بعدم الجدية في خوض حرب ضد إسرائيل . وصحيح أن المفاوضات مع الامريكان كانت ولا تزال موصولة ، وصحيح أن الامريكان كانوا لا يزالوت يعملون على تفويض الصداقة السوفيتية لمصر .. لكن كل ذلك لم يكن ليقف عقبة في طريق الحرب من أجل تحرير الأرض . ومن أجل ذلك وقف السادات في عيد العمال يدعو إلى المواجهة الشاملة ، وكسر الجمود الذي تريد امريكا واسرائيل فرضه علينا ، واتهم الرئيس الامريكي بأنه اقر رفضه العدوان على مصر سنة ١٩٦٧ . وقال إن هدف الولايات المتحدة هو الحفاظ على وقف إطلاق النار ومحاولة أن تحقق بالمفاوضات ما عجزت إسرائيل عن تحقيقه بالحرب .. وأعلن أن مصر ترفض حلا مرحليا أو حلا منفردا ، وطلب بدء المواجهة الشاملة التي يتسع نطاقها إلى ميدان الطاقة ، وقال إن مهمتنا الأولى هي تحرير الأرض .. ودعا إلى قيام كل عربي بمسئوليته . كما دعا إلى تعبئة الدول غير المنحازة والإفريقية .

وبعد هذا الخطاب الذي جاء انعكاسا للطريق المسدود الذي وقعت فيه القضية اهتم كل من بريجنيف ونيكسون بإبداء الرأي والنصح للحكومة المصرية . بريجنيف من أرضية عدم الثقة في مستوى التدريب العكسري وتدريب الكوادر . ونيكسون من أرضية الحرص على امن إسرائيل الذي وضعه في مقابل اهتمام العرب بالسيادة . واقترح الحل من خلال سياسة خطوة خطوة ..

وفي يونيو ١٩٧٣ وبعد انعقاد قمة واشنطن الذي اطلق عليه « قمة الوفاق » بدأ الإعلام المصري يهاجم السوفيت على أساس أن عهد الوفاق قد أنهى دور الاتحاد السوفيتي في المنطقة العربية ، وبالطبع لم يفت الوفاق في عضد الشعب المصري ، وراح يتهيأ نفسيا لموقعة قادمة ، ولكنه ومن طول معاناته كان غير واثق من جدية الاتجاه إلى الحسم الذي طالما سمع عنه دون أن يراه .

٤ ـ ملحمة العبور :

واقتحم الجيش المصري بجنوده وضباطه « البواسل » قناة السويس في يوم ٦ اكتوبر سنة ١٩٧٣ . وفتحوا الثغرات في الساتر الترابي ، وانشئوا الكباري ، وأخذوا يتدفقون إلى الشاطيء الشرقي في حماية المدفعية المصرية والطيران المصري . وبسرعة فائقة تمكنوا من حصار خط « بارليف » على مسافة ١٧٠ كيلو مترا من بورسعيد ، وحتى السويس ، ولم ينتصف ليل هذا اليوم إلا وكانت الدبابات والمدفعية الثقيلة قد عبرت إلى شرق القناة .

وفي نفس الوقت الذي بدأ فيه الاقتحام المصري بقوة الطيران ، كان هناك اقتحام مماثل على الجبهة السورية .

ولقد واكب التحرك العسكري على الجبهتين موقف عربي موحد .. تم من خلاله حصار باب المندب ، ومنع جميع السفن المتجهة إلى إيلات عبر البحر الاحمر . كما تم من خلاله القيام بالمساندة الفعالة للقوات الضاربة .

وطار الدكتور كيسنجر إلى السعودية والأردن ـ وطلب من الملك فيصل التدخل لدى كل من مصر وسوريا لوقف العمليات ، مهددا بأن إسرائيل سوف تتمكن من دحر الهجوم العربي . لكن الملك فيصل لم يستجب لمطلب

كيسنجر ، ورفض المبادرة الأمريكية ما لم يتقرر انسحاب اسرائيل من الأراضى المحتلة ، والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطينى .. ولم يكتف الملك بذلك وإنما بعث إلى السادات برقية يؤكد فيها أننا نقف بجانبكم بكل امكاناتنا .

وواصلت القوات المصرية تقدمها فى يوم ٧ إلى ان بلغت القنطرة شرق ، على الرغم من الهجوم المضاد الذى كانت تحاوله إسرائيل - واستمر التقدم يومى ٨ ، ٩ بينما كان الوضع على جبهة الجولان متجها إلى التراجع !!

وانفتح الباب على مصراعيه للاتصالات الدولية بهدف وقف القتال . وبدا للولايات المتحدة الامريكية أن إسرائيل فى مأزق صعب . حيث عجزت عن هزيمة قواتنا على نحو ما كانت تتوقع .. ومن هنا بادرت امريكا إلى اتخاذ إجراءات عسكرية فى شرق البحر الأبيض ، بغرض حرمان السوفيت من حرية العمل فى هذه المنطقة . فأرسلت حاملة طائرات من اثينا لكى تكون على مقربة من مسرح العمليات ، بينما الغت إجازات ضباط وجنود الجيش السادس الأمريكى .. وكان ذلك فى يوم ٧ اكتوبر اى بعد العبور بيوم واحد .

وبحلول يوم ١٠ اكتوبر كان الموقف على الجبهة السورية يتعرض للانهيار . وكان قد اتضح للقيادة المصرية أن امريكا قد أقامت جسرا جويا ينقل الأسلحة والمتطوعين إلى إسرايل ، بل وفى يوم ١٣ رصدرت القوات المصرية طائرة استطلاع امريكية تجوب السماء المصرية من بورسعيد حتى السويس حتى القاهرة فالدلتا إلى ان خرجت من غرب الاسكندرية .. وعندئذٍ وبالرغم من كل الانتصارات التى تحققت عمدت السلطة المصرية إلى تقديم غصن الزيتون ، فى شكل رسالة بعثت بها إلى كل من الحكومتين الأمريكية والسوفيتية عرضت فيها وقف إطلاق النار وانسحاب القوات الإسرائيلية إلى خطوط ما قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ تحت إشراف عقد مؤتمر سلام بإشراف الأمم المتحدة تشترك فيه الأطراف المعنية بما فى ذلك الفلسطينيون والدول الكبرى .

وعاد إلى ذهن المناضل القديم ما وقع عام ١٩٤٩ من إيقاف القتال أثناء الحرب العربية الاسرائيلية الأولى . وأحس بأننا على أبواب هزيمة جديدة ، ولم يلبث أن صدق حدسه ففى يوم ١٤ اكتوبر بدأ انقلاب الصورة . حيث دارت المعارك ومنيت مصر بخسارة حسيمة فى الدبابات وفى يوم ١٥ اكتوبر بدات إسرائيل هجومها المضاد - وفى يوم ١٦ اتوبر حدث العبور المضاد من شرق القناة إلى غربها ، واعلنت رئيسة وزراء إسرائيل فى الكنيست . أن جيش الدفاع الإسرائيلى تعمل بعض عناصره الآن إلى الغرب من قناة السويس . وتقاتل فى إفريقيا !!

وجاء كوسيجين إلى مصر ، ومكث بها ثلاثة ايام متوالية ، ثم عاد إلى بلاده ليبدأ البحث عن حل لمشكلة الشرق الأوسط من خلال دعوة لوقف إطلاق النار فى المواقع الحالية . وكانت المواقع الحالية قد أصبح فيها الإسرائيليون فى مدينة السويس او حولها ، ويقطعون طرق الإمدادات للجيش الثالث المصرى فى شرق القناة !!

وأخذت الإدارة الامريكية تغدق البلايين على إسرايل .. وأعلنت الدول العربية حظر صادرات البترول .. ولكن الحرب كانت قد تقررت نتائجها وأجهض نصر الاقتحام العظيم . وانقلب الحال إلى صالح إسرايل وامريكا لفترة طويلة ثقيلة .

٥ - هموم وأحزان :

صدر قرار مجلس الأمن بوقف إطلاق النار منذ يوم ٢١ اكتوبر ، ولكن إسرائيل لم تلتزم به ، الأمر الذى دعا إلى اتخاذ أكثر من قرار بعد ذلك . وحتى يوم ٢٥ اكتوبر لم تكن إسرائيل تسمح بتوصيل امدادات المياه للجيش الثالث . وبدأ القلق يستبد بالشعب وبالمسئولين فى وقت واحد .. وطلبت القيادة المصرية من واشنطن المساعدة فى الاتفاق على إرسال مواد طبية للجيش الثالث ، وقال السادات فى طلبه : إن استمرار الموقف الإسرائيلى سوف يؤثر

على زيارة الدكتور كيسنجر للقاهرة ، التى نعد لها مقترحات نرجو ان تكون نقطة تحول نحو إقامة سلام دائم »

وكانت الاستجابة الفورية من كيسنجر الذى طلب من إسرائيل السماح بمرور قولات أطعمة ومياه وأدوية إلى السويس والجيش الثالث . ومع ذلك فإنها لم تستجب بل بادرت بشن هجمات برية وجوية على مواقع الجيش الثالث . وهكذا إلى أن رضخت مصر للاجتماع والتفاوض حول (وقف إطلاق النار والامداد) وبدأت المفاوضات المعروفة بمفاوضات الكيلو ١٠١ تحت إشراف الامم المتحدة فى يوم ٢٨ اكتوبر سنة ١٩٧٣ .. ولم تصل الامدادات إلا يوم ٢٩ اكتوبر ..

ولقد برزت خلال تلك الفترة خصائص الشعب المصرى فى كل من السويس . ومواقع الجيش الثالث الميدانى ، فالشعب المصرى فى السويس لم يركع أمام الهجوم الإسرائيلى وإنما قاومه واضطره إلى الخروج منها ، ولم يرهبه قطع الماء عنه بل قاوم وصمد وجلب الماء من كل طريق تيسر له .

اما جنود الجيش الثالث .. فقد احتملوا ما لا يمكن احتماله ، وصبروا على الجوع والظمأ ، والامراض من غير دواء .. أياما طويلة ، ومع ذلك فإن ذخيرتهم الحية كانت تنطلق على العدو كلما هاجم أو سعى إلى الهجوم .

ولم يكن أفراد الشعب فى داخل البلاد مصدقين بما وقع . كيف تحول نصر ٦ اكتوبر إلى محاصرة لأبنائنا فى الجبهة ؟ من الذى أوقعنا فى هذه المصيدة بعد أن كنا منتصرين وكان زمام الأمر فى يدنا ؟ لماذا توقف جيشنا منذ ١٠ اكتوبر عن التقدم والإقتحام بنفس المعدل الذى بدأ به ؟

ومن خلال تلك التساؤلات الحزينة رأى المناضل القديم ان فى الامر سراً سوف تكشف عنه الأيام . ورأى أن مفتاح هذا السر يكمن فى تلك الانفرادية التى حرص عليها « السادات » منذ أطاح بأعوانه فى ١٥ مايو سنة ١٩٧١ .. فهو منذ هذا التاريخ يتصرف فى مصر ، وأهل مصر ، كما كان يتصرف سلفه العظيم .. ينفرد باتخاذ ما يشاء من القرارات ، ويمليها من خلال ما يسميه بالمؤسسات ، ويقبل العاملون معه على تنفيذها دون أية مناقشات !!

لقد عكست رسائله يومى ٢٣ ، ٢٥ اكتوبر سنة ١٩٧٣ إلى كل من موسكو وواشنطن كل الهموم والاحزان التى منيت بها مصر ، فلقد كان مصير مدينة السويس ، والجيش الثالث الميدانى ، بل ومصير الأمة كلها فى كف القدر .

وبدلا من أن يحاسب السادات ومن معه على هذا المصير المحزن بدأت ، التبريرات ، والتماس الاعذار وقيل أن القوة العسكرية العربية التى جاءت بعد أسبوع من بدء الاقتتال إلى سوريا لم تكن معدة الاعداد الكافى ولذلك فإنها فقدت فعاليتها ، كما قيل إن قوة البترول العربية لم تدخل الا فى يوم ٢٠ اكتوبر أى بعد بدء المعركة باسبوعين وهذا اضعف المعركة .. كما قيل إن القوة العسكرية السوفيتية والسياسية ايضا لم تكن على استعداد للالتحام الكامل معنا فى اللحظات الفاصلة .. وعندما جاءوا فى ٢٣ ، ٢٤ اكتوبر ليلقوا بكل ثقلهم فى الحرب لم نكن نحن فى حالة تسمح بالتنسيق الكامل معهم . فقد هدد الأمريكان باحتمالات الصدام النووى على أرضنا ، ووعدوا باستخدام نفوذهم لدى إسرائيل . الأمر الذى جعل مصر تتراجع يوم ٢٥ اكتوبر عن طلب قوات مشتركة لتنفيذ وقف إطلاق النار .

لكن كل ما قيل كان جزءا من الحقيقة ، أما الجزء الرئيسى والاهم فإنه لم يقله أحد .. فلو لم يكن فرعون مصر باغيا لما أدركه وقومه الغرق . تلك هى « الحقيقة » التى سيطرت بنتائجها المحزنة على عيد رمضان المبارك فى ذلك الوقت .

٢ ـ تنبؤات مزعجة :

أصبح الصباح فى يوم عيد الفطر الحزين ، وانتقل **المناضل القديم** إلى قريته للاشتراك فى تقبل التعازى فيمن مات له من الأقرباء المقربين .

وهناك فى المنزل الأثرى للأسرة . تجمع القادمون من هنا وهناك لكى يقوموا بواجب العزاء . وكان الكثير منهم من هواة الثرثرة فى المجالس العامة ، فأخذوا يتناوشون بالرأى الارتجالى حول الحرب ، والحصار ، والثغرة ، وموقف الدول الكبرى من مصر وإسرائيل . الخ . وكان المحور الذى تدور حوله المناوشات تلك المعاناة القاسية التى يعانيها الجيش الثالث شرقى القناة ، وأبناء مدينة السويس المحاصرة . وتناثرت الأخبار المزعجة عن الشهداء والمفقودين ، والمصابين الخ .

وامتد حبل الأحاديث ، وتشعبت بها المسالك ، وتخللتها بعض الألفاظ الريفية الحادة . وكان الاتجاه الغالب على تلك الأحاديث هو اتجاه الحيرة والشك فى صحة الأخبار التى تذيعها إذاعة الوطن ، وترجيح صدق الأخبار التى تذيعها الإذاعات الأجنبية وبخاصة إذاعة لندن و إسرائيل .

كل ذلك يحدث بينما هو غارق فى صمت عميق لم يحاول معه حتى المشاركة بالنظر إلى وجوده المتحدثين .. وفجأة طلب إليه بعض الحاضرين إبداء رأيه فيما أثير من موضوعات .. ذلك لأنهم لم يتعودوا منه السكوت فى مثل هذه المواقف من قبل .

ولكنه امتنع عن الحديث معتذرا بأنه متوعك ، ولا يستطيع المشاركة بالرأى فى كل هذه المسائل المثارة .. وكان واضحا أن هذا الاعتذار مجرد ستار يريد أن يختفى وراءه حتى لا يعرف أحد رأيه .. ومن ثم عادوا إلى الإلحاح عليه ، واستثاروا فيه الكوامن القديمة عندما قال أحدهم : إن المأساة التى تحدق بالوطن أكبر من كل التوعكات ، وأنت قد عودتنا السبق فى مثل هذه الظروف لا إلى القول فقط ، بل إلى العمل والتضحية مهما تكن النتائج . وإذا لم يعرب المرء عن رأيه فى مثل تلك الحالات التى نحن عليها فمتى وأين ينبغى له الإعراب عن رأيه ؟

وأمام هذا الإلحاح المثير فإن الكلمات بدأت تجرى على لسانه وأصغى الجميع .. قال **المناضل القديم** : نحن فى حرب فعلية مع الأعداء منذ السادس من **أكتوبر سنة ١٩٧٣** .. والحرب بطبيعتها تحتمل النصر ، كما تحتمل الهزيمة . وإذا كانت هذه الحرب التى نخوضها قد أعطتنا حلاوة النصر فى بدايتها ، فإن أعداءنا قد أرادوا الثأر لأنفسهم حتى لا تطول سعادتنا بهذا الانتصار الذى أحرزناه فى البداية . ولقد تم لهم النجاح فيما أرادوا ، ففتحوا ثغرة نفذوا منها ، واقتحموا القناة مثلما اقتحمناها نحن فى أول الأمر . ثم هاجموا مدينة **السويس** ، وأقاموا حصارا محكما على طرق الإمدادات للجيش الثالث !! وأصبحت الحرب تدور على أرضنا نحن شرقى وغربى قناة السويس !! لكن هذا النجاح ليس نهاية العالم .. وحتى لو انهزمنا هذه المرة أيضا فإننا نستطيع الانتصار مرة أخرى ولو طال المدى . وإذن فإن الحزن على فقد الأبناء . واستشهادهم لا ينبغى أن يكون له من نفوسنا أى مكان !! فقط يجب أن تمتد أبصارنا إلى المستقبل بكل احتمالاته لكى نرتب أنفسنا على مواجهة تلك الاحتمالات مهما تكن قسوتها .

وعندئذٍ تقلقل فى مجلسه شيخ هرم كان قد اشترك فى الحديث منذ قليل . ودعا **المناضل القديم** إلى الافصاح عن تلك الاحتمالات المستقبلية كما يراها .

فقال **المناضل القديم** أيا سيدى أنا لست عرافا ، ولا منجما ، ولا أستطيع الرجم بالغيب . لكننى قد سمعت كما سمعتم مقالة رئيس الجمهورية التى حددت موقفه من مسار الحرب بعد أن اكتشف حجم المساعدات الأمريكية العاجلة التى تلتقها إسرائيل .. وأظنهكم فهمتم كما فهمت من تلك المقالة أن الحرب قد تقرر مصيرها بإعلان الرئيس : أننا لا نحارب أمريكا .. فالمعنى الواضح لهذا الإعلان أن الرئيس منذ اليوم سوف يخضع للمشيئة

الامريكية التى فرضت عليه قوة إسرائيل ، ولم تتركه لينعم بنشوة الانتصار عليها .
قال الشيخ المتقلقل : وهل تقبل روسيا بذلك ؟
قال المناضل القديم : لا أعتقد انها تقبل ، ولكن قبول صاحب المشكلة هو الأساس ، فالصداقة كما نعرف جميعا لها قوانينها الخاصة بها . ومن أول هذه القوانين حرية اختيار الصديق وفقا لوجهة نظر من يختار وليس لوجهة نظر طرف ثالث .. وأظننا نعرف أن كثيرا من الأصدقاء نفاجئهم الايام بأنهم كانوا مخدوعين عند اختيارهم للأصدقاء الذين اثروهم . وأن كثيرا من الاعداء ينقلبون مع الأيام إلى أصدقاء .. هذا بالمستوى الشخصى العادى . وأما بمستوى الدول فالمسألة مسألة المصالح التى تخدمها علاقات الصداقة أو العداء . وعلى راس هذه المصالح فى معظم الأحيان تلك المصالح الاقتصادية .
قال الشيخ المتقلقل : وأية مصلحة اقتصادية فى أن نصادق الذين يدعمون اعداءنا ؟
قال المناضل القديم : حتى الآن نحن لم نصادق اعداءنا .. ولكننا سوف نصادقهم .

ـ والعرب ؟ قالها الشيخ فى دهشة واستنكار . فأجابه **المناضل القديم قائلا** : إن العرب فى نهاية الأمر لن يستطيعوا قتال اسرائيل إذا تخلت مصر عنهم . ويخيل إلىّ إن رئيس الجمهورية قد حسب حساباته ، ورتب نفسه على العمل وفق خط سياسى جديد . خط يضع فى مقدمة حيثياته أن تجاوز الواقع الحالى لن يكون إلا بأجيال أخرى من العرب القادمين مع المستقبل غير المنظور .

وانتفض الشيخ منزعجا وصاح : معنى أننا الآن مرغمون على التسليم بالأمر الواقع رغم مرارته وان علينا أن نعانى ولسنوات اخرى من آثار الهزائم حتى تأتى تلك الأجيال الجديدة من العرب ، وأن كل تلك التضحيات التى قدمناها منذ أربعينات القرن العشرين وحتى الآن قد ضاعت هباء !! بالخيبة الأمل الكبرى إذا صح هذا الكلام !!

عندئذٍ اهتز المجلس بصوت أحد الشباب القادمين من الجبهة لمناسبة العيد قائلا هذا هو الواقع !! واتجهت الانظار كلها إليه وكأنها تسأله الإيضاح لرأيه فقال : نحن لا نستطيع الاستمرار فى القتال حاليـا مع إسـرائيل إلا بمشاعر الراغبين فى الانتحار !!

وهنا قطع عليه **المناضل القديم** حبل تفكيره حتى لا يسترسل فى الحديث ، وقال بدلا عنه حقيقة التصريح الذى أفضى به السادات لا يدل على أنه يرغب الاستمرار فى القتال . وتبعا لذلك فإننا نستطيع القول بأنه سوت يعمد إلى المهادنة والمسالمة ما استطاع إلى ذلك سبيلا . بل ولربما وضع يده فى أيدى الإسائيليين ووقع معهم معاهدة شبيهة بتلك التى وقعتها مصر مع الانجليز فى عام ١٩٣٦ . ذلك لأن سيادته ليس من طينة الزعماء الذين لا تهمهم أمريكا ، فيعلنون استعدادهم للحرب معها عشرين سنة بعد عشرين سنة سابقة إلى أن يرغموها على الانسحاب كما هو حادث فى فيتنام ..

وعند هذا كان قد استشعر الخطر من الاستمرار فى سوق التنبؤات المزعجة على هذا النحو فتوقف عن الحديث زاعما انه قد تأخر عن موعد هام ولاذ مسرعا بالانصراف .

وكأنما تلك التنبؤات كانت قراءة فى صفحات المستقبل الذى جاءت به الايام بتلسلها على النحو التالى :

٦ ـ العم سام يكسب الجولة :

فى التاسع والعشرين من اكتوبر سنة ١٩٧٣ التقى اسماعيل فهمى بالدكتور كيسنجر لكى يفهمه أن الهدف من هذا اللقاء هو إزالة التوتر الذى كانت عليه علاقات البلدين مدة ٢٠ عاما . وأن الرئيس السادات يريد تعديلا جوهريا تجاه الولايات المتحدة واسرائيل !! [عرف ذلك فيما بعد]

وقال كيسنجر إنه لا يريد أن يبدد جهده من اجل تحقيق هدف صغير هو إعادة إسرائيل إلى خط ٢٢ اكتوبر ، بل يفضل التركيز على دعم وقف إطلاق النار لكى يصبح منطلقا لمفاوضات السلام كما أبدى رأيه فى تعطيل ضخ البترول العربى إلى الولايات المتحدة ، وقال إنه لا يستحث جهود السلام !!

وهكذا بدأت مصر تترضى العم سام وبدأ العم سام على رأيه . ولم يكن فى وسع مصر التى تواجه عند الكيلو ١٠١ مفاوضات مع واقع الهزيمة التى لا يتنازل الإسرائيليون فيها عن أى شىء من غير ثمن لرفع حصارهم عن منطقة السويس إلا أن ترضخ لما يراه العم سام .

وبالفعل وافقت مصر من خلال إتفاقية النقاط الست التى تم توقيعها يوم ٩ نوفمبر سنة ١٩٧٣ على ما رأته امريكا فى « واشنطن » وجاءت النقطة الأولى لتقول :

- إن الاتفاق قد تم على التركيز على التسوية العامة بدلا من الإصرار على عودة الإسرائيليين إلى خط ٢٢ اكتوبر .. كما جاءت النقطة الأخيرة لتقرر .
- الاتفاق على إعادة العلاقات الدبلوماسية بين مصر والولايات المتحدة الامريكية . وكان هذا هو المراد من رب العباد « فض الاشتباك مع الولايات المتحدة الامريكية » وليس مع إسرائيل !! فهى وحدها القادرة على تحريك الموقف بدون التعاون مع الاتحاد السوفيتى .

ولما اصرت إسرائيل فى مباحثات الكيلو ١٠١ على عدم مناقشة العودة إلى خط ٢٢ اكتوبر طالبت مصر بتحقيق فض الاشتباك مباشرة وفورا .. لكن الدكتور كيسنجر رد بأن فك الاشتباك سيكون أول الموضوعات على جدول اعمال مؤتمر السلام . وليس شرطا مسبقا لعقد المؤتمر . فلقد كانت للولايات المتحدة خطط عملها وتوقيتاتها .

وهكذا يتأكد انه لن يكون هناك إلا ما يريده العم سام !! ودليل ذلك أن كيسنجر هو الذى اتفق مع الطرفين فى اوائل ديسمبر سنة ١٩٧٣ على الإطار العام لفض الاشتباك .. وتضمن هذا الإطار انسحاب اسرائيل إلى مسافة ٣٠ كيلو مترا شرقى القناة ، وتخفيف القوات المصرية فى شرق القناة . على أن تفصل بين الطرفين قوات دولية ثم أعلن فى نهاية زيارته للقاهرة ان الفصل بين القوات سيكون على رأس الموضوعات التى سوف تبحث فى المرحلة الأولى لمؤتمر جنيف ..

ومن جديد عادت مصر إلى دوامات المفاوضات والمحادثات ، والمساومات التى كانت قد انتهت منها منذ عام ١٩٥٤ !!

وفى ٢١ ديسمبر سنة ١٩٧٣ انعقد مؤتمر السلام بجنيف وحضرته مصر والاردن وإسرائيل بينما تخلفت سوريا .. ومكث انعقاد المؤتمر أياما دونما نتيجة تذكر !! ثم جاءت اتفاقية فك الاشتباك رقم ١ التى ابرمت أسسها فى فندق كتراكت باسوان بين كيسنجر وانور السادات . وبمقتضى تلك الاتفاقية أصبح من حق مصر الاحتفاظ فى شرق القناة بفرقتين و ٢٠٠ دبابة مع عدم وضع مدفعية أو صواريخ أرض جو .. كما أصبح من حق إسرائيل بأن تستبقى قواتها إلى الشرق من سيناء .. على أن تكون المنطقة بين قوات البلدين منزوعة السلاح وتعمل فيها دوريات الأمم المتحدة .. ويجب أن يبدأ تطهير القناة وبناء مدن القناة عندما يتم الانسحاب الإسرائيلى على أن يسمح للسفن الإسرائيلية بعبور القناة عند فتحها ، وتم الإعلان عن تلك الاتفاقية فى مساء ١٧ يناير سنة ١٩٧٤ .

وظهر للجميع أن العم سام . هو الذى كسب الجولة ، فهو الآن يتحرك على المسرح السياسى فى المنطقة دون أن ينازعه أحد .. يقول فتمتثل كل من مصر وإسرائيل . على أن المثير انه كان يتحرك دائما من منطلق المحاباة الكاملة لإسرائيل ، الأمر الذى جعل السادات يطالب بالحيدة النزيهة بين الطرفين . ولم يبخل العم سام بالتظاهر بصورة

المحايد . وعلى ذلك فإن السادات في يوم ١٧ ابريل من نفس العام يدلى بتصريحاته التى يقول فيها . « لقد امكن تحييد امريكا فلم تعد تقع في معسكر إسرائيل وانها ستتعامل مع مصر وإسرائيل على قدم المساواة !!

٧ ـ التنكر للأصدقاء :

منذ شهر يناير سنة ١٩٧٤ ، كانت اللقاءات مع « العم سام » ممثلا في الدكتور كيسنجر تتم في الخفاء ، وكان ذلك تطبيقا لرأى أبداه كيسنجر عشية إجهاض نصر ٦ اكتوبر سنة ١٩٧٣ . الأمر الذى دعا القائد السوفيتى بريجنيف إلى أن يسأل اسماعي فهمى وزير الخارجية تقديم المزيد من المعلومات عن مباحثات كيسنجر .. وكان ذلك يوم ١٨ يناير سنة ١٩٨٤ . ...

ورد الرئيس السادات على ذلك بما يفيد إيثار عقد اتفاقية فض الاشتباك لأنه لم يكن ممكنا مناقشة تفاصيل الحل النهائى في مؤتمر جنيف نظرا لتغيب سوريا عن الاجتماع .. ولم ينس السادات مبالغة في التمويه أن يقول « إن مركزنا سيزداد قوة وفعالية باستمرار الدعم السوفيتى لقواتنا في مواجهة ما امدت به امريكا إسرائيل » . ودعا لدعم الصداقة بين البلدين !! ونسى السادات أو تناسى أنه من قبل أعلن يوم ١٧ يناير : أننا نتجه إلى تحقيق التوازن في علاقاتنا بالدولتين العظميين !!

وفى ٢٨ إبريل أعلن السادات أنه نظرا لعدم استجابة السوفيت لطلبات التسليح فقد قررت مصر تنويع مصادر السلاح !! ولم ينس مرة أخرى أن يموه بأننا نعمل على استمرار الصداقة ، ولا نعمل على سوء التفاهم !!

ولما طلب بريجينيف الرد على السؤال المحدد إلى أين نتجه ، وأهم من ذلك إلى اين يجب أن نتجه ؟ تحدث السادات بما يفيد أن الولايات المتحدة عرضت التسوية السياسية منذ ديسمبر الماضى ، وتحقق ذلك في اتفاقية فض الاشتباك في يناير سنة ١٩٧٤ . وكان من الطبيعى أن يحدث ذلك دونما استئذان من السوفيت فضلا عن انهم لا يملكون التاثير في الوضع . وقرر أن السوفيت لا يستريحون لاتجاهنا لتحقيق التوازن في العلاقات مع القوتين العظميين . وأضاف متحديا ! لقد أعطينا الامريكين اتفاقية ، وتسهيلات لخمس سنوات ـ ثم عاد للتمويه ، ولكننا سنبقى التسهيلات السوفيتية ، ومعاهدة الصداقة والتعاون ولو انها أصبحت غير ذات موضوع !!

وفى ١٤ اكتوبر وصل وفد مصرى كبير إلى موسكو ؛ وعلى رأس هذا الوفد كان إسماعيل فهمى وزير الخارجية وقدم خطابا للرئيس بريجينيف في صباح يوم ١٥ .. وعلى الرغم من كل الكلام المغلف الجميل ، فقد قيل إن بريجينيف رد ردا محددا بما يلى :(١)

١ ـ أبرم السوفيت عقود تسليح لمصر قيمتها ٥٢٦٧ مليون روبل . نفذ منها ما قيمته ٤٩٦٨ مليون روبل وتم في حرب أكتوبر تسليم ما قيمته ٦٠١ مليون روبل .

٢ ـ أن وقف إطلاق النار تم بطلب من مصر وسوريا ، وتم استصدار قرار بتطبيق فورى للقرار ٢٤٢ ويعقد مؤتمر للسلام . ولكنهم سمعوا بعد ذلك من الصحف عن توقيع اتفاقية فض الاشتباك ، وبينما الصداقة تلزمنا بتبادل الآراء .

ثم إن التعاون يفترض أن يتم « تبادل المنفعة » ولكن ذلك غير محقق ، فالاتحاد السوفيتى قدم التسليح والاقتصاد (١٥٠ مشروعا) وقدم قروضا طويلة الأجل ويريد الآن استرداد هذه الديون ، وأن ارتفاع أسعار الخامات يعتبر لمصلحة سداد مصر لديونها الآن . وهذا يناقش في القمة .

وطلب من وزير الخارجية أن ينقل للرئيس السادات انه سيزور القاهرة في منتصف الثانى من شهر يناير

سنة ٧٥ . وكان من المنتظر أن يفسح الرئيس السادات الطريق لتلك الزيارة التى أرسل الوفد الكبير لكى يطلبها ولكن الذى حدث هو العكس ، فقد تجاهلت القاهرة السوفيت ، واستبعدتهم من مباحثات كيسنجر التى كانت تدور فى جولة جديدة . فى ٨ ديسمبر سنة ٧٤ . الأمر الذى دعا السوفيت إلى التحذير من مخاطر التحركات الجزئية نحو التسويه النهائية المتفق على تحقيقها من خلال مؤتمر جنيف الذى كانوا يرجون انعقاده فى شهر فبراير سنة ١٩٧٥ .

وبدا أن السادات ماض فى طريق التنكر للأصدقاء القدامى ، ترحيبا بالأصدقاء الجدد ، ومن ثم لم يحضر بريجينيف للقاهرة ولم يدم التمسك بمؤتمر السّلام فى جنيف باعتباره الطريق المأمون الممكن – وحدثت تحولات جذرية فى السياسة المصرية تجاه كل من الولايات المتحدة وإسرائيل . فقد أعيد فتح قناة السويس للملاحة ، وحقق الأمريكيون اتفاقية ثانية لفض الاشتباك . وانتصرت سياسة الخطوة خطوة ، وتم الاسترخاء فى الجهود السياسية ، وخسر السوفيت معركتهم فى الشرق الأوسط بفضل سياسة السادات التى انتواها منذ شعر بهزيمة الدفرسوار بل ربما منذ سنوات قبل ذلك فى غشية توليه السلطة فى البلاد !!

٨ – فض الاشتباك :

بجهود أمريكية دءوب ، تم توقيع اتفاقية إسرائيلية مصرية لفض الاشتباك فى خريف سنة ١٩٧٥ . وفى إطار تلك الاتفاقية تقدمت امريكا باقتراح قبله الطرفان ، وكان هذا الاقتراح يقضى بإنشاء نظام للإنذار المبكر ، يتضمن محطة رقابة وإنذار مبكر استراتيجى لكل منهما ، ويديرها طاقم وطنى لا يزيد عدد أفراده عن ٢٥٠ فردا ، وثلاث محطات إنذار مبكر تكتيكى يديرها طاقم امريكى لا يزيد عدد أفراده عن ٢٠٠ .

واتفق البلدان على توفير المساعدات الأمريكية لتشغيل جهاز الإنذار المبكر المصرى ، والمنشا فى المنطقة العازلة .. والتزمت امريكا بالتشاور مع مصر فى حالة خرق إسرائيل للاتفاقية .

اى هوان هذا ؟ هكذا قال المناضل القديم عندما طالع الصحف ، وكان آنذاك يعمل فى الرياض ، وكان إلى جواره بعض الزملاء المصريين فدعاهم إلى مطالعة الصحف .. وعلق قائلا نحن منذ اليوم فى حماية امريكا !! فهذه الاتفاقية ليست مؤقتة وقد تستمر عشرات السنين وهذه الاتفاقية تستبعد النضال العسكرى . ولا تضع فى اعتبارها باقى الجبهات العربية .

وكان من الطبيعى أن تلقى سياسة السادات هذه معارضة عربية وسوفيتية .. الأمر الذى دفع أصحاب الاقلام الحكومية للدفاع عن هذه السياسة بكل قوتهم ، كما دفع السوفيت إلى مخاطبة الحكومة المصرية برسالة تندد بروح المعاداة تجاه الاتحاد السوفيتى . صاحب المواقف المبدئية التى الزم نفسه فيها بمساعدة من يخوضون النضال من أجل الاستقلال الوطنى ، وأشارت الرسالة إلى تلك المواقف التى يعرفها المصريون منذ عام ١٩٥٦ . ثم نعت الرسالة على الحكومة المصرية أنها تسوى بين الاتحاد السوفيتى والامبريالية . مما يعد تشويها متعمد للمساعدات ومبادىء السياسة السوفيتية . وكانت هذه الرسالة فى أكتوبر سنة ١٩٧٥ .

وهكذا كان فض الاشتباك الثانى سببا فى إحداث اشتباكات كثيرة مع الأصدقاء هؤلاء الذين لم يقتربوا من معاهدة الصداقة والتعاون بالمساس ، بل اعتبروها أساسا للعلاقات الطويلة الأجل . وأكدوا على لسان بريجينيف فى المؤتمر الخامس والعشرين أنهم سيظلون أوفياء للخط المبدئى فى تدعيمها !

لكن السادات وقد كان حريصا على أن يكون فض الاشتباك وسيلة لنقض كل شىء فى العلاقات المصرية السوفيتية ، دعا مجلس الشعب للانعقاد ، وألقى خطابا حول العلاقات المصرية السوفيتية وبناء على اقتراح منه أصدر المجلس قرارا بإنهاء معاهدة الصداقة والتعاون بين البلدين ، والموقعة فى عام ١٩٧١ .

وجاء ذلك دليلا جديدا على السياسة المماثلة للأمريكان ، وبرهانا قاطعا على معاداة الصداقة مع السوفيت . ولم ير السوفيت من جانبهم فى هذا الإجراء إلا وضع نهاية قانونية للمعاهدة التى كانت فى شلل فعلى قبل إلغائها .

٩ ـ الحل السلمى ومؤتمر جنيف :

بعد اتفاقية فض الاشتباك الثانى مع اسرائيل ، وإلغاء معاهدة الصداقة والتعاون مع الاتحاد السوفيتى .. ساد الاسترخاء موقف مصر ، التى سلمت أمر مستقبلها لمشيئة الولايات المتحدة بعد أن أهدرت ثقل الاتحاد السوفيتى . ولذلك فإن عقد مؤتمر جنيف للوصول من خلاله إلى حل سلمى للمشكلة أصبح موضوعا للمماطلة والتسويف !!

ولم يكن من المعقول أن يظل الجمود والركود هو الوجه الوحيد الذى يستمر القبول به ، وبخاصة بعد نجاح اليمين بقيادة الليكود فى انتخابات اسرائيل ومجىء مناحم بيجن صاحب الماضى العريق فى التعصب ضد العرب . ومن أجل ذلك : أعلن وزير خارجية مصر أن موقفها مبنى على رفض التنازل عن « بوصة » من الأراضى ، وعلى ضرورة إنشاء دولة فلسطينية . ثم هدد بأنه فى حالة عدم تحقيق ذلك فالحرب الشاملة سياسية واقتصادية وبترولية تبقى وسيلتنا القانونية لتحرير الأرض . لكن ذلك لم يحرك ساكنا لدى أى من امريكا أو إسرائيل .. وعلى العكس راحت إسرائيل تمعن فى التأكيد على رفض العودة إلى خطوط سنة ٦٧ . او إشراك الفلسطينيين فى « مؤتمر جنيف » واتبعت ذلك بضم الضفة الغربية وتعزيز إنشاء المستعمرات فى الأرض المحتلة .

وحتى عندما اتفقت الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى على عقد مؤتمر جنيف فى اكتوبر سنة ١٩٧٧ عمدت إسرائيل إلى رفض الذهاب للمؤتمر الدولى ، وتوصلت إلى اتفاق مع الولايات المتحدة يؤكد قرارى مجلس الامن ٢٤٢ ، ٣٣٨ باعتبارهما الاساس الذى يقوم عليه استئناف المؤتمر وليس بيان الدولتين الذى يدعو إلى حل المسائل الفلسطينية بما فى ذلك إقرار حقوق الشعب الفلسطينى !!

وهكذا لم يعد هناك أمل فى عقد « مؤتمر جنيف » ولم يعد هناك طريق للحل السلمى ! ؟ وكان من المتعين البحث عن طريق الحل بالقوة .. بيد أن هذا الطريق كان قد أضحى مسدودا بعد أن رجحت كفة القوة الإسرائيلية ، وخفت موازين القوة العربية . وعلى الأخص عندما فقدت حليفها الذى كان يمكن أن يمدها بالقوة .

١٠ ـ زيارة القدس :

وهكذا لم يجد السادات من حل سوى القيام بمبادرته التى قام فيها بزيارة القدس يوم السبت ١٩ نوفمبر سنة ١٩٧٧ .. وكان المناضل القديم إذ ذاك فى عرفة اداء لمناسك الحج ، وفى صباح عيد الأضحى المبارك وبينما كان السادات فى المسجد الأقصى .. كانت المناقشات السياسية هى العنصر البارز فى نشاط الحجيج . كل المسلمين والعرب يلتمسون من الحجاج المصريين تفسيرا لهذا الموقف الذى وقفه السادات. واجتهد المناضل القديم فى محاولات الإقناع بأن هذا الموقف هو الشىء الوحيد الممكن فى هذه الظروف . ذلك لأن محصلات مواقف القوة لم تصل بالعرب إلى الانتصار الحاسم الذى يجعلهم سادة الموقف !!

وهناك فى الكنيست الإسرائيلى اعلن السادات قبوله بالحدود الآمنة لإسرائيل ، وبحقها فى أن تعيش مع جيرانها العرب فى أمن واطمئنان .. ثم ألزم نفسه بقبول كل الضمانات الدولية التى تتصورها إسرائيل وممن ترضاه .

ورتب السادات على هذا الإعلان ضرورة الحل السلمي الذى لا يستقيم مع إحتلال أرض الغير ولا مع تجاهل الشعب الفلسطيني الذى اعتصبت أرضه .

ومن خلال هذا الموقف دعا إلى إتفاق سلام يقوم على إنهاء الاحتلال الإسرائيلي للأراضى العربية التى احتلت فى عام ١٩٦٧ ، وتحقيق الحقوق الأساسية للشعب الفلسطيني وحقه فى تقرير مصيره بما فى ذلك حقه فى إقامة دولته . وحق كل دول المنطقة فى العيش فى سلام داخل حدودها الآمنة والمضمونة عن طريق إجراءات يتفق عليها تكفل الأمن المناسب للحدود الدولية ، بالإضافة إلى الضمانات الدولية المناسبة .. وإنهاء حالة الحرب القائمة فى المنطقة !!

واعترف السادات بأنه عندما قرر هذه الزيارة إنما اختار الخروج على كل السوابق والتقاليد التى عرفتها الدول المتحاربة . فعلى الرغم من احتلال الاراضى العربية فإنه لم يُحجم ولم يتردد واتخذ قراره بكل [صفاء الايمان وطهارته]

ولقد لقيت المبادرة الساداتية ردود فعل متباينة .. رضى عنها « كارتر » وحيتها « أوربا » وسمتها فرنسا مبادرة « شجاعة ».

لكن الأشقاء العرب لم يروا فيها غير اتجاه منفرد إلى حل مستقل يتباعد عن التزامه بالقضية الفلسطينية ، ويدمر اتحاد الإرادة العربية ، ويحرضها على الدخول فى متاهات الإنقسام ومع ذلك فإن السادات لم يبال بأى اعتراض ، وراح يسعى من خطوة إلى خطوة حتى تم توقيع معاهدة السلام بين مصر وإسرائيل وفق شروط قبلها وارتضاها .. وسارت مصر وحدها بعد ذلك إلى أن سقط السادات فى حادث « المنصة » سنة ١٩٨١ .

١١ - إسرائيل فى العهد الجديد :

بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد ظهرت آثارها المباشرة فى عديد من الاتجاهات فلقد أهدرت قيمة المؤتمر الدولى فى حل المشكلة وأحلت محله أسلوب المباحثات المباشرة بين مصر وإسرائيل وبمشاركة الولايات المتحدة ، كما قضت على التضامن العربى الذى كان قد أثبت فاعليته فى حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ ففى هذه الحرب دخلت سوريا المعركة وكذلك العراق ، ولقد أرسل البعض قواته إلى الميدان ، بينما اشترى البعض سلاحا للحرب . أو فرض الحظر البترولى الخ . وبالقضاء على التضامن العربى انفردت اسرائيل بالارض المحتلة ووسعت نطاق المستعمرات فيها ، ومارست كل أساليب القمع للقضاء على الروح الوطنية الفلسطينية .

وبفضل الاتفاقيات أصبحت إسرائيل مطلقة اليد فى كل المنطقة العربية . فتجاسرت على غزو لبنان ، وحصار بيروت ، والإعتداء على تونس ، وضرب المفاعل النووى العراقى الخ .

وكسبت اسرائيل من هذه الاتفاقيات مزيدا من الدعم الأمريكى فعقدت معها الولايات المتحدة معاهدة الدفاع الاستراتيجي ودعتها للمشاركة فى حرب الكواكب ، وضمنت تفوقها العسكرى .

وإلى جانب ذلك فقد ساهمت إسرائيل ولم تزل تساهم فى توريد الأسلحة لايران التى تستخدمها فى حرب الخليج بهدف انهاك الدول العربية . والقضاء على فعالية المصادر البترولية التى كانت تستخدمها فى الحرب معها .

ولقد نجحت إسرائيل فى تحقيق حلمها القديم بإبعاد مصر عن المعركة التى يخوضها العرب ضدها . فجعلت من مبادرة السادات مجرد حل منفرد . انسحبت بمقتضاه من سيناء انسحابا مشروطا بتقييد السيادة المصرية على أراضيها من خلال محطات الانذار المبكر ـ والقوات المتعددة الجنسية ـ والمناطق المحدوده التسليح الخ .

وهكذا أكسبت مبادرة السادات إسرائيل قوة إلى قوتها ، ولم يكن ذلك بسبب قلة الإمكانات المتاحة للعرب ، وإنما بسبب ضعف الإرادة والتخاذل ، فلقد كانت معنا كل الدول العربية ، وكل الدول الاشتراكية ، وكل دول عدم الانحياز .. وكان من الممكن أن نضع الخيار العسكرى فى حسابنا ولا نسقطه كما فعل السادات الذى تطوع بالموافقة على أن تكون حرب ٧٣ هى آخر الحروب .

١٢ - التدهور الاقتصادى :

تابع المناضل القديم كل تلك الأحداث والنتائج فى الميدان السياسى ، والفكرى . ولم يغفل عن متابعة التطورات الاقتصادية التى واكبتها ، فهو قد تعلم أن الاقتصاد هو عصب الحياة ، وبمقدار التحولات الطارئة عليه تكون تلك التحولات السياسية والعسكرية والثقافية والأخلاقية والجمالية وغيرها .

ومن ثم فإنه كان يهتم بالربط بين تلك الانتكاسات السياسية وبين السياسة التى اعتمدها السادات طريقا للتطور فى مصر .. فهو عندما يتجه بكليته إلى الاعتماد على الغرب وبخاصة الولايات المتحدة الأمريكية فى حل مشكلاته السياسية لابد له فى نفس الوقت أن يفتح لهم أبواب الاستثمار فى بلاده .. ومن أجل ذلك فإنه انتهج نهج الذهاب إلى عواصم الغرب للاجتماع برجال الأعمال وتقديم التسهيلات تلو التسهيلات !!

وتدفقت رءوس الأموال فى شكل قروض ، أو منح ، أو مشاريع استثمارية أو تسهيلات ائتمانية الخ

ولم يكن يغيب عن فطنة أحد فى مصر أن القروض التى تحولت إلى ديون باهظة هى التى تسببت فى احتلال مصر من أكثر من قرن من الزمان .. ففى البداية كانت شركة قناة السويس الممولة برأسمال الاستعمار الإنجليزى والفرنسى ، ثم تحولت مصر بعد ذلك إلى مجال من مجالات الاستثمار الربوى ، وتحول معها المصريون إلى مجرد خدم للقروض وفوائدها ، وعن طريق الدين وصندوق الدين بدأ التغلغل فى أعمال الحكومة والانتقاص من السيادة الوطنية . وهكذا تحولت مصر من بلد مستقل إلى بلد مستعمر .

كان ذلك فى الماضى البعيد ، وظللنا نناضل أكثر من سبعين سنة حتى ظفرنا بالاستقلال !! علما بأن ديون ذلك الماضى لا يمكن أن تقارن بديون الحاضر . وتبعا لذلك فإن نفوذ الدائنين فى الماضى كانت نسبته أقل .. ومع ذلك فإنه قد استدعى الثورة عليه !!

وكان المناضل القديم يعلن رأيه للأصدقاء المخلصين ، ويزعم لهم أن فداحة الديون وخطرها ليست بالأمر الهين . فلقد أحدثت الديون فى حياتنا نوعا من الانقلاب على العلاقات المصرية الدولية ، أدى إلى انقلاب آخر فى مجريات حياتنا اليومية ؛ فمع الديون التى استدناها واعتماد سياسة الانفتاح المطلق على الغرب ، وفدت علينا ظواهر التضخم وارتفاع الأسعار بمتواليات مذهلة .. ومع الديون التى استدناها واعتماد سياسة الانفتاح المطلق على الغرب امسكت بخناقنا أزمات البطالة والغذاء والإسكان .الخ واصبح من المألوف أن يتخرج أبناؤنا من شتى دور العلم ليقعدوا على قارعة الطريق فى انتظار « الفرج » بالسنوات الطوال !! ومع الديون التى استدناها واعتماد سياسة الانفتاح المطلق على الغرب زحفت منتجاته على كل منافذ التوزيع لمنتجاتنا المماثلة ، وبمضى عدد قليل من السنين تورمت جيوب المنتفعين بالسمسرة والربح الحرام ، وأصبحنا نواجه جرائم الاختلاس والنصب ، والاحتيال والرشوة على أنها ظواهر مألوفة !

ومع الديون والانفتاح على الغرب هاجمتنا تجارة المخدرات ، وتهريب السموم ، كما هاجمتنا صفقات الأغذية الفاسدة ، ومأكولات الكلاب ..

وهكذا أصبحت الديون عقبة كأداء فى طريق تقدمنا ، فكلما رسمنا خطة للتغلب على مصاعبنا وقفت الفوائد والأقساط المستحق سدادها لكى تقول لنا من أين تستطيعون تمويل خطتكم وأنا أستغرق المليارات من ميزانيتكم ؟

وكان أصدقاء المناضل القديم يشاركونه فيما يراه ، ويعتقدون معه أن تخطى العقبات السياسية والاقتصادية والعسكرية رهن بتغيير شامل ينبغى إحداثه من خلال تدبيرات جسورة . ونضالات قوية ، وحشود كبيرة من أعرض الجماهير .

وتطلعت الآمال بالمناضل القديم إلى الكيفية التى يمكن أن يتم بها هذا التغيير . ولم يجد بدا من التأمل فى دروس الماضى بكل أشواقه وتحدياته ، لكيلا يقع مرة أخرى فى مواقع الخطأ القديم .

وما زالت به التأملات ، تنتقل به من مضيض اليأس ، إلى تطلعات المستقبل مدَّةً غير قصيرة .. إلى أن وقف على حقائق الظروف القائمة فاحتسبها هى الثمار الذى جنتها مصر من رحلتها الطويلة المعاصرة .. ومن هنا انطلق الى استخلاص تلك الدروس ..

□ □

الفصل الخامس عشر

حصاد السنيـــن

١ ـ الحصاد الشخصي :

انتهى المناضل القديم إلى الشعور بخيبة الأمل عدة مرات عبر رحلته الطويلة مع الأشواق والمتاعب ، ولكنه فى كل مرة كان يقول لا بأس . فقد تعلمت شيئا مما انتهيت إليه ، وعلى أن أستانف المسيرة من جديد بشرط أن اتجنب الوقوع فى نفس الخطأ السابق .

وعند نهاية المرحلة السادانية التى عصفت بنصر اكتوبر واجهضته ، وقنعت بالسلام المنفرد مع إسرائل على حسال التضامن العربى لم يجد لديه القدرة على ابتلاع شعوره بتلك الخيبة الكبيرة ، ورأى فى الذى انتهينا إليه نكسة عميقة يحتاج التخلص منها إلى عشرات السنين !! فهو قد كان فى الأيام الخمسة الأولى لحرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ يتطلع إلى يوم تصـير فيه مقـاليد الأمـور إلى الجيل المنتصر. جيـل العبور ، والتضحيـات الأسطوريـة ، وقهر غرور الأعداء . وكان متأكدا من أن هذا اليوم سوف يكون يوم الانطلاق بمصر وأمتها العربية إلى أبعد الآفاق فى التقدم والرقى . لكنه ـ وبكل الأسف والمرارة ـ قد وجد نفسه ومصره ، وأمته فى عمق هاوية الهزيمة من جديد ، ومن خلال مسلسل المباحثات والاتفاقيات التى قيدتنا بقيود شبيهة بقيود معاهدة سنة ١٩٣٦ ! ولقد ضاعف من ألمه انه لم يعد شبابا يمتلك القدرة على التحدى ومصارعة الأهوال .

وطافت برأسه أطياف ماضيه فاهتاجت نفسه . لقد كان يطمح أن يكون واحدا من العلماء المبرزين وتملك الأدوات التى كـادت تبلغـه تلك الغـايـة ، ولكنـه ضحى بهـذا الطمـوح لكى يسـاهم فى تحـريـر وطنـه وأمتـه عن طريق الاشتغال بالسياسة !! ولقد اشتغل بالسياسة أول ما اشتغل مع جماعة الإخوان المسلمين ، ولكنه ضحى بهذه العلاقة عندما اكتشف ما يشككه فى قدرة تلك الجماعة على تحقيق أهداف الوطن والاستقلال . ولقد أعطى اليسار الماركسى كل ثقته وقدراته إلى حد التفانى ، وضحى بأجمل أيام عمره ولكنه لم يحصد ومعه هذا اليسار الماركسى غير الانتكاس !! وأخيرا رغب أن يعمل تحت إمرة عبد الناصر فلم يجد غير الألغام تزرع تحت قدميه !!

وبعد هزيمة النظام الناصرى فى سنة ١٩٦٧ ، وفى الوقت الذى كان يجب الكشف فيه عن كل أسباب الهزيمة لم يستطع الوقوف مكتوف اليدين ، وأبدى رأيه مستعدا لشر العواقب . وعاد إلى السجن من جيدد !! وبعد كل ذلك جاء انقلاب ١٥ مايو سنة ١٩٧١ وتغنى بشعارات الديموقراطية فلم يلبث أن اقتحم على المسئولين أبوابهم وقدم رؤيته لنوع الديموقراطية التى بها ، وبها وحدها يمكن العبور إلى الانتصار ولكنهم صدوه بعد أن شكروه ، وسلطوا عليه أعين الرقباء .

ومع كل ذلك فإنه لم يسقط إلى حضيض عدم المبالاة ، ولم يصبح مجرد واحد من الموظفين غير المهتمين إلا بالحصول على رواتبهم . بل أخذ يشق طريقه فى عمله الوظيفى بحماس ثورى ملحوظ ، وكان يقول لجميع من حوله لابد لكى ننتصر أن نصبح من ذوى المبادىء الكبيرة .

هو إذن لم تستأثر به أعماله الوظيفية ، ولا حياته الاسرية ، ولا هموم الاولاد والسهر على تدبير شئونهم ، ولم يشغله شىء عن الولاء المطلق للأهداف النبيلة والمثل العليا . ومن أجل ذلك فإنه ظل يتعب قلبه بالمناقشات فى شتى وديان الفكر والمعرفة . وكثيرا ما كان يغبط نفسه لامتلاكه اسلحة فكرية وثقافية لم يكن له أن يحصل عليها لو لم يخض هذا المخاض الذى انتهى به إلى منتهاه .

شىء واحد كان يؤلمه غاية الألم ويضايقه أشد الضيق ، فهو منذ بواكير الشباب قد تعود أن يكون صاحب تأثير يرضى عنه - فى مجريات الحياة ، ولكنه الآن لا يستطيع أن يمارس هذا التأثير ! وكيف ؟ لقد أصبحت حياته مثقلة بقيود العجز عن الحركة الدءوب ، فلم تعد لديه قدرة على صنع الأحداث ، أو إبطال آثارها الضارة . غاية ما يمكنه القيام به هو الحوار والمناقشة . وغالبا ما يكون ذلك فى صالون أو مكتب أو نادٍ مريح !!

ولقد حاول مرارا العودة إلى رفاق الأمس كى يخفف عن نفسه حرقة الألم ولكن هيهات !! فرفاق الأمس قد تفرقوا شذر مذر ، وكيِّف كل منهم نفسه على موقع يخصه ، ولم يعد هناك من يترابطون حول فكرة كاملة مثيرة : وحتى الذين تجمعوا فى حزب التجمع لم يجد نفسه منجذبا إليهم إلا بمقدار ما يمثلون من ذكريات .

ومن ثم كان إحساسه بالمرارة يزداد ، وكان كلما اراد أن يبث فيمن حوله القدرة على العمل الفعال يشعر بالفشل . ذلك لأن الذى يريد أن يقود إلى العمل الفعال لابد أن يكون ذا عمل فعال . ورضى الله عمن قال : « انتم إلى قائدٍ فعال احوج منكم إلى قائد قوال » .

ومن هنا حاول التنقيب فى أغوار نفسه غن اسباب عجزه عن الحركة الفعالة المؤثرة . إلى أن اكتشف أن الذى كان يكسبه القدرة فى الماضى إنما كان نوعا من الثقة الكبيرة بالنفس . وكانت تلك الثقة مستلهمة من الالتحام الدائم بالجماهير ، وكانت الجماهير فى مواقعها المختلفة تغلى بالثورة والسخط على الواقع الاجتماعى الذى تعيش فيه . أما اليوم فإن شرط الثقة الكبيرة بالنفس لا يمكن ادعاؤه . وتبعا لذلك فإن القدرة على التأثير الفعال تغدو مجرد أمنية يشتاق إليها .

٢ - الحصاد المصرى :

وعلى سطح الواقع المصرى حاول المناضل القديم أن يرقب الحصاد . حصاد تضحيات الشعب وأبطاله منذ ايام عرابى وحتى الآن .. القتلى الشهداء ، والسجناء الأبرياء ، والمشوهون التعساء ، ضحايا عهد الخديوى توفيق ، والخديوى عباس ، والسلطان ثم الملك فؤاد ، وامير المؤمنين فاروق . ونظام عبد الناصروالسادات . ضحايا ثورة سنة ١٨٨٢ ، وسنة ١٩١٩ . ضحايا مظاهرات الطلبة فى سنة ١٩٣٥ ، ومظاهرات العمال والطلبة فى سنة ١٩٤٦ . ضحايا الكفاح المسلح فى سنة ١٩٥١ - ضحايا حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ ، ضحايا حروب ٤٨ ، ٥٦ ، ٦٧ ، ٧٣ . ضحايا الحزب الوطنى القديم وحزب الوفد ، ومصر الفتاة ، والإخوان المسلمين والشيوعيين . كل هذه التضحيات الجسيمة من أجل التحرر والتقدم ما الذى خلفته لنا من الحصاد ؟

وأبصر المناضل القديم فوق سطح الواقع جانبين من الحصاد - أحدهما إيجابى والآخر سلبى .. فأما الجانب الإيجابى فإنه يتمثل فى تلك الإنجازات الثورية التى لم يعد من الممكن الرجوع عنها . ومن أهمها - ولا شك - طرد الاستعمار القديم من مصر . ومطاردته فى البلاد العربية فى الخمسينات والستينات ، وإجباره على التخفى خلف

أقنعة المساعدات والمعونات والقروض . وكذلك اقتلاع النظام الملكى وإحلال النظام الجمهورى محله . إلى جانب بناء السد العالى . ومصانع الحديد والصلب ، ومئات الصناعات الوطنية التى كانت مجرد أحلام . بالإضافة إلى تغيير الخريطة الاجتماعية ، على إثر الإجراءات الثورية التى قضت بإلغاء الملكيات الزراعية الكبيرة وتأميم الاحتكارات والبنوك الاستعمارية ، وإقامة القطاع العام .

وأما الجانب السلبى فإنه يتمثل فى الأزمات الممسكة بخناقنا فى نواحى الإسكان والمرافق ، والتعليم ، والصحة إلى جانب النقص فى المواد الأساسية للغذاء . والتسيب الخلقى فى المعاملات الجارية بين الناس ، وسوء الإدارة فى أجهزة الدولة . وشيوع ظواهر الاختلاس والنصب ، والإتجار فى سموم المخدرات من كوكايين وهيروين وغيرهما . إلى جانب التضخم وارتفاع الأسعار المتوالى . نتيجة للانفتاح على دول الغرب سياسيا واقتصاديا وعسكريا ، مع التسامح فى معاملة العناصر الطفيلية التى تركزت فى أيديها معظم ثروات البلاد .

ومن هذا القبيل أيضا ظهور الاتجاهات الإرهابية فى حقل العمل السياسى ، وسيطرة روح التسلق والنفاق فى الحياة العامة إلى جانب التفكك ، وعدم المبالاة عند أغلبية المواطنين .

كل ذلك وما إليه أصبح جزءا لا يتجزأ من نسيج حياتنا بعد كل تلك التضحيات التاريخية الطويلة . وأضحت مصر عاجزة عن اللحاق بركب الحضارة من غير قفزة ثورية تغير بها هذا الجانب من سلبيات الحصاد . واندلع فى ضميره لهيب الشوق إلى المساهمة فى تلك القفزة ولو بجهد العاجز .

٣ - الحصاد العربى :

وعلى امتداد الساحة العربية تبدو صورة الحصاد فادحة ، فعلى الرغم من كل التضحيات الباهظة منذ ثورة الشريف حسين عند أوائل القرن ، وحتى اللحظة الراهنة .. وعلى الرغم من ضحايا ثورات لبنان ، وسوريا والعراق ، واليمن ، والجزائر وليبيا وتونس وفلسطين والسودان ، فإن الحصاد الذى كان يبشر بالخير وبخاصة أثناء حرب العبور ، قد تحول إلى حصاد مرهق ينضح باليأس . ذلك لأن عوامل الهزيمة قد ارتدت بجميع أبناء المنطقة العربية إلى الوراء . فانكمش كل عربى داخل ذاته ، ولم يعد يفكر إلا فى الحفاظ على نفسه ، ومن ثم شاع التمزق والتفرق والتناحر بين الجميع . تارة بإسم الدين ، وأخرى باسم الوطنية ، وثالثة باسم تأمين الحدود .

ومن جراء ذلك طمع الطامعون فى تلك التركة الممزقة فأعدوا عدتهم لابتلاعها ، وأخذوا يساعدون على شن الحروب تلو الحروب بين الأشقاء بغية الإجهاز عليهم بعد إرهاقهم ، وإزهاق كل قواهم .

وها هم أولاء ينفقون الجزء الأعظم من دخولهم البترولية على شراء الأسلحة التى يقتتلون بها ، بعد أن أودعوا مئات المليارات فى بنوك أعدائهم ، لكى يتم توظيفها فى مساعدة من يكيدون لهم . وهكذا لم يبق على الساحة سوى هؤلاء الصامدين من الفلسطينيين والعراقيين المثخنين بالجراح . هؤلاء الذين يصارعون الموت من أجل الحياة فى كل لحظة تمر بهم ومنذ أمد بعيد .

ومن أعجب العجب أن إيران الشيعية المسلمة . بمساعدة إسرائيل الصهيونية (المسالمة) توالى هجماتها . العدوانية على الأراضى العربية الإسلامية حتى بعد صدور القرارات الدولية بوقف القتال !! ولعل الأخطر والأخطر أن تحتمى بعض الدول العربية بأعلام امريكا لكى تحاول المرور ببترولها من مياه الخليج !! أو أن تستدعى امريكا لكى تقيم القواعد على أراضيها حماية لأمنها !!

من الذى كان يتصور أن يكون حصاد النضال البطولى للشعوب العربية منذ عهد الأمير عبد القادر الجزائرى ، وعبد الكريم الخطابى ، وعمر المختار هو هذا الحصاد المر ؟ أين الشهامة والإباء العربى المعروف ؟

أين روابط الدم واللغة والتراث والدين ؟

بتلك التساؤلات وأمثالها هتف لسان المناضل القديم آلاف المرات ! ورنت فى أذنيه أصوات بعض الشباب الذين يرغبون فى التغير فانتبه إليهم ، وروع قلبه أنهم يطلقون نيرانهم فى غير اتجاه ، وراح يرنو إلى المستقبل المنتظر لهؤلاء الشباب .. ترى هل يكون مستقبلهم أحسن حالا من الذى كان مستقبله فى يوم من الأيام ؟ أم تراهم سوف يصرعون ويقذفهم موج الفشل إلى شواطىء النسيان ؟

ودار فى رأسه أن يناشد الشباب العربى فى كل الأقطار كى يبحثوا لأوطانهم عن طريق يتحدون عليه ، درءا لمخاطر الفرقة والتمزق !. فما أوصلنا إلى ما وصلنا إليه غير التشرذم والشتات ، ولو استهنا بما نحن فيه اليوم فلن يكون مستقبلنا غير المزيد من الهوان !!

لكنه تمنى لو تضافرت الجهود على هذه المناشدة من كل مناضلى الأجيال القديمة ، بحيث تكون تلك المناشدة إحدى بدايات بعث جديد ، فالشباب القادرون الآن على التضحية بأنفسهم فى سبيل هدف مضلل !! سوف يكونون اقدر لو اقتنعوا بالهدف الصحيح .

٤ ـ خطوات على الطريق :

واقتناعا بأن تلك هى البداية التى يجب أن نبدأ بها فإنه أجرى حوارا متصلا مع بعض الشباب . واعتمد هذا الحوار على محورين اثنين : أما المحور الاول فهو محور المواطنة ، وأما المحور الثانى فهو محور الدين . وكان الذى يحاوره حول هذين المحورين أول الأمر شاب شديد الإخلاص ، والذكاء ، والثقافة ، كان عائدا من السجن بعد تبرئة ساحته من المشاركة فى بعض الجرائم السياسية . سأله فى أول الأمر إن كان يضايقه محاولة التعرف على فكره فقال لا .. وعندئذ سأله عن هذا الفكر فقال فى أيجاز شديد : نحن نسعى إلى إصلاح دنيا الناس بالدين ، ونرى أن الذين يعترضون طريقنا من الد الأعداء للدين . ومن أجل ذلك فإننا يجب أن نجاهدهم بأدنى درجات الجهاد وأعلاها ، حتى نبلغ الغاية التى نريد .

قال المناضل القديم : بارك الله فيكم وفى نواياكم الطيبة ، وحماسكم العظيم ، لكننى أرجو أن تحدد لى دنيا الناس التى تريدون إصلاحها .. أهى دنيا كل الناس فى الكرة الأرضية أم هى دنيا خاصه لأناس مخصوصين ؟

قال الشاب : رسالة الإسلام عامة والدنيا التى نريد إصلاحها بالقطع هى دنيا كل الناس !!

قال المناضل القديم : مرة أخرى بارك الله فى هممكم العالية وعزمكم الكبير .. ولكن هل يمكن تحقيق هذا الاصلاح الذى تريدونه دفعة واحدة ؟

قال الشاب : طبعا لا !! ولكن ذلك يستلزم وقتا ومراحل !!

قال المناضل القديم : هذا عظيم وإذن فإن هناك منطقة للبدء لابد من تعيينها .

قال الشاب : نعم .

قال المناضل القديم : وكيفية للبدء لابد من تصورها .

قال الشاب : نعم .

قال المناضل القديم : هل يمكننى تحديد منطقة البدء بالوطن ؟

سارع الشاب : نعم .

قال المناضل القديم : وهل يمكنني تصور الكيفية بأنها الدعوة المقنعة لأهل هذا الوطن !
وجاءت إجابة الشاب ايضا : نعم .
قال المناضل القديم : ولكن الوطن ليس مقصورا على المسلمين وحدهم . فهل ندعو المواطنين غير المسلمين ايضا أم نقتصر في دعوتنا على المسلمين وحدهم ؟
قال الشاب : قلت دعوة الإسلام عامة .
قال المناضل القديم : دعوة الاسلام العامة سمحت بوجود جيران وأصهار من أصحاب الديانات السماوية الاخرى ولم تفرض عليهم نفسها .. بل احترمت عقائدهم وقننت قانون عدم التفرقة في المعاملة .. لهم ما لنا وعليهم ما علينا . أليس كذلك ؟
قال الشاب : بلى .. لهم ما لنا وعليهم ما علينا ولكننا لا نكف عن دعوتهم للإسلام ..
قال المناضل القديم : وإذا رفضوا ؟
قال الشاب : ندعهم وشأنهم .. عندئذٍ هتف المناضل القديم .. بارك الله فيك . وإذن فمجال الدعوة في نطاق الوطن هم المسلمون وحدهم .
قال الشاب : لو كانوا مسلمين ما دعوناهم إلى الاسلام . فالمبرر المنطقي لدعوتهم هو انهم غير مسلمين .
قال المناضل القديم : قل لي بالله كيف تدعوهم ؟ هل تقول لهم : تعالوا أيها الكافرون لكي أدعوكم إلى الإسلام أم ماذا ؟
قال الشاب : لا .. لن أقول لهم أيها الكافرون إلا إذا اعترضوا طريقي .
قال المناضل القديم : حسن هذا .. إذن ستقول لهم تعالوا أيها المسلمون ؟
قال الشاب : لا . أقول لهم تعالوا أيها الناس .
قال المناضل القديم : كما قال القرآن الكريم في دعوة أهل الكتاب « تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولايتخذ بعضنا البعض أربا من دون الله » ؟

قال الشاب : نعم ..
قال المناضل القديم : ولكنهم سيقولون لك على الفور نحن لا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله . ودليلنا اننا نشهد الا إله إلا الله وأن محمد رسول الله .. فماذا أنت قائل لهم ؟
قال الشاب : إنهم يكذبون ولو كانوا صادقين لما كانت هناك تلك الأنواع الكثيرة من الفساد !!
قال المناضل القديم : أمر صدقهم وعدم صدقهم مفوض إلى ربهم الذى يعلم السر وأخفى .. أليس كذلك ؟
سكت الشاب ولم يتكلم .. ثم استأذن في أن يأخذ هو دور السائل الذى يتلقى الإجابات .
فقال له المناضل القديم : سل ما بدا لك ..
قال الشاب في هدوء : أتعتقد أن دين الإسلام مطبق في الأرض ؟
قال المناضل القديم : أعتقد ولا أعتقد .
قال الشاب في انفعال : وكيف ؟
قال المناضل القديم : الإسلام أركانه الأساسية مطبقة في شتى أقطار الأرض ؛ فالمسلمون يشهدون الشهادتين ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويصومون رمضان ، ويحجون بيت الله الحرام . والإسلام شرائعه في المعاملات والحدود ملتزم بها ضمنا في عديد من بلاد العالم الإسلامي ،

وصراحه فى المملكة العربية السعودية . لكن غير المطبق هو الأخـلاق الفاضلة التى يحض عليها الإسلام .

قال الشاب فى غضب : ولكن لماذا لا يتم الالتزام بمكارم الأخلاق الإسلامية ؟

قال المناضل القديم : لا فتقاد القدوة والمثل الهادى إلى مكارم الأخلاق .

قال الشاب فى تحدٍّ : وكيف يمكن إيجاد القدوة والمثل ؟

قال المناضل القديم فى صبر : أنت تعرف أن القدوة والمثل الطيب لا تخلقه عصا الإكراه ، أو استعمال القـوة . فمكارم الأخلاق فى الأصل صفات سلوكية يتحلى بها من يتربى عليها ، ولكى يتعلمها غيرك منك . فإنك يجب أن تكون قد تـربيت عليها ، وأصبحت من لوازمـك التى لا تنفك عنك .

قال الشاب فى دهشة : معنى ذلك أن الطريق الذى يجب أن يسلكه راغبوا الإصلاح بالدين هو طريق التربية ؟!

قال المناضل القديم : وهل تشك فى ذلك ؟ ألم يسلك الرسل كلهم هذا الطريق ؟ ألا تعرف أن رسول الإسلام كان يربى أصحابه الذين أمنوا على أخلاق الإسلام وكانت دار **الأرقم بن أبى الأرقم** هى المدرسة الأولى التى رباهم فيها ؟ إنك تعرف ولا شك ـ قولة النبى المشهورة « **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** » وأنت لابد معترف بأن جوهر الغايات التى يقود إليها الدين لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال التربية .

قال الشاب مقاطعا : لكن عوامل الإفساد والغواية لها السيطرة الكاملة ، ومن ثم فإنها أقوى من دروس المربيين !

قال امناضل القديم : ومن هنا صعوبة الرسالات وفضل المرسلين .

ولم يبد على الشاب أنه اقتنع بذلك .. فقال للمناضل القديم : أنا غير مقتنع بما تقول حتى الآن ، ومع هذا فإننى أعد بالتفكير فيه . لكننى قبل ذلك أرجو أن تدلنى على عيوب التصدى بالقوة للدفاع عن أغراض الدين . أليس من أحاديث الرسول « **من رأى منكم منكرا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، وإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** »؟

قال المناضل القديم : ليست المسألة بهذه البساطة فالرسول إذ تحدث بهذا الحديث كان يربى سامعيه على التزام السلوك الخلقى الكريم . يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ـ المعروف هو مكارم الأخلاق ، والمنكر هو مساوىء الأخلاق ومن الحمق أن نتصور أن الرسول بذلك الحديث كان يحرض على استخدام السلاح عند مواجهة أى منكر ، وإلا فلماذا لم نجد كل من سمع الرسول يستخدم السيف أو الرمح أو السهم عندما يرى أى منكر ؟

عندئذٍ قاطعه الشاب قائلا : وكيف يتم تغيير المنكر باليد ؟

قال المناضل القديم : لا تقاطع : فمن المنكرات ما يمكنك تغييره بيدك مثل كف عدوان جائر على أخيه المسلم . بمنعه من مواصلة هذا العدوان نصرة لنفسه ، ونصرة لمن يقع فريسة لجوره ، تحقيقا لأمر الرسول « **انصر أخاك ظالما أو مظلوما** » .

ومن المنكرات مالا تقوى وحدك على تغييره بيدك . لأنه فى طبيعته يحتاج إلى تعاون عدد كبير لتغييره ، ومثل هذا المنكر يستلزم استخدام لسانك لكى تجند المساعدين لك على التغيير .

أما التعبير بالقلب فإنه لا يكون إلا إذا لم يتيسر لك التعبير باليد أو باللسان . وغالبا ما يكون مقترف المنكر فى هذه الحالة أقوى منك ومن الآخرين جميعا . وحينئذٍ فإنك يجب أن تستعمل

داخلك في التفكير والتدبير لهذا التغيير . أما أن نفهم من هذا الحديث أن كل مسلم مكلف عند رؤية أي منكر من أي إنسان أن يستعمل يده وما تحمل من سيف أو مدفع فهذا مالا يمكن تصور أن الهادي الأمين قد حض عليه لما يجره من الفوضى وسوء الحال .

تماما مثلما نفهم من هذا الحديث أن نكون سلبيين عندما لا نستطيع التغيير إلا بـالقلب . فالتغيير بالقلب أصعب مراتب التغيير فيما يبدو .

قال الشاب : وفريضة الجهاد ـ ياسيدي ـ ؟ هل الجهاد أيضا غير مفروض ؟

قال المناضل القديم : من قال ذلك ؟ إن الجهاد فريضه من فرائض الدين ، وبها يتم إعلاء شأن المسلمين ، وفرض العدل والحق بين الناس أجمعين !! لكنك تعرف ـ يابني ـ أن الجهاد يعني أولا الدفاع عن أرض المسلمين ضد أعدائهم . ولا يعني أبدا مقـاتلة المسلمين للمسلمـين . أنسيت قولة الرسول « **إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار** » قالوا هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال : لأنه كان حريصا على قتل صاحبه !!؟

قال الشاب : ولكن من المسلمين من يقفون في صف أعداء المسلمين .

قال المناضل القديم : هؤلاء شأنهم شأن قطاع الطرق لا يرحمهم القانون ، وينفذ فيهم حكم الإعدام .. لكنك أنت لست المكلف بالحكم عليهم بل ولا يجوز لأي أحد أن يتهم أي أحد بالخيانة ثم يجعل من نفسه سلطة اتهام وحكم وتنفيذ في وقت واحد .

قال الشاب : حيرتني .. إن الخونة يعملون لحساب أعداء الإسلام ، ويدلونهم على عورات المسلمين فيمكنونهم من رقابنا ، ويتسببون تبعا لذلك في أسوأ الهزائم . أليس كذلك ؟

قال المناضل القديم : بلى .. ولكن من الذي له حق إصدار الحكم بأن هذا خائن أو غير خائن ؟

قال الشاب : أمير المسلمين ..

قال المناضل القديم : ومن هو هذا الأمير ؟

قال الشاب : من ارتضته الجماعة الإسلامية لكي يكون أميرا لها ؟

قال المناضل القديم : وما تعني بالجماعة الإسلامية ؟

قال الشاب : أنت تريد محاصرتي ، وتصر على أنه لا يستحق لقب أمير المسلمين غير « **الحاكم** » ومن ثم فهو وحده من وجهة نظرك الذي يستطيع أن يصدر الحكم بالخيانة . أليس كذلك ؟

قال المناضل القديم : بلى .... ولكن معنى المحاصرة لم يخطر على بالي .. فأنت تعرف أن الجماعة الإسلامية لا يمكن أن تكون حفنة من الأفراد الذين جعلوا لهم أميرا ، وأرادوا فرض إمارته على عموم المسلمين !!

قال الشاب : ألم يقل الرسول . **إذا كنتم ثلاثة فأمّروا أحدكم** ؟

قال المناضل القديم : بلى .. ولكن إمارة واحد على اثنين لا تسوغ له حق الإمارة على غيرهما . ولا الإسراف في تجاوز المعلومات المقررة والأحكام الشرعية .

فقال الشاب في مرارة : وهل تستطيع أن تدلني على بعض صور هذا التجاوز ؟

قال المناضل القديم : نعم أستطيع ، والصور كثيرة يكتفى منهـا بمثلين اثنين .. مثـل الالتواء بفهم النصـوص القرآنية ، ومثل محاولة التشبه بالمعصوم في حقوق الطاعة .

قال الشاب : لم أفهم وأرجو الإيضاح .

قال المناضل القديم : صبرا عليّ . فأنت تعرف أن آيات القرآن الكريم الخاصة بالجهاد قد نزلت من السماء للتوجيه

إلى محاربة أعداء الدين من كفار قريش او غيرهم مثل قوله تعالى « واعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم » ومثل قوله ايضا « يايها النبى حرض المؤمنين على القتال »فإذا اجترأ بعض الامراء وادعى أن الآية الأولى تدعو إلى شراء المسدسات والقنابل وإعدادها للغدر بالآمنين من المسلمين فإنه يكون بذلك قد التوى بفهم النص عن غرضه الحقيقى الذى نزل من اجله .

وكذلك الحال بالنسبة للنص الثانى إذا ما استشهد به اى امير لكى يحرض اتباعه على قتال مواطنيه واهل ملته .

أما فيما يتعلق بالمثل الثانى فإنك تعرف ان بعض « الامراء » يطلبوَن من اتباعهم حق الطاعة المطلقة او « العمياء » كما يسمونها زاعمين ان هذا هو ما كان يفعله أتباع الرسـول مع الرسول .. ومن ثم فإنه حق كل « امير » يتولى الإمارة وباسم هذا الحق يطلبون من الابناء معاداة آبائهم . وفسخ خطوبة أخواتهم الخ وطبعا التجاوز هاهنا فى غاية الوضوح . أفهمت .. يابنى . أم لا تزال فى حاجة إلى إيضاح ؟

قال الشاب : ربما أكون قد فهمت ما تقصد إليه ولكننى لا أزال غير مقتنع بوجهة نظرك : فنحن نعانى ـ ياسيدى ـ فى بلاد الإسلام من الهوان ما يجب أن يدفعنا دفعا إلى العمل على إصلاح احوالنا . وأنت بهذه الطريقة لا تشجعنا على تلمس سبل الإصلاح التى نريد .

قال المناضل القديم : ارجو ان تتذكر الآن ماسبق أن قلته عن التربية التى تعتمد على القدوة والمثل الطيب . فهذا وحده هو السبيل الاقوم والادوم والأشق فى نفس الوقت .

قال الشاب : يا سيدى نحن الشباب لا نستطيع التعلق بالحبال الطويلة الممتدة فى المجهول .. ومن أجل ذلك فإننا راغبون فى العمل والتغيير الفوريين ، ونرى ان اقصر الطرق وأسهلها هو الإصلاح بالدين الواضح الذى توارثناه عن أسلافنا ، وتجاهلنا العمل به .

قال المناضل القديم : يبدو اننا فى حاجة إلى جلسة اخرى لكى نستكمل المحاورة .. ووافق الشاب بالإيماء ثم انصرف على أمل اللقاء فى موعد جديد .

٥ ـ مسئولية الأحزاب السياسية :

بعد انصراف الشاب حاول المناضل القديم أن يتعمق المشكلات التى خلقت ـ برد الفعل ـ ما يصطلح الناس على تسميته باسم « التطرف » او « الارهاب » الذى يمارسه بعض الشباب من أجل « الإصلاح » وزعم لنفسه أن أولى المشكلات التى يواجهها الشباب هى عجز الكبار عن إقناعهم بأى منطق معقول .

فالشباب فى الفترة الحالية يعيشون لونا من التطور والنبض السريع فى كـل بلاد العـالم نتيجة للتغيـرات الاقتصادية والاجتماعية والتكنولوجية المتراكمة ، وهم فى بلادنا يقعون تحت ضغوط التخلف وضيق سبل العيش . وينظر الكاثيرون منهم إلى المستقبل بعيون اليائسين من الحصول على الوظيفة والمسكن الملائم . وجيل الآباء عاجز عن تقديم الحلول ، أو الإرشاد إليها . أو فتح أبواب الأمل الذى يجتذبهم إليه ويدفعهم إلى التفانى فى سبيله .

ومن المعروف أن الشاب فى مراحل نموه يمر بفترة المراهقة الفكرية التى هى أخطر عليه من المراهقة الجسدية ومن ثم فإنه ينجذب إلى محاولات اختراق الواقع بأى سلاح يتاح له ، وبأى ثمن يدفعه ولو كان الحياة .

هذا الشاب لم تستطع الدولة بكل مؤسساتها ، ولا الأحزاب السياسية بكل نشاطاتها ، ولا الجمعيات الأهلية بكل جهودها أن تقدم له ما ينأى به عن الوقوع فى السلبيات التى يشكو منها الجميع .

ومن هنا يتضح أن حل المشكلة يكمن فى تهيئة الشباب لكى يعيشوا عصرهم متفهمين لقضاياه الفكرية والدينية ، وقادرين على الاختيار السليم بين المواقف المختلفة ..

ويعنى ذلك أول ما يعنى .. إشاعة الثقافة القادرة على توسيع مدارك الشباب واحتوائه للأفكار ، واحترامه للحوار ، وبيان مواقفنا السياسية والإجتماعية والاقتصادية من المجتمع العالمى بظروفه المختلفة .. كما يعنى إشراك الشباب إشراكا حقيقيا فى خدمة وتنمية المجتمع بأية صورة ممكنة .. خدمات عامة للمحافظة على البيئة أو الصحة ، أو محو الامية أو إصلاح الاراضى أو إنشاء المجتمعات الجديدة . الخ .

كل ذلك وما إليه يفضى بالشباب إلى تحقيق ذاته ، ويخلق فيه روح الولاء للمجتمع ، ويكسب حياته معنى جديدا .

ومن المؤكد أن هذه هى مسئولية الاحزاب السياسية التى تتصدى للقيادة ، وتعمل على تغيير وجه الحياة إلى الأفضل .. فبدون الشباب الواعى بقضايا عصره وبلده ، والمنتمى بكليته الى تراب وطنه سوف يستحيل أى تغير ..

وعند هذا الحد من التفكير رأى نفسه يتجه إلى واحد من الاعضاء فى حزب معارض ويدعو لزيارته .. وبعد المجاملات المألوفة سأل هذا العضو عن أخبار حزبه وخططه المستقبلية ، وكان ذلك عقب الانتخابات التى تم إجراؤها فى أوائل سنة ١٩٨٧ .

قال عضو الحزب المعارض : عرفت طبعا ـ أن الانتخابات قد تم تزويرها بواسطة مسئولى الأمن .

قال المناضل القديم : لا أعرف .. ولكن كيف ؟

قال العضو : ألم تدل بصوتك ؟

قال المناضل القديم : بلى .. ولكن ما علاقة إولائى بصوتى بتزوير الانتخابات بواسطة مسئولى الأمن ؟

قال العضو : هناك علاقة أكيدة ـ فأنت لابد ـ قد لاحظت أن جماهير الناخبين لم تذهب للجان الانتخاب فى أغلبها ، ولابد أنك قد لا حظت أيضا أن الذين حضروا لم يكونوا موالين لحزب الحكومة ؟

قال المناضل القديم : فلنفرض أن ذلك صحيح .. ولنفرض كذلك أن الحكومة قد حرصت على إسقاط أحزاب المعارضة بالتزوير ، وأن هذه هى خطتها فى كل انتخابات سبق إجراؤها فلماذا لم تفرض المعارضة وجودها على الموقف .

قال العضو : وكيف تفرض المعارضة وجودها على الموقف مع سيطرة الحكومة على جميع مقدرات البلاد . الإعلام المسموع والمرئى ، والصحف ، ومصالح الناس . الخ ؟

قال المناضل القديم : كل الحكومات لها تلك السيطرة . فهل معنى ذلك أن أية معارضة لا تقدر على فرض نفسها أبد الدهر ، أم ماذا ؟

قال العضو : يجب أن تجرى الانتخابات عن طريق حكومة محايدة تعطى للجميع فرصهم المتساوية !! وفى هذه الحالة تأتى النتائج معبرة عن الرأى العام تعبرا دقيقا ، ولا يمكن تزويرها .

قال المناضل القديم : اعتقد أن للمسألة وجها آخر ينبغى الالتفات إليه .

قال العضو : وما هو هذا الوجه الآخر ؟

قال المناضل القديم : أعتقد أن الذى يحسم الموقف دائما فى جميع الانتخابات هم أفراد الشعب ، وأن قدرة الشعب على الحسم رهن بمدى ثقته فى الأحزاب أو المرشحين المعروضين عليه . ومن هنا فإن المعارضة القادرة على تحريك أغلبية الجماهير فى اتجاهها لابد أن تنتصر .

قال العضو : معنى ذلك أنك تريد أن تلقى باللوم على المعارضة ..

قال المناضل القديم : كلا .. فكل من المعارضة والحكومة قد حصلوا حسب الإحصاءات الرسمية على نصف الأصوات المقيدة فى جداول الانتخابات منذ عهد بعيد . ونسبة هذه الأصوات فيما أظن لا تزيد عن ١٥ ٪ من مجموع أهل مصر . أى أن المعارضة والحكومة لا يمثلون بما حصلوا عليه من أصوات سوى الأقلية القليلة من الشعب المصرى .

قال العضو : هذا صحيح . ولكن من السبب فى ذلك ؟

قال المناضل القديم : السبب فى ذلك هو انعزال الحكومة والمعارضة عن ٨٥ ٪ من مجموع الناس فى مصر ، وهذا شىء لا يمكن تجاهله مهما قيل مدحا أو قدحا فى تلك الانتخابات . وإذا أردنا دقة الوصف للنتائج التى أسفرت عنها الانتخابات فإننا يجب أن نقول إنها محصلة فشل الجميع فى الحصول على ثقة الأغلبية من هذا الشعب ..

قال العضو : ولكن لماذا تحقق هذا الفشل من وجهة نظرك ؟

قال المناضل القديم : أعتقد أن السبب الأساسى للفشل هو عدم القدرة على القيام بمواقف عملية تعبر عن آلام وطموحات الشعب . فالأصل أن الشعب لا يمنح ثقته إلا للأعمال الكبيرة التى تدل على إخلاص صادق وتفان عظيم .

قال العضو : أوضح القول حتى أفهم .

قال المناضل القديم : اعتقد أنك معى فى أن كل ما يقدم للشعب اليوم يدور أغلبه فى إطار الكلمات البليغة والخطب المنمقة ، والمقالات الضافية . اللهم إلا ماتستند إليه الحكومة من انجازات عملية فى الإسكان ، والمجتمعات الجديدة ، وحل مشكلة المواصلات . الخ . ومن هنا فإن الشعب لا يمكنه أن يمنح ثقته لمجرد الكلام .. فكم سمع الشعب وصدق ، ثم اكتشف أنه مخدوع .

قال العضو : كأنك تحتقر دور الكلام فى تنوير الشعب وكسب ثقته .

قال المناضل القديم : لا . لكننى أقول إن كسب الثقة مداره الأعمال قبل الأقوال . وأعنى بالأعمال ذلك النوع من المواقف التى تهز المشاعر ، وتحرك الوجدانات تجاه تغيير الواقع الأليم الذى يعيش الناس فيه .

قال العضو : زدنى إيضاحا .

قال المناضل القديم : خذ الأمثلة من تاريخنا . فمثلا عرابى ورفاقه عندما أدركوا أن وراء إرهاق الشعب آنذاك ، وطأة الدين ، وتدخل الدائنين فى شئون البلاد .. ماذا فعلوا ؟ تصدوا عمليا لضرب هذا التدخل ، ووضع حد لأثارة المدمرة ، ومن هنا وقف خلفهم جميع أهل مصر على إختلاف طوائفهم ، يسندون ظهورهم ، ويحمون ثورتهم ، وينشرون رسالتهم فى كل مكان .

قال العضو : لكن الكلام كان سابقا على الموقف العملى ، ومواكبا له .

قال المناضل القديم : طبعا . ولكن انحياز الجماهير لم يكن للكلام وإنما كان للموقف العملى الذى هو أقوى من كل كلام .

قال العضو : تقصد أن الأعتماد على الكلام وحده لا يمكن أن يستحوز على الثقة القادرة على تغيير الأوضاع سواء فى الانتخابات أو غيرها .

قال المناضل القديم : دعنى - إذا سمحت - أكمل فكرتى .. إن الذى يكابده الشعب .. أى شعب شىء واقع ملموس . وكل الذى يريده هو تغيير تلك المكابدة وهذا العناء وهو لا يصغى إلى الكلام عن واقعه إلا اذا لمس فيه الصدق ، والصدق لا يتأكد إلى من خلال التحرك الفعلى الذى يقدم

عليه المعبرون عن مصالح الشعب . ولننظر الى حالة الشعب المصرى خلال سنوات الحرب العالمية الأولى .. معاناة وإرهاق وتسخير فى خدمة سلطات الاحتلال ـ وهذا بذاته محرض بليغ على الثورة وكان هناك العشرات والمئات وربما الآلاف الذين تداولوا تلك المعاناة بالكلام . لكن سعدا ورفاقه الذين حملوا مطالب الشعب إلى المعتمد البريطانى هم الذين ظفروا بثقة الشعب لأنهم هم الذين أقدموا على هذا الموقف العملى . وكانت النتيجة الحتمية هى التفاف كل الشعب من حولهم ، يأتمر بأمرهم ، وينفذ توجيهاتهم . ويسخر من خصومهم على النحو الذى سجلته أحداث تلك الفترة من تاريخ مصر .

قال عضو الحزب المعارض : كل ذلك من المسلمات التى لا يختلف أحد عليها . ولكن قل لى ـ بربك ـ ما هو الموقف العملى الذى تدعو إليه ؟

قال المناضل القديم : أعتقد أن الموقف العملى المنشود لابد أن يرتبط بمطلب أساسى يكون فى تحقيقه الحل الأكيد لشتى المشكلات .

قال العضو المعارض : لا أفهم ..

قال المناضل القديم : فى الماضى كان المطلب الأساسى هو التخلص من الاستعمار الإنجليزى . وكان كل واحد من أفراد الشعب المصرى يؤمن بأن تحقيق هذا المطلب كفيل بحل مشكلات الفقر والجهل والمرض الخ . ونحن اليوم لابد لنا من معرفة هذا المطلب الأساسى الذى لو حققناه لا نطلقنا فى حل مشكلات الإنتاج والتعليم والإسكان والصحة الخ . وانا أعتقد أن كل حزب يتصدى للقيادة لابد وأن يكتشف ذلك المطلب الأساسى ، ويكتشف السبل المؤدية إلى تحقيقه تجنيدا لطاقات كل الشعب ، وبخاصة الشباب الذى لا يعرف أين يتجه .

قال العضو المعارض : إن لكل حزب برنامجه الخاص به ، وكل حزب يدعى أن برنامجه هو أفضل البرامج للقضاء على كل المشكلات .

قال المناضل القديم : أعلم ذلك .. وأعلم أن لكل حزب صحيفته أو صحفه ومع ذلك فإننى ازعم أن الجماهير لا تستطيع أن تمنح ثقتها لأى منها على النحو الحاسم . ذلك لأن المطلب الأساسى غائب ولم يمكن تحديده .

قال العضو المعارض : الديك أنت ما يساعد على التجديد ؟

قال المناضل القديم : نعم . فمن المعروف أن بلادنا تمر بأخطر الأزمات الاقتصادية ، ورئيس الدولة شخصيا يقول إن الخروج من هذه الأزمة رهن بمضاعفة الانتاج .. والكل يؤمن بهذا الشعار الحقيقى .. ولكن (ما باليد ـ العين بصيره واليد قصيره !!) مضاعفة الانتاج تستلزم نفقات كثيرة ، ونحن لا نستطيع توفيرها . لماذا ؟ لأننا أسرى سداد الفوائد وأقساط الديون ، ويقدر الخبراء أننا بحاجة إلى سداد ٤ مليارات فى كل عام .. ولأن هذه المليارات لا يمكن تدبيرها فإننا نسلك أحد طريقين .. إما الاقتراض والاستدانة من جديد . وإما المطالبة بإعادة جدولة الديون .. ومن هنا يظل شعار مضاعفة الإنتاج مجرد شعار لا يمكن تحقيقه بالشكل الذى يسمح بحل المشكلات .. وتظل مدارسنا بدون مقاعد وأبنيتها بدون إضافات مسعفة ، وتظل مستشفياتنا تشكو قلة الامكانات والأدوية ، وتظل معالجاتنا لمشكلات الإسكان والتوسع الأفقى فى الزراعة مجرد مساع ينقصها عصب المال ..

ترى لماذا لا تكون هناك جسارة عملية شبيهة بتلك الجسارة البرازيلية التى أعلنت استحالة الوفاء بأقساط الديون وفوائدها فى الوقت الذى تتصدى فيه للبناء ؟

لماذا لا نقول للدائنين . [كثَّر الف خيركم] ولكننا غير قادرين على مواصلة السداد ونرجو أجلا لا تقل مدته عن ربع قرن من الزمان ؟؟

لماذا لا يكون مطلبنا الأساسى اليوم هـو التخلص من أعباء الديـون ؟ إن التضخم والغلاء وانخفاض قيمة الجنيه المصرى ، وانهيار التعليم ، واللهاث وراء حل مشكلات المواصلات وغيرها دون جدوى .. كل ذلك مرتبط بفداحة حجم وأعباء الديون .

إن الديون هى أداة الاستعمار الحديث فى استغلال الشعوب والدول النامية فلماذا لا نقول ذلك ، ونربط حركتنا اليومية بالنضال الجاد من أجل التخلص من تلك الأداة ؟

قال العضو المعارض : أرجو أن أكون قد فهمت أن المطلب الأساسى الذى يجب أن تتركز كل الجهود من أجل تحقيقه هو التخلص من الديون . ولنا لقاء آخر إن شاء الله .

قال المناضل القديم : لن تنصرف قبل أن أضيف أن شعار التخلص من أعباء الديون يجب أن يكون شعار كل الأحزاب بما فيها حزب السلطة .. وأن أنجح الأحزاب فى التصدى العملى للنضال من أجل تحقيقه هو الذى سوف يكسب ثقة كل الجماهير .

٦ ـ دروس من الماضى :

بعد هذا الحوار الطويل مع عضو الحزب المعارض تراءى له أن يفكر فى صواب مقولته الأخيرة التى ادعى بها أن أغلبية الجماهير بينها وبين من يتصدون لقيادتها من الأحزاب المختلفة فجوة من عدم الثقة .. وأثناء عملية التفكير هذه برزت له تجارب الماضى المؤلمة ، وتذكر أن تلك الفجوة كانت هى الاحتياطى الذى مكن أعداء الوطن من الفتك به ، وضرب تقدمه .

عندئذٍ تملكه الفزع وتمنى لو تمثل الجميع دروس الماضى . دروس أعوام ماقبل سنة ١٩٦٧ يوم استطاع هؤلاء الأعداء وهم دائما عليمون بكل أحوالنا أن ينفذوا إلى ضربنا من خلال تلك الفجوة .. فلقد عرفوا أن هناك الكثيرين ممن ادعوا الولاء لقيادة عبد الناصر قد أحاطوا به وعزلوه عن حرارة الشعب الذى يقوده ، وفرضوا أنفسهم لكى يكونوا همزات الوصل بينه وبين الناس ، وكثيرا ما لجئوا إلى التلفيق والتزويق ، والخداع ، والإيهام حتى يضمنوا البقاء فى مقاعدهم الوثيرة التى تدر عليهم المال الوفير ..

بدءوا أعوانا للنظام الذى عاد عليهم بالمكاسب . فتحولوا عن معاداه النظام إلى استغلال مواقعهم منـه فى تحقيق مصالحهم الذاتية أولا وأخيرا .. ومن ثم أخذوا يصورون الواقع على هواهم . وتعمدوا إبعاد الصور الحقيقية عن القيادة . بل ودفعوا تلك القيادة إلى اتخاذ المواقف العدائية من أصدق الأصدقاء . وهكذا انشغلت القيـادة بأخطار وهمية ، وغفلت عن الخطر القاتل الذى كان يمثله هؤلاء (الأصدقاء) إلى أن وقعت الهزيمة التى [illegible] عشرة آلاف شهيد غير الجرحى وغير خسارة المعدات التى بلغت ١٠٠ ٪ من القاذفات الثقيلة والخفيفة ، ٨٥ ٪ من المقاتلات القاذفة ، ٨٥ ٪ من معدات القوات البرية .. إلى جانب ضياع كل أرضنا شرق قناة السويس .

فلما وقع المحظور ، وسقطت دولة المخابرات ، وفقدت مصر جمال عبد الناصر ، سارع الجميع إلى تمثيل نفس الدور مع السادات ، وانتقلوا معه من الاتحاد الاشتراكى إلى حزب مصر .. ثم إلى الحزب الوطنى .. وظلو على ولائهم لأنفسهم . يواصلون أعمالهم البهلوانية إلى أن حدثت أحداث سبتمبر المشهورة وأعقبها حادث المنصة المروع

وإذا هم كما تعود المناضل القديم أن يراهم يريدون لأنفسهم نفس مراد هم القديم فيبالغون فى المراءاة والتزييف حتى ليشعر المرء بالغثيان . ويعمدون إلى محاولة إبعاد الشعب عن قيادة الرئيس (مبارك) لولا أنه يستطيع الاختراق ، والنزول إلى حقول الانتاج ومواقع اللقاء الحىّ بالجماهير . ولولا أنه يصر على عدم المساس بأصحاب الاقلام والآراء المختلفة ، ولولا أنه لا يصدق أى كلام إلا بعد برهان ودليل .

ومع كل هذا فإنه لم يحد من نسبة الـ ٩٩,٩ ٪ عند إجراء الاستفتاءات إلا بالقدر الذى أوصلها إلى ٩٧,١٢ ٪ فقط .

صحيح أنه أحدث ثغرة فى جدار الطبقة العازلة بسياسة التحرك المباشر إلى مواقع العمل والإنتاج . وصحيح أنه يدأب على مناشدة جميع المواطنين كى ينفضوا عنهم غبار السلبية وعدم المبالاة ، وأن ينهضوا إلى العمل الإيجابى الفعال لكى يقاوموا معه كل ألوان الانحراف والخروج على مقتضيات الوطنية الصحيحة ، وصحيح أن بعض ملامح الصورة الموروثة من عهدين سبقا قد اعتراها التغيير . لكن الحقيقة أن البعض لا يزالون يستمرئون النفاق والكذب وتزويق الواقع وتزويره . وهؤلاء لا يساعدون على خلق جسور الثقة بين كل من يريد أن يكون إيجابيا وبين قمة النظام الحالى فى مصر . •

٧ ـ عودة إلى الحوار :

وبينما هو مستغرق فى هذا التفكير قدم عليه الشاب الذى افترق عنه على موعد بجلسة أخرى لاستكمال حوارهما السابق .

قال المناضل القديم : أهلا بمن وعد ووفى .

قال الشاب : إننى اليوم باق معك حتى نستكمل الحوار الذى بدأناه ، وأرانى اليوم مضطرا إلى البدء بالهجوم على كل من يدعو إلى تثبيط همم الشباب وصرفهم عن الجهاد .. وأخشى أن أقول إن هؤلاء هم ألد أعداء الإسلام .

قال المناضل القديم : على رسلك ياأخى ـ حتى تقنعنى أو أقنعك .

قال الشاب : لا .. لن تقنعنى . ولن أوافق على أية مقالة تدعونى إلى التخلى عن الجهاد .

قال المناضل القديم : لن أدعوك إلى ذلك إلا إذا فقد عقلى فإطمئن . فقط أريد أن نحدد سويا نوع هذا الجهاد ومجالاته ذلك لأن بعض الأعمال لا تدخل فى باب الجهاد بل فى باب الحماقة ، ويحسبها الناس على الإسلام وهى ليست منه .

قال الشاب حانقا : مثل ماذا ؟

قال المناضل القديم : مثل اللجوء إلى القوة فى التصدى للمعاصى الظاهرة ، كتحطيم زجاجات الخمور ، وحرق أشرطة « الفيديو » الخ .

قال الشاب : تحطيم زجاجات الخمور ، وحرق أشرطة الجنس حماقة ؟

قال المناضل القديم : نعم حماقة . لأنه لا يوقف شرب الخمور ، ولا يمنع المتاجرة بالأشرطة . بل يثير الشغب فقط . ولا شك أن تغيير المنكر غير المشاغبة عليه . أليس كذلك ؟

قال الشاب : ولكن كيف يمكن إيقاف شرب الخمور ومنع المتاجرة بالأشرطة ؟

قال المناضل القديم : بإحدى وسيلتين لا ثالث لهما .. الوسيلة الأولى هى قرار الحاكم صاحب السلطة ، والوسيلة الثانية هى تربية روح البغض فى نفوس الناس لكل ماهو محرم .

قال الشاب : مرة أخرى التربية طويلة المدى . ومصيرها المجهول !

قال المناضل القديم : يا أخى تمهل بالصبر ـ فإن الأصل فى الجريمة أنها خروج على القانون ، والمعاصى والمناكر ليست هى القاعدة ولكنها الشذوذ . وهى لم تصر شذوذا إلا لأن القاعدة العامة هى النفور منها ، ومن أجل ذلك فإننا كلما أمعنا فى توسيع قاعدة الإلتزام بالقوانين الأخلاقية والدينية . ضاقت المساحة التى يتحرك عليها العصاة . بل ولربما تلاشت تماما .

قال الشاب : وبناء على هذا الرأى . فإننا لا نقاوم الغواية والشر وإنما ننشغل بتحسين مستوى الأخلاق عن طريق التربية .. أليس هذا هو الذى تريد ؟

قال المناضل القديم : لا وربك .. لم أرد هذا ولن أريده .. فمقاومة الغواية والشر لا تكون إلا بالتنديد الذى يحمل الحكام على اتخاذ القرارات المانعة لهما ، ويحمل الناس على النفور المطلق منها . والآن قل لى كيف تقاوم المسكرات غير المعبأة فى زجاجات ، والتى يتم تعاطيها والاتجار فيها خلف متاريس الكتمان ؟ مثلا الهيروين . والكوكاكين وغيرهما . ألديك قدرة على تغيير هذه المنكرات ودفع ضررها بغير الاستناد إلى السلطة ، وتحصين الأبناء ضد تعاطيها ؟

قال الشاب فى نبرة هادئة : إذا كان الأمر كذلك فإن قضية الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر لا يمكن أن يكون لها مضمون عملى بين جمع الشباب .

قال المناضل القديم : كيف وفى المجتمع الإسلامى على مدار التاريخ رجاله الذين يتصدون لمحاولة التغيير ؟

قال الشاب : ومتى تم لهم هذا التغيير ياترى ؟

قال المناضل القديم : أو تنسى قول الله تعالى « **إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** ؟ » ألا تعتقد أن الفشل فى التغيير دائما يكون بسبب عدم النجاح فى تغيير ما بالأنفس سواء كانت هذه أنفس الدعاة إلى الخير أو المدعوين له ؟

قال الشاب : لا أفهم إلا أن الفشل فى التغيير كان بسبب افتقاد القوة الحاملة عليه . ولو كان هنالك ما يدعم دعوة الخير من قوة ما فشلت أبدا ..

قال المناضل القديم : أية قوة ؟

قال الشاب : قوة الإيمان القلبى ، ثم السواعد الفتية ، والأسلحة اللازمة لإخافة الأعداء .

قال المناضل القديم : اعتقد أنه لم يكن هناك من هو أقوى إيمانا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ومع ذلك فإنه لم يتقدم لتحطيم الأصنام التى هى أبشع منكر إلا بعد فتح مكة . أى بعد أن أصبح للاسلام سلطة فارضة لما تريد .

قال الشاب : أريد أن تدلنى وغيرى من شباب المسلمين على ما يجب أن تعمله لإصلاح بلادنا .

قال المناضل القديم : إن أمامكم من فرص العمل فى هذا السبيل ما لا يمكن أن يحصى ولا يعد . فأنتم تستطيعون تسخير حماسكم فى تحصيل العلم الذى تعددت روافده إلى أبعد مدى كما تستطيعون تقديم الخدمات الأجتماعية فى مجال العلاج والنظافة والمحافظة على البيئة وتعمير الأرض تعويضا لهذه الأمة عن التخلف .. وكذلك أنتم تستطيعون التعاون على شق الطرق والقنوات . كما تستطيعون محو عار الأمية ، والمساهمة فى تحفيظ القرآن الكريم .. وإلى جوار ذلك كله فان مشكلات الوطن والأمة فى حاجة إلى دراسات المتخصصين لكى تقدموا الحلول العلمية الناجحة ، بدلا من الشعارات العارية عن المضمون .

قال الشاب : بالمناسبة ما رايكم فى الصراع المسلح الذى يخوضـه الشباب المسلم اليـوم فى عديـد من الجبهات ؟

قال المناضل القديم : هذا صراع إن يكن ضد عدو يحتل ارض المسلمين أو يعتدى عليها فهو صراع مقدس ، ويجب تأييده ومساندته من جميع المسلمين .. أما إذا كان من نوع الصراع القائم بـين « أمل » ومخيمات الفلسطينيين فى لبنان ، أو بين الايرانيين والعراقيين فهـو صراع بـين الإخوة المسلمين يجب شجبه والانتصار فيه للطائفة المعتدى عليها تطبيقا للآية الكريمة .. « وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت احداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين » .

قال الشاب : وبالمناسبة أيضا ما رايكم فى قتل الحاكم الذى يمالىء اعداء المسلمين . ولا يحكم بالعدل ؟

قال المناضل القديم : ليس هناك من نصوص القرآن والسنة ما يرخص بقتل حاكم ولا محكوم ، وبدعة القتل غدرا للحكام كانت فى تاريخ الإسـلام سببا لكـل النكبات التى لحقت بـالمسلمين طوال القـرون الماضية . على أن الأعمال دائما تقاس بالنتائج المترتبة عليها .. ومن المؤكد أن اغتيال الحاكم يفتح الأبواب لشر مستطير ، ولا يترتب عليه أبدا أى تغيير مفيد .

قال الشاب : وهكذا يجب أن نستسلم للطغاة من حكامنا ، ولا نحاول التخلص منهم !!

قال المناضل القديم : لا يا أخى ـ فإن التخلص من الحكام الطغاة له طريق أخر غير القتل والاغتيال .

قال الشاب : وما هو هذا الطريق يا سيدى ؟

قال المناضل القديم : طريق جمع الناس على رأى واحد يتمكن من إسقاطهم واختيار غيرهم من العادلين .

قال الشاب : ومن الذى يجمع الناس على هذا الرأى الواحد ؟

قال المناضل القديم : أهل البصر والبصيرة من المحكومين بوسيلة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

قال الشاب : وإذا كان الحاكم لا يدع لأهل البصر والبصيرة اية فرصة لممارسة تلك الوسيلة ؟

قال المناضل القديم : فى هذه الحالة يصبحون مجبرين على التخفى عنه لكى يهيئوا فرصتهم بعيدا عن رؤيته . وفى التاريخ القديم والحديث أمثلة كثيرة لذلك .

قال الشاب : مرة أخرى أراك أرهقتنى . وأرجو استكمال المناقشة فى وقت آخر .

قال المناضل القديم : ليس قبل أن تعرف أن الطريق الذى أشرت إليه هو طريق الديمقراطية .

٨ ـ أزمة الديمقراطية :

كانت كلمة الديمقراطية هى التى جرت على لسانه عند آخر الحوار الذى لم يصبر الشاب على مواصلته . وكانت الإيحاءات العميقة لتلك الكلمة لا تزال تملك عليه عقله ووجدانه حينما ساقت الصدفة إليه أحد الأصدقاء القدامى .. وكانا لم يلتقيا منذ أعوام طوال . فتملكت كلا منهما حرارة اللقاء . وشد كل منهما على يدى الآخر سعيدا ، ثم تبادلا طرفا من المجاملات غير المعتادة ، وجلسا مبهورين بهذه الصدفة السعيدة إلى أن امتد بينهما حبل الحديث .

المناضل القديم : منذ ساعة واحدة كان معى شاب ذكى مهموم بهموم بلده وأمته . ومن ذوى الحماس القادرين على التضحية . وكان يناقش معى عددا من القضايا بوجهة النظر الإسلامية .

الصديق وإلى أى شىء انتهيتما يا ترى ؟

المناضل القديم : إلى محاولة الكشف عن أنسب الطرق للتخلص من الحكام الطغاة ، درءا لمفهوم الاغتيالات والغدر

الصديق وهل اكتشفتما هذا الطريق أم لا تزالان فى طور البحث والتنقيب ؟

المناضل القديم : قلت له إن طريق الديمقراطية هو الطريق الوحيد للتغيير والتخلص من النظم الجائرة

الصديق وهل وافقك على ذلك ؟

المناضل القديم : ليس بعد .

الصديق : وماذا تعنى بطريق الديمقراطية ؟

المناضل القديم : أعنى طريق تعدد المنابر السياسية بتعدد المصالح المتعارضة فى داخل المجتمع ، وإتاحة الفرص المتساوية للجميع لكى يعبروا عن آرائهم بكافة طرق التعبير الممكنة دون خوف من السلطة ، أو تدخل منها .

الصديق : وهل هناك سلطة يمكنها أن تقف على الحياد ، وتدع للجميع تلك الفرص المتساوية ؟

المناضل القديم : أبدا .. ليست هناك سلطة محايدة بالمرة .. فكل سلطة تقوم على أساس الانحياز لشريحة معينة من شرائح المصالح المتجانسة فى المجتمع .. لكن عليها أن تعترف بأن أصحاب المصالح المغايرة لمصالحها لهم حقوق الانحياز لمصالحهم والدفاع عنها بكافة الطرق التى تستخدمها السلطة فى هذا المجال .

الصديق : لكن كل سلطة تدعى أنها غير منحازة، وأنها تدافع عن جميع الشرائح والطبقات، ومن ثم فإنها ترفض التسليم بتلك الحقوق التى تتحدث عنها .

المناضل القديم : الادعاء شىء ، والواقع شىء آخر .

الصديق : ومن الذى يحمل السلطة على التسليم بهذا الواقع ؟

المناضل القديم : قوة الواقع نفسه .

الصديق :لا أفهم .

المناضل القديم : أريد أن أقول إن السلطة التى تتعنت ولا تخضع لواقعية الواقع الملىء بالمصالح المتناقضة فى المجتمع ، تضع نفسها فى مواجهته صراع حاد ينتهى بها عن طريق أجنحتها الواعية إلى الاعتراف بهذا الواقع ، ومن ثم تنبثق التعددية ، ويسمح بالمعارضة .

الصديق : وما قيمة المعارضة إذا لم تتمكن من تغيير ظروف المجتمع والسلطة فيه ؟

المناضل القديم : قيمتها الحقيقية فى أن تلعب دورها السياسى بمهارة تتيح لها هذا التغيير عن طريق الانتخابات التى تمكنها من الحصول على الأغلبية ومن ثم تقبض على السلطة .

الصديق : ماذا تقصد ؟

المناضل القديم : أقصد أن أقول : إن المعارض الحقيقى شخص يملك مشروعا سياسيا بديلا لذلك المشروع الذى يعارضه ، ونظرا لأن هذا المشروع الذى يعارضه له سلطة تحميه ، وتحمى من خلاله المصالح التى تفرضه ، فإنه من البدهى أن يتجه المعارض إلى محاولة فرض مشروعه عن طريق الجماهير . فهى وحدها التى تستطيع أن تسقط المشروع الذى تعارضه ، وتفرض مشروعها الذى تقتنع به .

الصديق : لكن السلطة بمختلف الحيل والألاعيب تعمل على كسب الجماهير إلى صفها هى ، فيفقد المعارض سنده الذى يمكنه الاستناد إليه .

المناضل القديم ذلك حق السلطة أيضا كما هو حق المعارضة ـ لكن السلطة لا تستطيع كسب الجماهير إلا في حالة ضعف قدرة المعارضة على الالتحام بتلك الجماهير . حينئذٍ تلوذ المعارضة بالتنديد القولي بأفعال السلطة . وتقف عند حد الصياح بأن الديمقراطية في أزمة .

الصديق أزمة الديمقراطية في بلادنا شيء واقع ، فمنذ حادث المنصة والعمل جار بقوانين الطوارىء التى تتيح الاعتقال والبطش بكل من يعارض السلطة .

المناضل القديم : لا أعتقد أن أزمة الديمقراطية في بلادنا مردها إلى إعمال قوانين الطوارىء وإنما مردها الخوف من إعمال قوانين الطوارىء ..

الصديق : وهل هناك فرق بين الأمرين من وجهة نظرك ؟

المناضل القديم : نعم . هناك فرق .. فقوانين الطوارىء لم تمنع من وجود عدد كبير من المعارضين تحت سقف المجلس النيابى . جنبا إلى جنب مع نواب الحكومة ، ولو كانت المعارضة أقوى لأمكن الحصول على الأغلبية رغم إعمال قوانين الطوارىء .

الصديق : كأنك تريد أن تقول إن المعارضة هى المسئولة عن عدم التغيير .

المناضل القديم إن الوقوف بالمعارضة عن حدود الكلمات المكتوبة أو المنطوقة ضد المشروع المطلوب اسقاطه لا يمكن أن يؤدى إلى أى تغير . ودليل ذلك أن أيا من أحزاب المعارضة رغم حرية التعبير والنشر لم يستطع أن يجعل الجماهير تتبنى مشروعه وتؤمن به وتتحرك معه حركته الايجابية الواعية .

الصديق : معنى ذلك أن الجماهير في واد ، والمعارضة في واد آخر . ولكن لماذ تعجز المعارضة عن إقناع الجماهير بمشاريعها البديلة .

المناضل القديم : أعتقد أن الأحزاب المعارضة قد توصلت إلى مشاريعها السياسية أو برامجها من خلال دراسات معزولة عن حرارة الحركة الجماهيرية اليومية . ومن ثم فإنها لم تأت معبرة عن الواقع الحى لحياة تلك الجماهير . كما أعتقد أن أصحاب تلك المشروعات أو « البرامج » لم يحاولوا تجاوز الاجتماعات التى يعقدونها مع انصارهم ، والمقالات التى يدبجونها في صحفهم اليومية أو الأسبوعية إلى النضالات العملية .. على أن الأهم من كل ذلك هو أن الجماهير من طول ما عانت من التجارب الفاشلة قد فقدت ثقتها في أية تجربة يُعرض عليها الاشتراك فيها .

الصديق أنا معك في هذه الملحوظة الأخيرة ، فلقد جربت الجماهير أن تستمع وتثق وربما تشارك في التنظيمات الرسمية من هيئة التحرير إلى الاتحاد القومى ، فالاتحاد الاشتراكى ، فحزب مصر ، فالحزب الوطنى .. كما جربت الجماهير أن تستمع وتثق وربما تشارك في تنظيمات اليمين واليسار على اختلاف أسمائها .. وكان الحصاد المرير بالنسبة للتنظيمات الرسمية هو الاقتناع الكامل بأن المسيطرين عليها كانوا وما زالون في معظمهم لا يعملون إلا لصوالحهم الشخصية ، وحتى اتبعوها في عهد السادات .. وهى هى نفس الأساليب التى يتبعونها الآن . أما الحصاد بالنسبة للتنظيمات غير الرسمية فهو تعرضها لشر أنواع التنكيل التى أفقدتها القدرة على تحقيق أهدافها .

المناضل القديم إذن فنحن متفقان على أن سلبية الجماهير محتاجة إلى جهود غير عادية تقوم على دعائم الصدق الديمقراطى من جانب المعارضة أولا ، والوعى العميق بدور المعارضة من جانب الحكومة بعد ذلك

الصديق : ماذا تعنى بالصدق الديمقراطى ؟

المناضل القديم : أعنى الصدق الذى يحتمى بمظلة الديمقراطية التى يرفعها رئيس الدولة بحيث تنكشف للجماهير كل الوعود الزائفة ، والحقائق المضللة ، والأكاذيب الملفقة التى منيت بها من قبل

الصديق : وماذا تعنى بالوعى العميق من جانب الحكومة ؟

المناضل القديم : أعنى أن تعى الحكومة أن معيار التقدم والخروج من مأزقنا الحالية إنما يتمثل فى فتح كل الأبواب أمام المعارضة العلنية لكى تشعر الجماهير بأنه لم يعد هناك أى مبرر للخوف ..

الصديق : من الواضح أننا استرسلنا فى الحديث عن ازمة الديمقراطية ، وانك تعتقد أن حل كل المشكلات بأيدى الجماهير التى لها أن تؤيد أو تعارض من غير خوف ولا إكراه .

المناضل القديم : وهل تعتقد أنت غير ذلك ؟ ألست معى فى أن الجماهير التى عانت من الإرهاب ، والتعذيب الجماعى ، قد تداعت عليها عوامل الإحباط التى أفضت إلى هزيمة ١٩٦٧ ؟ ألا تعتقد أنه لو كانت هناك حرية التعبير التى استطاعت أن تدل على مزالق الخطر قبل وقوعه ألم نكن نستطيع النجاة من مصيدة الهزيمة أو حتى الحد منها ؟ أليس الصمود العراقى فى وجه الزحف الفارسى الرهيب ثمرة لالتحام القيادة العراقية بجماهير الشعب العراقى ؟

الصديق : أنا لا أجادل فى شىء مما تقول .. ولكننى أود أعرف لماذ تظل الجماهير على سلبيتها رغم أن الديمقراطية ـ هى ـ المناخ السائد الآن ؟

المناضل القديم : تذكر ـ يا صديقى ـ أن تاريخنا السياسى المعاصر ليس إلا سلسلة موصولة الحلقات ، وأن « نصر اكتوبر » حلقة متصلة بحرب الاستنزاف قبلها ، ومتصل بها من الطرف الآخر ثغرة السويس ، ومباحثات فك الارتباط .. وتذكر أن الجماهير التى وعدها السادات بالزبد والعسل المصفى أثناء وبعد رحلة القدس الشهيرة ، هى نفس الجماهير التى لم تجن غير ثمار الحنضل من آثار الانفتاح الاقتصادى وفوضاه ، وما ترتب عليها من غلاء فاحش ، وتغيرات اجتماعية رديئة .

الصديق : لكن ذلك أدعى إلى التحرك الإيجابى فيما أظن .

المناضل القديم : ظنك صحيح لو أن هناك من قيادات المعارضة من يستطيع التحريك ، وإزالة رين اليأس ، وإعادة الثقة المفقودة إلى مكانها من قلوب الناس .

الصديق : ولماذا تعول دائما على المعارضة ؟

المناضل القديم : لأن الحكومة بحكم الظروف التى تجعل منها قبلة للمنتفعين والراغبين فى المحافظة على صوالحهم الشخصية . لا تكون مؤهلة لهذا الدور . إن مهمتها وأنصارها هى الوقوف ضد التغيير . أفهمت ؟

الصديق : نعم فهمت .. ولكننى اعتقد أن الحكومة تستطيع أن تساهم فى القضاء على سلبية الجماهير وإحلال الإيجابية محلها .

المناضل القديم : نعم . وتستطيع أكثر من أن تساهم . لو ألغت القوانين المقيدة للحريات وأعطت القوى السياسية المختلفة حقها فى التنظيم الحزبى ، ورفعت يدها عن الحركة النقابية ، وجعلت الإشراف على الانتخابات من حق السلطة القضائية ، وكفت عن محاربة من ليسوا فى حزب الحكومة الخ .

الصديق : وهل تفعل ؟

المناضل القديم : لا اعتقد . ومن أجل ذلك فإن الدور الأكثر إلحاحا هو دور المعارضة .

الصديق　كل المعارضة ؟

المناضل القديم　كل المعارضة بما فيها هؤلاء الذين لم يتبينوا بعد الطريق

الصديق　امتدت بنا المناقشات بسبب كلمة قلتها انت للمهموم بهموم بلده . ويبدو أن داء المناقشات قد تمكن من نفوسنا ولن يبرحها إلا بالموت

٩ ـ خبَراتُ الأمس :

عكف المناضل القديم على نفسه بعد أن مضى عنه هذا الصديق يفكر فى هؤلاء الذين لم يتبينوا بعد الطريق .. إنهم يبدءون نفس البدايات التى بدأ هو بها منذ ما يقرب من نصف قرن . يبدءون بالمحاولات الطائشة ، والخطط غير المحكمة ، والأعمال التى لا تحقق ما يريدون .. وهم ولا شك .. يطلبون الحقيقة التى لو وقفوا عليها لأمكنهم تصحيح الاتجاه .

ترى لماذا كتب علينا ذلك التقطع المتوالى بين خبرة الأجيال ؟ لم لم نجد نحن فى جيلنا تراثا نضاليا منقى من الشوائب تعتمد عليه ؟ ولم لم يجد هؤلاء فى جيلهم ما لم نجده نحن فى جيلنا ؟ وماذا يكون الحال لو تكررت أخطاء جيلنا عند ثوريى ذلك الجيل الجديد ؟

وعند هذا الحد من التفكير تملكه الفزع ، وسمع لسانه يقول : لقد قمت بالمشاركة الايجابية النشيطة مع كتائب الثورة المصرية فى فترات متعاقبة منذ بداية الأربعينات وحتى منتصف السبعينات ، وباستطاعتك الآن أن تقدم ولو إشارات قليلة إلى الأخطاء التى يجب تجنبها .. فلتفعل فى غير ما تحامل ولا اختلاق ..

قال سأفعل ولكن من الذى يضمن أن تعنى الإشارات عن العبارات ، وأن يكتفى الجيل الصاعد بأقوال من سبقوه فيتجنب كل خطأ يمكن أن يقع فيه ؟

إن تجدد الأزمنة يقتضى تجدد التحديات ، وتجدد التحديات يقتضى تجدد المواقف لمواجهة لهذه التحديات ومع تجدد المواقف دائما احتمالات الخطأ . ومن ثم فإن قصارى الإشارات إلى أخطاء الماضى انها قد تفيد رواد المستقبل إذا تشابهت المواقف ..

وبينما هو مستغرق مع نفسه فى هذا الحوار الذاتى قدم عليه ذلك الشاب الذى استمرأ المناقشة معه ، بعد أن لمس فيه صدق الحجة ، والبعد عن نصب فخاخ التآمر .

قال الشاب فى تحفز : دعنا من الحديث فى هذه المرة عما يجب أن يكون لكى تتعرف ولو بسرعة على أسباب عدم تحقيقه حتى الآن . فمن خلال المناقشات السابقة لحظت عليك انك تتكلم بثقة العارف القادر . ولحظت أن فى كلامك ما يدل على سبقك للمساهمة فى العمل من أجل مصر والإسلام . ومن أجل ذلك فإننى أرجوك أن تفهمنى لماذا لم يكن ما يجب أن يكون إلى اليوم ؟

قال المناضل القديم : ولماذا لا نكمل مناقشتنا السابقة ثم بعد ذلك أجيبك إلى ما تريد ؟

قال الشاب : لاداعى للإطالة . فنحن الشباب نعشق العجلة ، ونتمنى لو وصلنا إلى الهدف وصول القذائف المنطلقة إلى أجواز الفضاء .

قال المناضل القديم : فليكن ذلك كذلك ، ولكننا كنا انتهينا فى الحديث السابق إلى ما يمكن اعتباره مدخلا إلى الذى تريد .

قال الشاب　لا تتهرب من الإجابة عما طلبت الآن ، وإلا كان ذلك دليلا عندى على بطلان كل ما سبق أن قلته لى

قال المناضل القديم : أمرى ـ إذن ـ لله . وأبدا بالثناء على ذكائك الذى هداك إلى أنى ساهمت فى العمل من أجل مصر والإسلام . ثم أدعو الله أن يوفقنى إلى تحقيق رغبتك فى الفهم

قال الشاب : كلى إصغاء إليك .

قال المناضل القديم : تعلم أننا حينما بدأنا العمل من أجل مصر والإسلام كنا فتية غير ناضجين . ولم يكن هناك تراث ثورى موصول يمكن أن نتزود به ، وكان هادينا هو الحماس الذاتى فى جميع الخطوات ، ومن أجل ذلك فإننا ارتجلنا الاجتهاد والمواقف ارتجالا ومن ثم فإن اجتهاداتنا ومواقفنا ملأتها الأخطاء .

قال الشاب : أوضح هذه الأخطاء ..

قال المناضل القديم : لا تقاطعنى وسوف أوضح لك كل شىء . فأنا إذ احدثك الآن إنما أحدثك عن تجربة جيل كامل من الوطنيين فى مصر ، وليس عن تجربتى وحدى . ومن غير المعقول أن أقدم لك إلا العام من الأخطاء التى وقع فيها جميع العاملين فى الحقل الوطنى .

قال الشاب : لا بأس .. ولكننى أريد مع الاسترسال فى الحديث ضرب بعض الأمثلة للإيضاح .

قال المناضل القديم : لك ما تريد إن شاء الله .. وأعود لأوضح لك أن ما يجب أن يكون كان هم جيلنا بأكمله . ولقد اضطلع بالدور الأكبر فى سبيل تحقيقه جماعة الإخوان المسلمين ، وجماعات اليسار الماركسى ، وتنظيم الضباط الأحرار إلى جانب فرق أخرى .. الوطنيين والاشتراكيين وغيرهم . وكانت المشكلة الكبرى التى تواجههم هى مشكلة التخلص من الاستعمار .. وكان من الممكن لهم أن يتعاونوا فى سبيل حل تلك المشكلة ولكنهم اختلفوا حول سبيل حلها . وكان من الممكن أن تكون خلافاتهم خلافات أصدقاء ، ولكنهم أصروا على أن تكون خلافاتهم خلافات أعداء .. وهذا هو أبشع الأخطاء التى وقع فيها الجميع بدون استثناء ـ فالإخوان المسلمون الذين تعلموا من قيادتهم قولها « لعل من أخطر النواحى فى حياة الأمم الناهضة ، وهى فى فجر نهضتها ، اختلاف الدعوات ، واختلاط الصيحات ، وتعدد المناهج ، وتباين الخطط والطرائق ، وكثرة المتصدين للتزعم والقيادة ، وكل ذلك تفريق للجهود ، وتوزيع للقوى يتعذر معه الوصول إلى الغايات ؟

هؤلاء الإخوان هم الذين صارعوا الفرق الوطنية الأخرى بروح العداء ، وانتهى بهم الحال إلى استعمال السلاح بدلا من استعمال الكلمة .. وكانت النتيجة هى الفتك بهم بعد محاولة اغتيال عبد الناصر ١٩٥٤ .

قال الشاب : وعلى من تقع مسئولية ذلك ؟

قال المناضل القديم : تقع على الجميع بالطبع . فمهما حاول أى طرف التنصل من تلك المسئولية فإنه لن يستطيع ذلك لأنه كان من الممكن الوصول إلى اتفاق مشترك طالما الجميع فى نفس الصف المناضل ضد الاستعمار .

قال الشاب : واليسار الماركسى ما مدى مسئوليته فى هذ الجانب ؟

قال المناضل القديم : مسئوليته موازية ومتساوية مع مسئولية الأطراف الأخرى . ذلك لأنه كان يرفع شعار الجبهة الوطنية ، ويدعو إلى تحالف كل القوى الثورية من أجل الحصول على الاستقلال فلم يكن مستساغا بمنطقة هو أن يمارس تلك الإختلافات العدائية التى وصلت إلى حد اتهام الأطراف

الأخرى بالعمالة والخيانة

قال الشاب اعتقد أن مسئولية الحكم الوطنى بعد ١٩٥٢ كانت هى المسئولية الأولى ـ لأن أمكانية قبول الاتفاق أو رفضه كانت فى يده هو ، وليست فى يد أى طرف من الأطراف الأخرى

قال المناضل القديم ربما لو كنت أنت مكانهم لما استطعت أن تفعل غير ما فعلوا

قال الشاب معنى ذلك أنك تعفيهم من مسئولية الأخطاء

قال المناضل القديم لا لكننى مكتفٍ بأن أجعل نصيبهم من المسئولية مساويا لغيرهم .

قال الشاب : ولما تصر على الاكتفاء بذلك ؟

قال المناضل القديم : لأننى أعتقد أن سبب الوقوع فى خطيئة الصراع العدائى كان واحدا عن الجميع . ذلك لأن كل جناح من هذه الأجنحة قد عجز عن تبين الحدود الوطنية لمواقف الآخرين . علما بأن الهدف الرئيسى للجميع كان هو طرد الانجليز من مصر . فالإخوان المسلمون من منطلق الاستلهام لتراث الإسلام لا يمكن أن يقروا إحتلال بلادهم وهى من أرض الإسلام . واليساريون الماركسيون من منطلق الإيمان بإزالة كل أسباب قهر الإنسان لأخيه الإنسان لا يمكن أن يفرطوا فى حقوق وطنهم المقهور لحساب عدوهم القاهر . والضباط الوطنيون من منطلق المعاناة فى الحرب الفلسطينية الأولى ومع العمليات الفدائية فى منطقة القناة ١٩٥١ لا يمكن أن يتواطئوا مع أعدائهم وأعداء وطنهم المستعبد .

قال الشاب ولكن لماذا ذلك العجز الذى أصاب الجميع ؟

قال المناضل القديم لسببين اثنين .. الأول هو قصور النظر عند كل جناح بحيث لم يتبين الجوانب الوطنية فى الأجنحة الأخرى والثانى هو الانزلاق وراء تصوير الأعداء للواقع فى بلادنا .. فالذى يستعيد الأحداث الآن يتذكر أن الإخوان المسلمين لم يروا فى اليسار الماركسى سوى الإلحاد والتآمر على الإسلام كما يتذكر أن اليسار الماركسى لم ير فى قيادات الإخوان المسلمين إلا عجلاء ومضللين باسم الإسلام .. أما الحكم الوطنى فإنه لم ير فى كل من الفريقين السابقين غير منافسين على السلطة ، يريدون نهبها والفوز بمغانمها . على حين لم يـر الفريقـان فى السلطة غير حكومة تريد تسليم البلاد للمستعمرين .. ومن ثم قادت تلك البدايات الخاطئة فى الفهم إلى أسوأ ألوان الصراع .

قال الشاب : هذا فى جانب القصور فى النظر . فماذا عن جانب تصوير الواقع من وجهة نظر الأعداء ؟

قال المناضل القديم : فى هذا الجانب يمكنك إذا رجعت لما كانت تنشره الصحف العالمية نقلا عن وكالات الأنباء انذاك أن ترى تصويرا شيطانيا مثيرا للرعب كان هدفه تأجيج نار العداوة فى قلوب جناح الحاكمين على وجه الخصوص

قال الشاب وكيف يصدق الحكام تصوير الأعداء الذين يحاربونهم ؟

قال المناضل القديم : أمر التصديق والتكذيب لمزاعم الأعداء مسألة معقدة ، فالسلطة فى حد ذاتها مفسدة ، تغرى صاحبها بالعمل الدءوب على حمايتها .. والسلطة المطلقة مفسدة مطلقة كما تقول الحكمة اليونانية القديمة . ومن هنا فقد اغتنم الوصوليون والانتهازيون فرصة الاختلافات الناشئة عن اختلاف المواقع والمعطيات والمنطلقات ، وراحوا ينفخون فى نفس الكيد الذى ينفخ فيه الأعداء ، حتى تصور الحكام أن تحت كل حجر فى أرض الوطن من يتربص بهم . ومن ثم

شددوا النكير ، واصطنع عبد الناصر لنفسه أجهزة فوق أجهزة ، فوق أجهزة من المرتزقين بالنميمة والدس . وتمزقت نفوس المواطنين شر ممزق وكان هذا هو أسوأ انواع الحصاد الذى جعل من الحكم الوطنى حكما أشد فى استبداده من حكم المستعمرين المتربـرين ولاشك أن ذلك قد أدى إلى تعويق ما كان يجب أن يكون

قال الشاب أهذا هو كل ما لديك يا سيدى ؟

قال المناضل القديم لا .. بل لدى الكثير الذى لم اقله بعد

قال الشاب : إذن فقل كل ما لديك حتى أفهم .

قال المناضل القديم : هناك خطأ آخر لا يقل سوءا عن الخطأ السابق ، بل ولربما كان هو الأساس الذى منه تفرعت كل صور العداء التى اسلفنا ذكرها

قال الشاب : وما هو هذا الخطأ ؟

قال المناضل القديم : تستطيع تسميته خطأ التفكير الذاتى . فعلى امتداد ساحة العمل الوطنى فى مصر ، وفى شتى الجماعات والتنظيمات الوطنية ، لم يكن هناك التجرد الكامل من اجل الأهداف والغايات النبيلة ، وتبعا لذلك فإن موضوعية الفكر كانت مفقودة

قال الشاب مرة أخرى أرجو الإيضاح

قال المناضل القديم : سأوضح .. ولكنى أناشدك الله الا تتململ فجماعة الإخوان المسلمين كانت ترى أنها هى التى سوف تعيد للدين مجده الضائع ، وأن من عداها من المسلمين يجب أن يكونوا فى ركابها لكى تتم نجاتهم من الغرق ، ومن هنا وضعوا المصلحة الذاتية لجماعتهم معيارا لكل شىء فلم يستطيعوا قبول مبدأ التفاهم مع الجماعات والأطراف الاخرى .

قال الشاب : ذاك شأن كل جماعة ذات أهداف تريد تحقيقها لابد أن تعتصم بهذه الأهـداف وتترك ما عداها ..

قال المناضل القديم : ليس ما قلته إنكار تمسك الجماعات بأهدافها .. لكنها عند التعامل مع الواقع لابد أن تعترف بحقائقه الموضوعية .. وإلا انفصلت عنه وجعلت من نفسها حكما وقيما عليه دونما سند غير الادعاء . خذ مثلا تلك المقولات المشابهة فى تـاريخ الإسـلام القديم وعـلى الأخص مقولة الخوارج التى انبعثت من قلب الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان . لقد تجاهلت تلك المقولة قاعدة الإسلام الذهبية التى تقول المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى برمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم .. وجعلت من القائلين بهاحكما وقيما على الجميع يحلون هذا ، ويسعون لقتل ذاك وهكذا ..

قال الشاب : مهلا ..

قال المناضل القديم : مهلا أنت فإننى لم أستكمل فكرتى التى أرجو أن تتضح لك . فلقد سارت حياة المسلمين محكومة بتلك القاعدة الذهبية التى تجعل من جميع المسلمين أندادا . ليس هناك فضـل لأبيضهم على أسودهم . ولا لشريفهم على غير الشريف منهم ، وكـان التجرد من غـايات الدنيا ، والتعفف عن ولاية الحكم هو الحارس الأمين على تنفيذها ومن هنا استقام عليها أمر الناس ، وكفلت للمسلمين عزة الانتصار المطرد .. حتى جاء من يريدون بالإسلام عـرض الدنيا من حكم زائل ، أو مال حائل ، أو نفع عاجل ، فانقلب الميزان ودخل الناس فى متاهات الانتصـار للأحزاب ، والتعصب للهـوى ، وشاع فيهم الملق والنفـاق وإيثار الدنيـا عـلى

الآخرة . ومن هنا كان لابد لمن يسعى لخدمة الإسلام أن يتخلى عن الطموحات الذاتية حتى يكون منسجما مع المثل العليا للدين

قال الشاب لا أطيق الاستمرار فى الحديث دون أن أفهم العلاقة بين ما تقول وبين التفكير الذاتى .

قال المناضل القديم إذا قال فرد أو مجموعة من الأفراد إن ما يقولونه وحدهم هو الحقيقة المطلقة التى لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها ، وأن كل الناس لابد أن يتبعوهم فإننا نسمى ذلك تفكيرا ذاتيا .. ومثل هذا التفكير عندما يلبس ثياب الدين فإنه يكون وسيلة للتمزيق والتفريق لا للتوحيد والتجميع . وخذ مثلا لذلك تلك الجماعات الإسلامية الكثيرة العدد .. كلها افرختها جماعة الإخوان المسلمين وكلها لا تعجبها جماعة الإخوان المسلمين .. وكل واحدة فيها تناهض وتشجب غيرها من الجماعات .. الا يوضح ذلك أن التفكير السائد عند كل جماعة على حدة هو تفكير ذاتى يعبر عن وجهة نظر خاصة وذاتية فى فهم حقائق الدين ؟

قال الشاب إنه اجتهاد ..

قال المناضل القديم وحتى لو فرضنا انه اجتهاد فإن هنك دائما الوسائل الموضوعية التى تحكم الاجتهادات وتنأى بها عن الذاتية .

قال الشاب وماذا عن الرواد اليساريين الماركسيين يا ترى ؟

قال المناضل القديم لاتعجل . فإن حظهم من الذاتية لم يكن أقل من حظ الإخوان المسلمين فيها . على أن هذا الخطأ لا يقدح فى ان كلا من الفريقين قد بذل أقصى طاقاته فى سبيل الاستقلال .

قال الشاب ولكن الجميع لم يحققوا ما كان يجب أن يكون ..

قال المناضل القديم : نعم ولولا ذاتية التفكير لكان للأمور وجه آخر .

قال الشاب : وضح لى ـ لو سمحت ـ وجه الذاتية فى تفكير الرواد الماركسيين .

قال المناضل القديم : يعلم الجميع أن الجماعات الماركسية قد انقسمت على نفسها فى مجرى النضال المصرى اكثر من مرة .. على الرغم من أنها جميعها كانت تعلن الالتزام الكامل بالنظرية الماركسية . وتنادى بالموضوعية عند البحث فى الظواهر الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . لكن اختلاط الطموحات الشخصية بالأهداف السياسية قد سوغ لكل منها حق الادعاء بأنه هو الملتزم وحدها بالمبادىء . وأن غيرها منحرفون أو مخربون أو انتهازيون .. والذى عاش تجربة اليسار المصرى يعرف أن حرب التراشق بالنصوص الماركسية كانت أشد ضراوة من حرب النصوص القائمة اليوم بين أعضاء الجماعات الإسلامية .

قال الشاب ولكن لماذا يتجهون اصلا إلى الماركسية ؟

قال المناضل القديم : لا نستطيع الحجر على العقول التى تطالعها الفلسفات ، والأديان ، والأفكار العلمية ، وكل ما نملكه هو البحث فيما اتجهت إليه فإن لم يرقنا ناقشناه ورفضناه وإن راقنا صرنا مثلهم .. اليس كذلك ؟

قال الشاب : لا .. نحن لا يروقنا الفكر المستورد ويجب أن نحاربه بكل ما أوتينا من قوة ..

قال المناضل القديم : إنه فكر ورد إلينا ولم نستورده .. وهو فكر يشغل حيزا كبيرا فى هذا العالم وهو فكر تحت رايته تم تحرير عدد كبير من البشر الذين كانوا فريسة للاستعمار القديم .. ومن أجل ذلك فإنه اصبح حقيقة واقعة من حقائق العصر ، وعلينا أن نقف على أساسياته التى يقوم عليها .

ما وافقنا أخذناه ، وما خالفنا رفضناه

قال الشاب أراك تحاول الدفاع عن هذا الفكر

قال المناضل القديم دفاعي أو عدم دفاعي لا يلغي حقيقة وجوده والمهم أن رواد اليسار الماركسي كما سميتهم أنت لم يبرءوا من الوقوع في التفكير الذاتي الذي جعلهم ينقسمون على أنفسهم ويخطئون كثيرا عند التعامل مع الواقع

قال الشاب وماذا عن الحكم الوطني بعد سنة ١٩٥٢

قال المناضل القديم لم يكن أحسن حالا من الفريقين السابقين ، فهو لم يملك عند بداية الثورة غير الحد الأدنى من التفكير الذاتي المنطبع على الوطنية وكان هذا الحد الأدنى هو البوصلة التي على هداها تحركت القيادات الثورية في ٢٣ يوليو

قال الشاب : مبادىء ثورة يوليو حد أدنى من التفكير الذاتي المنطبع على الوطنية ؟

قال المناضل القديم نعم . فشعارات ثورة يوليو - ولا تسميها « مبادىء » - شعارات نادى بها الشباب في الجامعات وخارج الجيش قبل أن يعلن عنها الضباط الأحرار بوقت طويل ، وهي في حد ذاتها ليست فكرا ، وإنما هي وليدة فكر عام إذا صح هذا التعبير .. فالقضاء على الاستعمار شعار وطني كان يتردد في مصر منذ ثورة سنة ١٩١٩ . وتصفية الإقطاع أو القضاء على الإقطاع شعار أطلقه الماركسيون وهكذا

قال الشاب وما هي مظاهر التفكير الذاتي للحكم الوطني بعد سنة ١٩٥٢ ؟

قال المناضل القديم المظاهر كثيرة نكتفي منها بفكر رفض التعاون مع أي تنظيم أو جماعة تعمل في الحقل الوطني بحجة أن الجميع مشكوك في إخلاصهم ، ونزاهة مقاصدهم .

قال الشاب : تعني أن « الضباط الأحرار » ساد بينهم التفكير الذي ينزههم وحدهم دون سائر الوطنيين وأن كل من عداهم يجب أن يخضعوا لهم ؟

قال المناضل القديم : نعم أعني ذلك وأستند إلى أنهم لم يستطيعوا النفاذ إلى أعماق الحقائق التي تقوم عليها تلك الأجنحة الوطنية الأخرى . وحتى بعد أن أعلن الكثيرون من أعضاء تلك الأجنحة تأييدهم للسلطة إبان حرب ٥٦ ، ٦٧ وما بعدها ، فإن القصور الذاتي لم يسمح لهم بأي من التجاوب أو الاستجابة لهؤلاء المؤيدين !!

قال الشاب : والنتيجة ؟

قال المناضل القديم : والنتيجة أن مصر بكل أجنحتها وقعت فريسة لغول الاستعمار ومكائده من جديد

قال الشاب : لا فض فوك .. وما الخلاص يا ترى ؟

قال المناضل القديم : الخلاص كل الخلاص في أيديكم معاشر الشباب -

قال الشاب : أعود إليكم مرة أخرى بإذن الله وأسأله لنا التوفيق

١٠ - ثالثة الأثافي :

وعاد الشاب كما وعد من قبل بيد أنه لم يكن وحده ، وإنما كان مصحوبا بشابين آخرين يبدو عليهما الصلاح والورع .. وكان كل من الثلاثة يصطحب كتابا من أمهات الكتب الإسلامية وبعد أن جلسوا واطمأنوا إلى ترحيب المناضل القديم بكل منهم سارع أحدهم بتقديم ورقة إليه ، ثم دعاه لإبداء الرأي فيها بعد أن يقرأها .. ولم يلبث

الجميع أن انصرفوا رغم التمسك الذى أظهره مضيفهم لهم . وبعد فترة قصيرة رجع الشاب الأول وحده .

قال المناضل القديم   من هذان اللذان قدما معك ؟

قال الشاب   أخوان لى كنت قد نقلت لهما بعض ما سمعت منك ، وقدْ أصرا على التعرف عليك فأرشدتهما إلى مكانك ، ولست أظن إلا أنهما سوف يحبانك إن شاء الله

قال المناضل القديم   وما هذا الذى قدمه أحدهما إلىّ لكى اقراه

قال الشاب   إنه أحد منشورات الجماعة .

قال المناضل القديم : فلتقرأ أنت هذا المنشور حتى استمع إليك .

قرأ الشاب : « إن دعوتنا هى إفراد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية والسلطان ، ونزع الولاء من المجتمعات الجاهلية ، ومن قيادتها ، فلا جهل ولا جاهلية ، ولا تعاون مع الطواغيت من الحكام والعلماء والأنظمة والشرائع البشرية ، ولا نرضى بها ونكفرها جميعا ، ونكفر كل من دان لهم وتبعهم ، وعمل على علو رايتهم ونشرها . وإن الله يأمر أن تكون رابطة المجتمع هى العقيدة ، وليس الوطن ، وليس الشعب » توقيع « المسلمون »

قال المناضل القديم : ما شاء الله ولا قوة إلا بالله . دين هذا أم سياسة ؟

قال الشاب : بل دين وسياسة فى وقت واحد .

قال المناضل القديم : سبحان الله !! وهذا هو المطلوب رأيى فيه بالطبع ؟

قال الشاب : نعم .

قال المناضل القديم : وانت أيها الشاب ما رأيك ؟

قال الشاب : أنا من الجماعة ومؤمن بكل كلمة فى هذا المنشور .

قال المناضل القديم : أعلم ذلك .. ولكننى أود التعرف على عنصر الدين ، وعنصر السياسة فى محتوى هذا المنشور .

قال الشاب : إن الأمر لواضح فكل سطر من سطور هذا المنشور دين ، وكل سطر سياسة .. والمهم ليس رأيى وإنما رأيك أنت .

قال المناضل القديم : وإذا كان رأيى يختلف مع رأيك ورأى جماعتك فهل تعتقد أنه مهم أيضا ؟

قال الشاب فى تردد : نعم ..

قال المناضل القديم : لقد أخطأت فى حق جماعتك التى تكفر الحكام والعلماء ومن والاهم .. وكان الأولى بك وبأخويك اللذين قدما إلىّ هذا المنشور أن تحجباه عنى لأننى واحد من الذين تكفرونهم ..

قال الشاب : لا .. التكفير حكم وارد على العموم لا على الخصوص ، فمن بين العلماء والحكام من هم مؤمنون غير مكفرين ، وهؤلاء هم الذين يوافقون رأى الجماعة ..

قال المناضل القديم : قلت إننى مختلف مع رأيكم ، ولا أرى أن إفراد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية والسلطان مسألة تحتاج إلى دعوتكم فى مصر .. فمصر بحمد الله وطن الأزهر ، وعاصمتها القاهرة ذات الألف مئذنة .. وكل المسلمين من أهلها قبل دعوتكم يقولون لا إله إلا الله . فيفردونه بالألوهية فى كل لحظة .. وما دام الأمر كذلك فإنهم موقنون بأنه سبحانه متصف بكل صفات الكمال .. فهو الأول والآخر والظاهر والباطن والعادل والحكيم والقادر والمريد الخ أى أن إفراده بالحاكمية والسلطان ليست فى حاجة إلى دعوة أحد . فالكل محكوم بحكمه ، ومذعن لسلطانه .. ولا يقع فى ملكه إلا ما يريد

قال الشاب لكن الناس لو كانوا موقنين بذلك لامتثلوا لأوامر الله ونواهيه وابتعدوا عن خلقيات النفاق والملق للحكام

قال المناضل القديم إذن فأنت تريد أن تدعوهم إلى الاقلاع عن رذيلتى النفاق والملق لا إلى إفراد الله سبحانه بالألوهية والحاكمية والسلطان . ثم إن إفراد الله بالحاكمية والسلطان لا يلغى إقامة الحكام من البشر ، فعمر بن الخطاب كان حاكما ولم يقل أحد بأن ذلك كان منازعة فى حاكمية الله عز وجل .. وأى حاكم له سلطان . ولا يعنى ذلك أن سلطان الله غائب أو أخذه أحد منه

قال الشاب : أليس هناك حاكم ظالم ؟

قال المناضل القديم بلى . ولكن ظلم هذا الحاكم أو ذاك لا يعنى الخروج عن دائرة السلطان الإلهى ، وإنما يعنى الخروج عن الشرع العادل للدين .. وحينئذ فإن الله بسلطانه يسلط على هذا الظالم من هو أقوى فينتزعه من مقعد السلطة . ويولى غيره مكانه .

قال الشاب . وما رأيك فى نزع الولاء من المجتمعات الجاهلية ، ومن قياداتها ؟

قال المناضل القديم : لا أدرى - والله - ما هو المقصود بالمجتمعات الجاهلية . أهى المجتمعات السابقة على الإسلام أم هى تلك المجتمعات المسلمة ؟ إن كانت الأولى فلا أعتقد أن أحدا يواليها الآن . وإن كانت الثانية فما أبعد هذا الوصف عنها ذلك لإن المجتمعات الجاهلية هى تلك التى كانت تعبد الأصنام وتئد البنات ، وتتعصب للقبيلة ، وتستذل الرقيق ، وتستبيح الخنا والفحش فى كل دروب الحياة .. ولست أحسب أن أوطاننا الإسلامية تنطبق عليها تلك المواصفات .

قال الشاب : مهلا - يا سيدى - فأصنام الحجارة حلت محلها أصنام البشر من الحكام وذوى النفوذ والجاه

قال المناضل القديم : لا تكمل .. فليس هناك فى مجتمعنا من يعبدون البشر ، ويتقدمون لهم بالقرابين كل ما فى الأمر أن لدينا بعض المعاصى المجرَّمة من الحكام ومن غير الحكام .. ومن ثم لا جهل ولا جاهلية إلا بالظن والادعاء .

قال الشاب : كأنك تريد أن تقول إن المجتمعات التى نعيش فيها مجتمعات إسلامية .

قال المناضل القديم وهل تنزع عن المجتمع صفة الإسلام لمجرد المخالفات التى كانت تقع حتى فى عهد الرسول ؟

قال الشاب : فرق بين أن يكون الغالب على المجتمع وجه الطاعة والخضوع لله رغم وقوع بعض المخالفات وبين أن يكون الغالب وجه المعصية والتمرد على الله رغم وقوع بعض الطاعات أليس كذلك ؟

قال المناضل القديم بلى .. ولكن من الذى قال إن الغالب وجه المعصية .. ألا نصلى ونركع ونسجد لله رب العالمين لا شريك له ؟ ألا نصوم ونزكى ، ونحج بيت الله الحرام ؟ ألا يتلى بيننا كتاب الله تعالى صباح مساء ؟ .. أيقوم التعليم فى الأزهر والمساجد والمدارس على تلقين مبادىء الكفر والتنكر للدين ؟ .

قال الشاب : لا .. لكن الوجه السائد هو ما تنشره وسائل الإعلام المختلفة ، وما تقوم عليه صناعات السينما ، والمسارح ، وفنون الرقص والإباحية ، وشرب الخمر ، والتعامل بالربا الخ

قال المناضل القديم : لا تكن ظالما . يابنى - فليس كل ما فى وسائل الاعلام صورا للمعاصى وتحريضا عليها، وأنت شخصيا تجلس إلى بعض الحلقات التليفزيونية لكى تتفقه فى الدين ، وكثيرا ما استمعت إلى البرامج الدينية فى الاذاعة ، ولابد أنك تقرأ كل المقالات العلمية التى تفيض بها أنهار الصحف والمجلات .. الخ

قال الشاب أرجو أن نعود إلى نص المنشور ، وأن تحدد رأيك فى مسألة رفض التعاون مع الطواغيت .

قال المناضل القديم أى طواغيت ؟ الحكام والعلماء والأنظمة والشرائع البشرية ؟ قد يكون الحاكم طاغوتا وقد لا يكون فإن يكن طاغوتا فنحن مأمورون بمحاربته . وإن لم يكن فنحن مأمورون بمساندته والعلماء ؟ من الذى قال إن العلماء طواغيت ؟ .. ولماذا ؟ العلماء الذين ينشرون نور المعرفة فى العقول ، وعلى أكتافهم تصعد الأوطان للمعالى .. طواغيت ؟ ويجب الا نتعاون معهم .. يا سبحان الله !! فلنتعاون إذن مع الجاهلين ..

تأتى بعد ذلك الأنظمة والشرائع البشرية .. من الذى قال إنها طواغيت ؟ . « إن الطاغوت ما عبد من دون الله » فهل هناك من يعبد الأنظمة والشرائع البشرية من دون الله ؟

قال الشاب : ها أنزل الله الشرائع البشرية حتى نحكم بها ؟

قال المناضل القديم : فرق بين أن نحكم بها وبين أن نعبدها ونسميها باسم الطاغوت .

قال الشاب : الا يرقى الحكم بها إلى مرتبة الكفر ؟

قال المناضل القديم : فى أصول الفقه الإسلامى من مصادر التشريع بعد الكتاب والسنة « العرف » وما العرف إلا قواعد تعارف عليها البشر فقننوها وحكموا بها .. ترى هل يدخل ذلك ضمن الطواغيت أم لا ؟

قال الشاب ليس هذا هو المقصود بالشرائع البشرية . وإنما المقصود بتلك الشرائع المأخوذة عن الفرنسيين أو غيرهم

قال المناضل القديم حتى هذه الشرائع نحن لا نعبدها ولا نتعبد بها . ويكفى أن تعلم أن تسعة أعشار الأقضية يقضى فيها عرفيا وبعيدا عن المحاكم .. ومعنى ذلك أنها يقضى فيها بشريعة الله .. أما العشر الباقى ففى حوالى ٨٠ ٪ من قضاياه تتطابق النصوص القانونية مع الفقه الإسلامى .. أمن أجل ٢ ٪ فقط من الأحكام نطلق اسم الطاغوت ونكفر الحكام كل الحكام ، والعلماء كل العلماء والأنظمة والقوانين البشرية جمعاء ؟

قال الشاب نحن نريد حكاما وعلماء وشرائع تلتزم كلها بالإسلام .

قال المناضل القديم : وأنا أريد حكاما وعلماء وشرائع تلتزم كلها بالإسلام . ولكننى أستنكر الحكم على الجميع بالكفر .. كما أستنكر تكفير كل المسلمين المحكومين بحكامهم المسلمين والعاملين معهم - أستنكر طبعا تكفيرى وتكفير غيرى من الموظفين القائمين على خدمة المواطنين !! من الذى خولكم حق تكفير غيركم ؟ ألم تقرءوا قول الرسول لا ترجعوا بعدى كفارا يضرب بعضكم رقاب بعض ؟ ألم تطلعوا عند تفسير هذا الحديث على قول بعض الأئمة . أى لا تكفروا فتكفروا ؟

قال الشاب : الخطاب فى هذا الحديث للمسلمين ..

قال المناضل القديم : وأنتم الا تدخلون فى جملة المخاطبين ؟ إن الاتهام بالكفر جريمة لو أبيحت لأمكن للجميع أن يستعملوها ضد بعضهم البعض . والمؤمن الحق يعرف أن الكفر ضد الإيمان والإيمان يقين قلبى لا يستطيع أحد الاطلاع عليه .. فكيف يجرؤ « المسلمون » على وصف المسلمين بالكفر ؟

قال الشاب : أرجو التركيز على ما قاله المنشور بشأن رابطة المجتمع . أهى العقيدة ، أم الوطن ، أم الشعب ؟

قال المناضل القديم ولماذا الإصرار على الفصل بين هذه الثلاثة ؟ لم لا تكون الرابطة مكونة من كل هؤلاء ، الوطن

بحكم كونه المكان الذى ينشأ فيه الفرد المنتمى إلى المجتمع . والشعب بحكم كونه الوسط الإنسانى الأقرب إليه . والعقيدة ، بحكم أنها الآصرة التى تربط بين الفرد ووطنه وشعبه . وتعلمه حق الآخرين عليه

قال الشاب إن الله تعالى يقول « إنما المؤمنون إخوة » فهو يجعل الرابطة أخوة الإيمان أليس كذلك

قال المناضل القديم بلى . ولكن أخوة الإيمان لا تتعارض مع الأخوة الوطنية ولا القومية فحب الوطن الذى يحتضنك عند مولدك شىء فطرى فيك . ومن أجل ذلك فإنك تغار عليه وتعمل ما استطعت على حمايته من أعدائه . وبما أن هذا الوطن ليس خاصا بك بل يعيش عليه شعب كبير أنت فرد منه فإنك فطريا لابد أن تنزع إلى نصرتهم بنصرة الوطن الذى تنتمى إليه . وما بالنا نذهب بعيدا وقد قال رسول الله ليلة الهجرة مخاطبا مكة « والله إنك لأحب أرض الله إلىَّ ولولا أنَّ أهلك اخرجونى منك ما تركتك » ألا يكفى ذلك للتدليل على أن حب الوطن لا يتنافى مع العقيدة

قال الشاب فى أسف أراك لم توافق على شىء واحد من الذى ندعو إليه

قال المناضل القديم وكيف أوافق وأنتم -رغم إخلاصكم- تسلكون طرقا لن تبلغوا معها أى هدف ؟ إنكم تبدءون دعوتكم بادعاء أن مجتمعكم هو المجتمع الجاهلى رغم كل رايات الإسلام التى ترفرف عليه

ثم على فرض أن هذا هو المجتمع الجاهلى بكل مواصفاته التى عرفناها عنه قبل الإسلام ألم تقرءوا كيف بدأ الرسول دعوته فيه ؟ . هل صعد فوق ربوة عالية وقال لأهل هذا المجتمع يا عبدة الطواغيت والأوثان يا كفار يا جاهليون اقبلوا علىَّ لأهديكم ؟ أم دعاهم بالتودد والتحبب والمناجاة . يا بنى نوفل ، يا بنى عبد شمس ، يا بنى عبد المطلب ؟ حتى إذا اجتمعوا إليه قال فى تلطف وحب غامر : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى ؟ قالوا نعم . ما جربنا عليك كذبا قط !!

أرأيت هذا الإلزام الأدبى الذى ألزمهم إياه قبل أن يوجه إليهم دعوته ؟ لقد اعترفوا بصدق الدعوة والداعية قبل أن يخبرهم بها !!

فلما بلغ منهم هذا المبلغ عقب متحببا مرة أخرى إن الرائد لا يكذب أهله والله لو كذبت الناس جميعا ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعا ما غررتكم (لم يا ترى يقسم على أنهم أفضل لديه من كل الناس ؟ لمكانة المواطنة ، والقُربى ، ووشائج الأرحام) ولقد كان مقتضى تصديقهم المسبق ، وتودده الذى أقسم عليه ألا يكذبوه بعد ذلك !! لكنهم ما إن سمعوا قوله « وإنى لرسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة حتى تناسوا التصديق والتودد ، وصاح صائحهم : ألهذا جمعتنا ؟ تبا لك !! الخ ما ورد فى السيرة النبوية مما هو معروف .

ترى لو أنكم سلكتم طريق الحكمة ، والموعظة الحسنة ، والمجادلة بالتى هى أحسن . أتكونون مقصرين فى حق الإسلام الذى تغارون عليه ؟ وهل تظنون أن الناس سوف يقتنعون بكم لأنكم ترمونهم بالكفر ؟ لقد عرف تاريخ المسلمين فى الماضى البعيد والقريب جماعات مشابهة وكان مصيرها الفشل . بل إن تاريخ الإسلام لا يعرف تجربة من هذا القبيل تم لها النجاح

ليتكم تدرسون كل التجارب السابقة فى تكفير المسلمين ، ومحاولة حملهم بقوة الإرهاب على الخضوع والاستسلام .. ليتكم تدرسون وتقارنون ما تقولون بالذى كان يقوله داعية الحق الأول « إن الرائد لا يكذب أهله » .

قال الشاب : يخيل إلىّ أنك لم تعد تستطيع أن تعطينى فرصة للمناقشة .

قال المناضل القديم : لا . بل أستطيع وأرجو أن تتحدث بما تريد ..

قال الشاب : إن الجماعات الإسلامية وأمراءها لا يريدون شرا لأحد .. ولكنهم يعرفون أن العقبة الأولى فى طريق دعوتهم هم الحكام ومن يناصرونهم .. ويودون إبراز هذه الحقيقة ليعرفها كل المؤمنين بالإسلام ..

قال المناضل القديم : لكن هذا المنشور الذى أحضرت يرمى المجتمع بأكمله بالكفر ، وتلك ليست حقيقة تدل على تفكير معقول ، وغاية الغايات التى يمكن أن يخلقها هذا التفكير ، هو الزج بالمئات والآلاف فى معارك آثمة تكون الخسارة الوطنية والدينية فيها بالغة الفداحة ! ومن هنا أندفاعى لكى أبصرك . وعساك أن تبصر غيرك ممن يرتجلون التفكير ، أو يلقونه بغير فهم .

قال الشاب : أنت تحرص علينا ولكنك تحرص على هذا المجتمع أكثر من حرصك علينا .

قال المناضل القديم : فى المجتمع الذى نعيش فيه الكثير مما يجب أن نسخط عليه ، وننشد تغييره. لكن هذا التغيير يتطلب الدراسة والفهم الدقيق . لكى نضع أيدينا على مواطن العلة وخطة العلاج ـ وأنا لا أعترض على أحد يعمد إلى مقاومة أوجه الفساد فى المجتمع فكيف أكون أشد حرصا عليه منكم ؟

قال الشاب : دفاعك عن إيمان أفراده وإسلامهم ، وهجومك على اتهام الجماعات له بالكفر يوحى بذلك .

قال المناضل القديم : هذا استنتاجك « الغرير » وأرجو أن تسامحنى فى هذا الوصف الذى خلعته عليك وعلى استنتاجك فى وقت واحد .

قال الشاب : أسألك بشكل محدد عن نوع الحكم فى هذا المجتمع هل هو حكم إسلامى أم لا ؟

قال المناضل القديم : يبدو أنك قد نسيت كل ما سبق أن قلته لك ، وأرجو أن نؤجل المناقشة لوقت آخر .

١١ ـ توقعات المستقبل :

بعد يومين اثنين من انتهاء تلك المناقشة ، قدم عليه من يدعوه لحضور حفل زواج ابنته وكان هذا الحفل من ذلك النوع المرفه الذى لا يقدر عليه وعلى تكاليفه الباهظة إلا أثرياء هذه الأيام ذهب إلى الحفل فى موعده المحدد ، وشهد المئات من السيارات الفارهة تحيط بالمكان ففكر فى العودة من حيث أتى لولا أن والد العروس قد لمح شخصه فأقبل عليه مرحباً ولم يتركه حتى أجلسه فى إحدى الغرف مع عدد من الوجوه البارزة فى المجتمع بعد أن قام بتعريف كل منهم للآخرين .

جلس المناضل القديم بين هذا النفر الذين كان من بينهم عدد من أعضاء مجلس الشعب ، وحاول معهم فى البداية أن يكون حريصا على المجاملات الطيبة كما تقضى بذلك التقاليد ، فقد كانت العروس قريبة له ، وكان من واجبه أن يكون فى مظهر الممتن لحضور المدعوين ، متمنيا لهم الأفراح ، والليالى الملاح .

لكنه لم يستطع الاستمرار فى تلك المجاملات حتى النهاية ، وإنما أراد أن يتعرف على وجهات نظر المدعوين فيما يتعلق بشئون البلاد القائمة والمحتمله . فسأل متوجها إلى أعضاء مجلس الشعب :

- أمن الممكن التعرف من حضراتكم - وأنتم من حزب الأغلبية بالمجلس - على توقعات المستقبل ؟

قال احدهم اية توقعات ؟ وأى مستقبل ؟

- مستقبل الوطن الذى نعيش فيه ، والأمة العربية التى ننتمى إليها

قال ثان مستقبل الوطن مقرر فى الخطة الخمسية القادمة ، ومستقبل الأمة تشير إليه سياسة الرئيس حسنى مبارك منذ ولايته الاولى . فالخطة الخمسية الحالية ولا أقول القادمة تتجه إلى مضاعفة الجهود من أجل الإصلاح الاقتصادى ، وزيادة الانتاج الزراعى والصناعى ، وتدعيم بناء البنية الاساسية ، وتطوير الصناعة الحربية ، ورفع المعاناة عن محدودى الدخل ، وإصلاح التعليم ، إلى غير ذلك . أما بالنسبة للعلاقات مع الدول العربية فقد حرص الرئيس مبارك منذ تولى الحكم فى مصر على وقف الحملات ضد أى منها ، كما حرص على نبذ اتفاقية الحكم الذاتى ، والتأكيد على الاعتراف بحق الشعب الفلسطينى فى تقرير مصيره واستعادة أراضيه ، ومنظمة التحرير ممثله الشرعى الوحيد ، وإلى جانب ذلك فقد استجاب الرئيس إلى مشاعر الشعب المصرى ضد تطبيع العلاقات مع إسرائيل .. وكل ذلك قد أثمر ثمرته التى تجلت فى قرار مؤتمر قمة عمان وما تلاه من استئناف العلاقات الكاملة بين مصر والأغلبية من دول الجامعة العربية .

- وماذا عن وطأة الدين الذى يثقل كواهلنا ، ويعوق تقدمنا إلى الأمام ؟

قال ثالث تعمد الدولة إلى المطالبة بجدولة الديون ، وتستجيب الدول الدائنة وهذا حل مؤقت سوف تعقبه حلول أخرى نهائية ..

- مثل ؟
- مثل الاستعاضة عن الديون بالاعتماد على النفس ، فالدول العربية تكون وحدة جغرافية سياسية ، تملك من عناصر القوة ما يجب أن يدفعها إلى التكامل والاستغناء عن الاعتماد على العالم الخارجى . ولنأخذ مثلا استيراد الأغذية الذى نستطيع ايقافه لو تمكنا من تسخير أراض السودان بواسطة الخبرات المصرية والتمويل العربى . والخبراء يؤكدون أن استغلال الأراض السودانية يمكنه توفير الغذاء لكل الدول الإفريقية .

  ومثل آخر تلك الدول العربية التى تستورد السلاح .. إنها تستطيع اليوم شراء الأسلحة الحربية المتطورة من مصر . بل وتستطيع المساهمة فى جعل الصناعة الحربية المصرية فى قمة الصناعات الحربية فى العالم .
- لكن هذا التكامل دونه الأهوال . كل الأهوال ، فالسائد اليوم بين العرب هو قانون التفتت والتمزق ، وإسرائيل ومن يقفون معها لابد أنهم سوف يسعون إلى إحباط كل خطوة نخطوها على هذا الطريق .. ولا ننسى أن فى نصوص اتفاقية .. كامب ديفيد .. ما يلزم مصر بالوقوف مع اسرائيل ضد أية التزامات أخرى !!
- لا خلاف بيننا وبين أحد فى أن هذه قضية صراع ، ولا تنسى أن اتفاقية « كامب ديفيد » يمكن أن تلغى مثلما الغينا معاهدة سنة ١٩٣٦ مع الانجليز ، ومعاهدة الصداقة مع الاتحاد السوفيتى .
- بالفعل نحن الآن فى مرحلة جديدة من الصراع ضد التمزق والتفتيت ، ولكن إدراكنا لهذه الحقيقة يفترض رسم خطة يكون هدفها إقامة التكامل والوحدة . بين كل أبناء الشعب العربى .
- أو ليست عمان خطوة على الطريق ؟
- بلى . ولكن ما تم فى عمان من صنع رؤساء وملوك الدول العربية والتمزق والتفتت قد أصاب الشعوب

ومن الممكن إذا ما استمر أن يزيد من إرهاق الجميع

- تقصد الحرب بين ليبيا وتشاد ، وأقصد النزاع بين البوليساريو والمغرب ، وأقصد الصراع بين اليمنين واليمنيين ، والسودانين والسودانيين ، والجماعات الإسلامية والجماعات الإسلامية الخ .
- هى ايضا قضية وعى وصراع ، ومن المؤكد أن تزايد الوعى بأهمية التكامل والوحدة سوف يفرضهما على الجميع . وعلى كل فنحن اليوم أفضل مما كنا بالامس ، ولعل فى تطور العمل الفلسطينى فى غزة والضفة الغربية ما يشير إلى استرداد روح المقاومة التى على صخرتها تتحطم الهزائم .
- وماذا عن العمل السياسى الداخلى فى مصر ؟
- إنه العمل القائم على أسس ومبادىء اتلديموقراطية .. فالمعارضة تعلن رأيها عن طريق صحفها دون أى تدخل من أحد ، ولها تمثيلها النيابى فى مجلس الشعب ، ولم يحدث عدوان على حق أحد فى إبداء رأيه داخل المجلس . والتجاوزات التى تقع من الافراد يحاسب عليها القانون ورئيس الجمهورية يتولى منصبه عن طريق الاستفتاء الحر المباشر . وتتمتع البلاد وبحمد الله بنوع من الإستقرار لم تنعم به فى أى عهد سابق .
- وهؤلاء الأصوليون ، أو السلفيون الذين يتمردون ، ويظهرون رافضين لكل شيء .. أهم ايضا من علامات الاستقرار الذى تتحدثون عنه ؟
- ماذا تقصد ؟
- اقصد أن التكامل والوحدة المنشودين على مستوى الأمة العربية ، لابد أن يستندا على ركيزة مصر الموحدة القوية الناعمة حقا بالإستقرار .
- وهل بعض الشباب الرافضون لما نحن فيه دليل على عدم الإستقرار ؟
- نعم .. وإلا ما اتخذت الصحف الأمريكية والغربية والإسرائيلية من الاحداث التى يمارسها هؤلاء الشباب مادة للتحدث عنها بإعتبارها ثورة سوف تعم الوطن بأكمله .
- تلك تهويلات صحفية مقصود بها بعض الأغراض الخبيثة .
- إذا قالت تلك الصحف « إنه من العناصر التى ساعدت على صعود الأصوليين الاقتصاد المنهار الذى تثقله الديون ، ومحاولة الأصوليين على العكس تقديم بدائل ناجحة كالعيادات والمستشفيات والمؤسسات الإسلامية المالية التى توفر فوائد أكبر من البنوك .. فهل يكون ذلك تهويلا ؟ .
- نعم تهويل . فنحن لسنا وحدنا الذين تثقلنا الديون .. إن الديون ظاهرة العصر الجديد التى فرضت نفسها على كل الدول النامية فى آسيا وإفريقيا وأمريكا اللاتينية .. بل إن الولايات المتحدة الأمريكية نفسها تعتبر أيضا دولة مدينة .. لكن أحدا لا يجرؤ على القول بأن الاقتصاد الامريكى منهار .. ووجود بعض الشركات التى تحقق أعلى مستويات الربح فى الولايات المتحدة لا يعنى الإعداد لثورة سلفية أو تقدمية ـ والصحف التى تتغنى بمثل هذه الكلمات ربما لا تستطيع الرؤية ، أو تريد الطعن فى كفاءة بعض النظم بهدف التمهيد للانقلاب عليها .
- إذن ما هو المناخ الذى افرز ما يمكننا أن نطلق عليه وصف التنظيمات المتطرفة ؟
- التنظيمات المتطرفة ليست ظاهرة خاصة بمصر . فهناك فى كل بلاد العالم تنظيمات متطرفة : وهى ليست ظاهرة إسلامية مقصورة على الشباب المسلم وإنما هى ظاهرة يصاب بها غير المسلمين ايضا .
- فلنتفق أولا على تحديد معنى التطرف حتى لاتضل .

- التطرف يعنى رفض كل شيء والحكم ببطلانه . والسعى لتقويضه
- اتفقنا ؟
- اتفقنا
- هذا التطرف بهذا المعنى ليس ظاهرة مصرية أنتجها المناخ المصرى وحده ، وهو أيضا ليس ظاهرة صحية وإنما ظاهرة يصاب بها بعض الشباب نتيجة المعاناة خاصة تختلف من مجتمع إلى مجتمع .. فالمجتمع الذى بلغ من التقدم مبلغا عظيما ، ولم يستطع بتقدمه فتح باب الأمل فى التوازن النفسى عند الأفراد تظهر فيه ظاهرة التطرف فى شكل رفض هذا المجتمع بكل تقاليده ونظمه .. وفى هذا الصدد تبرز جماعات « الهيبز » التى انتشرت قبل العقد الماضى من هذا القرن فى شتى أنحاء المعمورة .

والمجتمع الذى تلم به كوارث التخلف ، ولا يجد أفراده ما يعطيهم الأمل فى تجاوز تلك الكوارث تظهر فيه ظاهرة التطرف فى شكل رفض المجتمع بكل تقاليده ونظمه أيضا .. وقد يأخذ التطرف شكل التطلع إلى المستقبل من منظور البحث عن الوسائل المفضية إلى التقدم . وقد يأخذ شكل التطلع إلى الماضى لاستلهامه تجاوز الكوارث التى ألت بهذا المجتمع . ومن المعلوم أن هذه ليست أول مرة يظهر فيها التطرف الذى يرفع رايات الإسلام حتى يمكن ربطه بمسألة الديون والفوائد . كما أنه من المعلوم أن هذه ليست أول مرة يكون فيها مثل هذا الضجيج المصاحب للعمليات المتطرفة . فلقد وقعت عمليات التطرف الإرهابية أكثر من مرة فى بلادنا .. بل إن أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات من هذا القرن قد شهدت الكثير من هذه العمليات وكانت نتيجتها والاعلى من قاموا بها أولا وقبل كل شيء .

- إذن فأنتم لا تتوقعون انتصارا لهذا التطرف ، ولا ترون ما تراه صحافة الغرب عند حديثها عن مستقبله .
- نعم نحن لا نتوقع انتصارا لهؤلاء المتطرفين مهما فعلوا . ذلك لأن وجودهم رهن بوجود بعض الأزمات الطارئة .. فإذا انفرجت الأزمات لم يبق لهم مجال يتحركون فيه .. ونحن نسأل هؤلاء المتطرفين ماذا يمكنكم تقديمه من الحلول لأزماتنا ؟ فلا نجد لديهم غير إجابة عامة هى « الإسلام » وهذا فى حد ذاته دليل على أنهم لا يملكون حلا تفصيلياً تمكن مناقشته والحكم عليه .. لأن الإسلام لابد أن يترجم إلى خطط عملية ، ودراسات تفصيلية لكل مشكلة على حدة .. ولا شك أن مشاكل عصرنا بالغة التعقيد ، وتحتاج كل منها إلى الاستعانة بأسلحة العلم والتكنولوجيا وكلمة « الإسلام » وحدها لا تغنى فى هذا المضمار .
- ورد على ألسنة حضراتكم أن المعارضة فى مصر مسموح بها ، وأن راية الديمقراطية ترفرف على كل الربوع .. فلماذا تضيق السلطة على هؤلاء « المتطرفين » . أليسوا ضمن كتائب المعارضة ؟
- أولا لم يحدث هناك تضييق ؟ فهؤلاء المتطرفون هم الذين يضيقون على أنفسهم ذلك لأنهم يرفضون كل شيء .. يرفضون الحكام والقوانين ، والديمقراطية والدستور ، وحتى إخوانهم المسلمين يرفضونهم ويسمونهم عبيد السلطان .. ومن أجل ذلك فإنهم يرفضون العمل تحت ضوء الشمس مثلما يفعل غيرهم . ولا يطيب لهم العمل إلا تحت جنح الظلام !!
- تعنى أنه مسموح لهم بالوجود العلنى لكى يبشروا بدعوتهم إلى تقويض « المجتمع الجاهلى » الذى هو مجتمعنا ؟
- تعنى أنه فى استطاعتهم سلوك الطريق الذى سلكته كل أحزاب المعارضة الى الوجود لكنهم يرفضون ذلك بحجة أن الحكام طواغيت ولا ينبغى سلوك أى طريق إليهم .

- ولو سلكوا هذا الطريق هل سيسمح لهم بالوجود الظاهر المحسوس ؟
- عموما إذا سلكوا ولم يسمح لهم فإنهم يكونون قد اقاموا الحجة على انهم مجبرون على السرية وحينئذٍ يعملون ما يريدون !! وقد يجدون من يلتمس لهم العذر .
- هؤلاء الشباب فى مجموعهم طيبون مخلصون ، ولديهم القدرة على التضحية فى سبيل بلادهم ودينهم ولابد من الحوار معهم ..
- نعم ولكن اين هم حتى يتم الحوار معهم .
- إنهم يعيشون بين ظهرانينا ، وهم فريسة الظروف السيئة التى مرت بمصر .
- اية ظروف سيئة ؟
- ظروف الحكم الناصرى الذى جنح إلى الفردية والإرهاب فأضعف الملكات المصرية النقدية ، وقضى على قدراتها الاستقلالية ، بايجاد هوة شاسعة بين الشعارات وتطبيقها . كان يقول : ارفع راسك يا اخى ، والتطبيق شر انواع الاستبداد ، وكان ينادى بالحرية بينما كان يضرب قلاع الحرية واحدة بعد الأخرى . وهؤلاء الشباب تلاميذ الضحايا للإرهاب الاسود الذى يدفع إلى رفض كل شىء .
- لا تكمل يا اخى - بالله عليك - فانا اعرف انك سوف تقول وهم ضحايا هزيمة ١٩٦٧ ومرارتها ، وهم ضحايا خيبة الأمل التى منى بها كل المصريين فى العهود المختلفة - وكل ذلك معروف للجميع .. ولست وحدك الذى يمتلىء قلبك بالعطف عليهم ، ومحاولة الحوار معهم .. لكن شرط الحوار الأول ان يظهر المحاور على سطح الأرض .

وكان موعد لحظة الزفاف قد حل فانشغل الجميع بمراسيمه .. ثم افترق عن مجلسه عائدا إلى منزله .

١٢ - اختراق الحصار :

عاد ليجد ورقة تقول له : حضرت لكى اكمل المناقشة معكم ولم اجدكم .. انتظرنى فى مثل هذا اليوم من الاسبوع القادم .. وتبدى له ان كانت تلك الورقة هو الشاب المهموم الذى يحاوره منذ اسابيع .. ولم يقف كثيرا عند السؤال عن الكيفية التى اهتدى بها ذلك الشاب إلى منزله . فهو شخصيا قد عانى البحث عمن كان يظن انهم سيأخذون بيده عندما تستغلق عليه الأمور ..

والمهم أنه انتظر الاسبوع كله وهو مشغول الخاطر بأمر هذا الشاب حتى طرق عليه الباب ، فاستقبله هاشا باشا كثير الترحاب .

قال الشاب : فضلت أن يكون حوارنا فى المنزل بعيدا عن الأماكن العامة .

قال المناضل القديم : حسنا فعلت .

قال الشاب : وارجو فى حوارنا اليوم الا تضيق ذرعا بخشونة الصراحة التى سوف لا أستعمل سواها .

- تفضل . ولن أضيق .

قال الشاب : انت لا توافق على نهج ومسلك الجماعات الاسلامية . ولابد أنك تحبذ منهجا ومسلكا آخر تعتقد انهما خير المناهج والمسالك .

- نعم احبذ منهجا ومسلكا آخر .. ودون ان تسأل عنهما فإننى ارجو ان ابسطها لك فى إيجاز :
فالمنهج الذى أحبذه هو منهج الوعى بالحقائق البعيدة عن الأوهام ، والإلتزام بمراعاة

تلك الحقائق عند كل سلوك نسلكه

قال الشاب لم أفهم وأسألك الإيضاح .

- من الحقائق التاريخية أن الدين أى دين ، إنما انبعثت رسالته لكى تخترق حصار أزمة طاحنة تحيط بالناس . وكانت الدعوة إليه فى بادىء الأمر تعنى تجميع الأنصار وإعدادهم لهذا الاختراق من أجل الانتقال بالناس إلى مستوى أفضل من الحياة .

قال الشاب هذا واضح ومعروف .

- ومن الحقائق التاريخية أيضا أن لأتباع الدين أى دين كلما وقعوا فى حصار أزمة جديدة اتجهوا بقلوبهم إلى محاولة الاختراق بنفس الطريقة التى استخدمتها طلائع المؤمنين فى الماضى البعيد .

قال الشاب : وذلك أيضا واقع مشهود .

- ولكن الأتباع غالبا ما يفشلون .

صاح الشاب : لا .. فقد نجحت الدعوة الوهابية فى السعودية ، والخومينية فى إيران .

- فى أى شىء نجحتا ؟

قال الشاب كل من الدعوتين نجحت فى إقامة دولة باسم « الإسلام »

- حسنا . ولكن اسم « الإسلام » غير الإسلام .

قال الشاب لا أفهم .

- الإسلام حقائق حضارية نقلت المجتمع إلى مستويات رفيعة فى عدد قليل من السنوات . الأمر الذى جعل القلوب تهفو إليه من شتى أقطار الأرض ، لكن اسم الإسلام لا يغنى ، بل يغرى الطعن عليه وهذا هو ما يحدث بين الإيرانيين والسعوديين الذين لا ينفك كل منهما عن الهجوم على الآخر

قال الشاب : لكن كلا من الدولتين تُحكّم كتابالله وسنة رسوله الكريم .

- وفيم اختلافهما إذن ؟ إن أية واحدة منهما لا تستطيع الوفاق مع الأخرى ، وأكثر من ذلك أنهما لا تستطيعان اقناع العالم الإسلامى بأن ما تسيران عليه هو الإسلام وهذا هو الذى أردته بأن الأتباع غالبا ما يفشلون .

قال الشاب : ولم الفشل يا ترى ؟

- هناك سبب من ثلاثة : إما عدم القدرة عن الفهم الصحيح لحقائق الإسلام ، وإما عدم القدرة على التطبيق الصحيح لتلك الحقائق ، وإما عدم القدرة على فهم حدود الأزمة التى تحاصر الراغبين فى الانتصار بالدين .

قال الشاب وكيد أعداء الإسلام للإسلام الا يصلح سببا رابعا ؟

- لا . فكيد هؤلاء الأعداء لم يستطع إفشال دعوة الإسلام فى فجر بزوغها .. والكيد من الأعداء قد يأتى بأسباب النجاح ، متى توافقت الدعوة مع المشاعر المتعطشة إليها

قال الشاب : وهل يعجز أتباع الإسلام الراغبون فى الإصلاح به عن فهم حقائقه ؟

- نعم قد يعجزون إما لميل وهوى ، وإما لضعف فى التحصيل الثقافى والعلمى . والدليل على

ذلك أولا هذا التعدد الحراق في فهم وتأويل النصوص الدينية والدليل على ذلك ثانيا أن الكثيرين يستبيحون دم إخوانهم المسلمين رغم النصوص الصريحة التى تحرم ذلك .

قال الشاب معنى ذلك أننا يجب ألا ندعو بدعوة الإسلام ؟

- لا أبدا ولكننا يجب أن نفهم أن أولى حقائق الدعوة الإسلامية أنها دعوة لتوحيد كافة الناس حول رايته المرفوعة بالشهادتين فهذه الراية هى التى بدأ الإسلام بها ، وبها يجب أن يعود أما أن يبدأ الدعاة بتمـزيق تلك الراية وادعـاء أنهم من دون جميع المسلمـين أصحابها ، وأن بقية المسلمين خارجون عليها ، فهذه ليست دعوة للإسلام ، وإنما هى دعوة لمزيد من التمزيق الذى يطمع العدو ولا يردعه .

قال الشاب دلنى على الكيفية التى يجب أن يلتزم بها الدعاة للإسلام اليوم .

- الكيفية بسيطة ، ويمكن إبرازها من زاويتين : الزاوية الأولى تنظر إلى غير المسلمين فى شتى أقطار الدنيا ، وتقدم فهم حقائق الإسلام الصافية دونما إثقال بالخلافات المـذهبية ، مـع الالتزام بعدم التجريح الشخصى للخصوم . والزاوية الثانية تنظر إلى جميع المسلمين على أنهم إخوة يجب أن يتوحدوا لكى يحتلوا مكان الصدارة بين أمم الأرض .

قال الشاب : وبأية وسيلة يمكنهم أن يحتلوا هذا المكان ؟

- الوسيلة الأولى هى الدراسة الجادة لنوعية الحصار المفروض عليهم اليوم . ثم التعرف على الأدوات التى يمكن بها خرق هذا الحصار ، وتدبيرها واستعمالها بأعلى كفاءة ممكنة ، بحيث نقطع الطريق إلى التقدم فى أقصر وقت مستطاع .

قال الشاب ومن الذى يضطلع بتلك الدراسة ، ويتعرف لنا على تلك الأدوات ؟

- هذا هو الجهاد الحقيقى الذى يجب أن يدعى إليه كل القادرين عليه دونما استثناء .

قال الشاب أهو فرض عين ؟

- نعم فرض عين لا يجوز أن يقوم به البعض نيابة عن الباقين ، وأرجو أن ننتبه جيدا لذلك .

قال الشاب إنى لأعجب والله للانتقال بالجهاد من مستوى القتال حربا إلى مستوى القتال بالدراسة !

- من حقك أن تعجب ، ولكن تريث قليلا فقد يزول عنك العجب .. إن القتال بالأسلحة فرع عن القتال بالدراسة والعلم .. فالدراسة والعلم هما أقوى الأسلحة وأمضاها . وبدون الدراسة والعلم لا يمكن صنع الدبابة أو المدفع أو القذيفة أو ما شئت من أدوات القتـال فى العصر الحديث ، ناهيك عن أن المتسابقين فى انتاج الأسلحة هم تلك الدول التى تتسابق فى مضمار العلم بمعدلات لم يعرفها كل تاريخ الإنسان الطويل .

قال الشاب أود أن تعرف أننا لسنا ضد الدراسة والعلم .

- فرق بين ألا تكون ضد الدراسة والعلم ، وبين أن تكون رسالتك هى الدراسة والعلم .

قال الشاب ولكن الدراسة والعلم لا يتمكن منهما كل الناس .

- كل بقدر استطاعته .. إذ أن على الجميع أن يعرفوا أنهم مطالبون بالإفلات من حصار الهزيمة المفروضة علينا ثقافيا ، وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا الخ .. كما أن على الجميع أن يعرفوا أن شرط تحقيق ذلك هو الجدية المطلقة فى تحصيل العلم واستخدامه على جميع المستويات .

قال الشاب وهل نستطيع بتحصيل العلم أن نكتشف أسبابا لحصارنا غير الانصراف عن الدين ، وعبادة

وتأليه المخلوقين ، والحكم بغير ما أنزله الله رب العالمين ؟

ـ نعم نستطيع .. فالإسرائيليون ليسوا مجتمعا عاد إلى الله فنصره ، وإنما هم مجتمع أغلبيته من الملاحدة .. ومع ذلك فقد هزمونا أكثر من مرة .. هزمونا في ١٩٦٧ ، ولم نزل نعاني من آثار تلك الهزيمة حتى اليوم ، على الرغم من تفوقنا العددي وإمكاناتنا الوفيرة .

وهزمونا بعد نصر أكتوبر المجيد ، حيث تسللوا إلى عمق أرضنا ولم يبرحوها إلا بعد أن ساوموا على كل شبر يتحركون منه .

وهم الآن يشعلون لهيب الفرقة والانقسام في لبنان ، ويعربدون في الأقصى ، وينكلون بالمسلمين العرب في الأرض المحتلة .. ويستعدون لاعتداءات أخرى جديدة

قال الشاب : مهلا : فإن موضوع حوارنا هو الدعوة للإسلام ..

ـ كلما تقدم المسلمون خطوة في حقل العلم والمعرفة كان ذلك في حد ذاته دعوة عطية الإسلام ، وكلما اتحد المسلمون وكفوا عن محاربة بعضهم للبعض كان ذلك بناء حقيقيا لصرح الإسلام ، وعلى ذلك فإن الطموح إلى تحديث التعليم ، ووقف هجرة الكفاءات العلمية والفنية ، وبناء المعنويات والقيم في نفوس المواطنيين تعتبر مساهمة جليلة في رفعة شأن الوطن والإسلام .

قال الشاب : وما الرأى فيما لو تعمدت الدولة بإعلامها وأجهزة أمنها إحباط ما نسعى إليه ؟

ـ كيف تتعمد الدولة ذلك بالنسبة لطالب يدرس ويجد ، أو معلم يعطى ولا يبخل ، أو لعامل يتفانى في اتقان عمله ، أو لزارع لا يتوانى عن بذل عرقه في الأرض ؟

قال الشاب : كأنك لا تريد من الدعاة للإسلام أن يشتغلوا بالأمور السياسية .

ـ ابدا ابدا .. إنما الاشتغال الأمثل بالسياسة هو ضرب المثل في نفع الآخرين ، ومعاونتهم ، وبذل أقصى ما يمكن من الجهد .. كل في مجال عمله .

قال الشاب : دون أن يكون هناك إعلام أو صحافة تتحدث عن ذلك ؟

ـ كلا . بل لابد أن تكون هناك صحف ومجلات وكتب تبرز النماذج الرائعة من الأعمال والرجال في كافة المجالات ، وتدعو الآخرين إلى الاهتداء والاقتداء .

قال الشاب : وهل تتصور أن أنصار التخلف سوف لا يعترضون ويثيرون الغبار ؟

ـ بل أتصورهم يفعلون ذلك .. ولكن الواثق من نفسه ، والمتجرد عن أنانيته ، لن يتأثر بتلك الاعتراضات . ومن الممكن أن يستفيد بها في تحسين عمله أكثر وأكثر ..

قال الشاب : لكنك لم تحدثني عن الموقف الذى يجب أن يتخذه دعاة الإسلام من الأحزاب اليسارية ؟

ـ في حدود علمي فإن الاحزاب اليسارية تسعى إلى اختراق الحصار المضروب علينا من أعداء وطننا وأمتنا ، ومن ثم فإن دعاة الإسلام يجب أن يتعاونوا معهم .

قال الشاب ش : كيف وهم لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر .. ؟

ـ هل هم يقولون ذلك ؟

قال الشاب : هم لا يقولون ذلك ولكنه أمر معلوم لكل الناس عنهم .

ـ دعك من المعلوم والمجهول وحاول أن تتثبت بنفسك إن كان هذا المعلوم صدقا أم كذبا

فأنت تعرف أن كل مسلم يقول أشهد ألا إله إلا الله وأن محمد رسول الله .. ومع ذلك فقد حكمت على جميع المسلمين بالكفر إلا من كان عضوا فى جماعتك الإسلامية !! والذى أوقعك فى هذا الإثم هو أنك لم تتثبت بنفسك .

قال الشاب هل أسألهم إن كانوا يدينون بالإسلام أم لا ؟

- نعم أسألهم وتعامل وتناقش معهم ، واستمع إلى آرائهم فقد يتبدد المعلوم عنهم ويصبح كذبا وزورا .

قال الشاب لا أظن ..

- بل ظُنّ . وحاول إذا تثبّت من كفر أحدهم أن تهديه ، فلأن يهدى الله بك رجلا واحدا خير لك من الدنيا وما فيها .

قال الشاب وهل تعتقد أنه من الممكن انتقال الإنسان من معتقد مضاد للإيمان إلى معتقد الإيمان ؟

- كما يمكن العكس .. ففى الأصل كان عدم الإيمان إلا بالأصنام وما يشبهها ، ثم انتقل الناس عن عبادة الأصنام إلى عبادة الله تعالى .. وأظنك تعرف أن روجيه جارودى فيلسوف الحزب الشيوعى الفرنسى قد أعلن إسلامه .. وأصبح من أشد المدافعين عن الإسلام .

قال الشاب : لكن اليساريين يتصادمون مع بعض المبادىء الإسلامية .

- مثل ؟

قال الشاب : مثل دعوتهم لمصادرة الملكيات الخاصة وتأميمها .

- هذا ليس تصادما مع المبادىء الإسلامية فيما أعتقد .. فالحاكم المسلم قد يقوم بمصادرة الملكية الخاصة إذا تأكد أنها نشأت عن استغلال أو سرقة ، أو إذا كانت هناك ضرورة إصلاح عام لا يمكن إتمامه بغير ذلك .

قال الشاب : لماذا أنت لا تدين اليسار كما يدينه الآخرون ؟

- مثلما لا أدين الجماعات الإسلامية كما يدينها الآخرون ؟ فأنا من رأيى أن جميع الباحثين عن خرق حصار الهزيمة والتخلف يجب أن يتحاوروا وأن تتسع صدورهم لكل المعلومات التى يتداولونها نشر البلاء دائما هو الحجر على آراء الآخرين مهما اختلفوا معك أو اختلفت معهم .

قال الشاب : تتحدث عن حصار الهزيمة والتخلف ، ولا تقول من المسئول عن تلك الهزيمة وهذا التخلف ؟

- أولا نحن لسنا أول من حاقت به الهزية بين شتى أمم الأرض ، وثانيا المسئول عن تلك الهزيمة ليس فردا بذاته وإنما نظام حكم كامل ، وثالثا اختراق حصار الهزيمة رهن بمعرفة كل أسبابها ، فليقل كل رأيه ، وليبحث كل عن وسيلة للخروج من هذا المناخ البائس التعيس . فذلك شأن الأمم التى وقعت عليها الهزائم واجتازتها دون أن تضمحل أو تموت .

قال الشاب : تاريخنا الحديث كله تارخ للهزائم ، ومع ذلك فإننا لم نملك من أدوات البحث ما يوقفنا على الأسباب حتى الآن !!

- لا يا أخى . فنحن حققنا فى تاريخنا الحديث من هذا القرن عددا من الانتصارات التى لا يمكن إسقاطها . فبعد الحرب العالمية الأولى سقطت شرعية الدولة العثمانية ، واندفعت الأمة تطالب بحق تقرير المصير ، وكانت ثورة ١٩١٩ هى التى جاءت لنا بنوع من الاستقلال والحكم الدستورى . وبعد الحرب العالمية الثانية أسقطت الأمة كل الدعاوى الاستعمارية ،

واندفعت تقوض وجود الاستعمار تطلعا للتقدم المستقل . ولقد تحقق للأمة بعد ١٩٥٢ وعى جديد بوحدتها وأملها ، وضرورة التنمية الشاملة والسيطرة على مواردها كما تحقق لها وعى بأهمية التعليم والثقافة والتكنولوجيا الخ

قال الشاب وما الذى دهانا إذن ؟

- دهانا اننا لم نستطع إقامة الوحدة المتينة بين كل أطراف الأمة . فوجد العدو أكثر من ثغرة نفذ من خلالها واخترق الصفوف ، ثم أوقع بنا الهزيمة .

قال الشاب : أليس من الثغرات التى نفذ العدو منها ذلك التحلل المطلق من التزامات الدين ؟

- ماذا تعنى بالتحلل المطلق ؟

قال الشاب : البهرجة والعرى ، والتبلد عن دور العبادة وأخلاقياتها والاعتماد على غير الله . الخ

- قد تكون بعض تلك المظاهر قد حدثت وما تزال تحدث لكنها ابدا لا تستغرقنا إلى حد التحلل المطلق فالسواد الأعظم من شعبنا لم ولن يكون كذلك .. وفى أكثر الظروف سوءا يكشف هذا الشعب عن معدنه المتماسك الصلب .. ولعلنا نذكر أنه بعد كارثة ١٩٦٧ معاشرة عمد إلى اعادة بناء القوات المسلحة ، وضحى بكل الموارد فى هذا السبيل ، واستطاع أن يكمل مشروعاته الحيوية فى الصناعة كالسد العالى ومجمّعات الحديد والصلب ، وسيطر على الأسعار ، وتوصّل إلى إقامة التحالف العربى والدولى الذى يعطيه من الامكانات ما ينهض به .

قال الشاب ولماذا نحن الآن غارقون إلى أذقاننا فى وحل الشعور بالهزيمة رغم ما حدث فى ١٩٧٣ ؟

- لأننا لم نستطع استخدام انجازاتنا يوم ٦ أكتوبر بالكفاءة الملائمة له ـ ولأن العدو تمكن من إشعارنا بأننا لم ننتصر بل انهزمنا ، ولأن انعكاس ذلك علينا كان صورة من صور التمزق التى لم يسبق لها مثيل إلا فى الظروف التاريخية المظلمة إبان حرب التتار أو الحروب الصليبية .

قال الشاب : والآن إلى أين ؟

- إلى تغيير متوقع تصنعه الأمة عن طريق شبابها :

قال الشاب : ومن أين ؟

- من هنا من مصر .. مصر التى كانت وما زالت وستظل صاحبة الدور الطليعى فى اجتياز الأزمات التى تحدق بالأمة .

قال الشاب : كيف ؟

- باكتشاف الحقائق التى يجب أن نرتكز عليها ، ونحن نخترق إلى المستقبل ، وأولى هذه الحقائق أننا لم نمت ولن نموت أبد الدهر . ثم بتصحيح المفاهيم ، والإزالة الكاملة لكل التباس ، وأخيرا برسم خطة للحركة على النطاقين الوطنى والقومى بحيث تكون كل خطوة محسوبة ولا تأتى بعكس المطلوب

قال الشاب : اشعر ان فى كلمتك الأخيرة لغما تريد تفجيره .

- أبدا .. ليس هناك ألغام ولا تفجيرات .. وإنما هناك تكرار لما سبق أن أشرت إليه من ضرورة استخدام العلم الراقى ونحن نتحرك إلى الأمام

قال الشاب : ما الذى تعنيه بالعلم الراقى ؟
- أعنى العلم الذى تتدارسه الأمم الراقية ، والذى بمقتضاه تفوقت علينا وسبقتنا .
قال الشاب : والعلوم الدينية يا ترى أو ليست من قبيل العلم الراقى ؟
- بلى .. وفى دراستها واستيعابها حصانة ضد الزيغ ، والمفاهيم المضللة لكنها لن تغنينا عن علوم العصر التى على أساسها قامت الحضارات الحديثة . وإليك مثلا : أساليب القتال فى الحروب الإسلامية التى قادها خالد بن الوليد ضد الروم .. دراستها توضح لنا براعة القائد المسلم فى التصرف بقواته من أجل نصرة الدين ضد عدو أكبر منه عددا وأكثر منه سلاحا .. لكنها لا تغنينا عن دراسة العلوم العسكرية الحديثة التى تدار بالأجهزة المعقدة ، والأسلحة المتطورة . وهكذا .
قال الشاب : خلاصة رأيك فيما أظن أنه يجب ألا تكون هناك تنظيمات تدعو إلى الإسلام فى عداوة مع تنظيمات إسلامية أخرى .. رغبة فى توحيد المسلمين . ثم تطلب انكباب الجميع على الدراسة والعلم من أجل اختراق حصار الهزيمة ، أليس كذلك ؟
- لماذا أنت متسرع وتريد إنهاء الحوار ؟
قال الشاب : لست متسرعا ولكن أريد الوصول إلى نتيجة .
- فلتصل إلى ما شئت من نتائج ولكن بعد أن نستكمل الحوار .
قال الشاب : اذن فلنؤجل الحوار إلى مساء الغد إن شاء الله . وهم بالانصراف .

١٣ - تجمع الإعصار :

قدم الشاب فى موعده المضروب بينه وبين مضيفه ، وجلس فى نفس الغرفة التى استقبلته أمس فرأى بعض المراجع الدينية على المنضدة التى كانت تشهد الحوار السابق . وكان مضيفه قد تركه لاستحضار قدحين من الشاى ، فلما رجع وجد الشاب منهمكا فى قراءة واحدة من المجلات التى تصدر فى إحدى الدول العربية فتركه يقرأ على سجيته ولم يشأ أن يقطع عليه لذة الاستمتاع بما استهوى عقله وعينيه . وما إن فرغ من قراءته حتى قال :
- أنت أعددت كل هذه الكتب والمجلات لكى تستخدمها فى الحوار معى الليلة ؟
- لا .. ولكننى أحب القراءة وقد كنت أقرأ فى بعض منها قبل مجيئك .
- لكن هذه الكتب لم تكن هنا ليلة أمس .
- لأننى كنت أقرأ غيرها فى الغرفة المجاورة .
- ما شاء الله ! أنت عندك طاقة متجددة .
- وأنت طاقتك أكبر من طاقتى ، ويمكنكم معشر الشباب أن تبذلوا أضعاف المجهودات التى يبذلها أمثالى من الواهنين الضعفاء .
- أهذا مدخل جديد لاستئناف حوارنا الماضى ؟
- نعم ولكننى أود أن أعرف ماذا قرأت الآن ؟
- مقال يتعلق بالرد على التصورات غير الصحيحة من وجهة نظر الكاتب عن الإسلام .
- أرجو أن تلخص لى ما فهمت

- يقول الكاتب إن من الناس من يتصور أن كل ما فى مجتمعنا الحالى مخالف للإسلام وأن كل الأنظمة والقوانين والمؤسسات ستهدم وتبنى من جديد وهذا ليس بتصور سليم فأكثر الأنظمة والمؤسسات القائمة ستبقى بعد أن ينقى منها ما يناقض الإسـلام ، وتطعم بمـا يؤهلها لخدمة قيمه ومقاصده .
- ثم ماذا ؟
- ثم يقول : إن قيام نظام إسلامى فى مجتمع لا يعنى تغيير كل ما يراد تغييره فيه بين عشية وضحاها ولكن هناك مبدأ الضرورات التى تبيح المحظورات ، والضرورة التى تقدر بقدرها ، والحاجة التى قد تنزل منزلة الضرورة . ثم يقول بعد ذلك إن للمجتمع ضروراته الاقتصادية والسياسية والعسكرية والاجتماعية . ولها أحكامها الاستثنائيـة التى توجههـا الشريعـة مراعاة لصالح البشر التى هى أساس للتشريع الإسلامى كله
- عظيم ! وأنت ما رأيك فى هذا القول يافترى ؟
- هذا واحد من العلماء الذين يسخرون علمهم فى خدمة السلطان ، وهو فى قوله هذا يريد أن يبقى كل مظاهر الفساد فى ظل المجتمع المسلم باسم الضرورات الاجتماعية .
- بالله لا تظلم الرجل ، ولنحاول مناقشة رأيه سويا لكى نصدر حكما سليما على مقالته : فالرجل لم يقل بضرورة الإبقاء على مظاهر الفساد ، وإنما أنت الذى أولت كلامه هذا التأويل .
- ألم يقل إن أكثر الأنظمة والقوانين والمؤسسات القائمة ستبقى ؟
- وأردف مباشرة بعد أن تنقى مما يناقض الإسلام وتطعم بما يؤهلها لخدمة قيمه ومقاصده ، أليس كذلك ؟
- لكن لماذا الاكتفاء بالتنقية والتطعيم ؟ أليست هذه الأنظمة والمؤسسات من صنع البشر ؟ لم لا يُستبدل بها كلها أنظمة السماء وقوانينها ؟
- هناك قاعدة تقول : إن الأصل فى العبادات هو الاتباع ، والأصل فى المعاملات هو الإبتداع ، ومن هنا فإن الأنظمة والمؤسسات الخاصة بضبط إيقاع المعاملات لابد أن تكون من صنع البشر على هدى المبادىء العامة للإسلام .. فالإسلام مثلا يقول قـرآنه الكـريم « وأمرهم شورى بينهم » فنفهم نحن من ذلك أن الشورى هى أساس الحكم ، لكن كيف تكون صيغة الالتزام بهذا المبدأ ؟ قد تكون مجلسا للشعب أو للأمة ، وقد تكون جمعية تأسيسية ، أو مجلسا للشيوخ أو مجلسا للنواب الخ . كل ذلك داخل فى عموم الشورى . أليس كذلك ؟
- معنى ذلك ألا يحدث أى تغيير بـاسم الضرورات الاجتمـاعية والاقتصـادية والسيـاسية والعسكرية الخ ؟
- فلنتفق أولا على التغيير المطلوب .. أهو تغيير مطلوب لذاته ، أم هو تغيير لصالح المجتمع ؟ إن كان الأول فأنا أعتقد أنه سوف يصبح نوعا من المغامرة غير المحسوبة . وإن يكن الثانى فإن أعضاء هذا المجتمع سوف يقررون ما يجب تغييره بمقتضى الضرورات الحياتية وما لايجب ، وعلينا أن نتأكد من أن الضرورة تفرض نفسها رغم أنف الجميع .
- ما دام الأمر كذلك فلا داعى للتفكير فى التغيير
- من الذى قال ذلك ؟ إن التغيير نفسه يصبح ضرورة واجبة الحدوث ، ومن ثم يعمد القادة إلى تجميع الراغبين فى التغيير لكى يصبحوا إعصارا يدمر ما يعوق مسيرتهم إليه

- من الذى قال ذلك ؟ إن التغيير نفسه يصبح ضرورة واجبة الحدوث ، ومن ثم يعمد القادة إلى تجميع الراغبين فى التغيير لكى يصبحوا إعصارا يدمر ما يعوق مسيرتهم إليه . والجماعات الإسلامية ، وأحزاب المعارضة السياسية ، وذوو الراى والفكر يعملون جميعا فى إطار السعى من أجل التغيير .. والذين يستطيعون الوصول بالمجتمع إلى ما يريدون هم أكثر الناس فهما لحقائق الضرورة الإجتماعية . وتلبية لمتطلباتها من التوعية والحركة ، والتنشيط .. الخ

- وهل فى بلادنا اليوم ضرورة للتغيير ؟ .

- نعم وإلا فإننا لن نجد تفسيرا لكل ما تقوم به الجماعات والاحزاب عندنا .. وأظنك تعرف أن الجماعات الإسلامية قد قامت عندنا نتيجة لاستشعار تلك الضرورة .

- وإذن فالجماعات الإسلامية محقة فى سعيها من أجل التغيير .

- لا أحد ينكر هذا الحق .. لكن كيفية هذا السعى ، وحقيقة التغيير المنشود هى التى تثير البلبلة والعداء فى كثير من قطاعات المجتمع . بل وفى نفوس الاغلبية الساحقة من راغبى التغيير .

- ارجو إيضاح هذة المسألة بشىء من التفصيل .

- يتم سعى بعض الجماعات الإسلامية للتغيير فى إطار من التخفى والسرية ، وبأساليب العنف والإكـراه ، فى الوقت الذى يمكنهم فيه ان يكـون لهم وجههم العلنى المعتمد عـلى الحوار والمناقشة وما داموا أصحاب رسالة مقتنعين بها فانهم يجب أن يواجهوا بالمناقشة والحجة كل مخالفيهم تحت ضوء الشمس ، بالحكمة والموعظة الحسنة ، لا بالمدافع والبنادق السريعة الطلقات ، هذا جانب .. ومن جانب آخر فإنهم يركزون اهتمامهم على قضايا فرعية يعلنون من خلال مجابهتها أهداف التغيير الذى ينشدونه . فهم يجعلون من قضية النقـاب والحجاب مسألة كبرى يشغلون أنفسهم ويشغلون الناس بها . فى حين أن هذه قضية أجاز الفقهاء فيها كلا الأمرين معا . وهم يشقبون على معاصى الخمور وشربها والفيديو وأفلامه غير المباحة ، وهنا لا يقتصر أمرهم على المدافعة بالراى ، بل يجمحون إلى التحطيم والتكسير والحرق ، ويدخلون أنفسهم السجون فى غير ما طائل .. على حين أن الذين يبيعون أو يتعاطون الخمور مستنكرون من كل المجتمع ، وأيضا الماجنون الراغبون فى إباحة الجنس .. الأمر الذى يجعل من هاتين القضيتين وأمثالهما نوعا من قضايا الدرجة الثانية لا الأولى .

واظنك تعرف أن الخمر كانت تعاقر حتى فى عهد الخلفاء الراشدين ، والدليل أن عمر بن الخطاب أقام الحد من كان يشربها .. أى أن شرب الخمر لا يغير من صورة ولا حقيقة المجتمع المسلم .

على أن هناك قاعدة ذهبية تقول ارتكاب أخف الضررين أمر واجب .. فإذا كان منع شارب الخمر وهو ضرر يلحقه بنفسه ، سوف يتسبب فى ضرر يلحق بالمانع وجماعته وهو ضرر أكبر فإنه من الواجب ترك شارب الخمر فى هذه الحالة . وللباحثين فى الاستدلال على صحة هذا المسلك شواهد كثيرة منها أن الرسول(ﷺ) أبقى على المنافقين ولم يتعرض لهم .. وقال فى ذلك « اخشى ان يتحدث الناس ان محمدا يقتل اصحابه . على أن المتابع للتاريخ الإسلامى يعرف أن أشد الفتن كانت تنشأ من عدم الصبر على منكر والتصدى لازالته فيتولد منه ما هو أكبر منه وأخطر

ولكى تطمئن إلى مقالتى هذه أرجوك أن تستمع إلى هذه الواقعة التى نقلها ابن القيم عن شيخه شيخ الإسلام ابن تيمية فقد كان يمر مع أصحابه فى زمن التتار وإذا قوم يشربون الخمر وهم على الإسلام ، فأنكر صاحبه ذلك لكن ابن تيمية عارضه قائلا إنما حرم الله الخمر لأنها تبعد عن ذكر الله وعن الصلاة وهؤلا تبعدهم الخمر عن قتل النفوس ، وسبى الذرية ، وأخذ الأموال فدعهم . والأدلة فى هذا المساق كثيرة لا تحصى لعل من أوضحها ما رواه المؤرخون من أن عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز كان يحث أباه على تغيير الفساد دفعة واحدة ، دونما تريث أو أناة وليكن ما يكون . فرد عليه عمر قائلا : لا تعجل يا بنى فإن الله ذم الخمر فى القرآن الكريم مرتين وحرمها فى الثالثة . وإنى أخاف أن أحمل الحق على الناس جملة فيدفعونه جملة ، ويكون من هذا فتنة . أرجو أن تكون قد اقتنعت .

- بماذا ؟
- بأن التغيير المنشود يتطلب الوضوح فى الدعوة إليه إلى جانب المعرفة بالأهم وتقديمه على المهم .
- وما هو هذا الأهم يا ترى ؟
- الأهم دائما هو ما تتعلق به مصالح الأغلبية الساحقة من الناس فى حياتهم العاجلة . فإذا كانت الأغلبية مغلوبة على أمرها ، وينهشها التمزق والمعاناة من المشكلات فإن الأهم هو توحيد جهودها لكى ترفع عنها آثار المعاناة . ويصبح الأمر بيدها
- وإذا كانت هذه الأغلبية لا تريد أن تبذل أى جهد ؟
- هذا شىء لا يمكن تصوره إلا فى حالة من اثنتين أن تكون هذه الأغلبية مرفهة ولا تعانى أى نوع من المشكلات ، أو تكون فاقدة للثقة فى جدوى أى حركة أو أى جهد تبذله .. والحالة الأولى مجرد فرض لا يمكن تحقيقه إلا فى الجنة والحالة الثانية واقع علينا أن نغيره بإقناعها وتزويدها بأعلى درجات الثقة واليقين
- لكننا كلما سلكنا طريقنا إلى تلك الأغلبية الساحقة لاحقتنا دوائر الأمن ومنعتنا من ممارسة أى نشاط ، حتى ولو كان مجرد التصدى لتحفيظ القرآن الكريم .
- سأفترض من معك حدوث ذلك من دوائر الأمن تحت تأثير أى مفهوم لها ، ولكننى أصر على المصابرة والمثابرة حتى تقتنع تلك الدوائر ببراءة القصد ، وبأنها إذا استمرت على هذا النهج فإنها سوف يرتد عليها وعلى الأمن سوء الصنيع ، وعندئذ تمارسون أنتم وأمثالكم ما تشاءون من نشاط .
- ماذا تريد ؟ أتنتظر من دوائر الأمن إذنا لنا بممارسة حقنا وواجبنا الذى كلفنا به الله ؟
- أنا لم أقل ذلك .. وإنما أقول إن بعض الأحداث التى وقعت من بعض المتطرفين قد جعلت المسئولين عن الأمن يتشككون فى أى عمل يقوم به المتدينون . وما دام هؤلاء المتدينون ليسوا من ذلك النفر المتطرف فإن عليهم أن يؤكدوا بالإصرار والمثابرة ما يقضى على التشكك.. ومن ثم يصبح عمل تلك الدوائر هو إحدال الثقة محل الشك والتشكيك ..
- هذا مستحيل .. فالأمن لن يثق فى شباب المتدينين إلى يوم القيامة
- دعك من ثقة الأمن أو عدم ثقته . وحاول أنت وغيرك أن تستمعوا إلى نبضات القلوب التى يعانى أصحابها فى حقول الحياة المختلفة ، وحاولوا الاشتراك فى تكوين بوصلة تهديكم إلى

الطريق المفضى إلى تغيير تلك المعاناة تحت أى عنوان تشاءون ، واغتنموا فرصة الديمقراطية التى يقدمها لكم النظام القائم فلا تنكروها ولا تتنكروا لها ، وتعاونوا مع كل الراغبين فى الانطلاق ببلادهم وامتهم إلى آفاق جديدة .. وليثق الأمن أو لا يثق ، فتلك ليست مشكلة المتدينين وحدهم وإنما هى مشكلة كل الراغبين فى التغيير ..

- تعنى أن ثقة أو شك دوائر الأمن لن تقف أمام إرادة التغيير ..

- نعم اعنى ذلك ، لأن الذى يفرض إرادة التغيير هو الواقع الاجتماعى الذى تمسك الأزمات بخناقه ، وتظل تلح عليه من هنا ومن هناك رغم كل محاولات الحلول التى لا تسعف .. عندئذٍ يتعين التغيير طريقا لحل تلك الأزمات كلها ، وبناء واقع اجتماعى جديد .

- وهل هناك ما يشير إلى إمكان تحقيق ذلك ؟

- نعم هناك . ففى واقع مصر اليوم أكثر من أزمة .. تجاهد الدولة جهادا مريرا لتقديم حل لها مع الاعتراف بصعوبة هذا الحل ، ويتململ العديد من الطوائف تحت وطأة تلك الأزمات ، ويعبر بعضها عن نفسه فى الكتابات التى تنشرها الصحف والمجلات ، وقد حدث وعبّر بعضها بالتمرد والتظاهر. والحكومة تناشد الجميع مساعدتها فى العمل المخلص من أجل القضاء على تلك الأزمات ، أى أنها أيضا تنشد التغيير وتطلبه وتدعو لعقد المؤتمرات بهدف التوصل إلى انسب الوسائل التى يمكن استخدامها فى إحداث هذا التغيير ..

وفى واقع العالم العربى مثل ما فى الواقع المصرى وأكثر .. فهناك أزمات وأزمات فى السودان وأزمات وأزمات فى لبنان ، وأزمات وأزمات فى الأرض المحتلة من اسرائيل .. الخ وهكذا يتبين لك أن جميع امتنا العربية والإسلامية فى نطاق الأزمات المستعصية على الحل وكلها تتطلب التغيير .. وهذا أمر يتم التعبير عنه أيضا فى الكتابات والمؤتمرات ، كما يتم الاحتجاج على استمراره بالتمردات والتظاهرات ، ومعنى ذلك كله أن رياح التغيير بدأت تهب بعد فترة طويلة من الشعور بالضياع .. والألم .

إن الانتقال من مرحلة اللامبالاة قد بدأ .. ولربما كان الفضل فى ذلك للأعداء انفسهم فهمجية الهجوم الإسرائيلى على لبنان ، وبربرية المعاملات التى يتعاملون بها مع العرب فى الأرض المحتلة قد ساهمنا فى إحراز الممارسات البطولية للفتيان والفتيات الذين يطرقون بكل قوتهم الشجاعة أبواب الأمل من أجل تجمع الإعصار الذى سوف يكتسح شرور التخاذل والضعف ، ويبنى على أنقاضها منارات الأمل والانتصار .

وانصرف الضيف دون أن يتكلم .

وعرف المضيف انه سوف يتخذ قرارا . ترى ماذا يكون القرار ؟

انتهى

مقدمـــه



رقم الايداع بدار الكتب القوميه

٨٨ / ٧٥٤١

الترقيم الدولى

٩٧٧ - ٤٦٠ - ٠١٣ - ٤